سلسلة شخصيات تاريخية

(٣)

الأتابك ظهير الدين طغتكين

حكم دمشق إبان الحملة الصليبية الأولى وأنهى حكم السلاجقة في الشام

تأليف

غانم شيحان جويعد الخليل الشمري

عضو الجمعية التاريخية الكويتية

دار الظاهرية للنشر والتوزيع



حكم دمشق إبان الحملة الصليبية الأولى وأنهى حكم السلاجقة في الشام

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

ISBN: 978-9921-718-25-6



الكويت - مدينة سعد العبدالله - الدائري السادس - ق3 - م28
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398

الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
(الكويت)
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447



كلمة الناشر

لقد آلت الدار الظاهرية على نفسها، بنشر كل ما هو مفيد للقارئ في كل منحى من مناحي الحياة، وفي كل مجال، سواء في الشريعة أو الأدب أو اللغة أو الثقافة أو التاريخ..الخ.

ودار الظاهرية، منذ تأسيسها وحتى اليوم، تسير في خط واضح، وهو تقديم الكتب التي تحمل طابع الأصالة، والفكر المستنير، وهي لن تحيد عن هذا الأمر، وسوف تستمر في تقديم كل ما يمكن أن يرتقي بالقارئ، ويوسع مفاهيمه ومداركه.

وانطلاقاً من ذلك، ومن المبادئ التي تُؤمن بها الدار، فإنها تبدأ في تقديم سلسلة «شخصيات تاريخية» لتضع كل ما كانت تفكر وتؤمن به على أرض الواقع، بهدف تسليط الضوء على شخصيات عربية وإسلامية وحتى أجنبية، نذرت نفسها للإنسانية، وقدمت الكثير لبلادها وأمتها.

ولأننا ندرك أهمية انتقاء الشخصيات وقيمتها، كي نضع تاريخها بين يدي القارئ، فإننا سوف نسعى إلى اختيار شخصيات كان لها أثر ملموس في حياتها، وعلى من حولها، من مختلف العصور.

ونعد القارئ بأن نستمر على هذا المنوال، وأن نزيل الغبار عن الكثير من الشخصيات المؤثرة، ونقدم لهم وجبة دسمة من «شخصيات تاريخية» صنعت المجد لنفسها ولأمتها.

وفي هذا الكتاب، وهو الإصدار الثالث من هذه السلسلة، نتناول شخصية «الأتابك ظهير الدين طغتكين» الذي حكم دمشق، بصفته أتابكاً منذ عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ثم تفرد بحكم البلد بعد موت دقاق بن تتش من عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م إلى ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م ومن بعده أولاده حتى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، حين أخذها منهم نور الدين محمود زنكي.

الإهـــداء

أهدي هذا الكتاب..

إلى من أحبَّ وطنه.. ووضعه في قلبه ونصب عينيه..

إلى من عمل بلا كللٍ أو ملل.. من أجل خدمة هذا البلد الغالي..

إلى من أحبَّ أبناء وطنه جميعاً، ودون استثناء..

وخدمهم دون مِنَّة أو أذى..

إلى من قام بأداء واجبه بإخلاص.. في كل موقع عمل به..

إلى من وضع السلف الصالح أمثولة يَحتذي بهم..

في كل خطوة من خطواته..

وجعل سيرتهم.. نهجاً له في حركاته وسكناته..

فأضحوا قدوة له يَقتدي بهم.. في كل مناحي حياته..

إلى الأخ الكبير.. والصديق الصدوق..

الوزير والنائب الأسبق أحمد يعقوب باقر العبد الله.



قالوا عن طغتكين

• **كان طغتكين سيفاً مسلولاً على الفرنج، ولكن له خَرْمَة.**

الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٤ ص٤٢٩.

• **كان شهماً مهيباً.. شديداً على أهل العيب والفساد.**

ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٢٥ ص٣.

• **إن طغتكين لم يكن قد أشبع نهمه لسفك الدماء.**

ستيفن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٢٤٥.

• **كان طغتكين ماهراً نشيطاً دقيقاً ونفسه عفيفة وضميره يقظاً وقد ساس الناس بحكمة.**

جيرارد جورد: دمشق عبر العصور ص٢٠٥.

• **غزا الفرنج غير مرة، وله في الجهاد اليد البيضاء.. وكان عادلاً في الرعية.**

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٣٤.

• **كان عاقلاً حازماً خيّراً كثير الجهاد للفرنج.. كان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم جهاداً للأعداء.**

ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٠٤و٤٠٥.

المقدمة

عندما كنت بصدد إعداد كتابي الأول «الزنكيون تاريخ دولة وقصة جهاد» الذي صدر في عام ٢٠١٢م، وتناولت في بداياته الحرب الصليبية الأولى على وجه التحديد، كان اسم الأتابك ظهير الدين طغتكين يمر أمامي مروراً سريعاً، خصوصاً في المراجع الحديثة، علاوة على المصادر العربية القديمة، وأتوقع لو أن أي قارئ اطّلع على تلك الأحداث من تلك المصادر، لما عرف أن لطغتكين أي دور في تلك الحرب، بل ربما اعتقد، كما اعتقدتُ أول الأمر، أنه ليس له أي تأثير في سير أحداثها، وربما يذهب البعض إلى أبعد من ذلك، حينما يظن أن طغتكين شخصية غير معروفة أو غير مؤثرة، ولن يشد انتباهه مطلقاً.

والأغرب من كل ذلك، أن المؤرخ شهاب الدين أحمد النويري الذي وضع كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» في ثلاثة وثلاثين مجلداً «طبعة دار الكتب والوثائق المصرية» وتناول فيه الكثير من أحداث الحرب الصليبية الأولى، وما بعدها، يعترف بإحجامه عن ذكر الأحداث العديدة لطغتكين مع الفرنج ثم يُرجِع السبب في ذلك إلى أنها لم تسفر عن فتْح بلد، ولا أَسْر ملك[١] رغم أن طغتكين عاصر تلك الأحداث منذ بداياتها، واستولى على دمشق، ثم حكمها بشكل رسمي بعد اعتراف السلطان السلجوقي به لمدة خمسة وثلاثين عاماً، واستمر حكمه وعقبه من عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) إلى (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) أي مع بدايات

---

(١) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج٢٧ ص٧٨.

الحرب الصليبية الأولى ثم الثانية، إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود زنكي.

وخلال إعدادي لكتابي المذكور آنفاً، وأثناء بحثي عن مراجع ومصادر له، وقعت على بحث مميز للدكتور شاكر مصطفى في مجلة كلية الآداب والتربية الصادرة عن جامعة الكويت العدد الثاني لشهر ديسمبر عام ١٩٧٢م، والتي تغير اسمها فيما بعد إلى حوليات كلية الآداب، وكان عنوان البحث «طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكي».

كان هذا البحث بمثابة الشرارة الأولى التي حثّتني على إعادة تصوري عن تلك الشخصية، وأنها لم تكن هامشية، أو عابرة في كل تلك الأحداث، لذا قررتُ البحث في تفاصيل أدق عن ظهير الدين طغتكين، خصوصاً لدى المعاصرين له بالدرجة الأولى وهم: مؤرخه أبو حمزة بن أسد أبو يعلى المعروف بابن القلانسي مؤلف كتاب ذيل تاريخ دمشق، ومحمد بن علي العظيمي صاحب كتاب تاريخ حلب، إضافة إلى عمر بن أبي جرادة بن العديم، مؤلف كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، وكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب.

ثم رجعتُ إلى مؤرخين آخرين كثر، جاؤوا بعد أولئك بفترات زمنية مختلفة، مثل: ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وسبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، وأيضاً الذهبي في العديد من مؤلفاته، وتحديداً في كتابه تاريخ الإسلام إضافة إلى ابن الجوزي مؤلف كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ثم توصلت إلى حقيقة لا مناص منها، وهي أن الأتابك ظهير الدين طغتكين الذي تجاهله الكثير من المؤرخين في العصر الحديث، هو شخصية غنية بأحداثها وتفاصيلها الإيجابية والسلبية، ومن غير المعقول كل ذلك الإجحاف لهذه الشخصية، لذا جاء هذا الكتاب، لكن قبل كل شيء فإني

أحيي الدكتور شاكر مصطفى على ذلك البحث القيم، وأنصح كل من يريد معرفة التفاصيل الدقيقة عن حياة طغتكين الرجوع إليه.

والغريب أن طغتكين شخصية مثيرة للجدل، ربما يرى البعض تصرفاته طبيعية، على اعتبار أنه من حقه أن يدافع عن مصلحته، وعن المكاسب التي حققها، حتى لو كان ذلك على حساب الأمة الإسلامية، وحتى لو أدى ذلك إلى وقوفه إلى جانب الفرنج كما فعل في بعض الفترات، بينما يرى البعض أنه يمت إلى واقعه ومجتمعه، ووقته وعصره، وعلينا أَنْ نحاسبه إِنْ أردنا محاسبته، وفقاً لذلك، فيما يرى البعض الآخر أن شخصية الأتابك ظهير الدين طغتكين، بكل سلبياتها وإيجابياتها، هي شخصية متجددة في كل عصر، وفي كل زمان ومكان، إذ أن الباحثين عن مصالحهم، وأمجادهم والباحثين عن طموحهم وأطماعهم موجودون عبر كل مراحل التاريخ، وعلى هذا الأساس فقط يجب محاسبته.

ومن خلال هذا الكتاب ستتعرف على هذا الأتابك عن كثب، في الكثير من التفاصيل الدقيقة من حياته، وتحركاته، ومواقفه، وفي العديد من الأحداث، وقد نختلف معه ولا نؤيده في كثير مما قام به، لا سيما فيما يتعلق بتعاونه مع الصليبيين، ومهادنته لهم، لكن ذلك لا يعني أن نتجاهل قتاله لهم لسنوات طويلة، بغض النظر عن نواياه من ذلك، ولهذا السبب أثنى عليه المؤرخون.

وأخيراً أتمنى أن أكون قد نجحت في تسليط الضوء على هذه الشخصية، فإن وفقت في ذلك فمن الله عز وجل، وإن لم أوفق فمني ومن الشيطان.

غانم شيحان جويعد الخليل الشمري

Ghanim_8@hotmail.com

٩ نوفمبر ٢٠١٩م

الفصل الأول: سيطرة السلاجقة على الشام

سلجوق بن دقاق، ميكائيل بن سلجوق، طغرل بك بن ميكائيل، عضد الدولة ألب أرسلان، معركة ملاذكرد، جلال الدولة ملكشاه.

* سلجوق بن دقاق:

يعود أصل السلاجقة إلى قبائل الغز أو الأوغوز من أصل الترك، وكانوا يسكنون في تركستان[١] ويرجع أول أمرهم إلى سلجوق بن تقاق[٢] الذي علا نجمه، وأصبح محبوباً من الناس، ويدينون له بالطاعة، ولم يكن لقبيلتهم اسم محدد قبل تولّيه رئاستها، وقد فوّض له مَلِك الترك بيغو الذي كان كافراً، إمارة الجيش، ولقّبه سوباشي[٣] أي قائد الجيش، وكانت زوجة الملك تُخوّف زوجها

(١) الراوندي: محمد، بن علي بن سليمان، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، المجلس الأعلى للثقافة، سلسلة ميراث الترجمة المشروع القومي للترجمة العدد ٩٩٦، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، ص١٤٥.

(٢) يرسم في أكثر من شكل: يقاق وتقاق ودقاق، ويعني باللغة التركية القوس من الحديد. الحسيني: صدر الدين علي بن أبي الفوارس ناصر، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق المستعرب الباكستاني محمد إقبال، دار الوراق، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٧ ص١٣. ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، لندن، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/ ١٩١٦م ج٤، ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ج٨ ص٤٧.

(٣) الحسيني: ص١٤، ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، اعتنى به عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ج٨ ص٢٥٨، ابن الأثير: ج٨ ص٤٧.

من سلجوق[١] حتى أوغرت في نفسه لقتله، فقرر سلجوق التوجّه مع جماعته ومَنْ يطيعه، إلى بلاد المسلمين، ومِنْ ثم استقر في جَند[٢] بالقرب من شاطئ نهر سيحون[٣] ودخل الإسلام[٤] فازداد عزاً وعلواً. بدأ سلجوق بعد ذلك بالإغارة على بلاد الترك، ثم تُوفي ودُفِن في جند[٥] بعد أن بلغ من العمر ١٠٧ أعوام[٦].

* ميكائيل بن سلجوق:

وتولى ميكائيل، ويُسمى إسرائيل أيضاً، ولَقَبَه يبغو أو بيغو أرسلان[٧] الحكم

---

(١) كان ملك الترك عقيماً، وخوفته زوجته من سلجوق قائلة: لا يحتمل المشاركة ولا يصفو لك مشرب إلا بقتل سلجوق، ولا يسفر صباح دولتك إلا بأن تذيقه كأس الحُمام، فإنه عن قريب يُزعجك عن دار ملكك ويسعى إلى هلكك. الحسيني: ص١٤، ابن الأثير: ج٨ ص٤٧.

(٢) جند: اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام، تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون. الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م ج٢ ص١٦٨، الحسيني: ص١٤، ابن الوردي: زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي أو تتمة المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحيدرية، النجف الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ج١ ص٤٨١. ابن الأثير: ج٨ ص٤٨.

(٣) نهر سيحون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر، قرب خُجندة بعد سمرقند، وهو في حدود بلاد الترك. الحموي: ج٣ ص٢٩٤.

(٤) يقول الحسيني عن سلجوق بعد انتقاله إلى جند أنه: سعد بالدين الحنيفي، وفي ذلك إشارة إلى دخوله الإسلام. ص١٣-١٤.

(٥) الحسيني: ص١٤.

(٦) ابن كثير: ج٨ ص٢٥٨.

(٧) الحسيني: ص١٦.

بعد أبيه سلجوق، وكان له ولدان، هما طغرل بك[١]، وداوود جغري بك[٢] وبعد تنقلات عدة في البلدان، سكن السلاجقة في بلاد الدولة السامانية[٣]- التي كانت تعيش أيامها الأخيرة، وتحديداً في نور بخارى[٤]- في فصل الشتاء، وسكنوا في سُغد سمرقند[٥] في فصل الصيف[٦]. وذلك لأنهم بدو رحل، يتنقلون حسب المرعى، بحثاً عن الكلأ لماشيتهم.

وكانت هناك قوة جديدة فرضت نفسها على الساحة قبل السلاجقة، هي القوة الغزنوية، التي قامت على يد سبكتكين عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، وكان ميكائيل

---

(١) طغرل بك: اسم مركب من طغرل وبك، ويرسم أحياناً طغرلبك، وطغرل علم على طائر ويسمى الرجل به، وبك معناه الأمير أي الأمير الطائر وهو مصغّر «دوغراول» أي القصاب باللغة التركية. أبو النصر: محمد عبدالعظيم، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم ٢٠٠٣، حاشية (٥) ص ٤٥.

(٢) يذكر ابن الأثير أن لهما أخاً ثالثاً يدعى بيغو، ولهما أيضاً أخ من أمهما هو ينال واسمه إبراهيم. ج٨ ص٣٥. وجغرل بك: معناه اللامع أو المتألق. أبو النصر: حاشية (١) ص٤٥.

(٣) تأسست هذه الدولة في خراسان، وما وراء النهر على يد أحمد بن أسد بن سامان عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م وزالت عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م، والأسرة السامانية فارسية الأصل، جدها الأعلى إقطاعي يدعى سامنخذاه، وهو من الدهاقنة، وهو من أمير بلدة سامان من أعمال بلخ. مصطفى: شاكر، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، فبراير ١٩٩٣م، ج١ ص٤٢٩ و٤٣١.

(٤) الأصفهاني: عماد الدين، محمد بن محمد بن حامد، تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات، مصر١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص٥، البيهقي: أبو الفضل محمد حسين، تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٨٢م ص٧٤٩، الراوندي: ص١٤٧.

(٥) سغد سمرقند: كثيرة المياه نضرة الأشجار والأزهار، فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند. الحموي: ج٣ ص٢٢٢، الصغد: قصبتها سمرقند، وهي مصر الإقليم، ولها اثنا عشر رستاقاً. المقدسي: شمس الدين محمد بن أحمد بن البناء الشامي،كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٠٩م ص٣٦٦.

(٦) كان ذلك في عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م. الراوندي: حاشية (٢) ص١٤٥و ١٤٧.

في خدمة السلطان محمود الغزنوي[١] الذي ورث الحكم بعد وفاة أبيه سبكتكين عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م[٢]. وعندما زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م زادت قوة السلطان محمود، فأخذ يمد نفوذ دولته، وذات مرة رأى حاشية السلاجقة وماشيتهم، فاستكثرها، واستعظمها، فطلب من ميكائيل الرحيل إلى خراسان، فرفض ذلك، فقام محمود باعتقاله، وجماعة من أعيان قومه، وترحيل باقي القبيلة، ولمَّا اكتمل عبورهم النهر، واستقروا في خراسان عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٣]. أطلَق ميكائيل وأرسلَه إليهم مكرماً[٤].

* طغرل بك بن ميكائيل:

وزادت قوة السلطان محمود الغزنوي، فاصطدم بالسلاجقة في عام ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م بطلب من مدينتي سبا وباورد[٥] وتمكّن من الانتصار عليهم[٦].

---

(١) محمود الغزنوي: مناقبه كثيرة، وسيرته من أحسن السير، ولد سنة ٣٦١هـ، كان صادق النية في إعلاء كلمة الله، مظفراً في الغزوات، ما خلت سنة من سني حكمه عن غزوة وسفرة، كان مجلسه مورد العلماء وقبره بغزنة.الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة تاريخ الإسلام ج٢٩ ص٤٢ و ٤٣. ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨.

(٢) ناصر الدولة سبكتكين، أحد غلمان أو مماليك أبي اسحاق بن البتكين أو ألب تكين صاحب جيش غزنة للدولة السامانية، وكان مقدماً عنده، وتوفي سبكتكين بعد أن حكم عشرين سنة، وحكم بنوه ٢١٦ سنة، وتعاقب على حكم غزنة التي تقع اليوم في شرق أفغانستان ١٧ سلطاناً. شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، ج٦ الطبعة السادسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٨٠، ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨، السيد: فؤاد صالح، مؤسسو الدول الإسلامية، مكتبة حسن العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ص٢٣٦-٢٣٧.

(٣) الراوندي: حاشية (١) ص١٥٤.

(٤) الحسيني: ص١٥، الأصفهاني: ص٥.

(٥) باورد: هي أبيورد، بلد بخراسان بين سرخس ونسا. الحموي: ج١ ص٣٣٣.

(٦) الراوندي: حاشية (٢) ص١٥٤.

وبعد وفاته في ربيع الآخر٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، تولى الحكم ابنه مسعود[١] كما أصبح طغرل بك أمير السلاجقة وكبيرهم بعد أبيه، وكان محمود من أقوى حكام العالم الإسلامي في ذلك الوقت، لهذا لم يستطع السلاجقة الوقوف أمامه، ثم ضعف أمر الغزنويين بعده، وتمكَّن السلاجقة من الاستيلاء على مدينة مرو[٢] عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م[٣].

وعندما التقى الجيشان الغزنوي والسلجوقي في شعبان ٤٢٩هـ/ مايو ١٠٣٧م[٤] استطاع السلاجقة أن يأخذوا بثأرهم من الغزنويين، وينتصروا عليهم في هذه المعركة، وقد غنموا من معسكر مسعود ما لا يدخل تحت الإحصاء[٥]

---

(١) الحسيني: ص١٦، ابن الأثير يحدد تاريخ وفاته في ١١ صفر ٤٢١هـ، ومولده عام ٣٦٠هـ. ج٨ ص٤٢٧، ابن كثير: ج٨ ص٢٣٨، ابن الوردي ج١ ص٤٧١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٢٩ ص٣٩، وذكره في دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ج١ ص ٣٦٨، وذكره في العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م ج٢ ص٢٤٥، ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية بيروت ج١٥ ص٢١١.

(٢) مرو: تعرف حالياً بجمهورية تركمانستان التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفييتي سابقاً، من ناحية الجنوب إيران، ومن الجنوب الشرقي أفغانستان، ومن الشمال كازخستان، ومن الشمال الشرقي أوزبكستان، ومن الغرب بحر قزوين. الوزنة: يحيى بن حمزة، مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة ٢٠٠٧م ص١٤.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٠.

(٤) الأصفهاني: ص٦، البيهقي يورد تفاصيل واسعة عن هذه المعركة، حيث إنه كان شاهد عيان، كما يذكر هو بنفسه، ومرافقاً للحملة بصفته نائب رئيس ديوان الرسائل في الدولة الغزنوية: ص٥٧٩-٦٠٨.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥، أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمود أيوب، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.ج١ ص٥١٨.

ودخل طغرل بك نيسابور عاصمة خراسان[١] وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة، واتخذ له الوزراء والحجاب وأصحاب المناصب[٢] واعترف به الخليفة العباسي.

وحينئذ قرر السلطان مسعود أن يقاتلهم بنفسه، وفي معركة كانت حامية الوطيس وقعت عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م في موقع يقال له داندنقان بين سرخس ومرو[٣] كرر السلاجقة انتصارهم على الغزنويين، فاستولوا بعدها على معظم مدن خراسان: جرجان[٤] وطبرستان[٥] عام ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م[٦] وخوارزم[٧] عام ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م[٨] وكذلك كرمان[٩] والديلم[١٠]. وكان هذا الانتصار

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٤.

(٢) الراوندي: ص١٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ص١٦٣، ويحدد الحسيني تاريخ هذه المعركة في يوم الخميس ٨ رمضان ٤٣١هـ: ص٢٤.

(٤) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، خرج منها خلق من الأدباء والعلماء. الحموي: ج٢ ص١١٩.

(٥) طبرستان: وهي بلاد واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، والغالب على هذه النواحي الجبال، ومن أعيان بلدانها: دهستان، وجرجان، واستراباذ، وآمل. وهي قصبتها. المصدر نفسه: ج٤ ص١٣.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٦٦، ابن الوردي ج١ ص٤٨٤، أبو الفداء: ج١ ص٥١٩.

(٧) خوارزم: اقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر، وهو من الإقليم السادس، وخوارزم ليس اسماً للمدينة وإنما هو اسم للناحية بجملتها، أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل محمد بن عمر صاحب حماة، تقويم البلدان، دار صادر بيروت، مطبعة باريس ١٨٥٠م، ص ٤٧٨، الحموي: ج٢ ص٣٩٥. وقال أبو الفتح الجرجاني: معنى خوارزم: هين حربها لأنها في سهلة لا جبل بها. البكري: عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ج٢ ص٥١٥.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٧٣.

(٩) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس وسجستان وخراسان. الحموي: ج٤ ص٤٥٤.

(١٠) الديلم: يحدها من الجنوب قزوين والطرم وشيء من أذربيجان وبعض الري، ويتصل بها من الشرق بقية أعمال الري وطبرستان. ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، المكتبة الحيدرية، الطبعة =

فارقاً وفاصلاً لدرجة أنه قضى على قوة المهزوم، وجعله يتوارى في الظلام، وبرز المنتصر كقوة يُحسب لها ألف حساب على مستوى العالم الإسلامي لسنوات طويلة. وقام كبار السلاجقة والمقدمون فيهم بتقسيم البلاد فيما بينهم[١] واتخذ طغرل بك مدينة الري[٢] عاصمة له[٣]. ودخل السلاجقة مرحلة جديدة تمثلت في الصراع مع الدولة البويهية[٤] التي كانت تسيطر على الخلافة العباسية، فحاصر طغرل بك أصفهان عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، وضيّق الخناق على أميرها، ثم وقَّع هدنة معه على مالٍ يدفعه، ويخطب له في أصفهان[٥] ثم امتلكها عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م.

وجرت حروب عدة بين الملك البويهي المسيطر على بغداد أبو كاليجار[٦]

= الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ص٣٧٥.

(١) اتخذ جغري بك وهو أكبر اخوته مرو داراً لملكه، واختص بأكثر خراسان، وأخذ موسى كلان ولاية بست هرات وسجستان وما يفتح من تلك النواحي، وأخذ قاورد وهو أكبر أولاد جغري بك، الطبسين ونواحي كرمان، وتوجه ابراهيم ينال إلى همدان، والأمير ياقوتي إلى أبهر وزنجان، ونواحي أذربيجان، وقتلمش إلى جرجان ودامغان. الراوندي: ص١٦٧-١٦٨.

(٢) الري: مدينة مشهورة، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخاً، ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخاً. الحموي: ج٣ ص١١٦. وهي في طهران حالياً. ويقول الحموي: طهران من قرى الري. المصدر نفسه: ج٤ ص٥١.

(٣) في عام ٤٣٧هـ أمر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بأن يخطب باسم طغرل بك على منابر بغداد، ويُنقش اسمه على السكة: السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين، وذكروا اسمه بعد اسم الملك الرحيم أبي نصر بن أبي الخيجاء وألقابه. الراوندي: ص١٦٩.

(٤) الدولة البويهية: أسس الدولة البويهية في العراق معز الدولة أحمد بن بويه بن فناخسرو البويهي، وكان بدء دخوله بغداد عام ٣٣٤هـ، وكان مقيماً بالأهواز. ابن الأثير: ج٦ ص٥١٢، السيد:فؤاد صالح، معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية، بيروت الطبعة الأولى١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ص٨٧-٨٨.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٢٩ ص١٧٦.

(٦) أبو كاليجار: عز الدولة، ويسمى أيضاً العماد لدين الله، وعز الملوك، وعماد الدولة، وهو: المرزبان =

والسلطان السلجوقي طغرل بك، وتم الصلح بينهما نتيجة للمصاهرة التي تمت بينهما وذلك في ربيع الآخر ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م[١].

ونتيجة لزيادة قوة السلاجقة، دخلوا في صراع أكبر هذه المرة، مع الروم، فاتجه طغرل بك إلى ديار بكر[٢] وتقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم، ولم يكن له أولاد، فاختار ابن أخيه ألب أرسلان بن داوود ليكون مساعداً له، وعندما سيطر أبو الحارث أرسلان البساسيري المدعوم من الخليفة الفاطمي في مصر، على بغداد عام ٤٤٧ه/ ١٠٥٤م[٣]ـ كتب الخليفة للسلطان السلجوقي طغرل بك يطلب مساعدته، فلمَّا دخل بغداد عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٤م رحل البساسيري إلى الرحبة في الشام[٤]ـ وقبض طغرل بك على الملك

= أبو كاليجار بن خُرَّة فيروز بن فنَّاخسرو حكم من عام ٤٣٥-٤٤٠هـ. ابن الأثير: ج٨ ص٨٢ و١٠٥، مصطفى: موسوعة ج١ ص٢٩١، السيد: ألقاب السياسيين ص٥٦٠-٥٦١ و٥٨٤ و٥٨٥.

(١) تزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار البويهي، كما تزوج أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داوود أخي طغرل بك. ابن الأثير: ج٨ ص٩٧.

(٢) ديار بكر: حدّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين. الحموي: ج٢ ص٤٩٤.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٣، سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق كامل سلمان الجبوري، قيس كاظم الجنابي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣، ج١٣ ص٢٥٣، أبو الفداء: المختصر ج١ ص٥٣١، ابن أبي الهيجاء: الأمير عز الدين محمد بن أبي الهيجاء بن محمد الهذباني الأربلي. تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم طباعة رياض الصالحين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ص١٠٣، الراوندي: ص١٦٨-١٦٩، الأصفهاني: ص١٢.

الرحيم[١] وقُطِعت خطبته في رمضان، وبذلك انتهت دولة بني بويه[٢]ـ ثم استطاع البساسيري فيما بعد، العودة من جديد إلى بغداد، بعد أن راسل شقيق طغرل بك، إبراهيم ينال، وأطمعه في المُلك، ونجح البساسيري في خطته، ودخلها في ٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[٣] وأقام الخطبة في بغداد للخليفة الفاطمي بمصر، وخلع خطبة الخليفة العباسي، ثم قام باعتقاله[٤] وكان يُخاطِب الخليفة العباسي «بتحكم لا يراعي فيه جانب الحرمة، ويُجرّعه أنواع الغصص»[٥] فلمَّا عَلِم طغرل بك بالأمر، قاد جيشه وتوجَّه إلى أخيه لأمه إبراهيم في الري، ووصلت إليه العساكر الكثيرة، وتمكَّن طغرل بك من الانتصار في المعركة ضد أخيه، وقبض عليه وقتله[٦] ثم توجَّه إلى بغداد، وألقى القبض على البساسيري وتم القضاء

---

(١) الملك الرحيم: أبو نصر خسرو فيروز بن المرزبان، هو آخر ملوك الدولة البويهية في فارس والعراق وخوزستان، ولي الحكم بعد وفاة أبيه عماد الدولة المرزبان. السيد: ألقاب السياسيين ص٣٣٣.

(٢) مدة دولة بني بويه ١٢٩ عاماً.الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٥٥، ابن أبي الهيجاء: ص١٠٣، الراوندي: ص١٦٩.

(٣) استمر وجود البساسيري في العراق سنة كاملة من عام ٤٥٠-٤٥١. الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٩، التفاصيل لدى ابن الأثير، وسبط ابن الجوزي عن كيفية استيلاء البساسيري على بغداد في حوادث سنة ٤٥٠هـ. ابن الأثير: ج٨ ص١٨٨، المرآة ج١٣ ص٣٢٧- ٣٧١، بينما يحدد الحسيني تاريخ دخول طغرل بك إلى بغداد في ١٤ ذي الحجة ٤٤٩هـ. ص٣١، ابن الجوزي: ج١٦ ص٣٠-٣٢، ابن أبي الهيجاء ص١٠٦، الأصفهاني: ص١٥.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص١٨٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٨-٢٠، ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد التميمي، الذيل المذيل على تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار التكوين دمشق، ٢٠٠٧م ص١٦٧و ١٧٠، أبو الفداء: ج١ ص٥٣٤، ابن الجوزي: ج١٦ ص٣٢ و٣٤، ابن أبي الهيجاء: ص١٠٧.

(٥) الحسيني: ص٣١.

(٦) كان إبراهيم ينال خرج على أخيه طغرل بك أكثر من مرة، وكان دائماً يعفو عنه، لكنه قتله هذه المرة، لأنه علم أن كل ما حدث للخليفة كان بسببه. ابن الأثير: ج٨ ص١٨٦، سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٣٥٤، وقال طغرل بك للخليفة عن أخيه:قد عصى غير مرة، وعفوت عنه، فلما دخل الضرر =

عليه[١].

❊ عضد الدولة ألب أرسلان:

وكان الخليفة القائم بأمر الله قد تزوَّج بنت داوود أخي طغرل بك، أرسلان خاتون، ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، وتزوجها بعد تردد وتمنع من الخليفة، ثم عاد طغرل بك إلى الري، في ربيع الأول ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وتوفي بعد عام واحد من زواجه، وذلك في ٨ رمضان ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وكان عمره ٧٠ سنة تقريباً، ولم يُعقّب[٢] وقبل موته أوصى أن تكون السلطنة من بعده لابن أخيه سليمان بن داوود، وكانت والدة سليمان زوجة للسلطان الراحل، وأجلسه وزير طغرل بك عميد الملك الكندري في السلطنة[٣] إلا أن ابن أخيه الثاني صاحب خراسان ألب أرسلان ثار على أخيه سليمان، وقبض على وزير طغرل بك، الكندري الذي أجلس سليمان في الحكم[٤] عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م،

= على أمير المؤمنين بسببه، كان جوابه أنني خنقته بوتر قوسي". سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٦٣، ابن القلانسي: ص١٧٢، أبو الفداء: ج١ ص٥٣٥، ابن الجوزي: ج١٦ ص٣٨ و٣٩، الحسيني: ص٣٣، الراوندي: ص١٧١، الأصفهاني: ص١٥.

(١) ابن الأثير: ج٨ ص١٨٨-١٨٩، الحسيني: ص٣٣، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٦٨، ابن القلانسي: ص١٧٢، أبو الفداء: ج١ ص٥٣٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٩٦، ابن الجوزي: ج١٦ ص٥٤، ابن أبي الهيجاء: ص١١٢، ابن الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.ج٣ ص٢٨٧، الراوندي: ص١٧٥، الأصفهاني: ص١٧.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٢٠٨ و٢٠٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤١٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص١٩٩و٢٠١، ابن أبي الهيجاء: ص١١٠، أبو الفداء: ج١ ص٥٤١، ابن الحنبلي: ج٣ ص٢٩٤، ابن الوردي ج١ ص٥١٤، الراوندي يذكر أن طغرل بك تزوج أخت الخليفة، وهذا غير صحيح. ص١٧٦-١٧٨، الأصفهاني: ص٢٤-٢٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢١١، الراوندي: ص١٨٥.

(٤) الكندري: هو عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندري، قتله ألب أرسلان وكان عمره يوم قتل، نيفاً وأربعين عاماً. ابن الأثير: ج٨ ص٢١١، ابن كثير: ج٨ ص٣٠١، ابن الحنبلي: ج٣ ص٣٠١، =

وأصبح ألب أرسلان السلطان الجديد، ووزيره نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي.

فألب أرسلان: هو عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان، محمد بن جغري بك داوود بن ميكائيل بن سلجوق بن تقاق[١] الغزي، وقد اعتلى السلطة في ٨ رمضان ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م[٢].

امتُحِن ألب أرسلان أول الأمر بابن عم طغرل بك، قتلمش بن إسرائيل وهو جد سلاجقة الروم، ووالد سليمان بن قتلمش الذي أسس هذه الدولة في أنطاكية[٣] فقد خرج قتلمش على ألب أرسلان، وعصى عليه، وجمع جموعاً غفيرة، وتوجَّه إلى الري ليستولي عليها، ولما عَلِم ألب أرسلان بذلك، جهَّز جيشاً كبيراً، وسار به إلى هناك، لكن جيش قتلمش نهب الري، ثم التقى الفريقان، ولكن لم يستطع عسكر قتلمش أن يصمد طويلاً أمام جيش السلطان، فانهزم من ساعته، ولما سكن غبار المعركة، وُجِد قتلمش ميتاً، وقيل أنه مات من الخوف[٤].

ولذلك قرر عضد الدولة سلطان السلاجقة المتوج حديثاً، ألا ينتظر طويلاً لتأمين حدود بلاده، فقد قاد بنفسه جيشاً كبيراً في رمضان ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م،

= الذهبي: العبر ج٢ ص٣٠٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٢٣، أبو الفداء: ج١ ص٥٤١، ابن الوردي ج١ ص٥١٤، الأصفهاني: ص٢٨.

(١) يقول ابن العديم: أن تقاق أول من دخل منهم في الإسلام. البغية ج٤ ص٥٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ج٤ ص٥٦٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢١٦، أبو الفداء: ج١ ص٥٤٢، ابن الوردي: ج١ ص٥١٥.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٢١٦-٢١٧، ويذكر سبط ابن الجوزي قصة أخرى لموت ابن قتلمش، حيث يقول: «فقد أفلت من الوقعة، وترك الطريق المسلوك، وتعسف الجبال والمضايق، ومر على بعض قلاع السلطان، فأرسل صاحب القلعة ورآه، فساق فرسه، فسقط به وداسه وتقيأ الدم ومات، فحمل إلى الري يوم الأحد ١٣ ذي الحجة». ج١٣ ص٤٢٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٠ ص٢٠٣، أبو الفداء: ج١ ص٥٤٢، ابن الحنبلي: ج٣ ص٣٠١، ابن الوردي: ج١ ص٥١٥.

واتجه به إلى بلاد الخزر[١] وهم من الأتراك الذين مازالوا على الكفر، حتى قال ابن العديم إنه: «بلغ حيث لم يبلغ أحد من الملوك، وافتتح بلداً عظيمة يسمى أسبيذ شهر، وقتل نحو ثلاثين ألف رجل، وسبى ما يوفي على خمسين ألف مملوك، وهادن ملك الأبخاز، وعاد من ذلك الثغر»[٢] ولم يكتف بذلك، بل وفي الخبر نفسه، يخبرنا ابن العديم أنه واصل سيره نحو معركة أخرى، حيث «نزل على مدينة آني من بلاد الروم، ففتحها عنوة، وهي مدينة عظيمة تشتمل على سبعمائة ألف دار، وأَسَرَ منها خمسمائة ألف إنسان»[٣].

وأراد ألب أرسلان[٤] من هذا الغزو توسيع رقعة بلاده وتأمينها من الأعداء، وكانت القوتان الكبيرتان اللتان تناصبانه العداء هما: الدولة الفاطمية في مصر، والإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، وبالتالي كان لابد من وجهة نظره أن يقتطع أكبر جزء من بلاد هاتين الدولتين، حتى ينأى بنفسه، وبدولته عن أي خطر قادم منهما، وكان التوجُّه هذه المرة إلى الشام.

وقبل الحديث عن التحركات التي قام بها ألب أرسلان نحو الشام، لابد من القول أن هناك عدداً من الأتراك الذين سبقوا السلاجقة في الدخول إلى الشام، فقد دخلها بعضهم مع الجيش العباسي، أيام الخليفة المعتصم، وبرز عدد منهم

---

(١) الأصفهاني: ص٣٠. والخزر: هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند. الحموي: ج٢ ص٣٦٧.

(٢) ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٧٧، لدى ابن الأثير توسع في خط سير ألب أرسلان، وإن اختلفت أسماء المدن التي قام بغزوها لديه عن ابن العديم. ج٨ ص٢١٧-٢٢٠.

(٣) ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٧٧، ابن الأثير: ج٨ ص٢١٩.

(٤) أرسلان: كلمة تركية تعني الأسد، وقد ترد محرفة بلفظ أصلان. غنام: رياض، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى، يناير ٢٠١١م.

كقادة عسكريين أو حكام أقاليم، ومنهم: الطولونيون[١] والإخشيديون[٢] الذين حكموا مصر وامتد نفوذهم إلى فلسطين وجنوبي الشام.

لكن النزاع الذي نشب بين أمراء الأسرة المرداسية[٣] التي حكمت حلب من (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) إلى (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م)، ساهم في دخول قادة ومجموعات تركية غزية، إلى المنطقة، كانت لها مساهمة كبيرة في تجهيز الأرضية لحملة ألب أرسلان على حلب عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، ومن ثم السيطرة التركية الغزية الكاملة على الشام فيما بعد. ومن أولئك القادة: ابن خان وأفشين، وصندق، إضافة إلى مجموعة من الأتراك يُطلق عليها اسم «الناوكية» وسوف نتعرض إلى تحركات كل هؤلاء بشيء من التفصيل:

١-**ابن خان:** هو هارون بن خان أحد ملوك الترك[٤] وكان في ديار بني مروان[٥]. ووقع أول صدام بين الأتراك والقبائل العربية في بلاد الشام، وتحديداً

---

(١) الطولونيون: أسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون أبو العباس في مصر عام ٢٤٥هـ/ ٨٦٨م حتى ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. وطولون هي دولون باللغة التركية وتعني البدر الكامل. مصطفى: الموسوعة ج١ ص٣٤١.

(٢) الإخشيديون: أسس هذه الدولة محمد بن طغج الإخشيد أبو بكر في مصر عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م حتى استولى عليها القائد الفاطمي جوهر الصقلي في شعبان ٣٥٨هـ، والإخشيد لقب إيراني تركي، يعني الأمير، وكان يحمله الحكام الإيرانيون المحليون في بلاد الصغد وفرغانة. المصدر نفسه: ج١ ص٣٤٤-٣٤٥.

(٣) أسس صالح بن مرداس الكلابي هذه الدولة عام ٤١٤هـ وقيل ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م في حلب وشمال سوريا، حتى أخذها منهم مسلم بن قريش العقيلي عام ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م. ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دمشق دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ج١ ص١٩٧ و٣٠٣، ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٩، مصطفى: الموسوعة ص٣٦٤.

(٤) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٥٠، نصر بن مروان صاحب ديار بكر.

(٥) بنو مروان: دولة كردية أسسها أبو عبد الله الحسن بن دوستك الكردي الحميدي ويطلق عليه (باذ) =

بني مرداس في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، كما ذكر المقريزي. أي قبل وصول ألب أرسلان بسنوات طويلة، حيث يقول في سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م : «وفيها تجمَّع كثير من التركمان بحلب وغيرها، وأفسدوا في أعمال الشام»[1] لكن هذا الوجود لم يجعلهم المتحكمين في الشام، وإنما وضعوا أرجلهم فيها فقط، وهو ما كان يعني الصدام المستمر مع الدولة الفاطمية، وأتباعها في هذه المنطقة.

بينما حدَّد ابن العديم سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م «أول دخول الترك إلى الشام»[2] وذلك في ظل الصراع الذي حدث بين أبناء بني مرداس: عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر بن صالح بعد وفاة صاحب حلب ثمال بن صالح، فقد استدعى عطية القائد التركي ابن خان، وتجمعت بنو كلاب إلى محمود بن نصر، وقصدوا حلب، فلما رأى محمود الجيش التركي أدرك أنه لا طاقة له بالترك فانهزم[3].

ويُمكن التوفيق بين التاريخين اللذين حددهما كل من المقريزي، وابن

= في المنطقة الممتدة بين المواقع الكردية والأرمينية، من جبال أرمينية الجنوبية الشرقية، وذلك عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٣م وتوفي عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م وفي عهد منصور بن سعيد بن مروان اضطرت مدينة ديار بكر أن تصبح تحت مظلة الدولة المروانية، حكم أكثر من ٥٠ عاماً، وعندما ظهر طغرل بك في المنطقة عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م قدم المرواني له الولاء والطاعة، ثم توفي عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م فورث ابنه نصر بن مروان حكم ميافارقين ومنها ديار بكر، وأخذ الابن الآخر سعيد حكم آمد، لكنه توفي عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م فورثه أخوه نصر، ثم توفي نصر عام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م وأخذ السلاجقة دولته. مصطفى: الموسوعة ج١ ص٣٢٦-٣٢٩.

(١) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ج٢ ص٢٣٠.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص.٣٥٠.

العديم، أن المحاولات التركية توقفت لمدة عشر سنوات تقريباً من عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) إلى (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، ثم عادت من جديد بعد ذلك، ولكن طوال هذه الفترة لم تكن منظمة، إلا أنها أصبحت فيما بعد أكثر انتظاماً[١]. كما أصبح لها هدف أكثر وضوحاً لا سيما في عهد ألب أرسلان.

عموماً رغم النجاح الذي حققه ابن خان، بوضع قدمه في الشام، إلا أن الصلح الذي تم بين عطية بن صالح وابن أخيه محمود في عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م بعد أن مشى السفراء بينهما[٢] وتقاسما البلاد بينهما، هذا الصلح جعل ابن خان يخسر كل ما كسبه، بل تعرض لهزيمة منكرة، وكما يقول ابن العديم: «وقتلوا منهم جماعة، ونهبوا خيولهم، وسلاحهم، وما قدروا عليه من رحلهم»[٣].

وأثناء هروب ابن خان مع مَنْ بقي مِن رجاله، الذين حدّد عددهم ابن العديم بقوله: «وكان السالم منهم نحواً من مائة وخمسين رجلاً»[٤] أخذ يهدد صالح بن عطية ويتوعده، ويصيح وهو تحت القلعة: «أليس قد غَدَرْتَ بي وبأصحابي يا صالح، والله لأنزلك منها على أقبح قضية»[٥].

هذا التهديد والوعيد، لم يكن عبثاً، فقد وضع ابن خان خطة في ذهنه لأخذ ثأره من عطية بن صالح، كي يجعله يندم أشد الندم على فعلته، حيث قرر ابن خان اللجوء إلى صاحبه القديم محمود بن صالح، وبالفعل وصل إليه عندما كان

(١) طقوش: محمد، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م ص١٠٥.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥١.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥١.

موجوداً في سرمين، فأمَّنهم محمود[١].

واستطاع محمود الاستفادة من وجود هذا القائد التركي معه، ويذكر ابن العديم أن محموداً هذا «أخذ ابن خان التركي، ومن انضوى إليه من التركمان إلى مرج دابق»[٢] لقتال عمه، والتقى الفريقان يوم الخميس ١١ جمادى الآخرة من عام ٤٥٥هـ/ مايو ١٠٦٣م، وتمكّن محمود بمعاونة الأتراك من الانتصار على عمه، الذي لم يكن أمامه سوى الفرار إلى حلب، لكن محموداً لحقه وحاصر حلب، واستمر هذا الحصار «مائة يوم ويومين»[٣] ثم تصالح عطية وابن أخيه محمود، وترتَّب على هذا الصلح تنازل عطية عن حلب لمحمود، وقد ذُلّت العرب بهذا الصلح[٤] لأنه نتج عنه سيطرة الأتراك، ودخل محمود إلى حلب يوم السبت ١٥ رمضان ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م[٥] وأقطع ابن خان معرة النعمان[٦] نتيجة للمساعدة الكبيرة التي قدمها له في معاركه ضد عمه عطية، حيث يقول ابن العديم: «وأقطع محمود معرة النعمان الملك هارون بن خان ملك الترك، فدخل المعرة يوم الأربعاء السابع عشر من شوال، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، ووصل معه إليها من الترك، والديلم، والكرد، والأوج[٧]، مقدار ألف رجل مع

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٢.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٣.

(٦) معرة النعمان: مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، ومنها كان الشاعر أبو العلاء المعري. الحموي: ج٥ ص١٥٦.

(٧) الأوج: اسم أطلق على المسلمين من سكان الثغور البيزنطية الإسلامية. ابن العديم: الزبدة ج١ حاشية (١) ص٢٥٤.

حاشيتهم»[١] ويصف ابن العديم ما حدث بعد هذا الانتصار الذي حققه محمود بن صالح وابن خان بأنه «وطئ جميع العرب وأذلها»[٢].

«لقد كان ابن خان وأتباعه أداة فعالة في يدي محمود بن نصر، فبواسطتهم نال منصب الإمارة، وبقوتهم استطاع تدعيم نفسه في منصبه، كما تمكَّن من اخضاع كافة القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته، وفي عمله هذا كان محمود، ربما بدون شعور، يمهد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام، ألا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها»[٣].

وبعد ذلك دخل ابن خان في نزاع مع السلطان ألب أرسلان، فقد كان ابن خان يعمل لمصلحته الشخصية على حساب السلطنة، لهذا عندما زحف ألب أرسلان إلى حلب عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، كان ابن خان يدرك أن حياته في خطر، لذلك هرب إلى صور، وهناك قتله أتباع والي هذه المدينة.

٢-الأفشين: هو أفشين بن بكجي[٤] وكان أول ظهور لهذا القائد التركي الغزي عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م، في البداية رافق الأمير كمشتكين حاجب السلطان ألب أرسلان، فوقع نزاع بينهما، فقام الأفشين بقتل كمشتكين، فغضب عليه السلطان[٥] وتمكّن الأفشين من قيادة ألف مقاتل من الأتراك، «فنهبوا بلد أنطاكية عن آخره، وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس، وقيل أكثر، حتى أن الجاموس

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٣-٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٤.

(٣) زكار: سهيل، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية «الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية» الجزء الأول، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ص١٢٨.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٢٥٥.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٥.

كان يباع بدينار، وأكثره بدينارين وثلاثة، وأما البقر، والغنم، والمعز، والحمير، والجواري، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة، وكانت الجارية تباع بدينارين، والصبي نعال للخيل»(١) وفي عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م اتجه إلى أنطاكية، وغلت الأسعار فيها حتى بلغت «الحنطة قفيزين»(٢) ثم «أتته كتب العادل ألب أرسلان من العراق بالرضا عنه»(٣) لا سيما بعدما عَلِم أرسلان أن هذا القائد قادر على ازعاج الدولة البيزنطية، وقيل أن «أصحاب مؤونة السوق بحلب، حصل في دفاترهم نحو سبعين ألف مملوك ومملوكة، سوى ما بيع من غير مؤونة، في بلد الروم، وسائر البلدان، وأخذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار، ومثلها من ثياب الديباج(٤) والآلة(٥) ثم غزا عمورية ونهبها وأسرى إلى خليج القسطنطينية، وغنم ستة آلاف فرس، وعندما علم الامبراطور البيزنطي الذي كان يُغير على منبج، بهذا التوغل، عاد أدراجه إلى عاصمته ليدفع عنها شر الأفشين. ثم انتهت مغامرة الأفشين التي أثار من خلالها الرعب في قلوب البيزنطيين. وبعد هذه المغامرة اشترك الأفشين مع ألب أرسلان في حملته على حلب عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م(٦).

«وعندما اتجه تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق لإغاثة أتسز، رافقه أفشين، لكنه سرعان ما ترك تتش، بعد أن غدر الأخير بأتسز، وقتله. وأخذ أفشين معه

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٦، القفيز: مكيال يساوي ثمانية مكاكيك، ويسع المكوك صاعاً ونصف الصاع. المصدر نفسه: ج١ حاشية (١) ص٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٦.

(٤) الديباج: كلمة عربية من أصل فارسي «ديبا» وتعني الحرير الملون المنسوج، يُعبر عنه أيضاً بلفظ «إبريشم» و«إبريسم». غنام: ص١٦٠.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٢٥٦.

(٦) طقوش: ص١١٠.

الجزء الأكبر من التركمان الذين رافقوا تتش إلى دمشق، ويمكن القول أن أفشين كان أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام، تهديماً، وأكثرهم قسوة، وأشدهم وطئاً وفظاظة على الناس والبلاد»[١].

ويؤكد ذلك ما قاله ابن العديم عندما يروي تفاصيل الفظائع التي قام بها، حيث يقول: «ثم فسح من عسكره (تتش) أفشين التركي، ومعه أكثر العسكر، وعاد شمالاً ونهب عسكره ضياعاً في أعمال بعلبك، ووصل رفنية في اليوم العاشر من جمادى الأولى، وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متجهين إلى طرابلس، فهجمها بغتة، وقتل ممن كان بها جماعة، واستباح أموالهم، وحريمهم، وأقام بها عشرة أيام...وسار فنزل قسطون[٢] فجرى أمرها في النهب والعقوبة مجرى رفنية، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. ثم تنقل عسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السُّمَّاق وغيرها، حتى لم يبق بها موضع ولا برج إلا افتتحه وأهلكه، واستباح حريمهم، وأولادهم، واستغرق أحوال أهل سرمين والمعرة بالقطائع»[٣].

٣- صندق: في عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م وصل إلى الشام أحد القادة الترك مع «عسكر عظيم»[٤] ودخل حلب، من الأرتيق إلى الجزر، إلى بلد معرة النعمان، إلى كفر طاب، إلى حماة، وحمص، إلى رفنية»[٥]. وعاث صندق ومن معه في الأرض فساداً كثيراً، ونهبوا البلاد التي مروا بها، وأخذوا الغلال التي وجدوها في طريقهم، حتى لقي أهل الشام منهم شدة عظيمة، وهو أول نهب وفساد من

---

(١) زكار: ص١٧٠.

(٢) قسطون: حصن كان بالروج من أعمال حلب. الحموي: ج٤ ص٣٤٨.

(٣) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٨.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٨.

الأتراك جرى بالشام، لكن صندق عاد أدراجه، وترك الشام بعد أن أكرمه محمود بن نصر بتحف وهدايا كثيرة[١].

٤- الناوكية: وهم مجموعة من الأتراك المرتزقة الذين لم يكونوا يدينون بالولاء للسلطان السلجوقي، وهذه الكلمة أي الناوكية تعني الخارجين على السلطة، ويمكن أن يكون من ضمن هؤلاء، جميع الأتراك الذين تدفقوا إلى الأراضي البيزنطية، والبلاد الجزرية دون علم السلطان السلجوقي، ومِنْ بين هؤلاء ابن خان وأتباعه[٢]. لذلك «عندما دخلت الشام، أي هذه المجموعة، انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه، ودخلت في خدمة هذه الدول، كما أنها عملت في سبيل مصالحها الذاتية»[٣].وقد ذكر ابن الجوزي اسم «الناوكية» في حوادث سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م[٤]. وكان عمل «الناوكية» في بلاد الشام التصدي لغارات البدو. لهذا يمكن القول إنه رغم أن «الناوكية ناصبوا السلاجقة العداء، ولم يعترفوا بسلطانهم، لكنهم خدموا قضية السلاجقة، ومهَّدوا السبيل نحو استيلائهم على الشام»[٥]. وقد «ذابت هذه الجماعة التركية في جسم الأتراك أتباع السلاجقة الذين قَدِموا الشام بعد عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م»[٦].

هذه مجمل التحركات والتدخلات التركية قبل مجيء السلاجقة إليها، أما بالنسبة لسلطان السلاجقة ألب أرسلان، فقد ذكرنا آنفاً، أنه وضع نصب عينيه

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٢٥٩.

(٢) طقوش: ص١١١.

(٣) زكار: ص١٤٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٢ ص٤٨١.

(٥) زكار: ص١٦٩.

(٦) طقوش: ص١١٢.

التوسع على حساب الدولتين البيزنطية والفاطمية، بعد أن قام بتأمين حدود بلاده بشكل جيد، لهذا قرر بسط نفوذه بشكل كامل على الشام، وطرد الفاطميين من هذه المنطقة الحيوية.

وحقيقة الأمر أن ألب أرسلان لم يبدأ التفكير في مهاجمة تلك الدولتين، إلا بعد أن علم بتقاربهما معاً، وهو ما يعني تشكيل قوة ضغط عليه، ومحاصرته من الجهتين، لهذا فكَّر بمبادرة الهجوم قبل أن يكون بفي موضع المدافع.

ولَمْ يُضِع ألب أرسلان الفرصة، عندما جاءته على طبق من ذهب، فقد وصله قاضي حلب أبو جعفر محمد بن البخاري، بصفته رسول من ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني أحد أبرز القادة في القاهرة، الذي كانت علاقته متوترة مع التحالف الذي ضم الوزير ابن أبي كدية وألدكوز قائد عسكر الأتراك، وطلب البخاري من ألب أرسلان جيشاً، من أجل إسقاط الدولة الفاطمية.

لذلك جهّز ألب أرسلان جيشاً كبيراً، ووصف ابن العديم العساكر لكثرتها بأنها: تملأ الفضاء[(١)] وقادهم بنفسه في عام ٤٦٣هـ/ ١٠٦٩م[(٢)] متوجهاً من خراسان إلى الشام، على أن يتوجَّه بعد ذلك إلى مصر لبسط السيطرة السلجوقية عليهما. وفي طريقه حاصر الرها التي كانت بيد البيزنطيين، واستمر الحصار نيفاً وثلاثين يوماً[(٣)] ولكن كما يقول ابن الأثير: «حاصرها فلم يظفر منها بطائل»[(٤)] ثم توجَّه إلى حلب، فقطع الفرات في ١٥ ربيع الآخر٤٦٣هـ/ ١٩ يناير١٠٧١م، ودخل إمارة حلب «ووفد إليه من الملوك، مثل: شرف الدولة مسلم بن قريش،

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٢٦١.

(٢) طقوش: ص١١٤.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٢٦١.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٢٤٠.

وابن مروان[١] ابن وثاب[٢] وابن مزيد[٣] وأمير الترك والديلم»[٤].

أما محمود بن نصر المرداسي صاحب حلب فقد رفض الخروج إلى السلطان ألب أرسلان، وتقديم فروض الولاء والطاعة له. بل «حصّن محمود حلب، وجُفِل الناس من سائر الشام إليها، حصل الرعب في قلوبهم هيبة. لما اجتمع إليه (ألب أرسلان) من العساكر الجمة، والجيوش الكثيفة الضخمة»[٥] فقرر السلطان السلجوقي محاصرة حلب[٦] وتم ذلك لمدة شهر ويومين، ولم يقاتلها إلا في يوم واحد فقط، وقال: «أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف، فيصير إلى الروم»[٧].

ولمَّا رفض الحلبيون فتح بلادهم ودافعوا عنها، قرر السلطان ضرب المدينة بالمجانيق، «وطال الحصار وطالت الأحجار»[٨] وأثناء ذلك سقط حجر المنجنيق على رأس فرس السلطان، ويقول ظهير الدين طغتكين عن هذه الحادثة، كنتُ

---

(١) ابن مروان: أبو المظفر منصور نصر بن مروان الكردي، حكم ميافارقين وآمد من ٤٧٢هـ – ٤٧٨هـ. ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج١ حاشية (١) ص١٢.

(٢) ابن وثاب النميري: له حران والرقة وسروج. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه كي حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ج٢ ص٢١٠، ابن الأثير: ج٨ ص٤٦.

(٣) ابن مزيد: نور الدولة الأغر دبيس بن علي مزيد الأسدي، تولى حكم إمارة بني مزيد عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م وتوفي عام ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م وعمره ٨٠ عاماً. ابن الأثير: ج٨ ص٢٨٤، مصطفى: الموسوعة ج١ ص٣٢٠.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٢٦١.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٦٢.

(٦) الأصفهاني: ص٣٧.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٢٦٢-٢٦٣.

(٨) الأصفهاني: ص٣.

حاملاً وراء السلطان السلاح حين ضربه حجر المنجنيق»[١]. وبعد مفاوضات طويلة، ولمَّا عظم الأمر على محمود بن نصر، وخشي أن يضيق به الأمر ويتسع الخرق[٢] خرج ليلًا ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري، فدخلا على السلطان، وقالت له: هذا ولدي، فافعل به ما تحب، فتلقاهما بالجميل[٣] وأكرمهما وأحسن إليهما[٤] وأنعم على محمود بإعادته إلى حلب، ولم يأخذها منه[٥].

* معركة ملاذكرد:

عند ذلك قرر ألب أرسلان التخلي عن خطته الخاصة بالاستيلاء على الشام ومصر، وتوجَّه إلى أرمينية، ولمَّا وصل إلى أذربيجان، عَلِم أن الإمبراطور البيزنطي وصل إلى أعمال خلاط، وكان ينوي أخذ خلاط[٦] نفسها، كي يحقق مشروعه، وهو التعمق في بلاد المسلمين، لدرجة أنه أقطع بطارقته البلاد (أي بلاد المسلمين) حتى بغداد، واستوصى نائبه بالخليفة خيراً وقال له: «ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا»[٧] عندها لم يكن أمام السلطان السلجوقي إلا التصدي له،

---

(١) ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٧٠.

(٢) الأصفهاني: ص٣٧.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢٤٠.

(٤) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٦٤.

(٥) العظيمي: محمد بن علي الحلبي، تحقيق إبراهيم زعرور تاريخ حلب، دمشق ١٩٨٤م، ص٣٤٨، الأصفهاني: ص٣٧.

(٦) خلاط: البلدة العامرة المشهورة وهي من فتوح عياض بن غنم، ترسم أحياناً أخلاط. الحموي: المعجم ج٢ ص٣٨٠ و ٣٨١. الفارقي: أحمد بن يوسف بن الأزرق، تاريخ الفارقي الدولة المروانية، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ص٢٧٤.

(٧) ابن كثير: ج٨ ص٣١٢.

ووقف مشروعه الكبير، فاشتبك الطرفان في مكان يُعرف بالزهوة[١] ما بين خلاط ومانزكرت[٢] والتقى الفريقان يوم الجمعة ٧ ذي القعدة ٤٦٣هـ/ ٦ أغسطس ١٠٧١م.

وهذه المعركة خلَّدت ذكرى أرسلان، حيث كان عدد الجيش البيزنطي، أكثر من مائتي ألف جندي[٣] بينما جيش السلاجقة لا يزيد على عشرين ألف مقاتل. واستطاع السلاجقة الانتصار في هذه المعركة الشهيرة التي عُرفت باسم مانزكرت أو ملاذكرد، وتم أسر الامبراطور ديو جنيس رومانوس.

وأمر السلطان ألب أرسلان قادته، وكان على رأسهم أتسز بن أوق الخوارزمي[٤] وهو من أمراء ابنه ملكشاه[٥] بالتوجه إلى الشام لإخراج الفاطميين منها «وجمع (أتسز) الأتراك وسار إلى فلسطين، ففتح مدينة الرملة، وسار منها إلى بيت المقدس وحصره، وفيه عساكر المصريين، ففتحه، وَمَلَكَ ما يجاورهما من البلاد، ما عدا عسقلان، وقصد دمشق»[٦] لكنه لم يتمكن من فتحها.

وبعد المعركة، تقدم السلاجقة في بلاد الأناضول، وقامت إمارات سلجوقية عدة أبرزها التي عرفت باسم سلاجقة الروم، وقد أسسها سليمان الأول بن قتلمش بن أرسلان بن سلجوق، وكان مقرها قونية، ثم تلتها إمارات أخرى.

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٣١٢، الأصفهاني: ص٣٩. الزهوة: موقع في ديار بني عقيل كانت فيه وقعة بينهم. الحموي: ج٣ ص١٦٢.

(٢) الأصفهاني: ص٣٩.

(٣) هناك روايات مختلفة ذكرها المؤرخون حول عدد عسكر كل فريق.

(٤) معه إخوته: جاولي، المأمون، فرلو، وشكلي. طقوش: ص١١٧.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٢٤٢.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٤٢.

وفي ١٠ ربيع الأول ٤٦٥هـ/ ٢٤ نوفمبر ١٠٧٢م[١] قُتِل السلطان السلجوقي ألب أرسلان على يد شخص يدعى يوسف الخوارزمي[٢] وذلك عندما كان السلطان في طريقه لبلاد ما وراء النهر لقصد الصين. وقد بلغ من العمر أربعين عاماً، وملك تسع سنين وشهوراً[٣] وقيل عشر سنين[٤]. ودفن بمرو عند أبيه[٥] أما أولاده فهم: ملكشاه، تكش، أياز، تتش، أرسلان أرغون، وبوري برس[٦] وسارة وعائشة وبنتاً أخرى[٧].

*** جلال الدولة ملكشاه:**

اعتلى جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه[٨] عرش السلطنة السلجوقية بعد أبيه ألب أرسلان، وهو في سن الثامنة عشرة، وأصبح وزير أبيه نظام الملك[٩] وصياً عليه ووزيره. وخلع عليه السلطان خلعاً سنية، وأعطاه تحفاً كثيرة، من جملة

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص.٢٤٧.

(٢) الحسيني: ص٧٠، ابن كثير: ج٨ ص٣١٧.

(٣) الأصفهاني: ص٤٥.

(٤) الحسيني: ص٧١.

(٥) الأصفهاني: ص٧٢.

(٦) المصدر نفسه: ص٤٥، الحسيني: ص٧١.

(٧) ابن كثير: ج٨ ص٣١٨.

(٨) ولد ملكشاه في ١٩ جمادى الأولى ٤٤٧هـ وتوفي يوم ١٦ شوال ٤٨٥هـ وعمره ٣٨ سنة وأشهر. الأصفهاني: ص٦٤.

(٩) نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، ولد سنة ٤٤٨هـ، كان من أولاد الدهاقين بناحية بيهق، وأصبح وزيراً للسلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه، لكنه أصبح الملك حقيقة لنظامه، ورسماً للسلطان ملكشاه، واستمر على ذلك عشرين سنة، وهو أول من بنى المدارس في الإسلام، بنى نظامية بغداد، ونظامية نيسابور، ونظامية طوس، ونظامية أصفهان. وقتل غيلة وهو صائم عام ٤٨٥هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٣ ص١٠٠-١٠٢.

ذلك: عشرون ألف دينار، ولقّبه بـ «أتابك»، وهو يعني الأمير الكبير الوالد[١].

وبعد استقراره في الحكم، قرر ملكشاه السير على نهج والده الراحل، في السيطرة على بلاد الشام وطرد الفاطميين من مصر.

وكان أتسز[٢] بن أوق الخوارزمي وإخوته في فلسطين[٣]. وقد فتح مدينة الرملة[٤] وبيت المقدس وما جاورهما عدا عسقلان عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، وكان يقصد دمشق ويحصرها[٥]. واستمر كل عام يحاصر دمشق، ويقصد أعمالها، ويأخذ غلاتها فيقوى هو وعسكره بها، ويضعف أهل دمشق وجندها[٦] من دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها. وكان يفعل ذلك كل عام في فصل الربيع[٧] على وجه التحديد، بعد أن يجني المزارعون ثمار زراعتهم، كي يستولي عليها.

ولمَّا وصلته القوة التي أرسلها إليه ملكشاه، والبالغ تعدادها ثلاثة آلاف مقاتل[٨] في عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، أخذ أتسز يتقوى بها، وقد استثمر القلاقل والاضطرابات التي حدثت في دمشق، التي أدت إلى هروب واليها الفاطمي حيدرة بن منزو الكتامي بسبب ظلمه وقسوته، وتولى الأمر بعده الأمير رزين

---

(١) ابن كثير: ج٨ ص٣١٧. ونظام الملك هو أول من نال هذا اللقب، وفي هذه المرحلة من عمر الدولة السلجوقية كان هذا اللقب تشريفياً فقط، ولم تكن له أي تكاليف وظيفية أو أعباء سياسية.

(٢) يسميه ابن الأثير: أقسيس ج٨ ص٢٦٦ وقال: «هكذا يذكر الشاميون هذا الاسم أقسيس، والصحيح أنه أتسز وهو اسم تركي». ج٨ ص٢٧٠، وذكره المقريزي باسم أطسز. ج٢ ص٣١٥.

(٣) زكار: ص٢٦٢.

(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. الحموي: ج٣ ص٦٩.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٢٤٢.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٦٦.

(٧) ابن القلانسي: ص١٨٧.

(٨) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٧٢.

الدولة[١] انتصار بن يحيى المصمودي[٢] لذلك جمع أتسز قوة كبيرة من العسكر، وحاصر دمشق في شعبان ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، وضيّق على سكانها، حتى «عدمت الأقوات، فبيعت الغرارة إذا وجدت بأكثر من عشرين ديناراً فسلمّوها إليه بأمان»[٣]. ودخلها في يوم الاثنين ٢١ ذي القعدة ٤٦٨هـ/ ٢٦ يونيو١٠٧٦م، وقطع خطبة الخليفة الفاطمي المستنصر، وأقام الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله[٤].

وأضحى أتسز سيد الشام تقريباً، فقد امتد نفوذه ما بين حمص حتى أقصى فلسطين، باستثناء الساحل، لأن الفاطميين كانوا يسيطرون على المنطقة ما بين طرابلس حتى عسقلان، ودعاه المؤرخون والناس بصاحب الشام، وأخذ يمارس سلطاته باسم السلاجقة، حيث بدأت تتشكل ملامح دولة السلاجقة في الشام[٥]. وأطلق على نفسه «الملك المعظم»[٦] وقال عنه ابن القلانسي «الملك أتسز بن أوق»[٧].

وبعد وفاة صاحب حلب محمود بن نصر المرداسي في جمادى الأول ٤٦٧هـ/ يناير١٠٧٥م، وتولي الحكم بعده ولده نصر[٨] حوّل أتسز أنظاره إلى حلب من أجل ضمها إلى بلاده، تحت عباءة الدولة السلجوقية، لا سيما أنه كانت

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٢٦٦، ويسميه ابن القلانسي بـ« زين الدولة». ص١٨٧.
(٢) زكار: ص٢٦٢.
(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢٦٦.
(٤) المقريزي: ج٢ ص٣١٥.
(٥) طقوش: ص١٢١.
(٦) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٨٢.
(٧) ابن القلانسي: ص١٩٣و١٩٤، ابن أبي الهيجاء ص١٢٥.
(٨) المصد نفسه ص١٩٢.

لديه أوامر من السلطان ملكشاه، لبسط نفوذ السلاجقة على الشام. لذا سارع بالاتجاه نحو حلب، فهاجم القرى الجنوبية للبلد في رجب ٤٦٨هـ/ فبراير ١٠٧٦م، وضم رفنية ومنحها لأخيه جاولي[١]، إلا أن محاولته لضم حلب باءت بالفشل، لذلك دخل في مفاوضات مع صاحبها نصر بن محمود، ولكن «لم يستقر بينهما أمر»[٢] وقرر أتسز ترك المفاوضات والعودة إلى دمشق. وأوعز إلى أخيه جاولي باستكمال المهمة التي كان ينوي القيام بها، وهي مهاجمة حلب، لذا «شنَّ (جاولي) الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب، فجهَّز إليه نصر بن محمود عسكر حلب، بقيادة أحمد شاه التركي[٣] فتعرض جاولي لهزيمة منكرة، ثم عاد إلى أخيه أتسز بدمشق»[٤].

ولا شك أن هناك سبباً مهماً، جعل أتسز يترك المفاوضات، ويعود إلى دمشق، وهو أن السلطان ملكشاه قرر أن يولي أمر الشام كله لشقيقه تتش، وعَزْل أتسز منها، حتى لو كان بالقوة، وكان ذلك في أوائل عام ٤٧٠هـ، وأَمَرَ قادة الترك الكبار السير مع أخيه[٥] لا سيما أن تتش لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره بعد[٦] وكان بأمس الحاجة إلى هؤلاء القادة كي يكونوا إلى جانبه في هذه المرحلة الحساسة من عمر الدولة السلجوقية.

ولعل أهم سبب جعل ملكشاه يتخذ هذا القرار هو كبح جماح أخيه تتش

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٢٨٢.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٢٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٢٨٨.

(٦) مصطفى: طغتكين ص٤٣.

الذي يعشق السلطة والتملك، والباحث عن المجد، مهما كلَّفه الأمر، خصوصاً أن ملكشاه كان يعلم بوجود العديد من أقاربه الطامعين بسلطته، وقد سبقهم من قبل، عمه قاروت[١] بك الذي خرج بعد وفاة ألب أرسلان، وتم قتله بعد إلقاء القبض عليه في عام ٤٦٥هـ[٢] وبالتالي فإن منح الشام لتتش، قد يجعله ينشغل عنه، ولا يُسبب صداعاً للدولة السلجوقية.

هذه الأخبار التي وصلت إلى مسامع أتسز أرّقته، وأقلقته كثيراً، لذلك لجأ إلى خطة قد تجعل السلطان يعدل عن رأيه، فقد قرر إحياء مشروع ألب أرسلان وملكشاه نفسه، وهو القضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وضمِّها إلى أملاك الدولة السلجوقية. كما فعل مع دمشق. خصوصاً أن كاتبه ابن بلدكوز[٣] الفار من القاهرة «أغراه بأهل مصر، وحثَّه على قصد البلاد، وهوّنها عنده. فقوي طمعه»[٤] بعد أن قدّم له ابن بلدكوز ستين حبة لؤلؤ مُدحرجاً، زنة كل حبة منها ينيف على مثقال، وحجر ياقوت، زنته سبعة عشر مثقالاً، وتحفاً كثيرة[٥]. هذه المغريات شجَّعت أتسز على اتخاذ خطوته التي قد تجعل ملكشاه يتراجع عما اتخذه من عزله عن الشام.

لذلك في عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م «جمع الملك أتسز واحتشد، وبرز من دمشق، ونهض في جمع عظيم، إلى ناحية الساحل، ثم منها إلى ناحية مصر»[٦]

---

(١) ويرسم أيضاً قاورد.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥-٣٦، الراوندي: ص٢٠٠، الحسيني: ص٧٦.

(٣) يسميه المقريزي: ابن يلدكوش. ج٢ ص٣١٧.

(٤) المصدر نفسه: ج٢ ص٣١٧.

(٥) المصدر نفسه: ج٢ ص٣١٧.

(٦) ابن القلانسي: ص١٩٥، ابن أبي الهيجاء: ص١٢٥.

وقد أشار عليه ابن بلدكوز ألا ينشغل بالقاهرة، وإنما يتملك الريف، وقال له: «إذا ملكت الريف فقد ملكت مصر»[١]. وبالفعل توجَّه إلى هناك، وقاد جيشه المكون من العرب والأكراد والتركمان، والذي يقدر بعشرين ألف مقاتل، وسمع نصيحة ابن بلدكوز ولم يتجه إلى القاهرة التي كانت خالية من المتسلط عليها أمير الجيوش بدر الجمالي، الذي كان منشغلاً في الصعيد لإخماد بعض الثورات هناك. وارتكب أتسز بذلك خطأً عسكرياً[٢] فادحاً كلفه خسارة المعركة كلها.

فقد بقي أتسز وعسكره في الريف جمادى الأولى وجمادى الآخرة وبعض رجب[٣] وقال سبط ابن الجوزي إنه أقام في الريف: «نيفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال ويسبّي الحريم، ويذبح الأطفال، وهو يراسل بدر الجمالي ويطلب المال»[٤]. هذه الأفعال أزعجت رؤساء القرى الذين أرسلوا كتباً إلى الخليفة الفاطمي المستنصر، يطلبون منه العون على أتسز التركي[٥]. ووصلت الأخبار إلى بدر الجمالي بوجود أتسز في ريف مصر، فأرسل عسكره، ومن انضم من الصعيد إليهم، إضافة إلى ثلاثة آلاف كانوا يريدون الحج[٦] وأصبح عدد جيشه ٣٠ ألفاً ما بين فارس وراجل[٧] واشتبك الجيشان يوم الخميس ١٦ رجب ٤٦٩هـ/ ١٣ فبراير ١٠٧٧م[٨] وأسفرت المعركة عن تعرض أتسز وجيشه لخسارة كبيرة. بعد

(١) المقريزي: ج٢ ص٣١٧.
(٢) طقوش: ص١٢٣.
(٣) المقريزي: ج٢ ص٣١٧.
(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٩٧.
(٥) ابن الأثير: ح٨ ص٢٦٩.
(٦) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٩٧.
(٧) المقريزي: ج٢ ص٣١٧.
(٨) طقوش: ص١٢٤.

أن «كسروه وهزموه ووضعوا السيوف في عسكره قتلاً وأسراً ونهباً»[١] وقُتِل في هذه المعركة أيضاً شكلي شقيق أتسز. واضطر أتسز ومن بقي من أصحابه الفرار إلى الرملة في فلسطين[٢] «فخرج إليه أهلها فقاتلوه وقاتلوا بعض من كانوا معه، فهرب إلى دمشق في بضع عشرة نفساً»[٣].

نتائج هذه المعركة جعلت السلاجقة لا سيما السلطان ملكشاه، يدركون أنه لا طاقة لأتسز بمصر، وأنه غير قادر على تنفيذ مشروعهم، المتمثل بضمها إلى أملاكهم، ناهيك عن ثورة سكان بيت المقدس على حكمه وعصيان بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام، وبالتالي فقد حان وقت التغيير، ووقت تنفيذ ما كان قد قرره ملكشاه بتملّك أخيه تتش بلاد الشام. وإزاء ذلك لم يكن أمام أتسز سوى أن يكتب للسلطان «يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما زال الخادم المطيع، ووعد بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة، مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام»[٤] إلا أن كتاب الاستعطاف هذا، وكذلك المغريات التي قدَّمها أتسز إلى السلطان ملكشاه، لم تجْد نفعاً، فقرر تنفيذ مشروعه، وتولية أخيه حكم بلاد الشام، وأَمَرَه بالمسير إليها، كما كتب إلى القوى المتمركزة في الجزيرة وبلاد الشام مد يد العون له.

كل هذا يعني بدء مرحلة جديدة للشام، تتمثل في إخضاع هذه المنطقة كلها إلى رجل سلجوقي، ومن بيت الحكم هو تتش، وانتهاء حكم أتسز الذي كان يحكم باسم السلاجقة. هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية، كما سنتعرف على

(١) ابن القلانسي: ص١٩٧.

(٢) الذهبي: العبر ج٢ ص٣٢٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٩٩.

(٤) طقوش: ص١٢٥.

الأدوار التي قام بها تتش بن ألب أرسلان الذي خرج طغتكين من عباءته.

الفصل الثاني: طمع وطموح تتش

تتش في دمشق، مسلم بن قريش، ابن مروان وابن قريش، ابن قتلمش وابن قريش، تتش وابن قتلمش، تتش وآق سنقر، وفاة جلال الدولة ملكشاه، بركيارق ينتزع السلطة، بركيارق ينتصر على تتش، محمد وبركيارق.

* تتش في دمشق:

بعد أن تأكد السلطان ملكشاه من عدم قدرة أتسز على تنفيذ مشروعه بضم مصر إلى مملكته، قرر أن يولي أخاه تاج الدولة تتش على الشام، ويقطعه هذه المنطقة، وكذلك ما يفتحه في تلك النواحي[1] وكان ذلك في العام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، لذا وصل تتش إلى الشام من أجل تنفيذ هذا الأمر السلطاني الخاص بالمشروع السلجوقي، وهو ما يعني تسلُّم السلاجقة لهذه البلاد بأنفسهم، لا سيما الأمراء منهم، وليس من ينوبون عنهم.

ولا شك أن السلطان كان يريد أن يضرب عصفورين بحجر، فهو يدرك قبل غيره، أنه إن ترك أخيه بلا أي اقطاع، فسوف يطمع بالسلطنة، لذلك رأى ضرورة أن يُولّيه الشام، على الأقل كي يأمن شره. كما أنه أراد أن يتخلص من أتسز الذي لم يستطع تحقيق طموح السلاجقة بالسيطرة على مصر، بعدما رأى أن دوره قد انتهى.

وعندما وصل تتش إلى الشام، جاء معه عدد من حكام القوى المتمركزة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٢٧٦.

في إقليم الجزيرة والشام، ومن هؤلاء: أمير الموصل مسلم بن قريش، وصاحب حلب وثاب بن محمود[١] وكذلك زعماء القوى التركية المنتشرة في المنطقة أمثال: الأفشين، وصندق، وغيرهم[٢] فتوجّه تتش وقواته إلى دمشق، وعندما علم أتسز بتقدم هذه القوات إليه، أرسل الهدايا والأموال إلى السلطان، وكتب له رسالة يستعطفه، قال فيها: «ما فعلتُ فعلاً يقتضي إنفاذ أمر تتش نحوي... وأنا نائب في هذه البلاد عن السلطان، ما آخذ منها غير ما أصرفه في مؤونتي والجند الذين معي»[٣] فأرسل السلطان ملكشاه إلى أخيه تتش، يطلب منه بترك دمشق والتوجّه إلى حلب[٤]. وبالفعل غيّر تتش ومَن معه وجهتهم إلى حلب في محرم ٤٧٠هـ/ أغسطس ١٠٧٧م لأخذها من سابق بن محمود، ووصلوا جميعاً إلى ديار بكر أولاً، ثم عبروا الفرات، ثم منبج وبعد ذلك إلى حلب، وتمت محاصرة المدينة أكثر من مرة[٥] دون أن يحققوا شيئاً، ثم عادوا وحاصروها ثلاثة أشهر، وبعد فترة تشتت جمع تتش[٦] فقد تعرضت القوة المساندة له، التي أرسلها ملكشاه بقيادة بهاء الدولة، وهو أحد أمراء التركمان[٧] إلى هزيمة ساحقة من بني كلاب، «فأوقعوا به ونهبوه وقتلوا معظم أصحابه»[٨] وانقلب العرب الذين كانوا

---

(١) بعد وفاة نصر بن محمود في شوال ٤٦٨هـ تنازع على حكم حلب كل من أخويه: سابق ووثاب، وتمكن الأول من السيطرة على المدينة، فلجأ وثاب إلى السلطان ملكشاه في خراسان وطلب منه العون ضد أخيه سابق. طقوش: تاريخ السلاجقة ص١٢٦.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٢٨٨.

(٣) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص١١٤.

(٤) المصدر نفسه: ج١٣ ص١١٤، طقوش: ص١٢٦.

(٥) العظيمي: تاريخ حلب ص٣٥٠.

(٦) طلب تتش نجدة من أخيه السلطان ملكشاه، فأرسل إليه.

(٧) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص١١٤- ١١٥.

(٨) المصدر نفسه: ج١٣ ص١١٥.

مع تتش، فأصبحوا ضده، بسبب كراهيتهم لوجود الأتراك في المنطقة، فقد كتب سابق بن محمود إلى من بقي مع تتش من بني كلاب، وقال لهم: «إني إنما أذب وأُحامي عن بلادكم وعزكم، ولو صار هذا البلد إلى تتش، لزال مُلك العرب وذلّوا»[١]. وهكذا فشل الحصار الذي فرضه تتش على حلب.

ورغم هذا لم ييأس تاج الدولة تتش من تحقيق طموحه في الاستيلاء على حلب ثم الشام كله، ففي العام التالي أي ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م أعاد الكرة مرة أخرى، بعد أن وصله العون من ملكشاه، وتمت محاصرة المدينة، ويصف ابن الأثير حال أهلها جراء الحصار المفروض عليها بقوله : «ولحق أهلها مجاعة شديدة»[٢] ومع ذلك لم تنجح عملية الحصار، وبالتالي فشل تاج الدولة فيما كان يصبو إليه، نتيجة للإنهاك الذي تعرضت له قواته، وأدرك أنه لم يحقق أي انجاز يذكر، وتبين أنه لم يفعل سوى ما قام به من نهب وسلب وتدمير[٣] وظن أن كل ما فعله ذهب أدراج الرياح، وأن حلمه أصبح بعيد المنال، ولكن من حيث لا يتوقع، حدث ما لم يكن يتخيله أبداً، وغيّر مسرى الأحداث كلياً، وقرّب تتش من تحقيق حلمه، أي السيطرة على الشام، وهذه المرة جاءته الفرصة من الفاطميين الذين قدَّموا له دمشق على طبق من ذهب، من دون أن يعلموا.

فقد أراد أمير الجيوش بدر الجمالي المتحكم بمصر، الانتقام من السلاجقة عموماً، ومن أتسز خصوصاً نتيجة للمغامرة الفاشلة التي قام بها، وطمعه في السيطرة على مصر عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، لذا أرسل الجمالي جيشاً إلى دمشق عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م للاستيلاء عليها بقيادة ناصر الدولة الجيوشي، ونجح في

(١) ابن العديم: ج١ ص٢٩٠.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦.

(٣) طقوش: ص١٢٩.

الاستيلاء على أعمالها وأعمال فلسطين، وحاصر دمشق وضايق أهلها[١] وكان «طامعاً في تملكها، وأصر على منازلتها»[٢] وأخْذها من أتسز، كما أدرك الأخير، أنه لا قِبَل له بالجيش الفاطمي، ولم يكن أمامه سوى أمرين أحلاهما مر، إما الاستسلام إلى ناصر الدولة، وفي هذه الحال سوف يُقتل لا محالة، أو يطلب العون من تتش، فرجَّح الاختيار الثاني، رغم صعوبة الأمر عليه، لكنه كان الحل الأمثل بالنسبة له، لأن ذلك يعني أنه وضع نفسه في حماية الدولة السلجوقية[٣] وحماية تتش على وجه التحديد، فقام أتسز بمراسلته، «يستنجده ويستصرخه، ويعده بتسليم دمشق إليه، ويكون بين يديه»[٤] «ويعرفه أن عساكر مصر قد حصرته بدمشق»[٥].

وبالتأكيد فإن تتش الذي كان ينتظر هذه الفرصة منذ أمد بعيد، ولن يتركها تضيع منه، لهذا أسرع نحو دمشق، وما إن سمع قائد الجيش الفاطمي بتقدم قوات سلجوقية نحوه، أدرك أنه لا قِبَل له بها، وكما قال المقريزي: «ثم ارتحل عنها، وعاد بغير طائل»[٦] وقال ابن الأثير: «فلمَّا سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين»[٧].

وعندما رأى أتسز، تاج الدولة مقبلاً نحو، اتجه إليه على الفور، وقدّم له

(١) المقريزي: اتعاظ ج٢ ص٣١٩، ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦، ابن القلانسي: الذيل ص١٩٩، ابن أبي الهيجاء: ص١٢٥.

(٢) ابن القلانسي: ص١٩٩.

(٣) طقوش: ص١٢٩.

(٤) ابن القلانسي: ص١٩٩، ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦.

(٦) المقريزي: ج٢ ص٣١٩.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦.

اعتذاره عن كل ما جرى منه، إلا أن تتش[1] الذي لا يعرف المسامحة، والذي كان مستعداً لإزاحة أي شخص يقف عائقاً أمام تحقيق حلمه وبسط نفوذه على الشام، رفض جميع الأعذار التي ساقها إليه أتسز، وذهب ابن القلانسي إلى القول إن أتسز بذل لتتش الطاعة والمناصحة[2] لكن تاج الدولة رفض حتى اعتذاره، فعاتبه أولاً، ثم قبض عليه في الحال، وقتله من ساعته[3]. وأفضل وصف لما حدث ما قاله العظيمي: «ودخل تاج الدولة دمشق، وغدر بأتسز، وتسلَّم دمشق»[4] وهو يشابه إلى حد ما، ما قاله ابن خلدون: «فخرج أتسز للقائه (تتش) بظاهر البلد، فتحيّن عليه، حيث لم يستعد للقائه، وقبض عليه، وقتله لوقته»[5] وكان ذلك في عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، وبهذا لم يعد هناك أي قائد قادر على منافسة تتش في دمشق، ومن هنا بدأت دولته، إلا أن طموحه كان أكبر من ذلك بكثير لأنه يريد الشام كله، لذا حاول أكثر من مرة أن يأخذ حلب، بعد محاصرتها، لكنه لم ينجح في ذلك.

وفي عام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م[6] فرض تاج الدولة حصاراً على حلب، فقام الحلبيون بالدفاع عن مدينتهم باستماتة، فلم يكن أمام تاج الدولة سوى فك

(١) وصف سبط ابن الجوزي تتش بأنه كان من» العقلاء الساسة». ج١٣ ص١١٤. وفي الحقيقة أنه أبعد ما يكون عن ذلك، وسيرته تؤكد هذا الأمر.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٠٠.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٦-٢٧٧، ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به: عادل سعد، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٠م ج٣ ص٤٦٧، ابن أبي الهيجاء ص١٢٦.

(٤) العظيمي: ص٣٥٠.

(٥) ابن خلدون: ج٣ ص٤٦٧.

(٦) ابن القلانسي: ص٢٠١، ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٩، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٦.

الحصار، عندئذ قام الأهالي بتسليم المدينة لأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش[١] فدخلها في العام نفسه ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م[٢] ثم فرض الحصار على قلعتها «بالمنجنيقات والعساكر»[٣] «واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس»[٤] فدخلها في العام التالي، وبذلك انتهت الدولة المرداسية. وابتدأت دولة العقيليين التي يتولاها ابن قريش في حلب إضافة إلى الموصل، وفي الوقت نفسه، تأسست إمارة جديدة في شيزر، هي إمارة بني منقذ وذلك في ١٥ رجب ٤٧٤هـ/ ٢٠ ديسمبر١٠٨١م[٥].

*** مسلم بن قريش:**

في المقابل أخذ مسلم بن قريش العقيلي يتوسع على حساب الدول المحيطة به، بل أخذ يُمنّي نفسه في توحيد الشام تحت يديه، لكنه أقلقه وجود إمارة بني منقذ الجديدة، التي قد تمنعه من تحقيق حلمه. لذا لم يتردد في فرض الحصار عليها رغم العلاقة الجيدة التي تربطه ببني منقذ، وكان علي ابن منقذ يعلم بطمع وطموح ابن قريش، لذلك «تأهب للحصار، وحمل إلى شيزر ما

---

(١) زوجته خاتون أخت السلطان ألب أرسلان، عمة السلطان ملكشاه. ابن العديم: ج١ ص٣٠٦.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٠١، ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٩، أبو الفداء: ج٢ ص٦.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٠١.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٩.

(٥) سديد الملك ابن منقذ قام بتعمير قلعة الجسر، ثم قصد مضايقة شيزر، وبها أسقف البارة (الآن قرية في وسط جبل الزاوية تتبع منطقة أريحا- محافظة إدلب) وضيّق عليه، إلى أن راسله، واشتراها منه، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه، ولم يزل ابن منقذ يعده الجميل، ويتلطف له إلى أن سلّم إليه حصن شيزر ليلة الأحد النصف من شهر رجب من سنة ٤٧٤هـ... فثقل ذلك على شرف الدولة وحسد ابن منقذ على شيزر، فقام بمحاصرتها دون جدوى. ابن العديم: ج١ ص٣٠٦.

يكفيه للحصار المتوقع لمدة طويلة[١] كما قام بتحصينها بشكل جيد، ومن ثَمَّ فشل شرف الدولة مسلم بن قريش في اقتحامها عبر الحصار الذي فرضه في محرم ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، وقد عرض علي بن منقذ أن يدفع عشرة آلاف دينار لابن قريش، وأن يكون تابعاً له، مقابل رفع الحصار عن بلاده، فوافق الأخير على ذلك، ورفع الحصار في ٢٨ صفر ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م[٢].

هذه الأحداث، وهذه التطورات، كانت تنبئ عن وجود أقطاب جديدة في الصراع الدائر في المنطقة، ومن هذه الأقطاب مسلم بن قريش الذي أصبح يملك الشام الشمالية ونقصد بها حلب، وكذلك الجزيرة والموصل، ويقف خلفه عدد من القبائل العربية، كل هؤلاء في مواجهة تتش بن ألب أرسلان الذي يملك الشام الجنوبية أي دمشق، وخلفه الأتراك.

هذه الصراعات كانت تشير إلى زيادة تمزق الدولة السلجوقية، رغم إنها مازالت بيد سلطان قوي هو ملكشاه الذي يحافظ حتى هذه اللحظة على ترابط ووحدة دولته، رغم الصراعات الدائرة هنا وهناك. إلا أن هذا التمزق سوف يظهر شيئاً فشيئاً خلال السنوات المقبلة، مع زيادة الصراعات بين قادة وأبناء السلاجقة.

ومن الملاحظات أن هناك تحركات عدة تجري في الساحة الشامية، سواء من قبل مسلم بن قريش الذي أخذ يفرض سيطرته على العديد من المدن، أو من

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٣٠٦.

(٢) كان هدف مسلم بن قريش من الاستيلاء على شيزر إمارة بني منقذ، هو جعل الشام كله قطعة من دولته، فبعد أن استولى على حلب ضم حران إلى أملاكه، ثم جرد جميع أمراء الأسرة المرداسية من أملاكهم، كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في أيدي التركمان، ونظف شمالي الشام حتى مدينة حماة من التركمان، وحال دونهم ودون الدخول إلى أراضيه حتى ولو مروراً، وتوج أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وأنطاكية في الغرب، وكانت من أملاك الإمبراطورية البيزنطية. زكار: المدخل ص١٧٧.

قِبل الأمراء الذين يريد ابن قريش أن يأخذ منهم ما تحت أيديهم، فعندما توجَّه تتش إلى أنطاكية[٣] التي كانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية، وكان في خدمته الأمير وثاب بن محمود بن مرداس، وصلت إليه رسائل عدة من بعض أمراء الأسرة المرداسية، ومن أميري حمص وشيرز، يشكون إليه شرف الدولة الذي هاجم أملاكهم، وأضحى بنظرهم يشكل خطراً حقيقياً عليهم، وعرضوا التعاون معه لطرده من بلاد الشام،، وعندما علم تتش بما يقوم به مسلم بن قريش، والقوة التي أصبح عليها، بعد أن اجتمع حوله عدد من العرب من بني نمير وعقيل، وبني شيبان والمولدة وكذلك الأكراد[٤] وأنه ينوي فرض الحصار على دمشق، بمعاونة جيش فاطمي[٥] قرر تتش العودة إلى دمشق، ودخلها في الأول من محرم ٤٧٦هـ/ ٢١ مايو ١٠٨٣م[٦] وعاد كل أمير إلى إمارته للدفاع عنها.

ولا شك أن دمشق كانت تمثل الغنيمة الكبرى بالنسبة لابن قريش إن فاز بها، فهي تعني الخطوة المهمة لتأسيس إمارة عربية تضم الشام والجزيرة إضافة إلى أجزاء من العراق، لكن مثل هذا الحلم الكبير، لا يمكن للسلاجقة أن يسمحوا بتنفيذه مهما كلفهم الأمر، وبالتالي بات الصراع على أشده بين مسلم بين قريش، وتتش بن ألب أرسلان الذي يريد أن يوحد الشام تحت رايته، على أن تكون هذه الخطوة الأولى، بحيث يمكن أن تتبعها خطوات أخرى كي يصبح السلطان الجديد للسلاجقة، ولكن عليه أولاً الحفاظ على دمشق من جشع ابن قريش.

---

(٣) تمكن صاحب قونية سليمان بن قتلمش من فتحها عام ٤٧٧هـ، وكانت بيد الروم من سنة ٣٥٨هـ، «أرسل سليمان إلى السلطان ملكشاه يبشره بذلك، وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله ومن يتولى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به، وهنأه الناس». ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٨.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٠٢.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٢٨٩.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٨٩، ابن القلانسي: ص٢٠٢-٢٠٣.

جاء مسلم بن قريش إلى دمشق في أواخر محرم لفرض الحصار عليها مع جيش كبير، بعد أن وصله جيش إضافي من بني كلاب وعرب قيس واليمن[١] إلا أن الجيش المصري الذي طلبه من الخليفة الفاطمي، لم يصله، رغم أن الأخير وعده بإرسال النجدة إليه[٢] وخرج عسكر دمشق إلى عسكر مسلم بن قريش المحاصِر لمدينتهم، فقاتَلوه «وحملوا على عسكره حملة صادقة، فانكشفوا وتضعضعوا وانهزمت العرب، وثبت شرف الدولة ابن قريش، وأشرف على الأسر، وتراجع إليه أصحابه»[٣].

والملاحَظ أن مسلم بن قريش كان معتمداً بشكل كبير على الجيش المصري[٤] لِمَا يملكه من قوة كبيرة، ولكن عندما علم بعدم قدوم هذا الجيش -ويعود السبب في ذلك إلى خشية أمير الجيوش بدر الجمالي بأن يميل العرب إلى ابن قريش- لهذا تثاقل عنه[٥] علاوة على التغيرات التي حدثت على أرض الواقع، لهذا اضطر ابن قريش الرحيل عن دمشق، وخلال ذلك «ورد إليه خبر أزعجه»[٦] وهو وجود ثورة قامت ضده في حران[٧] للخروج عن طاعته، وقام

(١) ابن القلانسي: ص٢٠٢.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٢٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٨٩.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٠٠٣.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٣١٠.

(٦) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٠. ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٠.

(٧) كان مسلم بن قريش يسعى إلى السيطرة على بلاد الشام، فقد تسلّم حران من يحيى الشاطر أحد عبيد ابن وثاب النميري، كما قبض على الأتراك الذين في الشام، وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي: بيت لاها، وتل أعذى، وهاب وكفرنبل، وقبض على وثاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منهما قلعة عزاز، والأثارب، وأطلقهما بعد ذلك، كما قبض مسلم بن قريش على أكثر اقطاع بني كلاب بالشام. المصدر نفسه: ج١ ص٣٠٧ و٣١٠.

أهلها بعصيانه، بعدما تم الاتفاق بينهم وبين القاضي ابن جلبة وابن عطير النميري على تسليم البلد إلى أمير تركي يدعى جبق، لذا «أظهر (ابن قريش) أنه يريد البلاد بفلسطين، فرحل أولاً إلى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق، وتتش[١] واضطربوا، ثم رحل من مرج الصفر[٢] ويمَّم وجهه شطر حران فوصلها يوم ٨ ربيع الأول ٤٧٦هـ/ ٢٦ يوليو١٠٨٣م، وقام بمحاصرتها وحاول أهلها الدفاع عن مدينتهم، لكنه تمكّن من اقتحامها، وقَتَل قاضيها وابنيه، وقام بهدم سورها[٣] كما ألقى القبض على عدد كبير من أهل حران، وقتل منهم ثلاثة وتسعين رجلاً صبراً[٤].

وكان السلطان السلجوقي ملكشاه بدأ يتحرك، في محاولة منه لبسط سلطته على إقليم الجزيرة والشام، فقد أرسل فخر الدولة بن جهير في العساكر السلطانية إلى ديار بكر في عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م[٥] ليأخذها من ابن مروان، وأن يخطب لنفسه، ويذكر اسمه على السكة[٦] وفي العام التالي سيّر السلطان جيشاً آخر بقيادة الأمير أرتق بن أكسب[٧] لمساعدة ابن جهير، وعيّن حاجبه قسيم الدولة آق

(١) يقول ابن تغري في حوادث سنة ٤٧٦هـ: «وفيها عزم تتش صاحب دمشق على مصاهرة أمير الجيوش بدر الجمالي وزير مصر وصاحب عقدها وحلها على ابنته، فأشار ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها على تتش بألا يفعل، فثنى عزمه عن ذلك». ابن تغري: جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثانية مصورة عن الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ج٥ ص١١٦.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٠.

(٣) ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٣٣، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٣٤.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣١١، ابن الأثير: ج٨ ص٢٩١.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩١، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٧.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٩١.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٩٥.

سنقر[١] مسؤولًا عسكرياً على الحملة[٢].

❋ ابن مروان وابن قريش:

وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى قيام نصر بن مروان صاحب ديار بكر، في البحث عن حليف قوي، يسانده أمام قوة السلاجقة، فلم يجد أفضل من مسلم بن قريش، الساعي إلى بسط نفوذه وسيطرته على المنطقة، وأيضاً حتى لا يقف في صف ابن جهير، فتم التحالف بينهما، واستعد الفريقان، إلى المواجهة المرتقبة التي كان لابد منها، فالسلاجقة كانوا يرفضون أي قوة متصاعدة تقف أمامهم، وتمنعهم من توحيد الشام والجزيرة تحت سلطتهم، في المقابل فإن مسلم بن قريش زعيم الأسرة العقيلية، هذه القوة الجديدة المتنامية، تريد أن تأخذ حصتها، وتفرض سطوتها، حتى لو كان ذلك على حساب القوة الكبيرة للسلطنة السلجوقية، أو على حساب القوى الإقليمية المنتشرة في المنطقة. خصوصاً في ظل وجود أعداء للسلاجقة، يمكن أن يكونوا في صف زعيم العقيليين، ومن هؤلاء نصر بن مروان، الذي يسعى السلاجقة لأخذ بلاده منه، وقدّم ابن مروان تنازلات عدة لمسلم بن قريش كي يقف إلى جانبه، فقد أعطاه آمد، فحلف كل واحد لصاحبه[٣] واتفقا على قتال فخر الدولة ابن [٤]. وعندما علم فخر الدولة باتفاقهما، مال إلى الصلح، وقال: لا أوثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي، فعرف

---

(١) آق: معناها أبيض، و«قرة» ومعناها أسود، وتستعمل هاتان الكلمتان كثيراً في اللغة التركية لتسمية الأشخاص والأماكن. غنام: الألفاظ التاريخية ص٢٨.

(٢) طقوش: ص١٣٧.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٩٥.

التركمان ما عزم عليه ابن جهير[١] فقرروا الهجوم على القوى العربية (ابن قريش وابن مروان) في ربيع الأول ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، وتمكَّن التركمان من الانتصار في المعركة، وفرّ ابن قريش ومَن معه إلى آمد. وهناك تمت محاصرته.

كان يمكن أن ينتهي كل شيء في آمد، وينتهي مسلم بن قريش نفسه، لكن تطورات الأوضاع في خراسان جعلت ملكشاه، الذي خرج من أصفهان إلى الموصل ومعه وزيره نظام الملك[٢] للقضاء على مسلم ومَنْ معه، يعود أدراجه، ففي خراسان خرج أخوه الملك شهاب الدولة تكش بن ألب أرسلان عليه في عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م[٣] ولكن قبل عودته، كان لا بد من تصفية الأجواء مع زعيم العقيليين، بعدما أدرك السلطان ملكشاه مدى القوة التي يملكها، فقد شجّع نظام الملك، شرف الدولة مسلم بن قريش للمثول أمام السلطان، وعندما لقيه نظام الملك قال له: «ذهب خوفك وشُرِح صدرك، وحُقق أملك»[٤]، ثم دخل على السلطان «فأكرمه وأحَسَنَ إليه، وأجابه إلى كل ما طلبه، وسامحه بما كان بقي عليه من مقاطعة الشام، وجدّد له التوقيع بالبلاد الشامية، والجزرية، وكل ما كان في يده»[٥].

كان ذلك بمثابة طوق النجاة لشرف الدولة مسلم بن قريش، جاءه من حيث لا يحتسب، فالأزمة الطاحنة التي مرّ بها كادت تقضي عليه، وعلى مُلكه، لا سيما بعد النكبة العظيمة التي تعرض لها في معركته الأخيرة أمام التركمان. وبذلك عاد

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٩٥، الأصفهاني: آل سلجوق ص٧٠.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣١٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٧، الحسيني: الدولة السلجوقية ص٨٢.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣١٢.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٣.

ملكشاه إلى خراسان للقضاء على ثورة أخيه، وعاد مسلم بن قريش إلى ملكه، مع وجود توصية من السلطان ملكشاه إلى أخيه تتش بعدم التعرض له[١].

وهذا ما جعل ابن قريش يزداد غروراً، لا سيما بعد أن اطمأن من ناحية تتش بن ألب أرسلان، أو هكذا ظن على الأقل، لهذا التفتَ إلى سليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم[٢] وطالبه بما كان يدفعه صاحب أنطاكية للسلطان جلال الدولة ملكشاه، بعدما تمكَّن سليمان بن قتلمش من فتح أنطاكية[٣] في ١٠ شعبان٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م[٤] وأخذها من صاحبها فلاردوس[٥] التابع للإمبراطورية البيزنطية. وصار لسليمان من نيقية[٦] إلى طرابلس، كما مَلَكَ الثغور الشامية[٧].

وكان سليمان بن قتلمش قد أرسل رسالة إلى السلطان ملكشاه «يُبشره بذلك، ويُنسِب هذا الفتح إليه، لأنه من أهله، وممن يتولى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به، وهنأه الناس»[٨]. فقد قال شرف الدولة مسلم بن قريش لسليمان: «للسلطان في كل سنة على أنطاكية مال، فإن كنتَ طائعاً فابعث به إليّ، وإن كنتَ عاصياً فعرّفني. فقال: بل أنا السامع المطيع، وقد كتبتُ إلى السلطان أخبره هذا الفتح،

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٣.

(٢) تأسست دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بعد معركة مانزكرت أو ملاذكرد عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، وعاصمتها نيقية، وأسسها سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق واعترف به التركان زعيماً عليهم عام ٤٧١هـ.

(٣) أنطاكية بيد البيزنطيين مذ عام ٣٥٨هـ. ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٨.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٠٦.

(٥) بعض المؤرخين يذكرون أن اسمه فردوس.

(٦) نيقية: من أعمال اسطنبول على البر الشرقي. الحموي: المعجم ج٥ ص٣٣٣.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٣١٥.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٨.

والمال إنما كان يُؤخذ من صاحب أنطاكية على وجه الجزية، ونحن مسلمون، ومن جند السلطان»[١]. وفي رواية لابن الأثير قال فيها: «أما طاعة السلطان، فهي شعاري، ودثاري، والخطبة له، والسكة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد، وأعمال الكفار، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن، ولا أحمل شيئاً»[٢].

لكن هذا الرد لم يُعجب مسلم بن قريش، لهذا بعث رسالة إلى سليمان قال له فيها: «ما نعرف إلا المال» وكتب له كلاماً غليظاً[٣] ثم هاجم بلد أنطاكية وقام بنهبها[٤] وهو ما جعل ابن قتلمش يغضب ويرد عليه بإرسال عساكره، إلى بلاد ابن قريش، فنهبوا سواد حلب ومنبج إلى المعرة، وسبوا وساقوا من الجمال، والدواب، والماشية الشيء الكثير، إلا أنه اعتذر لأصحاب الأموال المنهوبة، وقال لهم: «مالي بهذا عادة، وإنمَّا أميركم فعل هذا، حيث أنزلني منزلة الكفار»[٥] ثم قام سليمان برد المسروقات إلى أصحابها.

هذا الصراع المحتدم بين الطرفين، وإغارة كل واحد على بلد الآخر، جعلتهما يستعدان للمعركة الحاسمة بينهما، لا سيما أن الوضع يبدو أكبر من قضية دفع الأموال من أنطاكية إلى حلب، فالأمر يتعلق بزعامة المنطقة، والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من البلاد، إذ أن شرف الدولة مسلم بن قريش الذي فَلَتَ

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص١٥٩.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج٨ ص١٥٩.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص١٥٩.

من يد السلطان ملكشاه بأعجوبة، اعتَقَدَ أن بإمكانه أن يتوسع كيفما يشاء، طالما أن تتش بن ألب أرسلان بعيدٌ عنه، بعدما منعه السلطان من التعدي على بلاده، إلا أن انتصار سليمان بن قتلمش على أنطاكية وأخذها من الإمبراطورية البيزنطية، كان يعني بروز قوة سلجوقية جديدة، لم يكن يحسب لها أي حساب. وبالتالي لم يعد المكان يتسع لهما معاً، فكان لا بد من القضاء على ابن قتلمش، حسب وجهة نظر ابن قريش، أو هكذا توهّم على أقل تقدير.

*** ابن قتلمش وابن قريش:**

ونتيجة لذلك تحرك ابن قريش لانتزاع أنطاكية من يد ابن قتلمش، وجمع ستة آلاف مقاتل من العرب والتركمان وتحالف مع جبق أمير التركمان، فلمَّا عَلِم سليمان بذلك جمع عساكره وتوجّه إليه، والتقى الفريقان يوم ٢٤ صفر ٤٧٨هـ/ ٢١ يونيو ١٠٨٥م في طرف من أعمال أنطاكية، واقتتلوا قتالاً عظيماً، ومال أصحاب جبق التركمان إلى سليمان بن قتلمش، وانتهى القتال بانتصار الأخير، وتم قتل مسلم بن قريش وأربعمائة غلام من أحداث حلب[1]. يقول ابن العديم: «..والشمس في وجوه عسكر شرف الدولة، وكان القتال بغتة في غير وقت يظن فيه، فانهزم عسكر شرف الدولة، وجاءته طعنة فقُتِل، ولما طُعن قال: يا شام الشؤم، واتُّهم بعض أصحابه بقتله، وكان القتل بين الفريقين قليلاً، لأن أصحاب شرف الدولة لم يثبتوا معه لقبح رأيهم فيه»[2].

وكان غياب ابن قريش عن مسرح الأحداث له أكثر من أثر ومعنى:

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٢٩٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص١٦٥-١٦٦، ابن أبي الهيجاء: ص١٣١-١٣٢، ابن واصل: ج١ ص١٥.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣١٧.

- فقدان أي أمل في تأسيس إمارة عربية كبيرة، يمكن أن يكون لها دور فاعل ومؤثر خلال المرحلة المقبلة.

- القوة الحقيقية على أرض الواقع انحصرت بين شخصيتين فقط هما: تتش بن ألب أرسلان وسليمان بن قتلمش، وكلٌّ منهما له طموحه ومشروعه الخاص.

- باتت الطريق مفتوحة لسليمان بن قتلمش لتوسيع دولته التي أسسها في آسيا الصغرى وستُعرف فيما بعد باسم سلاجقة الروم.

وبناء على ذلك أراد ابن قتلمش الاتجاه نحو حلب، وصاحبها المقتول، لذا قام بمحاصرتها في ٥ ربيع الآخر، لكنه لم يتمكن من اقتحامها(١) ثم أرسل الرسل إلى أهل حلب، كي يُسلِّموا المدينة، لكنهم رفضوا عرضه(٢) وحينها عاد أدراجه.

ومع ذلك لم يدب اليأس في قلب سليمان بن قتلمش، صحيح أنه لم يتمكن من أخذ إمارة حلب، لكنه سارع إلى أخذ بلداتها، مثل: كفر طاب ومعرة النعمان(٣) ثم أرسل كتاباً ومالًا(٤) لرئيس الأحداث في حلب الشريف أبي علي بن هبة الله الهاشمي أو العباسي(٥) المعروف بالحتيتي(٦) الذي انفرد بتدبير أمر

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٠٠، ابن واصل: ج١ ص١٥.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣١٨.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٩.

(٤) ابن واصل: ج١ ص١٦.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٣٠٧.

(٦) يقول ابن العديم إن: «الشريف حسن الحتيتي رئيس حلب، وغيره من أصحاب شرف الدولة خافوا منه لما استقر حاله مع السلطان أن يتم له الصلح مع ابن قتلمش، فيتفرغ لهم ويقبضهم، ويستأصل أموالهم، فتوصلوا إلى المفاسدة بينهما بمن صار في حلته من أهل الشام ليشتغل عنهم شرف الدولة». =

حلب[١] وأصبح الحاكم الفعلي لها، رغم أن شقيق مسلم بن قريش، إبراهيم[٢] تسلَّمها بعد مقتل أخيه، إلا أن الحتيتي الذي بنى لنفسه قلعة سُميت بقلعة الشريف، خوفاً من أهل حلب الذين كرهوا ولايته عليهم[٣] وطلب ابن قتلمش منه تسليم المدينة، لكن الحتيتي رفض طلبه، وأرسل كتاباً إلى السلطان ملكشاه، يخبره أنه على أتم الاستعداد لتسليم المدينة إليه، وطالبه بإرسال نجدة تنقذ المدينة من سليمان بن قتلمش[٤] عندها قام الأخير بمحاصرة حلب[٥] إلا أن ملكشاه، الذي تحرك على رأس قوات كبيرة، نحو حلب، كان تحركه بطيئاً، وهو ما أتاح الفرصة لابن قتلمش بالتضييق على الحتيتي[٦] الذي لم يكن أمامه سوى إرسال رسالة إلى تتش صاحب دمشق، هذه الرسالة التي كان يتمناها منذ أمد بعيد، خصوصاً أنها كانت تعني تحقيق حلمه في توسيع مملكته بضم حلب، ومن ثم توحيد الشام تحت رايته، كما كانت تعني من دون شك البداية للقضاء على سليمان بن قتلمش الذي احتفظ بأنطاكية لنفسه، وبالتالي فهو خارج عن السلطة السلجوقية من وجهة نظر تاج الدولة، لهذا لم يرد الأخير أن تضيع منه هذه الفرصة، فقد أعد جيشه، وخرج من دمشق في محرم ٤٧٩هـ/ مايو ١٠٨٦م[٧] وسار مع القائد أرتق

= ج١ ص٣١٦.

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٨.

(٢) ابراهيم بن قريش عاد من أصفهان إلى الموصل، وقد قرره السلطان على الموصل والجزيرة، وزوّجه خاتون صفية عمته التي كانت زوجة مسلم، وكانت مقيمة في الموصل. سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص١٧٦.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣١٩.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٣١٩، ابن واصل: ج١ ص١٦.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٣٢٠.

(٦) زكار: ص١٩٠.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٣٢٠.

بن أكسب الذي قال عنه ابن الأثير: لم يدخل حرباً إلا انتصر بها[١].

*** تتش وابن قتلمش :**

وعندما عَلم سليمان بن قتلمش بتحرك تتش، فكّ الحصار عن حلب، واتجه مسرعاً لملاقاته، ووصل إليه وقت السحر من غير تعبئة أو استعداد بشكل جيد للمعركة، ثم بدأ بالاستعداد، لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً[٢] والتقى الجيشان السلجوقيان، أصحاب تتش الطامح لامتلاك الشام، وأصحاب ابن قتلمش الساعي لتوسيع أراضيه، رغم أن ذلك لم يكن في صالح السلطنة السلجوقية، وكان اللقاء في مكان يًعرف بعين سليم[٣] بين أنطاكية وحلب[٤]. وقاد الأمير أرتق بن أكسب جيش تتش بحنكة واقتدار، وأحسن تدبيره[٥] وأسفرت المعركة عن انتصار ساحق لتاج الدولة، وقتْل سليمان بن قتلمش[٦] وعندما عَلِم تتش بخبر مقتله، قال لأصحابه: «لا تُبيّنوه لي حتى أُريكموه من بين القتل، فلمّا أخبرهم أنه هو بالفعل، قيل له: ومن أين علمتَ ذلك؟ قال: قَدَمُه تشبه قَدَمي، وأقدام

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٠٧. وهو جد ملوك الأراتقة.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٠٧.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٢٠.

(٤) طقوش: ص١٤٢، بين عين سليم وحلب ثلاثة أميال، وكانت بها وقعة بين عطية بن صالح ومحمود بن صالح ابني مرداس في عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م. الحموي: ج٤ ص١٧٨.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٣٢٠.

(٦) يقول ابن العديم: اختلف في قتل سليمان، فقيل: عارضه فارس من فرسان تاج الدولة، فرماه في صدغه بسهم، فقتله. وقيل: بأنه لما يئس من النصرة نزل عن فرسه، وقتل نفسه بسكين خفِّه، وقيل: إن المصامدة تتبعت أسلاب القتل فظفروا بدرع مرصع بالياقوت والعقيان النفيس. ج١ ص٣٢١، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٤٠، ابن كثير: ج٨ ص٣٣٩، ج١ ص١٦، النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص٩٣، ويذكر ابن أبي الهيجاء: «فجاء ابن قتلمش سهماً في وجهه فوقع ميتاً». ابن أبي الهيجاء: ص١٣٦.

بني سلجوق تتشابه»[١]. «وكانت هذه المعركة أول معركة يتقاتل فيها جيشان سلجوقيان من أجل السيادة على مناطق الشام»[٢].

وقد ترتب على مقتل سليمان بن قتلمش نتائج خطيرة بعيدة الأثر[٣]:

- مازال قلج أرسلان ابن القتيل طفلاً صغيراً، وهو ما جعل الأناضول بين عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م-٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م من دون حاكم قوي من السلاجقة، فأتيحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور.

- عدم وجود رجل قوي من زعماء السلاجقة في الأناضول في تلك الفترة بالذات له أهميته الكبرى للحملة الصليبية الأولى، لأنه مكّن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم في غير صعوبة كبيرة إلى الشام.

- أصبحت هناك فرقة في صفوف السلاجقة، وهو ما جعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة الشام هذا الجرم، لذلك لم يستطع السلاجقة أن يتَّحدوا جميعاً لمواجهة الخطر الصليبي عند وصولهم إلى المنطقة.

بعد تلك المعركة توجَّه تتش إلى حلب، وطلب من الشريف حسن الحتيتي[٤] تسليم المدينة إليه، كما أخبره بالرسالة التي بعثها إليه، إلا أن الأخير رفض التسليم، بحجة أن كُتُب ملكشاه وصلته بتجهيز العساكر إليه[٥] فلمْ يقتنع تتش

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٢١.

(٢) زكار: ص١٩٠.

(٣) عاشور: سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٥، ج١ ص٩٠.

(٤) قال ابن الأثير في أحداث ٤٧٩هـ: «ولمّا ملك السلطان (أي ملكشاه) البلد (أي حلب) طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحتيتي، فأجابهم إلى ذلك، واستصحبه معه، وأرسله إلى ديار بكر فافتقر. وتوفي بها على حال شديدة من الفقر، وقتل ولده بأنطاكية، قتله الفرنج لمّا ملكوها. ابن الأثير: ج٨ ص٣٠٩.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٣٢١.

بهذه الحجة، فأمر قواته بمحاصرة المدينة حتى تسقط[١] ثم تمكَّن من استلامها بالحيلة بعدما اتفق مع شخص يدعى ابن الرعوي[٢] الذي قام برفع رجال تاج الدولة تتش إلى سور المدينة بواسطة الحبال، وكان ذلك في ليلة السبت ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩هـ/ ١١ يوليو ١٠٨٦م[٣] لهذا استجار ابن الحتيتي بالأمير أرتق فشفع له[٤]. وبقي تتش بحلب حتى ٢٧ ربيع الآخر ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ولمّا عَلِم بوصول عساكر أخيه السلطان ملكشاه، بقيادة برسق وبوزان، وغيرهما من الأمراء[٥] قال له الأمير أرتق بن أكسب: «إنهم قد وصلوا، وبِهِم وبِدَوابهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع، ولو فعل لَظَفر به، فقال تتش: لا أكسر جاه أخي، الذي أنا استظل بظله، فإنه يعود بالوهن عليّ أولاً»[٦] فرحل إلى دمشق، أما ملكشاه فقد امتلك في طريقه إلى حلب كلاًّ من: الرها التي أخذها من البيزنطيين، وقلعة جعبر، ومنبج، فدخل حلب في ٢٣ شعبان ٤٧٩هـ/ ٣ ديسمبر ١٠٨٦م[٧] وقام بترتيبات عدة وهي:

- سلّم حلب إلى حاجبه المخلص قسيم الدولة الأمير آق سنقر[٨] والد عماد الدين زنكي[٩].

---

(١) زكار: ص١٩١.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص ٣٠٧.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٢٢.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص ٣٠٨، ابن العديم: ج١ ص٣٢٢.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٠٨، المصدر نفسه: ج١ ص٣٢٣.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٠٨.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٣٢٤.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٣٠٩، ابن العديم: ج١ ص٣٢٤، ابن أبي الهيجاء ص١٣٧، عاشور: ص٩٠.

(٩) هو الشخصية الأولى التي أفردنا لها في هذه السلسلة « شخصيات تاريخية» وهو والد نور الدين زنكي، الشخصية الثانية من السلسلة ذاتها.

- توجَّه إلى أنطاكية التي كانت من دون حاكم بعد وفاة سليمان بن قتلمش، وتسلَّمها من الحسن بن طاهر وزير ابن قتلمش، وأقطعها لقائد تركي آخر هو مؤيد الدولة ياغي سيان(١).

- منح ملكشاه مدينة الرها إلى قائد تركي ثالث هو بوزان.

ووفقاً لهذه الترتيبات لم يبق لتاج الدولة تتش سوى فلسطين ودمشق، كما ظلَّت بيت المقدس بيد الأمير أرتق بن أكسب مؤسس الأسرة الأرتقية الذي خَلَفه بعد وفاته عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م ابنه سقمان، وإذا كان ملكشاه منع تاج الدولة تتش من تحقيق حلمه بتأسيس إمارة موحدة في الشام، ففي المقابل فإن تتش منع السلطان أيضاً من توحيد الشام تحت رايته(٢).

*** تتش وآق سنقر:**

كانت كل المؤشرات تؤكد عدم وجود أي شخصية قادرة على مواجهة تتش بن ألب أرسلان، بعد ابن قتلمش وابن قريش، سوى السلطان نفسه. ولكن قيام ملكشاه بتسليم حلب إلى قسيم الدولة كان يعني بروز شخصية جديدة لها وزنها وثقلها لدى السلطان، لمواجهة تتش، لا سيما أن استلام آق سنقر(٣) لمدينة حلب، كان يعني ضياع هذه المدينة من تاج الدولة إلى أجل غير مسمى، خصوصاً أن هذا الأمير هو مملوك ملكشاه، ونشأ معه، وكبرا معاً، وبلغ منزلة رفيعة لديه، لدرجة أنه صار عماد الدولة في المهمات(٤) وعيّنه حاجباً له، ولقبّه بـ «قسيم الدولة» أي

---

(١) زكار: ص١٩٢، ابن واصل: ج١ ص١٩. وقد رُسِم اسم ياغي سيان بأكثر من طريقة منها: يغي سيان، يغي سغان، باغيسيان، ياغيسيان، بعيسان. ويسميه المؤرخ وليم الصوري «اكسيانوس».

(٢) عاشور: ج١ ص٩١.

(٣) أحياناً يرسم الاسم كلمة واحدة آقسنقر.

(٤) مصطفى: الموسوعة ج٢ ص٧٤٠.

الشريك في الحكم. وعلاوة على كل ذلك فإن قسيم الدولة تزوَّج داية السلطان ملكشاه[١] كما أن كل هذا كان يعني أن هناك نزاعاً وصراعاً جديداً سوف يبرز سريعاً إلى السطح بين شقيق السلطان، وحاجبه، لاسيما أن قسيم الدولة كان يعلم بطمع تتش بحلب، ليضمّها إلى إمارته دمشق، لهذا سارع بتشكيل جيش لحماية هذه الإمارة الوليدة من الطامعين، وكان نواته من الفرسان الذين تركهم ملكشاه في حلب قبل رحيله[٢] والبالغ عددهم أربعة آلاف فارس[٣].

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه، ماذا سيحدث بين الخصمين اللدودين؟ أحدهما مقرب لدى السلطان، ويسعى إلى كسب ثقته، ولديه طموح كبير نحو المستقبل، فضلاً عن شجاعته وبسالته في الذود عن إمارته الجديدة، وكذلك سعيه للتوسع على حساب البيزنطيين. والآخر هو شقيق السلطان، ولديه طمع لا حدود له في استعادة حلمه الذي يراه يتبدد أمام عينيه في تشكيل إمارة كبيرة في الشام تجمع ما بين دمشق وحلب، وكل البلدات والقلاع التابعة لهما.

بعد ذلك وقعت أحداث عدة ساهمت بتسريع الصدام المرتقب بين الطرفين، نوجزها فيما يلي:

١- في عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م أرسل تاج الدولة تتش إلى أخيه السلطان ملكشاه رسولاً، وطلب منه أن يأمر آق سنقر وبوزان[٤] لنجدته، بعد استيلاء

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٢٧، يقول ابن الأثير: «وكان زوج دادة السلطان ملكشاه، وهي التي تحضنه وتربيه» ج٨ ص٣١٨.

(٢) أخذ ملكشاه معه الحتيتي بناء على طلب أهالي حلب، وأرسله إلى ديار بكر، وهناك افتقر، وتوفي بها على حال شديد من الفقر. ج٨ ص٣٠٩، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٢ ص١٦.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٢٥.

(٤) سبط ابن الجوزي يسميه توزان.

الفاطميين على الساحل ومضايقة دمشق، فوافق على ذلك[١]. ولا شك أن تاج الدولة، الذي طلب العون من أخيه السلطان، أدرك أن ما فشل في تحقيقه في الحرب يمكن أن يأخذه بالسياسة، «ولكن يبدو أن أوامر السلطان تلك لم تُنَفذ، فلمْ يذهب بوزان ولا آق سنقر إلى مساعدة تتش. كما أن تاج الدولة لم يقم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل»[٢]. ولا شك أن بوزان وآق سنقر كانا يعلمان بمآرب وأطماع تتش من هذا الطلب، حتى لو كان صحيحاً ما ذكره بشأن استيلاء الفاطميين على الساحل.

٢- في عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م، استولى الفاطميون على مدن صور وصيدا وعكا وجبيل[٣] وكان ذلك بمثابة تهديد جديد لوجود السلاجقة في الشام، ثم قام الفاطميون بحصار بعلبك، وأثناء ذلك اجتمع القائد الفاطمي مع صاحب حمص وأفامية خلف بن ملاعب، واعترف له رسمياً بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه[٤]. وهذا تهديد إضافي لم يخطر على بال السلاجقة مطلقاً. ونتيجة لهذا الاتفاق، قامت الحملة الفاطمية أثناء وجودها في الشام، وعلى رأسها خلف بن ملاعب بالاعتداء على بعض الأراضي التابعة لتاج الدولة، فأمر السلطان ملكشاه ولاته بمساعدته[٥] وأن يتَّحدوا معه للقيام بعمل تأديبي ضد ابن ملاعب، ومن ثَمَّ الاستيلاء على جميع أملاك الفاطميين في الشام، وعهد السلطان إلى تتش قيادة

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص١٨٦.

(٢) زكار: ص٢٠٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٢٨، الذهبي يذكر ذلك في سنة ٤٨٣هـ. تاريخ الإسلام ج٣٣ ص٦، ابن أبي الهيجاء: ص١٣٩، المقريزي: ج٢ ص٣٢٦.

(٤) زكار: ص٢٠٢.

(٥) النويري: ج٢٦ ص٦٥.

الجيش، وقَبِل بوزان وآق سنقر الأمر مُكرهيْن، فهما لم يرغبا بقيادة تاج الدولة لأسباب شخصية على اعتبار أنه في حال الانتصار في المعركة سيكون كل شيء من نصيبه، وعدم رغبتهما هذه سبّبت نجاحاً جزئياً لتتش[١]. وبعدما وصلت القوات جميعاً إلى خلف بن ملاعب في حمص في عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م[٢] تم القبض عليه، إذ أن ضرره وضرر أولاده كان كبيراً على المسلمين[٣]. فطلب كل أمير من أولئك، المدينة لنفسه، فلمَّا لمْ يتفقوا على شيء كتبوا إلى السلطان، الذي بدوره منحها إلى أخيه تتش، وهو ما أغضب بوزان وآق سنقر[٤].

كان هذا التنافس على حمص، بوادر لاشتعال الصراع بين الطرفين، تتش من جهة، وآق سنقر وبوزان من جهة أخرى، ولن يكون هذا الصراع خفياً، وإنما هو مجرد بداية لحرب كبيرة قد تندلع بينهما في أي لحظة.

٣- عندما واصلت القوات السلجوقية زحفها، اتجهت نحو طرابلس، وتمَّت محاصرتها في ٤٨٤هـ/ ١٠٩٠م، وكان صاحبها قاضي المدينة ابن عمار «احتج عليهم بأن معه منشور السلطان بإقراره على البلد، فلم يقبل منه تتش، ونصب عليه المجانيق، وتوقف آق سنقر عن قتاله، فقال له تتش: أنت تَبَعٌ لي فكيف تُخالفني؟ فقال: أنا تبع لك إلا في معصية السلطان، وهذا من أصحابه؟

---

(١) زكار: ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) ابن الأثير والذهبي يحددان تاريخ أخذ حمص من ابن ملاعب في عام ٤٨٥هـ، بينما يرى ابن القلانسي وابن العديم والعظيمي وسبط ابن الجوزي أن ذلك كان في عام ٤٨٣هـ.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٤٧، ويقول ابن العديم: كتب ولاة الشام إلى السلطان ملكشاه يشكون ما يلقونه من خلف بن ملاعب بحمص من قطع الطريق وإخافة السبيل، فكتب إلى قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرها، فساروا في عساكرهم، فحاصروها وضايقوها ففتحوها، وأعطاها السلطان تاج الدولة تتش. ج١ ص٣٢٨.

(٤) زكار: ص٢٠٣، ابن أبي الهيجاء: ص١٣٩.

فغضب تاج الدولة ورجع إلى دمشق، ومضى آق سنقر إلى حلب، وبوزان إلى الرها»[١]. صحيح أن قسيم الدولة أكد إخلاصه للسلطان من خلال موقفه هذا الذي أغضب تتش، وهو ما لن ينساه أبداً، بعدما كان السبب في ضياع فرصته للاستيلاء على طرابلس، إلا أن قسيم الدولة كان يعلم علم اليقين أن السلطان سوف يُعطي أخاه طرابلس كما أعطاه حمصاً، وهذا ما سيجعله أقوى من أي وقت مضى، لذلك وضع في قرارة نفسه إبقاء طرابلس مستقلة، ومنع تتش من الاستيلاء عليها.. كما أن ابن عمار كان على بيِّنة بما كان بين تتش وآق سنقر من التحاسد والتباغض[٢] لذلك أراد أن يُفرق بينهما ليتقي شر تتش وهو ما نجح به، ثم قام آق سنقر بعد ذلك بأخذ أفامية التي كانت لابن ملاعب وأعطاها لصاحب شيزر نصر بن منقذ[٣] وكان هدفه من ذلك يتماشى مع السياسة التي اتبعها في طرابلس، وهي منع توسع تتش «وهكذا يبعده عن حدود حلب.. وهو بذلك زاد من قوة الإمارة المنقذية التي قامت بين أراضي تتش، وأراضي حلب، وكان بإمكانها أن تقوم بدور حاجز بين شمالي بلاد الشام وبين جنوبه، ذلك إن لم يقف حاكمها إلى جانب آق سنقر في الصراع الذي لابد أنه واقع بينه وبين تتش»[٤].

إزاء كل هذه التطورات والأحداث بين الطرفين طلب السلطان ملكشاه رؤيتهما، عندما زار بغداد في رمضان ٤٨٤هـ/ أكتوبر ١٠٩٠م وحضر الاجتماع عدد من زعماء الأطراف[٥] وقد اشتكى تتش من بعض تصرفات آق سنقر، فلمْ

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٠٣.

(٢) زكار: ص٢٠٤.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٢٨.

(٤) زكار: ص٢٠٤-٢٠٥.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٣٤٤.

يلتفت السلطان إليه[١] ودافع قسيم الدولة عن نفسه، ورفض الاتهامات الموجهة إليه، بل واتهم تتش بالكذب، حينما قال مدافعاً عن نفسه «تكذب»[٢]. وهذا التصرف كان يدل على أن آق سنقر كان يستصغر تتش[٣]. وبالتالي كان يعني زيادة الفجوة بينهما، واتساع الخلاف على أوسع نطاق، ومن ثَمَّ كان يؤكد بأن الحرب بينهما بدأت تقترب، لكن ما كان يقف حائلاً أمامها، هو وجود السلطان نفسه. وبشكل عام فإن كل الظروف والمعطيات تؤكد أن المواجهة بين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وقسيم الدولة آق سنقر، إنما هي مسألة وقت، ويمكن أن تندلع في أي لحظة.

*** وفاة جلال الدولة ملكشاه:**

في ظل التوتر الحاصل بين الخصمين اللدودين حاجب السلطان آق سنقر وشقيق السلطان تتش بن ألب أرسلان، توفي ملكشاه بن ألب أرسلان في ١٦ شوال ٤٨٥هـ/ نوفمبر ١٠٩٢م[٤] وذلك عندما خرج إلى الصيد بعد صلاة عيد الفطر[٥] وعاد منه في ٣ شوال[٦] حيث كان موجوداً في العراق للمرة الثالثة.

ووصف ابن الأثير حاله بقوله: «وأنشب الموت أظفاره فيه، ولمْ يمنع عنه

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٠٥.

(٢) ابن العديم: البغية ص٥٤٣ ج٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٤٣ ج٤.

(٤) الحسيني: ص٩٠، كان عمره عند وفاته ٣٨ عاماً، حكم لمدة ١٧ سنة، ودفن عند قبر والده بمرو، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٢٨، ابن الأثير: ج٨ ص٣٥٢-٣٥٣، ابن واصل: ج١ ص٢٢، ابن أبي الهيجاء ص١٤٢، النويري: ج٢٦ ص٦٦، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٥٠.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢١٨.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٣٥٣.

سعة ملكه، وكثرة عساكره»[١] «وكان سبب مرضه: أنه أكل لحم صيد وافتصد، ولم يستوف إخراج الدم، فثقل مرضه، وكانت حمى محرقة، فتوفي ليلة الجمعة، النصف من شوال»[٢].

ووصف صاحب مرآة الزمان ما حدث للسلطان بقوله: «فأكل من لحم الصيد، فأُتخِم فَفَقَد وعيه، وضل به طريقه، فمشى جادة فتاه» ويكمل: «وقيل إن جردك سمّه في خلال يُخل به، فأقام مشغولاً بنفسه، ومات ليلة الجمعة منتصف شوال، وكان بينه وبين وفاة نظام الملك بثلاثة وثلاثين يوماً، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، ومدة ملكه تسع عشرة سنة وستة أشهر»[٣].

وقد اتسع مُلك السلطان ملكشاه اتساعاً عظيماً، حتى «خُطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحَمَل له ملوك الروم الجزية، ولم يفته مطلب، وانقضت أيامه على أمن عام، وسكون شامل، وعدل مطرد»[٤].

وكان لملكشاه عند وفاته أولاد عدة، اشتهر منهم أربعة هم: بركيارق، وكان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، محمد وهو أصغر من بركيارق بستة أشهر، وسنجر ثمانية أعوام، ومحمود أربعة أعوام.

وبموته انتهى العصر السلجوقي الأول، الذي يُمكن أن يسمى العصر

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٥٢، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢١٨، ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٤٨، ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي، تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ص١٦٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢١٨.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٥٣، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٥٠.

الذهبي للدولة السلجوقية أو عصر أقلام الملك، وانجلت الدولة ووقع السيف[(١)] وبدأ التفكك ينهش في جسد الدولة السلجوقية، بسبب الصراع والتكالب على السلطة بين أبناء السلاطين والأخوة، حتى تمزقت إلى دويلات صغيرة.

ولا شك أن السلطان ملكشاه كان الحاجز بين اندلاع الحرب بين تتش وآق سنقر، وعندما توفي كان يمكن أن تندلع الحرب، لكن هناك أسباباً عدة أدت إلى تأجيلها، أو بمعنى أدق تغيير في بعض تفاصيلها بطريقة معينة:

- أن آق سنقر يعلم جيداً أنه لا يملك القوة الكافية لمواجهة جيش تاج الدولة تتش.

- أنهما كانا بحاجة إلى ترتيب أوضاعهما، ولمعرفة ما ستؤول إليه الأحداث، ونوايا كل طرف.

- خروج بركيارق بن ملكشاه في الساحة السياسية ومطالبته بالسلطنة.

وعند متابعة سير الأحداث إثر وفاة ملكشاه، فقد كتمت زوجة السلطان، خاتون تركان بنت الخان[(٢)] وفاته، وضبطت الأمور، كي لا تضطرب الأوضاع، ويخرج الأمر عن ولدها محمود، ولأن الوزراء والأمراء كانوا من صنائعها[(٣)] لذلك كان من الطبيعي ألا يعارضوا هذا الاختيار، ولكنها أرادت أن تكسب ود العساكر، فاستحلفتهم لابنها الصغير الموجود في بغداد[(٤)] وفرّقت عليهم

---

(١) حسن: حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي، الكتاب الذهبي مؤسسة روز اليوسف، القاهرة ٢٠٠٣، ج٤ ص٣٧.

(٢) تُعرف بخاتون الجلالية. ابن الأثير: ج٨ ص٣٥٣، ولدى ابن كثير «زبيدة خاتون» ج٨ ص٣٤٨.

(٣) الأصفهاني: ص٧٦، ابن العبري: مختصر الدول ص١٦٩.

(٤) شاكر: التاريخ الإسلامي ج٥-٦ ص٢٢١.

أموالاً طائلة بلغت نحو عشرين ألف ألف دينار[١] كما راسلت الخليفة المقتدي وأوضحت له الأمور، ورغْبتِها بأن يكون ولدها محمود ملكاً بعد أبيه، فأجابها إلى ذلك[٢] «فبعث إليه الخليفة بالخلع مع عميد الدولة ابن جهير، وعزاها بالسلطان، فألبسها محمود، وخطب له على المنابر ببغداد» ثم خرجت خاتون بولدها إلى أصفهان لتوطّد له المُلك هناك، فدخلوها وتمَّ لهم ما أرادوا، ثم عادت وكتبت إلى الخليفة «أن يكون لابنها عهد بالسلطنة»[٣] لكن الخليفة رفض ذلك بحجة أن ابنها لم يبلغ الحلم، وقال: «هذا لا يسيغه الشرع»[٤] وعندما تم أَخْذ رأي العلماء بهذه القضية، أفتى بعض الحنفية بجواز ذلك، وقال الغزالي: «وجدت غلمان نظام الملك قد أقاموا ترك باروت بن ملكشاه في السلطنة، وكان أكبر أولاده، وأمه زبيدة»[٥] فتمَّت الخطبة لمحمود في بغداد، وانحازت إليه العساكر، ولُقّب بغياث الدين. ورغم أن خاتون قامت بتفريق أموال أخرى على العساكر بلغت ثلاثة ألف ألف دينار[٦] إلا أن العساكر وقفوا إلى جانب شقيقه ركن الدين بركيارق بن ملكشاه فبايعوه وخطبوا له بالري، وانفردت الخاتون وولدها، ومعهم شرذمة قليلة من الجيش والخاصكية[٧].

---

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢١٩.

(٢) ابن كثير: ج٨ ص٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٤٨، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٤٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه: ج١٣ ص٢٢٠.

(٧) ابن كثير: ج٨ ص٣٤٨. الخاصكية: من الفارسية، وهي مكونة من الكلمة العربية «خاص» أضيف إليها «الكاف» علامة التصغير في الفارسية، ثم ألحقت بها «ياء» الإفراد الفارسية أيضاً، وهي تقوم مقام التنوين في العربية، و«الخاصكي» في الفارسية هو نديم الملك، والمقرب منه والخازن. و«الخاصكية» في الدولة المملكوكية هم الذين يلازمون السلطان في خلواته، ويتأنقون في مركوبهم وملبوسهم. =

وبركيارق حتى هذه اللحظة في السجن، لكنه عاد مجدداً إلى الساحة السياسية، بعد أن قام المماليك بإخراجه من السجن، الذي وضعه فيه جند أم السلطان محمود، وقيل أن من قام بإخراجه هو أحد أبناء الوزير نظام الملك، وتمت له الخطبة في أصفهان، ثم طالب بعرش سلطنة السلاجقة لنفسه، ودارت رحى الحرب بين جند السلطان محمود، وجند السلطان ركن الدين بركيارق، وحلّت الهزيمة بجند محمود، كما انتصروا عليهم في معركة أخرى جرت في عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ونودي به سلطاناً في بغداد. وبقي محمود في أصفهان[1]. وتم الاتفاق على أن توزع البلاد بين الإثنين، بحيث تصبح كلاً من: أصفهان وفارس لخاتون وابنها محمود، وباقي البلاد لبركيارق وهو السلطان[2] إلا أن وفاة محمود غيّرت مجرى الأحداث.

*** بركيارق ينتزع السلطنة:**

في ظل هذه الأوضاع المربكة، والتوتر الذي يسود السلطنة، وعدم استقرار الوضع حول العرش، دخل على خط الصراع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وخطب لنفسه بالسلطنة عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م[3] وراسل الخليفة بأن يخطب له، إلا أن الأخير رد عليه بقوله: «إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا حكمك، والخزائن التي بأصفهان وتكون صاحب المشرق وخراسان، ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك، أما في هذه الحال، فلا سبيل إلى ما التمسه، فلا تتعدَّ حد العبيد، وليكن خطابك ضراعة لا تحكماً وسؤالاً، ولا تجبراً، وإن أبيت قاتلناك،

= غنام: ص١٣٢.

(١) ابن كثير: ج٨ ص٣٤٨، شاكر: ج٥-٦ ص٢٢١.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢٠.

(٣) ابن كثير: ج٨ ص٣٥٣.

ورديناك، وأتاك من الله ما لا قِبَل لك به»[١]. ويذكر ابن كثير أن تتش طلب من الخليفة أن يخطب له في بغداد، لكنه توقف عن ذلك بسبب خروج ابن أخيه بركيارق وطلبه للسلطنة[٢].

وكان تتش يملك مدينة دمشق وما جاورها، مثل: طبرية وبيت المقدس، بعد تحقيقه انتصارات عدة في نصيبين[٣] وفي ديار بكر وآمد والجزيرة، بمواجهة السلطان الجديد بركيارق بن ملكشاه.

ويصف المؤرخون ما فعله تاج الدولة تتش عند وصوله نصيبين بأنه فعل بأهلها ما لا يفعله الكفار، ثم سار إلى آمد ففتحها، ثم جاء إلى ميا فارقين، وخافوا أن يفعل بهم كما فعل بأهل نصيبين، فلما خوّفهم فتحوا له الباب، ثم كتب تتش إلى الأمراء بأصفهان فأطاعه بعضهم، ثم أخذ خلاط وملاذكرد وأرمينية، وبالتالي استولى على البلاد والممالك من باب الري إلى باب القدس[٤].

هذه الانتصارات العديدة، والمناطق الجديدة التي ضمها تتش إليه، جعلته يصبح أكثر قوة، لذلك «قويت شوكته، وكثرت عدته، وحدّث نفسه بالسلطنة»[٥] فتوجَّه إلى خراسان، وتوالت انتصاراته، وكما يقول ابن القلانسي: «وليس يمر ببلد ولا معقل من المعاقل، إلا خرج إليه أهله، وبذلوا له الطاعة، والمناصحة في الخدمة، وأَمْره يستفحل، وأَمْره يعظم»[٦].

---

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢١-٢٢٢.

(٢) ابن كثير: ج٨ ص٣٥٣.

(٣) ابن القلانسي: ص٢١٧.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢٦-٢٢٧.

(٥) ابن القلانسي: ص٢١٨.

(٦) المصدر نفسه: ص٢١٨.

ووفقاً لهذه التطورات، وقبل خروج بركيارق إلى مسرح الأحداث، اضطر قسيم الدولة مكرهاً للوقوف إلى جانب عدوه اللدود تتش، فقد أدرك خطورة تاج الدولة على وضعه في حلب، وأنه لا يملك القدرة على الوقوف في وجهه، فضلاً عن الخلافات السائدة التي كانت بين أولاد ملكشاه، وعدم ظهور أي منهم في الساحة أو قدرتهم على تحمَّل المسؤولية ومواجهة عمهم تتش بن ألب أرسلان، لهذا كان آق سنقر مضطراً للاعتراف بسلطان تتش، بل أصبح نائباً له، وكان ذلك في عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

ولكن عندما تغيرت الأوضاع، وانقلبت رأساً على عقب، إثر ظهور بركيارق على مسرح الأحداث، قرر آق سنقر أن يتخلى عن تتش، ويقف إلى جانب ابن صديقه، وفاءً له، وعندما سُئل عن السبب، قال: «إنما أطعنا هذا الرجل، لننظر ما يكون من أولاد صاحبنا، والآن ظهر بركيارق، والرأي والمروءة تقتضي بأن نقصده، ونكون معه»[١].

وعندما كان تتش، الذي استولى على أكثر بلاد الجزيرة، والموصل، متجهاً إلى أذربيجان لمحاربة بركيارق، انفصل قسيم الدولة آق سنقر وبعض الأمراء عنه، وبالتالي ضعفت قوته، فعاد أدراجه إلى الشام، وأمر السلطان بركيارق قائده الجديد آق سنقر الذي انضم إليه حديثاً، بالمسير إلى حلب، لوضع حد لمطامع عمه السلطان تتش، كما أمر صاحب الرها بوزان وصاحب الموصل كربوقا ويوسف بن آبق صاحب الرحبة، بالتوجه إلى حلب لمساندة قسيم الدولة، وكان معهم نحو ألفين وخمسمائة فارس[٢] وأدرك تتش خطورة وضعه بعد انفصال

(١) ابن الأثير: علي بن محمد الشيباني، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة القاهرة، ص١٣.

(٢) ابن العديم: البغية ص٥٤٤ ج٤.

قسيم الدولة وجنوده عنه، فتحالف مع صاحب أنطاكية، كما جنّد قوات إضافية من بني كلاب، والتقت جميع الجيوش عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م بين قنسرين وتل السلطان[١] فحدث قتال عظيم، ووقع كل من: آق سنقر وبوزان وكربوقا أسرى لدى تتش، كما قُتِل الكثير من أصحابهم.

وعندما أُحضِر آق سنقر إلى تتش قال له: لو ظفرت بي ما كنتَ تفعل بي؟ فقال آق سنقر: أقتلك. قال: فأنا أحكم عليك بما حكمت علي. فقتله، وصلبه[٢]وقيل قتله صبراً[٣] في قرية تسمى سبعين، وهي من قرى حلب[٤]. كما قتل خلقاً من الأمراء صبراً[٥].

*** بركيارق ينتصر على تتش:**

بعد عام واحد فقط، وتحديداً في ١٩ جمادى ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م عاد الفريقان إلى المواجهة من جديد، حيث سار تاج الدولة لقتال ابن أخيه بركيارق في الري، وكان معه نحو ثلاثين ألف مقاتل، بينما كان مع تتش نحو ١٥ ألفاً، والتقى الفريقان يوم الأحد ١٧ صفر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وكان تتش لمَّا قَتَل كلاًّ من: آق سنقر وبوزان، قَتَل أيضاً العديد من الأمراء صبراً، وهناك استطاع أحد

---

(١) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وسمي بهذا الإسم نسبة إلى السلطان ألب أرسلان لأنه خيم به مدة فنسب إليه، تقع في أرض سهلية واسعة غرب المطخ، شرقي طريق سراقب- أبو الظهور، إلى الشمال الغربي من بلدة أبو الظهور على بعد ٧كم. الحموي: ج٢ ص٤٢، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري لمركز الدراسات العسكرية الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ج٢ ص٥١٩- ٥٢٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٢٦.

(٣) ابن العديم: البغية ص٥٤٣ ج٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٤٣ ج٤.

(٥) ابن كثير: ج٨ ص٣٥٣.

الأمراء ويدعى بكجور الفرار من بين يديه، وتوجَّه إلى بركيارق، بينما تم قتْل أولاده، وقبل اندلاع الحرب، جاء بكجور إلى بركيارق وقال له: إن عمَّك قتل أولادي بين يدي صبراً، وأنا قاتله بأولادي لآخذ بثأري، فقال له: افعل. فلمَّا نشبت الحرب، انتصر جيش السلطان، وتمكّن بكجور من قتل تتش(١) وجاء برأسه إلى بركيارق(٢) وهكذا انتهت الحرب بين العم وابن أخيه التي استمرت نحو سنتين ونصف السنة، بمقتل الأول، لكنها أكلت الأخضر واليابس في الدولة السلجوقية، وساهمت في ضعفها، فضلاً عن قتل الكثير من قادتها البارزين، وكل ذلك يمثل خسارة كبيرة لهذه الدولة التي أخذت تشرف على نهايتها.

وحينما اعتقد الجميع أن الدولة السلجوقية بدأت تستعد للخروج من النفق المظلم الذي خَيَّم عليها خلال السنوات الماضية، لكنهم سرعان ما اكتشفوا عكس ذلك. إذ لم تمض سنوات قليلة حتى خرج على بركيارق عمّه الثاني أرسلان أرغون بن ألب أرسلان، لكنه قُتِل في العام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م(٣) وأخذ بركيارق منه خراسان وسلَّمها لأخيه سنجر(٤) وفي السنة نفسها خرج عليه أمير

(١) الأصفهاني: عماد الدين، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ص٣٠٤.

(٢) يروي سبط ابن الجوزي رواية أخرى أيضاً حيث يقول: وقيل: رماه مملوك بزان بسهم في ظهره، فوقع فقتلوه وأتوا برأسه إلى بركيارق. ج١٣ ص٢٣٦.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٠، ابن كثير: ج٨ ص٣٦١، أبو الفداء: ج٢ ص٢٥، اليافعي: عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ج٣ ص١١٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٣ ص٢٨، وذكره في دول الإسلام ج١ ص٤٢٤، وذكره في العبر ج٢ ص٣٦٢، ابن تغري: ج٥ ص١٦١، ابن الوردي: ج٢ ص١٣، ابن الحنبلي: الشذرات ج٣ ص٣٩٤.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٢، شاكر: ج٥-٦ ص٢٣٤، ابن الوردي: ج٢ ص١٤.

يسمى محمد بن سليمان ويُعرف بأمير أميران وهو ابن عم أبيه ملكشاه[١] ثم خرج عن طاعته الأمير أنز الذي ولّاه بركيارق إمارة فارس، قبل أن يُقتل في العام نفسه الذي خرج فيه أي ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[٢].

*** محمد وبركيارق:**

ولم يكد بركيارق ينتهي من خروج كل هؤلاء الأمراء، واعتقد الجميع أن الصراعات انتهت بلا رجعة بين أبناء الدولة السلجوقية، حتى دخلت بركيارق في نفق أكثر ظلمة من كل ما سبق، فقد خرج عن طاعته هذه المرة أخواه محمد وسنجر عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وهما أخوان من أم واحدة، وأمهما أم ولد[٣] وقام الخليفة العباسي المستظهر بالله بتقليد محمد السلطنة، بدلاً من بركيارق، وأعلنت في بغداد الخطبة له، وذلك يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة ولُقِّب بغياث الدنيا والدين[٤]. ثم أعيدت الخطبة لبركيارق في بغداد عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م[٥] وبعد ذلك دارت خمس معارك بين السلطانين بركيارق ومحمد، استمرت خمس سنوات، من العام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م إلى ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م أنهكت الدولة وأضعفتها، وأهلكت الحرث والنسل، وقد تزامنت هذه الحروب، في ظل وجود الصليبيين في المنطقة وانتزاعهم البلاد من المسلمين، وبالنسبة للأخوين

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٨، ابن كثير: ج٨ ص٣٦٤، ابن تغري: ج٥ ص١٦٢. وأم ولد: هي الأَمَة التي تلد عند سيّدها.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٠، المصدر نفسه: ج٨ ص٣٦٤، ابن الوردي: ج٢ ص١٦، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٦٥.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٣، ابن الوردي: ج٢ ص١٦، ابن تغري: ج٥ ص١٦٥، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٦٧.

بركيارق ومحمد، فقد كانت الخطبة متناوبة بينهما مرة تكون للأول وتارة للثاني، وفي أول الأمر كانت الخطبة للسلطان بركيارق، وفي عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م وبعد أن قوي محمد أصبحت الخطبة له في بغداد ثم أعيدت لبركيارق في عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٨م[(١)].

وكانت البلاد مقسمة بينهما، فقد «كان بركيارق حينئذ بالري، والخطبة له بها، وبالجبل وطبرستان، وفارس وديار بكر، والجزيرة والحرمين الشريفين، وكان السلطان محمد بأذربيجان، والخطبة له فيها، وببلاد أرانية، وأرمينية، وأصفهان، والعراق كلها ما عدا تكريت، وأما أعمال البطائح، فيخطب بعضها لبركيارق، وبعضها لمحمد، وأما البصرة فكان يُخطب لهما جميعاً، وأما خراسان، فإن السلطان سنجر، كان يخطب له في جميعها، وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر، ولأخيه السلطان محمد»[(٢)].

أما الحروب بينهما، فكانت كما يلي:

الأولى: دارت المعركة في ٤ رجب ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م في منطقة تسمى أسبيذروز[(٣)] وانتصر جيش السلطان محمد، وأعيدت الخطبة له في ١٤ رجب من السنة ذاتها[(٤)]. وبعد ذلك وقعت الحرب بين بركيارق وأخيه سنجر خارج النوشجان، ووقعت الهزيمة بأصحاب بركيارق[(٥)].

الثانية: في ٣ جمادى الآخرة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م قرب همذان، وانتهت

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٩ و٤١٣، ابن تغري: ج٥ ص١٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٦٣.

(٣) وتعني النهر الأبيض، بالقرب من همذان. المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٤.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٤.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٦.

بانتصار بركيارق[١] ثم خرج الأمير صدقة بن دبيس عن طاعة السلطان بركيارق[٢] وعندما وصل السلطان محمد إلى بغداد، قَدِم إليه في محرم ٤٩٥هـ/ ١١٠١م الأمير سيف الدولة صدقة[٣].

الثالثة: في صفر ٤٩٥هـ/ ١١٠١م ولكن لم يحدث القتال بينهما هذه المرة وإنما «اتفقا على الصلح، بعد أن عمَّ الناس الضرر، والملل والوهن، فاستقرت القاعدة أن يكون بركيارق السلطان، ومحمد الملك... ويكون له (أي محمد) من البلاد: جنزة[٤] وأعمالها، وأذربيجان وديار بكر، والجزيرة، والموصل، وأن يمدَّه السلطان بركيارق بالعساكر، حتى يفتح ما يمتنع عليه منها، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وانصرف الفريقان من المصاف، رابع ربيع الأول»[٥].

الرابعة: بعد فترة تفسّخ الصلح السابق، واندلعت الحرب بينهما من جديد، وذلك في جمادى الأولى من العام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م عند الري[٦].

الخامسة: في ٨ جمادى الآخرة من العام ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م وقعت الحرب عند باب خوي من أذربيجان عند غروب الشمس، ودامت إلى العشاء الآخرة[٧]. وتمكّن بركيارق من الانتصار على أخيه محمد[٨].

---

(١) المصدرنفسه ج٨ ص٤٢٠، ابن تغري: ج٥ ص١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٢٤.

(٤) جنزة: اسم أعظم مدينة بأرّان، وهي بين شروان وأذربيجان، وهي التي تسميها العامة كنجة، خرج منها جماعة من أهل العلم منهم: أبو حفص عمر بن عثمان الجنزي وغيره. الحموي: ج٢ ص١٧١.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٨.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٣٨.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٥٦، ابن الوردي: ج٢ ص٢٠.

(٨) ابن كثير: ج٨ ص٣٦٩، ابن تغري: ج٥ ص١٨٧، ابن الوردي: ج٢ ص٢٠.

وفي السنة التالية من ربيع الآخر تم الصلح بينهما، وذلك لأن «الحروب تطاولت بينهما، وعمَّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين، بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك، ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإذلالهم»[(١)].

وكان بركيارق هو المبادر في الصلح نتيجة لقلة المال لديه، والطمع الزائد من العسكر[(٢)] كما يقول ابن الأثير. فأرسل له الخليفة وفق ما جرت به العادة، خلع السلطنة، وأقيمت له الخطبة في بغداد عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م[(٣)].

وعندما قرر بركيارق ومحمد التصالح، حلف كل واحد منهما لصاحبه، واتفقا على ما يلي[(٤)]:

- ألا يعترض السلطان بركيارق، أخاه محمداً على الطبل[(٥)].
- ألا يُذكر معه على سائر البلاد التي صارت له.
- ألا يكاتب أحدهما الآخر، بل تكون المكاتبة من الوزيرين.
- ألا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء.
- أن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذروذ إلى باب الأبواب،

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٦٣.

(٣) ابن تغري: ج٥ ص١٨٧.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٦٣.

(٥) كان الطبل يدق أمام قصر الخليفة وقصر السلطان والأمراء ومن ينعم عليهم السلطان بهذه الميزة، كالقضاة وبعض الوزراء وبعض القادة لموعد الصلاة، وكان المسؤول عن دق الطبول يسمى الميقاتي. أبو النصر: ص١٥٢.

وديار بكر والجزيرة، والموصل والشام.

- أن يكون للسلطان محمد من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة.

وبعد سنة واحدة من هذا الاتفاق اشتد المرض بالسلطان بركيارق وأصيب بالسل والبواسير[١] ولمَّا شعر بدنو أجله، بايع ابنه ملكشاه الثاني وعمره خمس سنوات، ولقّبه الخليفة بجلال الدولة، ثم توفي السلطان بركيارق[٢] وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً، وقد «قاسى من الحروب واختلاف الأمور عليه، ما لم يقاسه أحد، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشدة، ومُلك وزواله، وأشرف في عدة نواب، بعد إسلام النعمة على ذهاب المهجة، ولمَّا قوي أمره، في هذا الوقت، وأطاعه المخالفون وانقادوا له، أدركته منيته»[٣] وكانت وفاته في ٢ ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، وبسبب كل تلك الظروف، كان من الطبيعي ألا يلتفت إلى دمشق، وما يحدث فيها. ولم يتم الأمر لجلال الدولة ملكشاه الثاني سوى شهر[٤] فقد استطاع غياث الدين محمد بن ملكشاه من عزل هذا الطفل عن السلطنة، وتسلَّم مقاليد الحكم، وعظمت هيبته وكثرت جيوشه، وأصبح الحاكم الفعلي لمدة ١٣ عاماً[٥] إلى أن توفي عام ٥١١هـ/ ١١١٧م[٦].

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٩، أبو الفداء: ج٢ ص٣٦.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٠-٤٧١.

(٤) شاكر: ج٥-٦ ص٢٣٥.

(٥) حسن: ج٤ ص٤٨-٤٩.

(٦) ابن القلانسي: ص١٩٩.

الفصل الثالث: ظهور طغتكين[(١)]

النشأة والمولد، طغتكين حامل سلاحاً، البروز أيام تتش، زواجه وأبناؤه، تعليمه وثقافته، اشكالية الأسر.

* النشأة والمولد:

طغتكين بن عبد الله[(٢)] هو أحد مماليك ملك دمشق والشام تتش بن ألب أرسلان. ويحظى بالعديد من الألقاب مثل: ظهير الدين وهو أشهرها، أمين الدولة، سيف الإسلام، معتمد الدولة[(٣)]، وكذلك لقب الأتابك الذي استمده كونه أول مؤسس لدولة أتابكية. ويُكنى بأبي سعيد[(٤)] وأيضاً بأبي المنصور[(٥)].

ويحدد لنا صاحب كتاب تاريخ الأعيان، كيفية لفظ اسم طغتكين فيقول: «طغتكين بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر التاء المثناة من

---

(١) ملاحظة: الكثير من المعلومات في هذا الفصل أخذت من البحث القيم للدكتور شاكر مصطفى الذي نشره في مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت العدد الثاني ديسمبر ١٩٧٢م، وكان بعنوان «طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكي».

(٢) ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٣٤.

(٣) السيد: ألقاب السياسيين ص١١٢ رقم١٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٤٠٦ رقم ٥٩٦.

(٥) ابن عساكر: محمد بن مكرم، تاريخ دمشق، تحقيق مأمون الصاغرجي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢٥ ص٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠٠٨م ج١٤ ص٤٢٨، ابن تغري: ج٥ ص٢٣٤، الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١١م، ج١٣ ص٢٠٧.

فوقها والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون وهو اسم تركي»[١].

ورسم المؤرخون الاسم بأكثر من طريقة، فنجده لدى ابن القلانسي وابن العديم، وهما من معاصريه، بهذا الشكل «طغتكين» بينما ابن الأثير، وكذلك أسامه بن منقذ في كتابه الاعتبار، وهو من عاصره في شبابه، كتباه بهذه الطريقة «طغدكين»[٢] أما العظيمي فرسمه هكذا «طغطكين». ويرسمه شهاب الدين النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب «طغرتكين»[٣] وربما يعود السبب في هذا الاختلاف إلى أن الاسم غير عربي، وهناك الكثير من الأسماء اللاتينية والأجنبية التي ستمر بنا في هذا الكتاب، اختلف المؤرخون في رسمها، فضلاً عن تشابه حروف الطاء والدال والتاء لاسيما بالنسبة لغير العرب، ومن هنا جاء هذا اللَّبْسُ في اسم طغتكين. وهو ما وقع به المؤرخون العرب بعد ذلك نتيجة لهذا الاختلاف في اللفظ. أو ربما أن المؤرخين لم يعتادوا على مثل هذا الاسم، وبالتالي اختلفوا في طريقة كتابته.

ويمكن أن يكون رسم اسم «طغتكين» بهذا الشكل الأقرب إلى الصحة، وهو الأكثر انتشاراً، على اعتبار أن الاسم يتكون من لفظين هما «طغ» و «تكين»، فاللفظ الأول أي «طغ» فهو في اللغة التركية القديمة يعني اللواء كما ذكر بارتولد، الذي قال: «إن الطوغ أو البيرق كان من العلامات المادية لسلطة الخان الحاكم، وإذا لُقّب خان بصاحب الطوغات السبعة فمعنى ذلك أنه من أقوى الخانات» أو

---

(١) ابن خلكان: أبي العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ج٢ ص٤٣٢، أما في طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٩، ج٢ ص٥٢٥، تحقيق إحسان عباس فهناك زيادة: «وهو اسم تركي لا أعرف معناه».

(٢) ابن منقذ: أسامة، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م ص١٢٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص٧٨.

تعني الصقر أو العقاب كما ذكر فيليب حتى في مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ[١].

أما اللفظ الثاني أي «تكين» من الألفاظ المشهورة لدى الأتراك منذ القدم، سواء في عهد السلاجقة أو غيرهم، وهو يعني المحارب كما ذكر بارتولد، غير أن الكشغري في كتابه ديوان الترك فسّر الكلمة بمعنى عبد[٢]. وقيل أن معنى اسم طغتكين الباز المقاتل[٣].

وهناك الكثير من الشخصيات لا سيما في عهد السلاجقة التي كان لفظ «تكين» جزءاً من اسمها، ومن أهم المماليك الذين كانوا مع تتش بن ألب أرسلان، ويحملون لفظ «تكين» في اسمهم هم: خمرتكين، كمشتكين البعلبكي، بايتكين وهو شقيق كمشتكين، أنوشتكين، آيتكين التاجي، تمتكين حسام الدين، ساوتكين الخادم[٤].

ومن المستبعد أن يكون اسم طغتكين هو اسمه الحقيقي، لأنه كان مملوكاً لدى تتش، بعدما أخذه من والده السلطان ألب أرسلان. ومن المتوقع أن تتش هو من أعطاه هذا الاسم، بعدما ضمه إليه[٥].

كما يحوم على اسم أبيه «عبد الله» الكثير من الشك، فهو اسم يُعطى لكل مجهول الأب من المماليك، بل هناك الكثير من الشعوب الإسلامية مازالت حتى اليوم تنسب اسم عبد الله إلى شخص غير معروف، أو حينما يكون اسم الأب

---

(١) مصطفى: طغتكين ص٣٩، نقلاً عن بارتولد.

(٢) المصدر نفسه: حاشية (٢١) ص٧٨.

(٣) ابن منقذ: حاشية (٢٣١) ص١٢٣.

(٤) مصطفى: ص٣٩.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٩.

مجهولاً. كما أن الكثير من المؤرخين، كانوا يفضلون استخدام اسم طغتكين منفرداً، أو الأتابك طغتكين أو الأتابك فقط. علاوة على ذلك، هناك العديد من المماليك الكبار يحملون اسم عبد الله، ولا يوجد ما يؤكد أن آباءهم يحملون بالفعل هذا الاسم، رغم أن آباءهم كانوا وثنيين.

ومن المماليك المعاصرين لطغتكين ويحملون اسم عبد الله على سبيل المثال: آق سنقر بن عبدالله والد عماد الدين زنكي، ومعين الدين أنر بن عبدالله، أتابك دمشق المعروف بعد طغتكين، وشجاع الدولة صادر بن عبدالله[١].

ويقول الدكتور شاكر مصطفى عن سبب حمل أب هؤلاء المماليك اسم عبد الله: «إنه والد يجب أن يظل مجهولاً من الابن تمام الجهل، ليبقى المملوك ملتصق الولاء التصاقاً كاملاً بأسياده»[٢].

أما مولد الأتابك ظهير الدين طغتكين فهو حديث طويل، لكنه يغيب عن ذكر المؤرخين الذين سردوا قصة هذا الرجل، ونحن نستغرب أن تغيب مثل هذه المعلومات عنهم، لاسيما معاصريه، وعلى وجه التحديد، المؤرخ ابن القلانسي، الذي اهتم بالجانب السياسي على أي جانب آخر في سيرة الأتابك، ومثل هذا الأمر كان ديدن المؤرخين الذين يولون الشأن السياسي للسلاطين والملوك الأولوية المطلقة، على حساب بقية المعلومات الأخرى المهمة.

* طغتكين حامل سلاحاً:

ويروي ابن العديم عن أسامة بن منقذ أن ظهير الدين قال: «حدّث الأمير الأتابك طغتكين صاحب دمشق أبي، وقال: كنتُ حاملاً وراء السلطان

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٩.

السلاح حين ضربه حجر المنجنيق»[١] وهذا يدل على أنه في حصار حلب سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م حين ضرب حجر المنجنيق فرس السلطان فسقط[٢] كان في ريعان شبابه، وهي رواية أكدها العديد من المؤرخين، ومنهم ابن الأثير، من دون أن يذكروا رواية أسامة بن منقذ.

ولا شك أن اختيار الحرس الخاص للسلطان، يتم بدقة كبيرة، وعناية خاصة من قبل المسؤولين عن هذه المهمة، فهم يبحثون عن أشخاص يتمتعون بمواصفات معينة، أبرزها أن يكونوا في ريعان الشباب، ويتمتعون ببنية جسمانية، وذكاء، ونباهة، وغيرها من الصفات المهمة.

وقد ورث تتش، طغتكين من جملة ما ورثه من أملاك ومماليك أبيه ألب أرسلان، بعد وفاته عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م وقد ألمح ابن القلانسي إلى أن طغتكين كان في مرحلة الشباب عندما انضم لمماليك تتش بقوله: «وقد كان هذا الأمير المذكور (طغتكين) في حداثة سِنِّه ونضارة غصنه»[٣].

ويقول شاكر مصطفى: «وقد نستطيع أن نتعرف على عمر الرجل عن طريق بعض عائلته.. ونقرأ لدى ابن العبري في مختصر الدول أن سليمان بن إيلغازي[٤] الأرتقي ثار سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م على أبيه في حلب، وكان عمره يزيد على عشرين سنة، فلمَّا انهزم هرب إلى جده طغتكين في دمشق»[٥]. حيث يقول ابن

---

(١) ابن العديم: البغية ص٥٧٠ ج٤.

(٢) مصطفى: طغتكين ص٣٩.

(٣) ابن القلانسي: الذيل ص١٣١.

(٤) إيلغازي: يرسم أيضاً إيل غازي.

(٥) مصطفى: ص٤٠، نقلاً عن ابن العبري: مختصر الدول ص١٧٥-١٧٦، سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٤١٤. ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣، في الطبعة التي بين يدي لكتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبري وجدت النص نفسه من دون ذكر «جده طغتكين» حيث يقول: «وفي سنة خمس عشرة عصا سليمان بن =

العبري: «وفي سنة خمس عشرة عصى سليمان بن إيلغازي بن أرتق على أبيه بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة»(١).

ويقول ابن تغري في حوادث ٥١٦هـ/ ١١٢٢مـ عن وفاة نجم الدين إيلغازي: «ومعه زوجته الخاتون بنت الأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق»(٢). ويذكر سبط ابن الجوزي المعلومة ذاتها ويؤكد أن إيال خاتون ابنة طغتكين كانت زوجة إيلغازي، كما يذكر الفارقي براعتها في الاحتفاظ لابنها بالعرش بعد موت أبيه»(٣). وقد دلتنا هذه المعلومات على أن طغتكين كان أباً لابنة زوّجها لإيلغازي، ولهما ابن يسمى سليمان، وهو حفيد طغتكين.

ويذكر شاكر مصطفى: «فإذا كان حفيد طغتكين يزيد على العشرين من العمر سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، فهذا يعني أنه ولد قبل سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م ببضع سنين، في الوقت نفسه أمه يجب أن تكون ولدت حوالي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٨٢م، على الأقل إن لم يكن قبل ذلك قليلاً، فإذا كان عمر طغتكين عند زواجه وانجابه الابنة فيما بين ٢٥ إلى ٢٧ سنة، فإن ذلك يعني أنه ممن ولد حوالي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م إلى سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، وقد مات طغتكين في ٨ صفر ٥٢٢هـ/ ١٢ فبراير ١١٢٨م، وهذا يعني أنه عمّر حوالي خمسة وسبعن سنة أو تزيد قليلاً حتى الثامنة والسبعين»(٤).

أما عن نشأة طغتكين فيقول ابن العديم في حوداث سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م:

= إيلغازي بن أرتق على أبيه بحلب، وقد جاوز عمره عشرين سنة...فهرب إلى دمشق» ص١٧٥-١٧٦.

(١) ابن العبري: ص١٧٥.

(٢) ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣ .

(٣) مصطفى: ص٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٤٠.

في شهر رمضان -يعني من سنة ست وخمسين وأربعمائة- وصل ركابي من تبريز بكتاب من نظام الملك، يُخبر أن السلطان ألب أرسلان أوْغل في الغزاة ببلاد الخزر، وبلغ حيث لم يبلغ أحد من الملوك، وافتتح بلداً عظيمة يسمى أسبيذ شهر وقتل نحو ثلاثين ألف رجل، وسبى ما يوفي على خمسين ألف مملوك، وهادن ملك الأبخاز وعاد من ذلك الثغر، ونزل على مدينة آني من بلاد الروم، ففتحها عنوة، وهي مدينة عظيمة تشتمل على سبعمائة ألف دار، وأسر منه خمسمائة ألف إنسان»(١).

ويذكر الرواية نفسها سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م حيث يقول «.. وفي رمضان ورد كتاب نظام الملك أن السلطان (أي ألب أرسلان) أوغل في بلاد الخزر، وبلغ فيها مواضيع كثيرة، لم تجر العادة ببلوغها، وفتح بلداً عظيماً، وقتل فيه نحو ثلاثين ألفاً، وسبى ما يوفي على خمسين ألف مملوك، وغنم غنائم لا تحصى، وقد عاد منصوراً..»(٢).

وقال أيضاً في حوادث سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م : «.. وفي ربيع الآخر وصل خيل ناشئ من خوارزم إلى نظام الملك بكتاب من السلطان يُخبر بما فعل من وراء النهر وخوارزم من الفتوح، وقمع المفسدين، وتهديد تملك البلاد، قال: وكان التركمان قد اختلطوا بالكفار، وكانوا ينهبون التجار، وكانوا على طرف البحر عند القفجاق، ولمَّا سمعوا بنا عبروا إلى جزيرة البحر، وتركوا أموالهم ونساءهم ومواشيهم، ولا يُقدر على إحصائها، فاستولينا على الجميع..»(٣).

---

(١) ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٧٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٢ ص٤٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ج١٢ ص٤٤٣.

لذا من المحتمل أن يكون الأتابك ظهير الدين وقع أسيراً في إحدى هذه الحروب وهو في سن يافعة، حيث كان يتم أسر الأطفال فما فوق[١] وهذه الأحداث التي يرويها سبط ابن الجوزي، كانت في عامي ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م، و٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م.

ومن المعروف أن المماليك هم قوم من الترك الكفار، ينتمون إلى القفجاق أو إلى قبائل أخرى، وقد دخلوا في معارك متعددة مع السلاجقة الذين ينتمون إلى قبيلة الغز، ونظراً لانتصار السلاجقة على تلك القبائل يتم أسر الكثير منهم، فإمَّا يباعون في الأسواق على بلاط الخليفة أو السلطان، فتتم تربيتهم تربية إسلامية ويدخلون في الإسلام. أو يباعون على بقية الأمراء، لاسيما الذين يملكون الكثير من الإقطاعات، فيصبحون تابعين لهم. ويصبح الكثير منهم على صلة وثيقة بأمراء السلاجقة، فيشكلون عماد جيوشهم، فإذا استكملوا رجولتهم وعلت منزلتهم، وأظهروا كفاءتهم في الحروب، وأكدوا إخلاصهم، يحصلون على أعلى المراتب في الجيش، ومنهم من يصبح حاكماً على إقليم من أحد أقاليم السلاجقة المترامية الأطراف. هذه هي المراحل التي مر بها طغتكين، كغيره من القادة المماليك العسكريين الذين أصبح يشار إليهم بالبنان في وقت من الأوقات.

وكعادة المماليك فإنهم لا يلتحقون بالجيش النظامي أو الرسمي إلا بعد الانتهاء من التدريبات كافة، ومتى ما أظهر قوته، واستعداده التام للمشاركة في الجيش، فضلاً عن بنيته الجسمانية المتكاملة، وتجاوزه السن المطلوبة، يتم الحاقه بالوحدات المختلفة.

ومن ثم كان أول ظهور لطغتكين في المشهد السياسي بين حاملي السلاح،

---

(١) مصطفى: ص٣٨.

ضمن حراس السلطان ألب أرسلان في عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م أثناء حصاره لحلب[١]. وهو بالتأكيد في سن لا تقل عن الثامنة عشرة، ثم رأيناه بعد ذلك في خدمة سيده الجديد تتش بن ألب أرسلان، ولكن لم يوضح المؤرخون ولا حتى ابن القلانسي نفسه مؤرخ طغتكين، كيف انتقل هذا الأخير من خدمة ألب أرسلان إلى ولده تتش؟ ولماذا لم يصبح في خدمة ابنه البكر ملكشاه الذي أصبح سلطاناً بعد أبيه ألب أرسلان؟. وهل قام السلطان بإهداء طغتكين لابنه تتش أم أن تاج الدولة نفسه هو الذي اختاره لمّا رأى منه ما يعجبه؟. وكما يقول شاكر مصطفى: «لعلّه كان من جملة الإرث الذي ورثه من أبيه»[٢]. وبالتأكيد لم يكن طغتكين في هذه المرحلة من عمره، يختلف كثيراً عن أقرانه، ولم تبرز مواهبه بعد.

وكما حدَّد لنا ابن العديم تاريخ وجود طغتكين في حراس ألب أرسلان في عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م عند حصار حلب، فإن هذا السلطان وافته المنية عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م[٣] أي بعد سنتين تقريباً من وجود طغتكين في الحرس السلطاني، وربما لم يشترك مع السلطان إلا في حصار حلب، بمعنى أنه بعدما أصبح مملوكاً، وخضع لتدريبات معينة، تم ضمه من جملة مَنْ تم ضمهم لحمل سلاح السلطان، وإن كان يغيب عنا الفترة التي خضع فيها للتدريبات قبل قيامه بتلك المهمة، ولكن ما يهمنا أن ظهير الدين بعد وفاة سيده ألب أرسلان أصبح من مماليك ابنه تاج الدولة تتش، وانتقل معه بعد ذلك من فارس إلى الشام عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

هذا الانتقال كان مهماً بالنسبة لطغتكين، فقد غيّر حياته بالكامل، ونقله نقلة

(١) المصدر نفسه: ص٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٠.

(٣) ابن خلكان: ج٤ ص٣١٨.

نوعية كبيرة، وبالتالي ليس من السهل أن تضيع منه هذه الفرصة، وإنما استثمرها بشكل جيد، حتى لو كان ذلك عن طريق القتل، فالبنسبة إليه لا تهمه الوسيلة بقدر ما تهمه الغاية، وهذه الغاية هي التي رفعته من جندي مجهول إلى أحد القادة الذين يثق بهم تتش، هذه الثقة كانت بمثابة تذكرة للعبور من عالم المماليك إلى عالم الأسياد، بل إلى عالم الملوك، وهو ما سنتعرف عليه لاحقاً.

*** البروز أيام تتش:**

ثم غاب اسم طغتكين عن الأحداث منذ ذلك التاريخ، وفي العام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م كانت أول إشارة لابن القلانسي عنه، عندما يتحدث عن خبر خلاصه من الأسر «وهو أمر سنتناوله في حينه» حيث يقول: «وقد كان هذا الأمير المذكور، أي طغتكين، في حداثة سنه، ونضارة غصنه، قد حظي عند السلطان[١] تاج الدولة، ورشحه يحجبه ويُقدّمه على أبناء جنسه من خواصه وبطانته، وسكن إلى شهامته، وصرامته، وسداد طريقته....»[٢].

فهذا يعني أنه عندما وقع أسيراً كان يافعاً، وفي بداية شبابه، ويبدو أنه لفت نظر سيده تاج الدولة تتش إليه، من خلال شجاعته وفروسيته، وبالتالي حظي بمكانة مميزة لديه، وقدّمه على أبناء جنسه من الجنود الذين تم أسرهم معه، فأصبح من خواصه وبطانته.

ورغم أن ابن القلانسي لم يُحدد الأسباب التي جعلته يحظى بهذه المكانة، إلا أنه اختصرها بكلمات قليلة هي «شهامته وصرامته وسداد طريقته» ومع ذلك، ومن خلال فهم طبيعة عصره، يمكن القول أنها كانت تتطلب الشجاعة والفروسية

(١) رغم أن ابن القلانسي يطبق على تتش لقب السلطان لكنه في الحقيقة لم يصل إلى هذه المرتبة مطلقاً.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٢٧.

والإقدام والجرأة، والشخصية القيادية، وهي صفات قائد لا يمكن لأي شخص أن يمتلكها، صحيح أن ابن القلانسي لم يحدد موقفاً معيناً لطغتكين يصب في هذه المعاني، ولم يُبين ما الذي جعل تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يحسم أمره، ويجعله يرتقي تلك المكانة المميزة؟ لكن من الواضح أن ألب أرسلان عندما أهداه إليه، أخذ تاج الدولة يُقربه، خصوصاً أنه كان يقاتل في مختلف الجبهات، لاسيما بعد وفاة شقيقه السلطان ملكشاه وسعيه للوصول إلى العرش، وكان بحاجة ماسة إلى قائد يمتلك كل تلك المواصفات، ويعاونه في مهامه المختلفة، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل كل تلك الصفات وتلك الظروف تكفي لاختيار طغتكين لهذه المكانة، وتجعله ينال الحظوة المميزة بلغها؟. بالتأكيد هناك أمر جعل تتش يختاره من بين كل زملائه، وهذا الأمر لم يذكره ابن القلانسي أو غيره من المؤرخين، لكنه يتضح من خلال الأحداث التي تلت ذلك، ومن خلال اختيار تاج الدولة لظهير الدين دون غيره؟ فما الذي فعله حتى يتم تقديمه على أقرانه؟ ومن دون شك أن ما قام به نال إعجاب سيده، ويبدو أن ذلك حدث عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م عندما استولى تتش على دمشق، ويقول شاكر مصطفى عما فعله ظهير الدين في تلك الأحداث: «ويظهر أن طغتكين شارك في قتل أتسز»[١] وبالتالي فقد قام بما لم يستطع أحد من قادته القيام به، ويمكن أن نذهب إلى أبعد مما قاله مصطفى شاكر، فطغتكين لم يكن مشاركاً في عملية القتل تلك فحسب، وإنما كان الفاعل الحقيقي، وهو الذي سارع في تنفيذها، وبالتالي تأكد لتاج الدولة أن هذا الشاب قريب من شخصيته، ويمكن أن يضع ثقته به، لهذا أخذ يقربه إليه، ويحظى بمنزلة عالية لديه، وهذه الصفة أي الجرأة

(١) مصطفى: ص٤١.

على القتل، هي الصفة التي تفوقت على باقي الصفات بالنسبة لتاج الدولة تتش.

ويكمل ابن القلانسي الحديث عن ظهير الدين: «ورد إليه بعد ذلك ما أنس من الرشد وحسن التدبير في الصدر والورد، والاسفهسلارية على عسكريته»[١] بمعنى أن طغتكين لم يكن شجاعاً فحسب، وإنما كان يملك عقلاً راجحاً، ويدبر أمره في اتخاذ القرارات الحاسمة عند الصدر والورد. لكنه بالتأكيد كان أكثر من ذلك، فقد كان اليد التي يقتل بها أعداءه، والسيف الذي يبطش به، ونتيجة لهذه الثقة المطلقة، استنابه في تدبير أمر دمشق[٢] في غيابه، ولمَّا نجح في هذه المهمة نجاحاً باهراً، وقام بدوره على أكمل وجه وحفِظها كما يريد سيده، ولاّه ميافارقين من ديار بكر، وعندما وقعت الفتنة في آمد عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وتوجه إليها طغتكين قام بقتل جماعة وصلب جماعة، وبقيت آمد بحكم تاج الدولة[٣]، وهو ما يعني أن ظهير الدين نال إعجاب سيده تتش، لهذا سلّمه ولده شمس الملوك دقاق[٤]. وبالتالي فإن طغتكين، الذي نال حظوة لم يسبقه إليها أحد، نال أيضاً أربع جوائز من تاج الدولة هي:

- جعله اسفهسلار[٥] عسكره، أي المسؤول عنهم أو القائد العام.
- جعله نائباً عنه على مملكة دمشق في غيابه.

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٢٨.

(٣) الفارقي: ص٢٣٩.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٢٨.

(٥) الاسفهسلار: كلمة فارسية، تعني القائد العام، كتبها بعضهم «الأسبهبد» تتألف من كلمة «اسفه» ومعناها المقدم، و«سلّار» التركية ومعناها العسكر. عرف العرب هذه الكلمة، وقال الأعشى، هي من ألقاب أرباب السيف، وكانت في الدولة الفاطمية لقباً يطلق على صاحب وظيفة تلي صاحب الباب، ومعناها مقدم العسكر أو قائد الجيش. غنام: الألفاظ التاريخية ص٢٢.

- ولّاه ميافارقين من ديار بكر.

- سلّم إليه ولده دقاق، وهذه أعلى منزلة يصل إليها أي قائد عسكري لأنه بذلك أصبح أتابكاً لأمير، وهي منزلة تفتح له جميع الأبواب المغلقة.

هذا كل ما نعرفه عن طغتكين في تلك المرحلة المبكرة من حياته، والتي كانت عبارة عن شذرات متفرقة من الأخبار لدى عدد من المؤرخين، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا لم يخبرنا مؤرخ طغتكين أي ابن القلانسي عن حياة هذا الرجل في صباه؟ أو لماذا لم يخبر طغتكين مؤرخه بتفاصيل حياته الدقيقه؟ هذا السؤال يجيب عنه المؤرخ شاكر مصطفى بقوله: «ولأن الكثير من المماليك لم يشتهروا إلا بعد أن أسسوا دولاً خاصة بهم، فإن تاريخهم ما قبل ذلك يكون مجهولاً وغامضاً سواء عن سابق إصرار ومتعمد منهم أو بعدم أهمية ما قبل ذلك. وهذا ينطبق على كل المماليك الآخرين الذين ذاع صيتهم بعد وصولهم لسدة الحكم، مثل ابن طولون والظاهر بيبرس وغيرهما.

فربما طغتكين هو نفسه لم يرد أن يكشف عن مضمون هويته العائلية، على اعتبار أنه كان مملوكاً لدى السلاجقة، وهذه الصفة، وحدها كافية لجعل مرتبته أقل من غيره. لذا لم نجد طغتكين يصرح أو يلمح عن عائلته أو أبيه أو حتى اسمه الحقيقي، فلسنا نعلم هل طغتكين هو اسمه الذي لحق به بعد ولادته، أو هو هبة من سيده تتش بن ألب أرسلان. لكن وكغالبية العبيد عبر التاريخ، ينالون أسماءهم من قبل أسيادهم، وبالتالي من المستبعد أن يكون اسم طغتكين هو اسمه الحقيقي!. ويقول شاكر مصطفى: «ويظهر أن اسم طغتكين إنما أُعطي له من قبل سيده تتش حين أدخله حلقة رجاله العسكريين»[١].

---

(١) مصطفى: ص٣٩.

كما أن صفته السلجوقية وحدها هي التي تعلي شأنه، لذلك لم يعد بحاجة لأي صفة أو تسمية أخرى، فتاريخ السلاجقة وتسلطنهم يُغنيه عن أي تاريخ آخر، حتى لو كان تاريخ عائلته.

*** زواجه وأبناؤه:**

تزوَّج ظهير الدين طغتكين مرتين:

أ- شرف خاتون: لا نعرف الكثير عنها سوى أنها تُلقَّب بشرف خاتون أو شرف النساء[١] بنت أحمد بن علي بن الأبنوسي[٢] ولقب خاتون كان منتشراً بين نساء الأتراك وهو يعني السيدة. توفيت بعد طغتكين بثلاثة أشهر فقط، وكانت وفاتها في جمادى الأولى ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م[٣] قال عنها سبط ابن الجوزي: «كانت صالحة كثيرة الخيرات، ودفنت في قبتها التي بنتها خارج الفراديس»[٤].

ب- صفوة الملك: وهي تركية وليست سلجوقية[٥] وكان زواج الأتابك بها، زواجاً سياسياً بالدرجة الأولى[٦] لكنه الزواج الأهم الذي نقله إلى عالم الملوك، فهي كانت زوجة سيده تاج الدولة تتش وأنجبت له دقاق، ثم تزوَّجها ظهير الدين بعد ذلك.

وتزوجت صفوة الملك من قبل مرتين:

-**الزواج الأول:** من الأمير جاولي وهو شقيق أتسز صاحب دمشق. ولا نعرف

(١) يذكرها ابن القلانسي باسم الخاتون شرف النساء. ص٣٦٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ حاشية (١) ص٤٦٠.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٦٣.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٦٠.

(٥) مصطفى: ص٥١.

(٦) المصدر نفسه: ص٤٢.

متى تم هذا الزواج؟ وكل ما نعرفه أن أتسز أخذ دمشق عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٤م[١] ومن المحتمل أن الزواج تم بعد هذا التاريخ. وأنجب منها ابنة تسمى زمرد خاتون[٢] ويسميها عماد الدين الأصفهاني ياقوت[٣] وتُلقب مثل أمها صفوة الملك[٤].

توفيت زمرد خاتون عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٥]- قال عنها الذهبي: «زمرد الخاتون المحترمة، صفوة الملك بنت الأمير جاولي أخت دقاق صاحب دمشق لأمه، وزوجة تاج الملوك بوري، وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل ومحمود، سمعت من أبي الحسن بن قبيس، واستنسخت الكتب، وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي، فبقيت معه تسع سنين، فلمَّا قُتِل حجت وجاورت بالمدينة، ودُفِنت بالبقيع»[٦].

- **الزواج الثاني**: تزوج بها تاج الدولة تتش عدما استولى على دمشق عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م[٧] وقتل صاحبها وأخيه جاولي، ولابد أن هذا الزواج تم في السنوات الأولى من دخول تتش في دمشق وتحديداً ما بين ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م-

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٢٧٩.

(٢) الذهبي: العبر ج٣ ص٢٧، ابن الحنبلي: الشذرات ج٤ ص١٧٨، ابن كثير: البداية ج٨ ص٤٤٩.

(٣) الأصفهاني: البستان ص٣٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٤، مصطفى: ص٤٢.

(٥) الذهبي: العبر ج٣ ص٣٤٤، ابن الحنبلي: ج٤ ص١٧٨.

(٦) المصدر نفسه: ج٣ ص٢٧. قال ابن كثير: «وكان سبب زواج الأتابك عماد الدين زنكي بها طمعاً في امتلاك دمشق، فلم يظفر بذلك، وذهبت إليه في حلب، ثم عادت إلى دمشق بعد وفاته» وقال ابن الحنبلي: لما جاورت بالمدينة قلَّ ما بيدها فكانت تغربل القمح بالشعير، وتطحن وتتقوت بأجرتها، وكانت كثيرة البر والصدقة والصوم والصلاة. ابن كثير: ج٨ ص٤٤٩، ابن الحنبلي: ج٤ ص١٧٨.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٢٧٩.

٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، فولدت له ابنه دقاق[١].

أما ظهير الدين طغتكين، وهو الزوج الثالث فلم يُنجب من صفوة الملك. وإنما أصبح أتابكاً لولدها دقاق بن تتش. ويختلف المؤرخون في موعد زواجهما، «فمعظمهم يجعله في حياة تتش نفسه، وبأمر منه، كابن الأثير، وسبط ابن الجوزي، والذهبي وابن العماد الحنبلي، وابن خلكان وغيرهم[٢] أما ابن القلانسي فيجعل الزواج بعد مقتل تتش عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م»[٣].

***أبناؤه[٤]:**

يحدد شاكر مصطفى أبناء طغتكين من زواجه الأول وهم:

١- تاج الملوك بوري[٥] ولد كما ذكر العظيمي في ٢ رمضان ٤٧٨هـ/

---

(١) مصطفى: ص٤٢-٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٣.

(٤) شاكر مصطفى فصّل كثيراً في بحثه المميز عن أبناء طغتكين، وتعريفات عن كل واحد منهم، وتم أخذ جميع أسماء أبناء طغتكين من هذا البحث. مصطفى: ص٤١-٤٢.

(٥) بوري: قال الذهبي: كان ذا حلم وكرم، له أثر كبير في قتل وزيره والإسماعيلية، ولابن خياط فيه مدائح في ديوانه، وقد وزر له أيضاً أبو الذواد بن الصوفي، ثم كريم الملك ابن عم المزدقاني، ولما علم ابن صبّاح صاحب الألموت بما جرى على أشياعه الإسماعيلية بدمشق، تنمر (أي تنكر) وندب طائفة لقتل تاج الملوك، فعيّن اثنين بشربوشين في زي الجند، ثم قدما، فاجتمعا بناس منهم أجناد، وتحيلا على أن صارا من السلحدانة، وضمنوهما، ثم وثبا عليه فقتلاه، قال أبو يعلى القلانسي: وثبوا عليه في خامس جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين، فضربه الواحد بالسيف قصد رأسه، فجرحه في رقبته جرحاً سليماً، وضربه الآخر بسكين في خاصرته، فمرّت بين الجلد واللحم. قلت: كان تعلل من ذلك، ولكنه توفي في رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة، وحلفوا بعده لولده شمس الملوك إسماعيل. وقيل كان عجباً في الجهاد، لا يفتر من غزو الفرنج، ولو كان له عسكر كثير لاستأصل الفرنج. الذهبي: السير ج١٤ ص٤٦٠-٤٦١.

٢٢ ديسمبر ١٠٨٥م[١]. وهو الذي تولى حكم دمشق بعد أبيه في صفر ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م وكانت وفاته في رجب ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، وله ثلاثة أولاد:

- شمس الملوك اسماعيل[٢].
- جمال الدين محمد.
- شهاب الدين محمود.

وأوصى تاج الملوك بوري بالحكم من بعده لإسماعيل، ووصى لمحمد مدينة بعلبك وأعمالها[٣] وتوفي إسماعيل عام ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، ثم تولى بعده أخوه شهاب الدولة محمود بن تاج الملوك، وحلف له الناس[٤] وقُتِل على فراشه غيلة في شوال ٥٣٣هـ/ ١١٢٨م قتله ثلاثة من غلمانه[٥] وتولى حكم دمشق بعده

(١) العظيمي: تاريخ حلب ص٣٥٣، الذهبي: السير ج١٤ ص٤٦٠.

(٢) إسماعيل: كان بطلًا شجاعاً، شهماً مقداماً كآبائه، لكنه جبار عسوف. استنقذ بانياس من الفرنج في يومين، وكانت الإسماعيلية باعوها لهم من سبع سنين، وسعَّر بلادهم وأوطأهم ذلاً، ثم سار فحاصر أخاه ببعلبك، ونازل حماة وهي للأتابك زنكي، وأخذها لما سمع بأن المسترشد يحاصر الموصل، وصادر الأغنياء والدواوين، وظلم وعتا، ثم بدا له، فكاتب الأتابك زنكي ليُسلّم إليه دمشق، فخافته أمه زمرد والأمراء، فهيأت أمه مّنْ قتله، لأنه تهددها لما نصحته بالقتل، وكانت الفرنج تخافه لما هزمهم، وبيّتهم، وشن الغارة على بلادهم، وعثَّرهم، وكان قد تسودن وتخيل من أمرائه، وأخذ يحول أمواله إلى قلعة صرخد، قال ابن القلانسي: بالغ في الظلم، وصادر وعذّب، ولما علم أن زنكي على قصد دمشق، بعث يستحثه ليعطيه إياها لهذيان تخيله، ويقول: إن لم تجيء سلمتها إلى الفرنج، كتب هذا بيده، فأشفق الناس، فحمل صفوة الملك دينُها على حسم الداء، فأهلكته، وكثر الدعاء لها. قُتِل في ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة وله ثلاث وعشرين سنة (أي مولده ٥٠٦هـ) وتملّك بعده أخوه محمداً، ثم تزوجت أمه بصاحب حلب زنكي. الذهبي: السير ج١٤ ص٤٦١-٤٦٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٧٠٩-٧١٠.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٧٤٩، لما قُتِل محمود أرسل معين الدين أنر إلى أخيه جمال الدين محمد، صاحب بعلبك، وهو بها بصورة الحال، واستدعاه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، فلما دخل البلد، جلس للعزاء بأخيه، وحلف له الجند وأعيان الرعية، وسكن الناس، وفوّض أمر دولته إلى معين =

أخوه جمال الدين محمد أبو المظفر، واستمر حكمه عشرة أشهر[١] وتوفي بشعبان ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م[٢]. ثم حكم ابنه مجير الدين أبق[٣] وتولى ترتيب دولته معين الدين أنر[٤]. وفي عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م تسلَّم نور الدين زنكي دمشق من مجير الدين أبق، وبذلك انتهى حكم أسرة طغتكين، وانتقل مجير الدين إلى حمص، ثم إلى بالس بأمر من نور الدين ثم إلى بغداد وتوفي فيها عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٥].

٢- شمس الدين توفي سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م[٦].

٣- إيال خاتون وقد تزوجت إيلغازي الأرتقي وهي التي قال عنها ابن تغري في حوادث ٥١٦هـ/ ١١٢٢م عن وفاة نجم الدين إيلغازي: «ومعه زوجته الخاتون بنت الأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق»[٧]. كما أكد سبط ابن الجوزي المعلومة ذاتها وقال: «إن إيال خاتون ابنة طغتكين كانت زوجة إيلغازي، وذكر الفارقي براعتها في الاحتفاظ لابنها بالعرش بعد موت أبيه»[٨]. وأنجبت

= الدين أنر، مملوك جده وزاد في علو مرتبته، وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزجه بأمه. ابن الأثير: ج٨ ص٧٤٩.

(١) ابن الحنبلي: ج٤ ص١٠٥.

(٢) جمال الدين محمد: يقول الذهبي: كان سيئ السيرة، لم تطل مدته، ولا متعه الله، فمات في شعبان ٥٣٤هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٦ ص٢٦٤.

(٣) مجير الدين أبق : أبو سعيد، ولد ببعلبك في ولاية والده على بعلبك، وقدم معه دمشق، وتولى بعد وفاة أبيه وهو دون البلوغ، وأتابك زنكي يحاصر دمشق، فلم يصل منها إلى مقصود، ثم قدم الملك العادل نور الدين محمود وحاصر دمشق مدة قليلة، وتسلمها بالأمان عام ٥٤٩هـ، وتوفي في بغداد عام ٥٦٤هـ. المصدر نفسه: ج٣٩ ص١٢٠-١٢١.

(٤) ويرسم أيضاً أنز.

(٥) المصدر نفسه: ج٣٩ ص١٢٠-١٢١.

(٦) العظيمي: ص٣٧٠.

(٧) ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣ .

(٨) مصطفى: ص٤٠.

إيال من زوّجها إيلغازي ابنه سليمان. ويذكر المؤرخون أن دبيس بن صدقة الأسدي تزوج سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م من ابنة إيلغازي بن أرتق كهار خاتون فهل هي حفيدة طغتكين؟[٩]. ويذكر ابن الأثير: أن ينال بن أنوشتكين قد تزوج بأخت إيلغازي بن أرتق، وهي التي كانت زوجة تاج الدولة تتش[١٠].

٤- وهناك ابنة لطغتكين كانت زوجة محمد بن قراجا حاكم حماه الذي توفي سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، فسلّمت ابنته البلد إلى أبيها فأصبحت جزءاً من أتابكية دمشق[١١].

٥- ابن أخ[١٢] حيث قال ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م: «في هذه السنة نهض طغتكين نحو تدمر، لم يزل حتى استعادها من أيدي العاملين عليها الواثبين على ابن أخيه، الوالي كان بها، في يوم الخميس لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر منها»[١٣].

٦- كان لطغتكين قريب، لكن لم نعرف صفة هذه القرابة، وهو صبي أمرد يُدعى حسام الدين دلق بن أبق[١٤] وقد روى ذلك ابن العديم في قصة ذكرها في حديثه عن الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي: «أن ابن منير انهزم من أتابك طغتكين إلى بغداد، وكان سبب ذلك، أنه شبّب في قصيدة له ببعض أقارب طغتكين، وكان صبياً أمرد، وهو حسام الدين دلق بن أبق، والقصيدة هي التي

---

(٩) المصدر نفسه: ص٤٢.

(١٠) ابن الأثير: ج٨ ص٤٥٢.

(١١) مصطفى: ص٤٢.

(١٢) المصدر نفسه: ص٤٢.

(١٣) ابن القلانسي: ص٣٤٨-٣٤٩.

(١٤) مصطفى: ص٤٢.

أولها: من ركّبَ البدر في صدر الرديني، ويكمل ابن العديم روايته ويقول: وأركبه الحاجب يوسف على خيل البريد، فهرب إلى بغداد»[١].

*** تعليمه وثقافته:**

أما عن تعليم ظهير الدين طغتكين أو ثقافته، فلم يرد في أي مصدر حتى لدى ابن القلانسي نفسه أي إشارة إلى ذلك، وهو ما يعني أنه منذ أن وقع في أسر السلطان ألب أرسلان، فإنه التحق مباشرة في العسكرية، «وتربى في البلاط السلجوقي على ما ينشأ عليه أمثاله من المماليك من مران السلاح والدربة على الحرب»[٢] وبالتالي من البديهي كمملوك ألا يتلقى أي تعليم، وقد أورد ابن العديم رواية تؤكد هذه الحقيقة، حيث ذكر في حيثياتها ما يشير إلى أنه كان جاهلاً، رغم أن الرواية تتعلق بالشاعر أحمد بن منير الطرابلسي، إذ يقول مؤرخ حلب: «إن سبب طلب صاحب دمشق، ابن منير، واستتاره منه وخروجه من دمشق، أن ابن منير مدحه في قصيدة فيها بيت أوله: مني ومنك استفاد الناس ما كسبوا. وكان ابن منير كثير الأعداء، فقال لطغتكين بعض الأعداء عنده بعد خروج ابن منير: انظر أيها الأمير إلى قول ابن منير في هذا البيت: مني ومنك، وكان رجلاً جاهلاً تركياً، وقد سمع الناس يقولون عند تهديد بعضهم بعضاً: مني ومنك! فوقع ذلك في نفسه، وغضب، وطلبه، فاختفى وخرج عن دمشق، هذا معنى ما حكي لي قاضي العسكر، ويُحتمل أن يكون خوفه، واختفاؤه لمجموع الأمرين»[٣].

والقصة الأخيرة تشير إلى «ضعف حصيلته (طغتكين) من العربية، ومن

---

(١) ابن العديم: البغية ج٣ ص١٧٤.

(٢) مصطفى: ص٤١.

(٣) المصدر نفسه: ص٤١، ابن العديم: البغية ج٣ ص ١٧٥.

العلم بصفة عامة، وأيضاً معرفة الناس بذلك»[١]. ورغم أن ظهير الدين لم يكن يحسن اللغة العربية بطلاقة، لكنه استقبل عدداً من شعراء عصره، ودخلوا بلاطه، وقاموا بمدحه، منهم: الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي[٢] كما مر بنا آنفاً، وكذلك الشاعر زائدة بن نعمة القشيري أو التستري، المعروف بالمجفجف[٣] الذي «وصل إلى دمشق وأنشد أتابك (ظهير الدين طغتكين) قصيدة نونية، وخلع عليه خلعة تامة، وحمله على فرس عتيق»[٤] ويقول شاكر مصطفى: «فإن ذلك كان من النوادر المعدودة على ما قد نلاحظ في حكمه الطويل»[٥]. إضافة إلى زائد بن مزيد بن زائد العرضي[٦].

(١) المصدر نفسه: ص٤١.

(٢) قال عنه ابن عساكر: كان هجّاء خبيث اللسان، يكثر الفحش في شعره، ويستعمل فيه الألفاظ العامية، فلما كثر الهجو منه سجنه بوري بن طغتكين أمير دمشق مدة، وعزم على قطع لسانه، فاستوهبه يوسف بن فيروز فوهبه له، وأمر بنفيه من دمشق، فلما ولي ابنه اسماعيل بن بوري، عاد إلى دمشق، ثم تغير عليه اسماعيل لشيء بلغه عنه فطلبه، وأراد صلبه، فهرب واختفى في مسجد الوزير أياماً، ثم خرج عن دمشق، ولحق بالبلاد الشمالية يتنقل من حماه إلى شيزر إلى حلب، ثم قدم دمشق آخر قدمة صحبة الملك العادل (نور الدين زنكي) لما حاصر دمشق الحصار الثاني، فلما استقر الصلح دخل البلد ورجع مع العسكر إلى حلب، فمات بها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس. ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق، للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، مراجعة روحية النحاس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ص٣٠٦.

(٣) يرسمه ابن عساكر بـ «المحفحف» ابن العديم: البغية حاشية (١) ج٨ ص٢٦٩، ويقول ابن العديم: شاعر بني مالك، بدوي حسن الشعر، قدم حلب، ومدح بها الملك رضوان بن تتش وغيره، وكان يتردد إليها كثيراً. ابن العديم: البغية ج٨ ص٢٦٩، وقال الصفدي: مدح سادات العرب، وأهل البيوت، وله في سيف الدولة صدقة وابنه مزيد عدة بيوت، ودخل الشام ومدح ملوكها. الصفدي: ج١١ ص٣٢٥.

(٤) ابن العديم: البغية ج٨ ص٢٧٠، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق عبد القادر بدران، دار المسيرة بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ج٥ ص٣٥١.

(٥) مصطفى: ص٤١.

(٦) المصدر نفسه: ص٤١.

أما ابن الخياط[1] الشاعر الدمشقي «الذي عاصر ظهير الدين، مات قبله بخمس سنوات، فلا نجد في ديوانه بيت شعر واحد في مديح صاحب دمشق، وإن كنا نجد له الكثير من القصائد في مدح ابنه بوري، ومدح رؤساء دمشق من بيت الصوفي، وقواد العسكر»[2]. «وكما هرب ابن منير من بطش طغتكين، هرب كذلك ابن القيسراني[3] الشاعر الآخر، ما يعني أنه لم يكن مغلق الباب على الشعراء فحسب، ولكن أيضاً مغلق الفهم للعربية أيضاً وللجو الثقافي الدمشقي بصفة عامة»[4].

ويضرب صاحب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة مثلاً بطغتكين خلال حديثه عن المحتسب الذي يقصد وجه الله تعالى وطلب مرضاته حيث يقول: «.. وذكروا أن طغتكين سلطان دمشق، طلب له محتسباً، فذُكِر له رجل من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلما بَصُر به، قال: إني وليتُك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: إن كان الأمر كذلك، فقم عن هذه الطراحة، وارفع هذا المسند، فإنهما من حرير، واخلع هذا الخاتم، فإنه ذهب. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير: إن هذين حرام على

(١) ابن الخياط: هو أبو عبد الله أحمد بن محمد، ولد عام ٥٤٠هـ وتوفي عام ٥١٧هـ. الأصفهاني: عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، قسم شعراء الشام ج١٠ ص١٤٢.

(٢) مصطفى: ص٤١.

(٣) القيسراني: أبو عبد الله محمد بن نصر القيسراني، ولد بعكا عام ٤٧٨هـ وتوفي في ٥٤٨هـ بدمشق، بلغ تاج الملوك بوري بن طغتكين أنه هجاه فتنكر له، فهرب إلى حلب، ومدح نور الدين زنكي، يقول عماد الدين الأصفهاني: له قصائد في مدح آبق ملك دمشق (مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين) وجده. الأصفهاني: الخريدة ج١١ ص١١٥ والحاشية ص٩٦.

(٤) مصطفى: ص٤١.

ذكور أمتي، حلٌّ لإناثها. قال فنهض السلطان عن طراحته[١] وأمر فرفع مسنده، وخلع الخاتم من إصبعه، وقال: قد ضممتُ إليك النظر في أمور الشرطة، فما رأى الناس محتسباً أهيب منه»[٢] وهذه القصة تشير إلى تدينه بشكل ساذج[٣].

ويمكن القول إن هذه القصة هي من النوادر التي ذُكِرت عن أتابك دمشق، فيما يخص تدينه، حتى لو كان هذا التدين ساذجاً كما يقول شاكر مصطفى، فلم نجد ابن القلانسي أو غيره من المؤرخين الآخرين، مَنْ يذكر مثل هذه الروايات عنه، وبالتالي حتى إذا كانت تلك الرواية صحيحة، فلا وزن لها، ولا تشير إلى أي تدين لا مِنْ قريب ولا مِنْ بعيد لظهير الدين. وكل ما يمكن أن تشير إليه هذه الرواية أن صاحب دمشق، أراد إرضاء هذا المحتسب والتمسك به كي يقبل المنصب الذي عرضه عليه، ومن ثم تنازل له طغتكين برفع المسند وخلع الخاتم.

❊ اشكالية الأسر:

وقع ظهير الدين طغتكين أسيراً لدى أصحاب السلطان بركيارق في المعركة التي قتل فيها سيده تتش بن ألب أرسلان عند الري في صفر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، بعد أن «انفل عسكر السلطان تاج الدولة، وتفرَّق ونهب سواده، وأثقاله، وأسر أكثره، وقُتِل منه الخلق الكثير»[٤] وأصبح طغتكين أبرز الأسرى، بعد أن فر أيتكين الحلبي بالملك دقاق، وأخذه إلى الشام، حيث يقول ابن الأثير عن دقاق : «..ثم

(١) الطراحة: وجمعها طراريح، وهي مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس. المقريزي: أحمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ج١ ق٢ حاشية (٣) ص٤٤٩.

(٢) الشيزري: عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، بإشراف: محمد صادق زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م ص٧-٨.

(٣) مصطفى: ص٤١.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٢٦.

لحق بأبيه، وحضر معه الوقعة التي قُتِل فيها، فلمَّا قُتل أبوه أخذه غلام لأبيه اسمه أيتكين الحلبي، وسار به إلى حلب»[١].

وكان يمكن أن يكون مصير طغتكين غامضاً، أو حتى مقتولاً مع من قُتِل، لكن الأقدار كانت تخبئ له أمراً آخر، لأن الأسر كان بوابته الحقيقية نحو الصعود إلى القمة.

فمن حُسن حظ طغتكين أن القائد قوام الدولة كربوقا، وقع أسيراً لدى تتش في جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م بالقرب من حلب بعد مقتل آق سنقر، وكربوقا أصبح فيما بعد والي الموصل بعد سنتين ونصف السنة تقريباً من أسره، وقاد أول حملة للسلاجقة ضد الصليبيين عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، وابن الأثير يكشف لنا سبب عدم قتل تتش له حيث يقول في حوادث ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م: «في هذه السنة، في ذي القعدة، مَلَكَ قوام الدولة أبو سعيد كربوقا مدينة الموصل، وقد ذكرنا أن تاج الدولة تتش أسره لمَّا قَتَل آق سنقر وبوزان، فلمّا أسره أبقى عليه طمعاً في استصلاح حمية الأمير أنز، ولم يكن له بلد يملكه إذا قتله، كما فعل بالأمير بوزان، الذي قتله واستولى على بلاده الرها وحران»[٢]. أي أن تتش منعه أمران من قتل كربوقا، وإبقائه على قيد الحياة، وهما سبب وطمع.

فأما السبب: فهو أن كربوقاً لم يكن يملك بلداً بحيث إذا قتله تتش، يمكن أن يستفيد من قتله، ويأخذ بلده منه، كما فعل مع غيره، وبالتالي فلا فائدة تعود إليه من قتله.

وأما الطمع: فهو من أجل كسب ود، وحمية أنز قائد جيش السلطان بركيارق،

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٨٧.

بل ربما يكسبه إلى صفه، وكما عبّر عن ذلك ابن الأثير بقوله: «استصلاح حمية أنز قائد جيش كربوقا». بمعنى أن تتش أراد أن يستخدم كربوقا كورقة سياسية، ويستفيد منه بصفته على صلة قوية بقائد جيش بركيارق، يمكن أن يغريه بالإنضمام إليه، أو يكشف خطط السلطان السلجوقي، أما قتله فلن يفيده كثيراً، لهذا فضّل الإبقاء على حياته.

ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، بل ربما يُدركه أجله، وهو لم يُحقق ما يريد. وهذا ما حدث مع تاج الدولة الذي قُتِل على يد عسكر السلطان بركيارق في صفر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. فهو لم يَقتل كربوقا كما قتل صاحبيه آق سنقر وبوزان، ولم يبقه الأجل حتى يستفيد من إبقاء كربوقا في الأسر، كما كان يُخطط له. وبقي قوام الدولة كربوقا محبوساً بحلب إلى أن قُتِل تتش، ومَلَك ابنه الملك رضوان البلد، فأرسل إليه السلطان بركيارق رسولاً يطلب منه إطلاق سراح كربوقا وكذلك أخيه النونتاش[١].

كل ذلك صب في صالح طغتكين، فقد بدأت المفاوضات بين الطرفين: السلطان بركيارق والملك رضوان لتبادل الأسيرين الكبيرين، كربوقا مقابل طغتكين، وكان الرسول المبتعث من قبل بركيارق إلى رضوان هو أبق بن عبد الرزاق، الذي كان من قادة تتش قبل أن يأسره بركيارق، فقد كان «من جملة من قُبِض عليه من الجماعة الذين كانوا مع تتش»[٢] ولكن بعد مقتل تتش انضم ابن عبدالرزاق إلى عسكر السلطان، فبعثه الأخير إلى رضوان لحل مسألة كربوقا.

وكان اختيار بركيارق لابن عبد الرزاق ليكون رسوله اختياراً موفقاً، نظراً

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٨٧.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٧.

للعلاقة الوطيدة التي كانت تربط هذا المبعوث بأبناء وقادة تتش، وبالتالي لم يكن من الصعب أن تنجح المفاوضات، بل كان نجاحها مضموناً بشكل منقطع النظير، لأنه بمجرد اطلاق رضوان لقوام الدولة كربوقا، قابله بركيارق بإطلاق سراح طغتكين وجميع من كان يعتقلهم من قادة تاج الدولة تتش، حيث يقول ابن العديم بعد إرسال بركيارق مبعوثه ابن عبد الرزاق إلى رضوان : «وسيّره إلى حلب، فلمَّا وصل، أكرمه رضوان وأَطلَق كربوقا في شعبان، وسيّره مكرماً، فأطلق بركيارق أتابك طغتكين وجميع من كان في اعتقاله من خواص تاج الدولة، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه، وألقى تدبير أموره إليه، فقام فيها أحسن مقام»[١].

بينما يرى سبط ابن الجوزي أن ما تم عبارة عن اتفاق مسبق بين بركيارق ودقاق، من دون عِلْم رضوان الذي كان يحاصر أخاه دقاق في دمشق، وذلك في خضم الصراع الذي اندلع بين الأخوين بعد مقتل أبيهما تتش، والذي استمر عشر سنوات تقريباً (وهو ما سوف نتناوله في الصفحات التالية) فقد كانت هناك مراسلات سرية بين دقاق وبركيارق، وكان يخبره من خلالها بتفاصيل أوضاعه ومآله، نتيجة للحصار الذي فرضه رضوان على دمشق، واستمر لمدة شهرين[٢].

ومع ذلك، وقبل أن تُحسم الأمور بين الملكين الصغيرين كان دقاق قد انحاز إلى بركيارق «وصار معه»[٣] ويتضح أن هناك «علاقات طيبة كانت تقوم من قبل بينهما في حياة تتش نفسه، فقد أرسل هذا الملك ابنه دقاق إلى أخيه السلطان ملكشاه في نوع من الترضية له، ليلقاه في بغداد، ويتربى عنده، وطلب

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

له يد إحدى بنات السلطان، مع أنه كان لا يكاد يقارب الخامسة عشرة من العمر، وبقي دقاق هناك حتى توفي ملكشاه، فلحق بابن عمه بركيارق»[١] وعندما بدأ تتش حروبه من أجل السلطنة عاد دقاق إليه «وحينذاك تلقاه أبوه فعهد به إلى طغتكين يربيه، وأعطى الإثنين ولاية ديار بكر إقطاعاً يعيشان منه»[٢].

لذلك أرسل بركيارق الأتابك طغتكين إلى دقاق، لِمَا يملك من خبرة سياسية وعسكرية وإدارية اكتسبها في أيام تتش، وكان دقاق بأمس الحاجة إليه لمواجهة أخيه رضوان. وهنا ننقل كلام سبط ابن الجوزي بعد الحديث عن الحصار الذي فرضه رضوان على دمشق، ومراسلة دقاق لبركيارق: «فأرسل (بركيارق) إليه طغتكين مملوك تتش، ليدبر أمره»[٣] وفور وصوله إلى دمشق «تلقاه دقاق في العسكر وأرباب الدولة، وبالغ في إكرامه، وردَّ إليه النظر في الأصر سلارية (الاسفهسلارية) على حاله»[٤].

وهنا يبرز سؤالان مهمان:

- **الأول**: لماذا دخل رضوان في مفاوضات لإطلاق سراح طغتكين، كما ذكر ابن العديم، وهو يعلم أنه أتابك أخيه ومربيه وزوج أمه؟.

- **الثاني**: لماذا وافق بركيارق على طلب دقاق، بإرسال النجدة إليه ممثلة بطغتكين وقادة تتش الذين كانوا في الأسر لديه؟.

بالنسبة إلى السؤال الأول، نعتقد أن رضوان ارتكب خطأ فادحاً في إطلاق سراح طغتكين، هذا الخطأ كلَّفه عدم الوصول إلى هدفه ومبتغاه، كما سنرى

(١) مصطفى: ص٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

(٤) المصدر نفسه: ج١٣ ص٢٣٧.

لاحقاً، ومن ثم ضياع كل أحلامه، على اعتبار أن إطلاق سراح ظهير الدين أدى فيما بعد إلى انقلاب الأوضاع في الشام رأساً على عقب لصالح أخيه دقاق، بعد أن قويت شوكته بأتابكه طغتكين، وبعسكر وقادة أبيه الذين تم الافراج عنهم مع طغتكين. وكل هؤلاء يملكون خبرة واسعة في إدارة الحروب والمعارك.

وهذا القرار الذي اتخذه رضوان يدل على قصر نظر هذا الملك الصغير، وعدم قدرته على قراءة الأوضاع بشكل صحيح، حتى لو كان هذا الاتفاق من أجل زيادة الروابط مع السلطان بركيارق، لأن طغتكين الذي يملك خبرة عسكرية كبيرة كان قادراً على إدارة الصراع بين الأخوين لمصلحة الملك دقاق على حساب أخيه رضوان. كما أن هذا القرار، أي الدخول في مفاوضات لإطلاق سراح كربوقا وطغتكين، يدل على أن المجموعة التي كانت تحيط برضوان لم تكن على قدر كاف من الخبرة السياسية. ومن ثم لا غرابة أن يخسر كل شيء فيما بعد.

ومع كل هذا، هناك أمر لا يجب اغفاله، حتى لا نلقي اللوم كله على رضوان والمحيطين به، وهو أن السلطان بركيارق كان يريد الإفراج عن كربوقا، بينما لم يكن رضوان يريد ذلك لطغتكين الذي كان أسيراً لدى بركيارق، وإنما كل ما كان يريده هو التقرب للسلطان.

ومن المتوقع أن هذا التفسير هو الأقرب إلى المنطق، لأنه من المستبعد أن يطلب ملك حلب رضوان الإفراج عن أتابك أخيه دقاق، وهو الذي يخوض ضده صراعاً على دمشق، لا سيما أن الصراع كان في بدايته، وأن رضوان كان هو البادئ في العدوان على دقاق، وكفته كانت هي الأعلى، كما أن خروج طغتكين من الأسر من شأنه أن يقوي شوكة أخيه. إذن من المستبعد أن يكون ملك حلب

رضوان طلب إطلاق سراح طغتكين. بدليل أنه بعد الإفراج عنه لم يتوجه إليه في حلب لكي يشكره على صنيعه، وإنما توجَّه مباشرة إلى ربيبه الملك دقاق في دمشق[1]. لكن ما يثير الشك والريبة أن بركيارق لم يكتف بإطلاق سراح طغتكين فحسب، وإنما أَطلَق معه كل من قبض عليهم من عسكر تتش!. ولو كانت نية السلطان السلجوقي حسنة لاكتفى بإطلاق ظهير الدين فقط، إذن ما الذي حدث؟ وما الذي دعا بركيارق للإفراج عن طغتكين ومَن معه؟ وهل كان ذلك محض صدفة؟ أم أنها مبادرة من السلطان بركيارق ليقابل الإحسان بمثله. أم أن هناك أمراً يُدبر بليل؟.

وهنا نترك شاكر مصطفى يجيب عن هذه التساؤلات بقوله: «قد نجد تفسير ذلك إذا تصورنا أن القواد والأمراء حول بركيارق تعمَّدت تقوية دقاق ضد أخيه رضوان، لئلا يرث هذا الأخير الشام كله، ويشكل قوة قد تهدد في المستقبل سلطنتهم المستقرة في إيران والعراق، كما هددها تتش القتيل والد رضوان. إن حسن السياسة يقتضي باستنزاف قوى الطرفين معاً وإيقاع أحدهما بالآخر لئلا يقويا، وهذه السياسة القصيرة النظر التي خطط لها بلاط أصفهان للفوضى بالشام، هي التي أوقعت هذه المنطقة في يد الفرنجة بعد سنوات معدودة ما بين سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م – ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. وهكذا فإن طغتكين لم يُطلق سراحه تحريراً بالتقابل، وإنما أُرسِل إلى الشام بمهمة هي دعم دقاق، وقيادة منافسته لأخيه رضوان. وهذا بالضبط ما يُفسر لماذا لم يتوقف طغتكين في طريق عودته من إيران في ديار بكر، مركزه السابق ولا عرج على حلب التي كان يجب أن

(١) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٨، ابن القلانسي: ص٢٢٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧، ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

يشكر صاحبها لو أنه كان حقاً السبب في تحريره، ولكنه قصد رأساً إلى دمشق، حيث كان قد تجمع عدد كبير من قواد تتش السابقين ومنهم أيضاً ابن عبد الرزاق سفير المفاوضات»[١].

وقبل كل هذا وذاك علينا أن نضع في اعتبارنا أعمار كل هؤلاء الذين أشعلوا الحروب في المنطقة، وتكالبوا على السلطة، فعلى سبيل المثال: السلطان بركيارق لا يتجاوز عمره ١٥ عاماً، دقاق أيضاً ١٥ عاماً، ورضوان ١٦ عاماً، والأغرب من ذلك كله، أن الملك تتش بن ألب أرسلان والد دقاق ورضوان عندما أخذ دمشق عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، كان عمره لا يتجاوز ١٣ عاماً، وقتل عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

عندما نعلم أعمار هؤلاء السلاطين والملوك، نستطيع أن نعرف ما يلي:

- أنهم كانوا قليلي الخبرة، رغم أطماعهم الكبيرة، وطموحهم الذي ليس له حدود.

- أن الذين يديرون الحروب، وكل تلك الألاعيب هم أولئك القادة الذين يُحركون أولئك الملوك الصغار، ولا شك أن طموح هؤلاء القادة، ليس بالضرورة أن يصب في صالح أولئك الملوك أو حتى في صالح الأمة، وإنما يبحثون عن مصالحهم الخاصة، وكان من مصلحتهم استمرار الحروب حتى يكون الملوك الصغار بحاجة مستمرة لهم.

- أن أمهات الملوك الصغار، هن اللاتي يدرن تلك الألاعيب من خلف الستار، عبر أولئك القادة الذين يتحصلون على الأموال الطائلة منهن.

لهذا لا غرابة أن تصل الدولة السلجوقية لمثل هذه المرحلة، وتعيش كل

---

(١) مصطفى: ص٤٦.

هذا التمزق والانشقاقات والحروب بسرعة غير متوقعة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه ماذا حدث بعد الإفراج عن طغتكين؟ وكيف تغيّر الصراع بين دقاق ورضوان؟ وما نتائجه؟ كل هذه الأسئلة سوف نتعرف على إجابتها في الفصل التالي.

الفصل الرابع: الصراع بين دمشق وحلب

العودة من الأسر، دقاق ورضوان، أعمال دقاق وطغتكين، تجميل صورة طغتكين، تخويف أرتاش، تأديب كمشتكين، موقف، رضوان سقمان وطغتكين، الملك الأخرس، خطة طغتكين الجديدة.

* العودة من الأسر:

كان الإفراج عن الأتابك ظهير الدين طغتكين من الأسر ووصوله إلى دمشق بمثابة الجائزة الكبرى التي حظي بها الملك دقاق بن تتش، وكان شديد الفرح بوصوله، حيث يقول ابن العديم عن طغتكين بعد الافراج عنه: «..ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه»[١] ويقول ابن القلانسي: «وتوجّه عائداً إلى دمشق، وخرج صاحبه السلار حصن الدولة بختيار شحنة دمشق نحوه لتلقيه والعود في خدمته»[٢] وينقل سبط ابن الجوزي الكلام نفسه عن ابن القلانسي[٣] ويقول ابن الأثير بعد وصول دقاق إلى دمشق: «واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين[٤] إلى دمشق، ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، وقد سلِموا، فإنه كان قد شهد الحرب مع صاحبه (أي تاج الدولة تتش) وأُسِر فبقي إلى الآن، وخلص من الأسر، فلمَّا وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق، وأرباب دولته ومنهم

(١) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٨.

(٢) ابن القلانسي: الذيل ص٢٢٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٢٣٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٧٩.

شحنة دمشق السلار حصن الدولة بختيار[١]، وكان ذلك في العام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وبالغوا في إكرامه»[٢]. وأول قرار اتخذه دقاق بشأن طغتكين «ردَّ إليه النظر في الاسفهسلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة»[٣].

بعد هذه العودة للأتابك، دخلت الشام كلها مرحلة جديدة، من المعارك والحروب استمرت عشر سنوات تقريباً، من عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م إلى ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م، وهي أشبه ما تكون بمرحلة انتقالية لطغتكين، من قائد يحكم دمشق تحت عباءة طفل سلجوقي، إلى صاحب دمشق الفعلي، وقد تميزت هذه المرحلة بعدة أمور:

١- استمرار الصراع بين الأخوين رضوان ودقاق ابني تتش.

٢- تمرّسْ طغتكين في سياسة الحكم بشكل فعلي. وهي المرحلة التي اكسبته الكثير من الخبرة.

٣- موت دقاق، ومن ثم سيطرة الأتابك على دمشق.

٤- الحملات الصليبية، وتأسيس أربع إمارات، وهو ما غيّر شكل المنطقة لفترة طويلة من الزمن.

وبدءاً من هذه الفترة، أخذ ظهير الدين يُفكّر في مصلحته الشخصية قبل كل شيء، وإن كانت مصلحته في هذه المرحلة مرتبطة بمَلِك دمشق، لكنه كان يُدرك جيداً أن دقاق لا يملك الخبرة الكافية لإدارة الدولة، والأهم أنه لا يملك موهبة القيادة الحربية، لذلك فهو في أمس الحاجة إلى أتابكه، وبالتالي فإن أول أمر قام

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٧.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٢٨.

به الأتابك هو ترتيب أمور الدولة وفق هواه، وأول قرار تم اتخاذه هو القضاء على والي قلعة دمشق الأمير ساوتكين. (وقد تناولنا عملية الاغتيال هذه بالتفصيل لمعرفة أسبابها ودوافعها في فصل الاغتيالات السياسية).

وبعد ترتيب أوضاعه في دمشق، قرر طغتكين أن يدخل على زوجته أم دقاق، وذلك في عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م هذه الزوجة التي تلاقى طمعها وجشعها مع طمع وطموح ظهير الدين، وهي التي وفرت له أرضية شرعية من خلال وجوده كوصي لملك صبي، للوصول إلى حكم دمشق، حيث يقول ابن القلانسي: «وعقدت الوصلة بينه (أي دقاق) وبين ظهير الدين أتابك، وبين الخاتون صفوة الملك، والدة شمس الملوك دقاق ودخل بها»[١].

ومن ثَمَّ سارت الأمور بعد ذلك وفق ما يتمناه طغتكين والمجموعة التي كانت معه، ثم توسعت أحلام وطموحات هذا القائد، بعدما وجد نفسه بين ليلة وضحاها من أسير لا يعرف مصيره، إلى المسؤول الأول عن دمشق، إثر موت صاحبها القوي وسيده تتش بن ألب أرسلان، ليس هذا فحسب، بل أصبح زوجاً لأم الملك، والمتصرف الأول في دولته، حيث يقول ابن القلانسي عن طغتكين بعد عودته من الأسر «واستقامت له الحال بدمشق وأحسنَ السيرة فيها، وأجملَ في تدبير أهليها، وبالغ في الذب عنها، والمراماة دونها، وسكنت له نفس الملك شمس الملوك إليه، واعتمد في التدبير عليه»[٢].

لهذا فإن دور ظهير الدين كوصي على المَلِك سوف يضيق عليه مع مرور السنوات، خصوصاً أنه كان الملك بالفعل خلال هذه المرحلة، وصاحب الكلمة

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٢٨.

الأولى والأخيرة في دمشق، وبالتالي سيكون طموحه أن يصبح السيد الأول في هذا البلد.

وقد ساعد الأتابك في توسع طموحه وأحلامه وجود زوجة إلى جانبه هي خاتون صفوة الملك، التي كانت قبل الزواج بجاولي شقيق صاحب دمشق السابق أتسز، امرأة من العوام، ثم ذاقت حلاوة العز والجاه إلى جانب زوجها جاولي الذي كان مقرباً من أخيه، وعندما استولى تتش على دمشق عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م قتل أتسز وشقيقه جاولي، وتزوج بصفوة الملك، لكنها في المرة الثانية أصبحت زوجة ملك دمشق السلجوقي شقيق سلطان السلاجقة. ثم صارت أمّاً لملك سلجوقي، فهل يمكن أن تُفرّط بكل هذه المكانة بعد قتل زوجها الملك تتش؟.

وظهير الدين يدرك قبل غيره صعوبة الوصول إلى حلمه في الوقت الراهن، لأنه يعلم أن هناك عقبات تحول بينه وبين مُلك دمشق، أهمها: أنه مهما علا صيته وارتقى نجمه، فهو في النهاية مجرد مملوك، وليس بسلجوقي، وبالتالي لن يتقبله أحد إذا خلع أو قتل الملك، وحل مكانه، لهذا ترك ظهير الدين هذه المسألة للمستقبل، فهو لا يعلم ما تخبئه الأقدار.

وإذا كانت حياة طغتكين نفسه تغيّرت بشكل جذري، فإن الأوضاع بين دمشق وحلب انقلبت رأساً على عقب، فقد كانت أول الأمر لصالح حلب وصاحبها رضوان، ثم أصبحت تميل لصالح دمشق التي يقف هذه المرة على رأس هرمها قائد كبير محنك، خاض الكثير من التجارب والمعارك هو ظهير الدين طغتكين، إضافة إلى وجود العديد من القادة ذوي الخبرة القادرين على إدارة الشؤون الحربية والسياسية بحنكة كبيرة. ولكن كيف كانت البداية؟.

* دقاق ورضوان:

كان لتتش خمسة أولاد هم: رضوان (١٦ عاماً) المولود عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، الملقب بفخر الملوك[١] ودقاق (١٥ عاماً) ويلقب بشمس الملوك، إضافة إلى أبي طالب، وبهرام وأرتاش، وبعض المؤرخين يطلقون على الأخير اسم ألتاش أو بكتاش. وما يهمنا من كل هؤلاء هما رضوان ودقاق الذي دار بينهما صراع طويل.

نِشأ رضوان في دمشق في حجر أبيه، وكانت أمه أم ولد، فزوّجها أبوه بعد أن طلّقها، من أحد رجال التركمان الكبار هو حسين ويلقب بـ«جناح الدولة» أو باقي الدولة، وجعله أتابكاً ومربياً لولده رضوان، وكانت حمص إقطاعه.

وكلمة أتابك، كلمة تركية مركبة من « أتا» وتلفظ أحياناً «أطا» وتعني أب[٢] و«بك» أمير أو مقدم. والكلمة تعني الأمير المربي أو الوالد أو الوصي. «وقيل: أبو الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم أمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام»[٣]. وكان من عادة السلاجقة أن يُطلّقوا بعض زوجاتهم عقب إنجاب إحداهن لغلام، فيُنعمون بتزويجها بإحدى شخصيات دولتهم. وهو يحقق بذلك معادلة مهمة، تتمثل في ربط المطلقة بالأسرة الحاكمة، ويحظى ولده بمربٍ مع وجود حزب وقوة تحميه، كما تحظى هذه الشخصية أو الأتابك بمكانة مميزة لدى الحاكم السلجوقي[٤]. ومع مرور

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٢٨٣.

(٢) لُقّب مصطفى كمال قائد الثورة التركية بـ «أتا تورك» أي أبو الأتراك.

(٣) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم: فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر «٣٠» مطبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة ٢٠٠٤ ج٤ ص١٨.

(٤) زكار: المدخل ص٢١٦.

الأيام تطور منصب «أتابك» وتمتَّع بمزايا أخرى أهمها أنه أصبح يحكم باسم هذا الطفل السلجوقي، ومِن ثَمَّ تكون له إمارة وأسرة حاكمة.

واستطاع تاج الدولة تتش قبل مقتله أن يوسع مملكة دمشق، حتى بلغت غالبية مناطق الشام، وقال صاحب كتاب الأعشى عن حدود الشام، وهو ينقل عن كتاب تقويم البلدان: إن حده من الجنوب من أول رفح التي في أول الجفار بين مصر والشام، إلى حدود تيه بني إسرائيل، إلى ما بين الشوبك وأيلة من البلقاء، وحدّه من الشرق، من البلقاء إلى مشاريق صرخد على أطراف الغوطة، إلى سلمية، إلى مشارق حلب، إلى بالس، وحدّه من الشمال من بالس إلى قلعة نجم، إلى البيرة، إلى سميساط، إلى حصن منصور، إلى بهنسى، إلى مرعش، إلى بلاد سيس، إلى طرسوس، إلى بحر الروم «البحر الأبيض المتوسط» حده من الغرب من طرسوس المذكورة آخذاً على ساحل البحر الرومي، إلى رفح المتقدمة الذكر»[١].

وكانت تلك حدود الشام آنذاك، وهي تقريباً حدود مملكة دمشق، مع اختلاف في بعض الجوانب، نظراً لوجود مملكة بيت المقدس في فلسطين، والممتلكات الساحلية، وإمارة حلب (التي خرجت عن دمشق وأصبحت بعد مقتل تتش إمارة مشتقلة تتبع ابنه رضوان بن تتش) مع دويلات الوسط مثل: الإمارة المنقذية في شيزر، ومن أعمال دمشق القبلية: عمل بانياس، وعمل الشعرا، وعمل نوى، وعمل أذرعات «درعا» وعمل عجلون، وعمل البلقاء «ومن هذا العمل الصلتوهي بلدة لطيفة جنوب عجلون» وعمل صرخد، وعمل بصرى، وعمل زرع «أزرع الآن». ومن الأعمال الشمالية وهي الواقعة شمال دمشق: عمل

(١) القلقشندي: ج٤ ص٧٥-٧٦، أبو الفداء: تقويم البلدان ص٣٣٥.

بعلبك، وعمل البقاع، أما ما هو داخل في حدود الشام من غربي الفرات فهناك عمل حمص، وعمل قارا، وعمل سلمية، وعمل تدمر وكذلك عمل الرحبة[١].

وقبل توجّه الملك تتش بن ألب أرسلان لقتال ابن أخيه السلطان بركيارق في المعركة التي قُتِل فيها عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، أوصى عساكره بطاعة ابنه رضوان، وأمره أن يسير إلى العراق ثم يأتيه، وسار رضوان إلى أبيه تتش، وكان معه عدد من القادة منهم: إيلغازي بن أرتق[٢] وعندما وصل إلى عانة[٣] على الفرات، وكان يريد التوجه إلى بغداد[٤] سمع بالفاجعة التي حلّت بأبيه وجنده، فحدث ارتباك كبير في صفوف عسكره، «فاضطرب لذلك وقلق»[٥] وخاف أن يأتي إليه جنود السلطان بركيارق، ويقتلوه كما قتلوا أباه، لذلك «حط مضاربه في الحال، وقُوِّضت خيام العسكر»[٦] وقرر العودة إلى حلب، ووصف ابن القلانسي كيفية رحيله بقوله: «ورحل مُجداً في سيره، في نفر من سرعان خيله وغلمانه، وترك باقي عسكره من ورائه»[٧]. وكانت معه والدته، فوصل إلى حلب ومَلَكها. كما كان مع رضوان أخويه الصغيرين أبو طالب وبهرام[٨]. وقام بقتلهما حتى لا ينازعاه السلطة.

---

(١) جوني: وفاء، دمشق والمملكة اللاتينية منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين، دار الفكر، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ص٩٣-٩٤.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٨.

(٣) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت، يعد في أعمال الجزيرة، وهي مشرفة على الفرات. الحموي: المعجم ج٤ ص٧٢.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٢٦.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٢٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٢٦.

(٧) المصدر نفسه: ص٢٢٦، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٦.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٨.

وخُطِب لرضوان في حلب، وأعمالها، بعد مقتل أبيه بشهرين، ولم يكن يُخطب له قبل ذلك، وإنما كانت الخطبة لأبيه[١]. وبالنسبة لأتابكه وزوج أمه جناح الدولة حسين، فقد كان في المعركة نفسها، لكنه لم يصب بأذى وتمكّن من الفرار، وعاد إلى حلب. وقام بإدارة حلب بشكل مميز، وصفها ابن الأثير بقوله بأنها «سيرة حسنة»[٢].

أما دقاق فكان أبوه يُخطط لرسم مستقبله، فأراد أن يُقرّبه من السلطان ملكشاه، من خلال تقوية الروابط الأسرية بينهما، عبر تزويجه بابنة السلطان الراحل، وهي أخت السلطان بركيارق، لذلك عاش دقاق فترة في كنف ملكشاه في بغداد، إذ يقول ابن الأثير: «وأمَّا دقاق بن تتش فإنّه قد سيّره أبوه إلى عمِّه السلطان ملكشاه ببغداد، وخطب له ابنة السلطان» لذلك «سار بعد وفاة السلطان (ملكشاه) مع خاتون الجلالية زوجة السلطان المتوفي، وابنها محمود إلى أصفهان، وخرج إلى السلطان بركيارق سرّاً»[٣] وصار معه، ثم توجَّه إلى أبيه تتش، وحضر الوقعة التي قُتِل فيها. ثم فرّ به غلام أبيه آيتكين الحلبي، الذي كان موجوداً في المعركة لكنه نجا منها[٤] وأنقذ دقاق من موت محتوم، ومنها عاد إلى حلب، وهناك وصلته رسائل سرية من نائب قلعة دمشق الأمير ساوتكين الخادم، يدعوه للحضور إلى دمشق على وجه السرعة، ليَملكها قبل أن تضيع منه، بعد أن وعده أن يسلّمها له[٥] فلمْ يتأخر دقاق في الرد، وفر سراً من حلب، وجدَّ في المسير، ولم تستطع الخيالة

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٧٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٣٧.

التي أرسلها أخوه رضوان الإمساك به.

ويتضح من ذلك، أن كل طرف كان يتحرك لكسب ود الملك الجديد دقاق بن تتش في هذا العهد الجديد، وحتى يكون صاحب حظوة، وقريباً من الدائرة الضيقة للملك، ومِنْ هؤلاء ساوتكين، فهو لم يفعل ما فعل حباً بدقاق، وإنما هو كغيره من بقية الأمراء الطامعين في وراثة مُلك تتش، لكنه كان أمام خيارين لا ثالث لهما:

- الاحتفاظ بالامتيازات التي كان يحظى بها، أي أن يبقى كنائب دمشق وقلعتها فقط.

- أن يصبح الرجل الأول في العهد الجديد لمملكة دمشق، خصوصاً أن طغتكين ما زال حتى هذه اللحظة في أسر بركيارق.

ولكن كان من الصعب أن يحقق كل ذلك مع رضوان، المعروف بطباعه الصعبة، فقد كان فتاكاً وقاتلاً، لهذا أراد الاحتفاظ بتلك الامتيازات بعيداً عن رضوان، وكان بحاجة إلى غطاء شرعي[1] سلجوقي، لهذا وقع اختياره على دقاق، فاستدعاه للقدوم إلى دمشق.

ولم تُبين المصادر الفترة الزمنية التي بقي فيها دقاق في حلب، ومع ذلك من الملاحظ أنها كانت قصيرة جداً، حيث وصفها ابن العديم بأنها «مدة يسيرة»[2]، وعندما ذكر هذا المؤرخ أن ساوتكين راسل دقاق، لحق بهذه الجملة بأخرى حيث قال: «وخاف من أخيه رضوان»[3] لأنه كان على يقين أنه سوف يقتله كما

(١) زكار: المدخل ص١٦٠.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص ٣٣٧.

قتل أخويه الصغيرين أبو طالب وبهرام، من أجل الوصول إلى المُلك، رغم أن ابن العديم أورد خبر هروب دقاق قبل قتل الأخوين. وهذا لا يعني أن القتل تم بسبب هذا الهروب، لأن سيرة هذا الملك أي رضوان ملطخة بالدماء، وبالتالي فإن السبب الرئيس في قتلهما هو سعيه للانفراد بالسلطة، ومن ثَمَّ فهو كان يخطط لقتل أخيه دقاق، لكن الأخير كان يعرف أخاه بشكل جيد، ويعرف فيم يفكر، لذلك فرَّ على وجه السرعة بعد أن واتته الفرصة.

وعندما علم رضوان بهروب دقاق إلى دمشق، أرسل وراءه عدداً من الخيالة كي يتم الإمساك به قبل دخوله المدينة، لأنه كان يعلم أن بمجرد وصوله إلى دمشق فلن يتمكن منه، لا سيما أن الكثير من رجال أبيه كانوا في انتظاره هناك، وسيقفون إلى جانبه، وبالتالي قد تتغير الكثير من الأمور. وصدق حدس رضوان، ونجح دقاق بدخول دمشق ولم تدركه الخيالة التي تعقبته(١). وعندما وصل دقاق إلى دمشق سارع ساوتكين والي دمشق إلى طاعته، وأجلسه في منصب أبيه السلطان تاج الدولة، واستقام له الأمر(٢) وصارت دمشق له(٣).

بينما يرى ابن الأثير أن صاحب الفكرة الرئيسة في تملَّك شمس الملوك دقاق لدمشق لم يكن ساوتكين، وإنما كان ياغي سيان صاحب أنطاكية الذي أشار عليه بالتفرد بملك دمشق دون أخيه رضوان(٤). وهدفه من ذلك إضعاف رضوان، حتى لا يتمكن من عزله عن أنطاكية، خصوصاً أنه سبق أن انتزع منه

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٢٧.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٣٧.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

سروج[١] ومعرة النعمان[٢] ومنحهما إلى سقمان بن أرتق.

وفي ظل هذه المتغيرات التي حدثت، وبدءاً من العام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥هـ فإن دمشق خصوصاً والشام عموماً أمام مرحلة جديدة مليئة بالمعارك الطاحنة والقتل والدسائس والمؤامرات، لا سيما أنه واكبها دخول الفرنج إلى المنطقة وتأسيسهم أربع إمارات غيَرت من خارطة المنطقة وأدخلتها في احتلال دام لسنوات طويلة.

وقد أشعل وصول شمس الملوك إلى دمشق نار الغيرة في قلب فخر الملوك رضوان، الذي كان يهوى دمشق، ولا يرى عنها بديلاً، حيث كان مائلاً إليها، محباً لها، مؤثراً للعود إليها، ولا يختار عليها سواها، لمعرفته بمحاسنها، وترعرعه فيها[٣]. هذا الهوى الأعمى والذي ينم عن صغر العقل قبل أي شيء آخر، كان يؤكد أن رضوان على استعداد بأن يضحي بكل شيء من أجل الوصول إلى دمشق وتملّكها. ومع ذلك فمن غير المعقول أن يكون هذا السبب كافياً لإشعال حرب استمرت عشر سنوات، وقد أكلت الأخضر واليابس، إلا إذا كان رضوان نفسه متعطشاً للدماء، كما وصفه المؤرخون.

وبالنسبة لدقاق فبعد أن دخل دمشق[٤] سالماً وهارباً من أخيه في حلب، أخذ يراسل السلطان بركيارق يعلمه بحاله، فلمْ يقف الأخير مكتوف اليدين، وإنما أطلق أتابكه طغتكين الأسير لديه، وأرسله إليه، كي يُدبّر أمر دولته[٥].

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٣٤٠.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٢٨.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

وعندما وصل ظهير الدين إلى دمشق تلقاه دقاق وبقية الأمراء، كما مرّ بنا آنفاً.

ولم يكن أمام فخر الملوك رضوان سوى تجهيز جيشه والذهاب إلى أخيه بنفسه مع عساكره، وكان ذلك في عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[١] وقيل ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م[٢] وكان دقاق مع الأمير ياغي سيان والأمير نجم الدين إيلغازي خارج دمشق[٣].

ولم يوضح ابن القلانسي مكان وجود طغتكين، لكنه من الطبيعي ألا يترك ملكه دقاق وحده، صحيح أن ابن القلانسي لم يذكره مع دقاق، ولا مع العسكر المتواجدين في دمشق، لكن كل الدلائل تشير إلى وجوده إلى جانب دقاق.

وعندما وصل فخر الملوك وعسكره إلى دمشق تمت محاصرة البلد «مدة شهرين»[٤] لكن جيش دقاق، الذي انضم إليه فلول جيش أبيه المنهزم أمام بركيارق[٥] استعد جيداً لهذا الحصار، وبالتالي اتخذوا جميع التدابير اللازمة، ويصف ابن القلانسي هذه الأحداث بقوله: «وكان في البلد وزير الملك شمس الملوك زين الدولة محمد بن الوزير أبي القاسم، ونفر قليل من العسكرية، وانضاف إليهم جماعة من الأجناد وأهل البلد، بمن فيهم الأحداث وأغلقت الأبواب، وارتكبت الأسوار، وصاحوا ورشقوهم بالسهام، وكانوا قد بلغوا في الزحف إلى سوق الغنم، وقربوا من السور وباب الصغير، وطلب جماعة من العسكرية وأحداث البلد، الخروج إليهم، والدفع لهم عن البلد، فمنعهم السلار

(١) ابن الأثير يذكرها في عام ٤٩٠هـ. ج٨ ص٣٩٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٨.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

(٥) المصدر نفسه: ج١٣ ص٢٣٦.

بختيار شحنة البلد، والرئيس أمين الدولة أبو محمد الصوفي رئيس البلد من الخروج، وقاتلوهم على الأسوار، ومنعوهم من الوصول إليها»[١] ومن ثَمَّ فشل رضوان وعسكره في اقتحام المدينة، «ولم يظفر بطائل»[٢] «ولم ينل منها غرضاً»[٣] فتوجَّه فخر الملوك إلى نابلس ثم القدس، لعله يتمكن من الاستيلاء عليهما، لكنه فشل في هذه المهمة أيضاً، ثم تراجع عنه عسكره، فرجع إلى حلب[٤]. ويذكر ابن القلانسي أن رضوان ومن معه «بلغهم أن الملك شمس الملوك عائد في العسكر إلى دمشق، فرحل (أي رضوان) في العسكر عائداً إلى حلب خائباً في الأمر الذي طلب»[٥].

بعد هذه المعركة التي فشل فيها فخر الملوك رضوان من تحقيق أمنيته باقتحام دمشق، بدأت بوادر خلافات بينه وبين أتابكه وزوج أمه جناح الدولة حسين تظهر إلى العلن، وكما يقول ابن القلانسي عن جناح الدولة «فقد استوحش من الملك استيحاشاً خاف منه على نفسه»[٦]. ولم يذكر المؤرخون أي سبب لهذا الخلاف، رغم المكانة المميزة التي كان عليها لدى رضوان، وكما وصفها ابن القلانسي بقوله : «وكان أمر التدبير إليه، والمعتمد في الحل والعقد فيها عليه»[٧] لكن من المؤكد أن طباع رضوان السيئة هي السبب فيما آلت إليه الأمور بينهما، وإزاء ذلك توجَّه جناح الدولة حسين إلى حمص التي كان فيها عسكره، وخواصه،

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

(٣) أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٢٦.

(٤) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٦.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٢٩.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٣٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٤٧.

(٧) المصدر نفسه: ص٢٣٠.

وتسلَّم المدينة من نائبه قراجة، وأخذ يعمل ليكون أميراً مستقلاً فيها «وحصل بها وشرع في تحصينها، والإحكام لجهات قلعتها، ونقل أهله إليها»[١].

وفي ربيع الأول ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م أراد رضوان محاصرة دمشق من جديد، وكان «عازماً على الاحتشاد والتأهب والاستعداد، لمعاودة النزول على دمشق»[٢] ولكن وقع خلاف بين العسكر أدى إلى فشل هذه المهمة أيضاً[٣] كما إن صاحب أنطاكية ياغي سيان تخلى عن حليفه السابق الملك رضوان وانضم إلى دقاق، ولم يكتف بذلك، بل حسّن لدقاق محاصرة حلب، فلمْ يتردد الأخير في ذلك، لأنه لم ينس ما فعله أخوه به عندما حاصر دمشق، وأراد أخذها منه، لذا جمع ملك دمشق الكثير من العساكر، وجمع ياغي سيان أيضاً عساكر من أنطاكية، فذهب معه للقتال، ولمَّا عَلِم ملك حلب بهذا الجمع الغفير القادم إليه، أرسل رسولاً إلى سقمان بن أرتق الذي كان متواجداً في سروج، يستنجده، ويخبره بالجموع القادمة إليه، فجاءه أرتق في الكثير من العساكر التركمانية، والتقت الأطراف المتنازعة في قنسرين، واقتتلوا قتالاً عظيماً في يوم الاثنين ٥ ربيع الآخر ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م[٤] وتعرَّض دقاق لهزيمة كبيرة، ونُهبت خيامهم، وجميع ما لهم، وعاد رضوان إلى حلب مزهواً بانتصاره، وعاد دقاق وطغتكين إلى دمشق[٥] منكسرين خائبين، ونتيجة لما آلت إليه هذه المعركة، تم الاتفاق

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٣١.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٣١.
(٤) ابن العديم: ج١ ص٣٤٢.
(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٣٤٢.

على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق، وكذلك بأنطاكية بلد ياغي سيان[١] دون وجود أي نتائج أخرى.

ولا شك أن هذا الانتصار جعل ملك حلب رضوان يزداد أملاً في إمكانية أخْذ دمشق من أخيه، ولِمَ لا، فهو يمكنه أن يحقق ذلك في ظل ما يملكه من العساكر الكثيرة، وقد استطاع النصر على أخيه مؤخراً، ومن ثَمَّ يمكن تكراره مستقبلاً.

ولكن حدث أمر جديد في المنطقة، فقد استغلت الخلافة الفاطمية هذا الصراع، وتمكَّن جيشها من الدخول بقوة إلى صور «ودخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقاً كثيراً، وقُبض على واليها وحُمِل إلى الأفضل، فقتله لأنه كان قد خرج عن طاعته وعصى الأفضل»[٢] وذلك في ربيع الأول ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م[٣] أي قبل الحرب مع شمس الملوك دقاق، وبعد الانتصار فيها، اتخذ فخر الملوك رضوان قراراً خطيراً وهو إعلان الخطبة للفاطميين في بلاده[٤] مقابل أن يقفوا إلى جانبه في حربه ضد أخيه، ويُقدّموا له كل ما يحتاج إليه من المال والعساكر حتى يملك دمشق، فاستمرت الخطبة لهم أربع جمع[٥] ثم أعاد الخطبة للخليفة العباسي، ثم للسلطان بركيارق ثم لنفسه[٦] ولكن تحت ضغط سقمان بن أرتق الذي وقف إلى جانبه في معركته الأخيرة، وأيضاً ياغي سيان، وبعد ذلك أرسل

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٤- ٣٩٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ ج٣ ص٢٠، ابن القلانسي: ص٢٣١، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٤٧.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩١، ابن تغري يذكر ذلك في عام ٤٨٩هـ، النجوم ج٥ ص١٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٩٥، الذهبي : تاريخ الإسلام ج٣٣ ص٣٠، ابن العديم: ج١ ص٣٤٣، ابن القلانسي: ص٢٣١.

(٥) أبو الفداء: ج٢ ص٢٦، ابن العديم: ج١ ص٣٤٤، ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٦٢.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٣٤٤.

رسله إلى بغداد، يعتذر للخليفة العباسي عما بدر منه، وعاد ياغي سيان إلى بلاده أنطاكية، لكنه لم يقم سوى ثلاثة أيام، حتى وصل الفرنج إليها وحصروها[١].

في هذه الفترة من عمر الدولة السلجوقية كان غالبية الحكام والملوك فيها، هم أطفال صغار، لذا ظهرت شخصية «الأتابك» أي الأمير الوالد الذي يكون وصياً على هذا الطفل الصغير، ويمارس العمل السياسي ويقوم بجميع المهام نيابة عن الملك، بل يكون هو المسيطر الفعلي على الجيش وعلى الدولة، وفي دمشق كان طغتكين هو أتابك الملك دقاق الذي كانت تُحكم دمشق باسمه، وكانت له أدوار معينة في الحكم.

ولأن شخصية صفوة الملك، كانت قوية، وتُحِب السلطة، فقد شاركت طغتكين وابنها دقاق في الحكم، وإن كان الحاكم الفعلي والحقيقي هو ظهير الدين طغتكين الذي يقف وراءه جميع قادة الجيش.

وخلال هذه الفترة من عمر دمشق، بدأ طغتكين يفرض سيطرته على المملكة بقوة، بالتوافق مع صفوة الملك وبالتشاور مع قادة جيشه. أما دقاق فقد كان الواجهة لجميع أعمال طغتكين[٢].

*** أعمال دقاق وطغتكين:**

وفي هذه الفترة قام دقاق أو طغتكين أو كلاهما معاً بعدد من الأمور نوجزها فيما يلي:

١- يقول ابن القلانسي في أحداث سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م: «..توجَّه الملك

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٣ ص٣٠، ابن العديم: ج١ ص٣٤٤، أبو الفداء: ج٢ ص٢٦.

(٢) مصطفى: طغتكين ص٤٨.

شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة من دمشق في عسكره إلى ديار بكر، لتسلّمها من المستولي عليها، ووصل إلى الرحبة في البرية، ووصل إلى ديار بكر وتسلَّم ميافارقين، ورتب فيها من يحفظها ويذب عنها»[١]. لكنه توجّه إلى ميافارقين قبل ذلك، وتحديداً في عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م حيث يروي الفارقي رواية بقوله: «وفي سنة إحدى وتسعين عاد الملك دقاق إلى ميافارقين، وحضر إلى خدمته جميع أمرائه بديار بكر، وكان معه الوزير محمد العَجَمي من أهل دوين»[٢].

وكان تاج الدولة تتش والد دقاق، قد مَلَكَ نصيبين في عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م بعد أن خطب لنفسه بالسلطنة، وفتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، ونُهبت الأموال، وفعل فيها الأفعال القبيحة، ثم سلَّمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي[٣] ثم مَلَك ميافارقين وسائر ديار بكر من بني مروان[٤] بعد أن خوَّف أهل ميافارقين مما جرى بأهل نصيبين[٥] ثم فتحوا له البلد، ودخلها في ربيع الأول ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، واستقر تاج الدولة تتش بميافارقين، وأحسن إلى أهلها وعدل بينهم، وأسقط عنهم المؤن والأعشار والأقساط والكلف[٦]وتسلّم المدينة بعد ذلك ظهير الدين طغتكين، حيث يقول الفارقي: «ورتب (أي تاج الدولة تتش) في القصر مملوكاً له يقال له طغتكين»[٧].

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٣٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٦٩، العظيمي: تاريخ حلب ص٣٦٠.

(٢) الفارقي: ص٢٦٩.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٦١، الفارقي ص٢٣٥، ابن أبي الهيجاء: ص١٤٣.

(٥) الفارقي: ص٢٣٥.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٣٦.

(٧) المصدر نفسه: ص٢٣٧.

٢- يذكر الفارقي في أحداث ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م: «كانت هوشة[١] نائب الأمير طغتكين، وهاشوا عليه، وحصر طغتكين آمد، وقتل جماعة وصلب جماعة، وبقيت آمد بحكم تاج الدولة، وانتقلت بعده إلى ابنه دقاق»[٢].

ومن المؤكد أن أحوال طغتكين، قد تغيَّرت وتبدلت بدءاً من هاتين الحادثتين، فقد أصبح نسخة من سيده تتش، في استخدام العنف والقتل، فلمْ يذكر المؤرخون أي حوادث مماثلة قام بها قبل ذلك، مما يؤكد تأثره بسيده تتش، الذي سبق أن قتل قسيم الدولة آق سنقر صبراً في عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، واستخدامه القتل بهذه الطريقة دلالة على أنه «لا يختلف في ذلك عن النموذج المعروف للحاكم العسكري المرعب، والمؤرخون متفقون على وصفه بالهيبة الشديدة والشدة»[٣].

٣- ألقى ملك دمشق دقاق في عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م القبض على أمين الدولة أبي محمد الصوفي وهو رئيس دمشق أو رئيس الأحداث[٤] فيها، ثم أفرج

---

(١) هوشة: الفتنة والاضطراب، المصدر نفسه: حاشية (١) ص٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٣٩.

(٣) مصطفى: ص٤٤.

(٤) الأحداث: منظمة شعبية، ولدت في الشام ونشطت في دمشق وحلب، ومن أهم أسباب زيادة قوة هذه المنظمة هو ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام، منذ ما قبل القرن العاشر الميلادي، وهو ما جعل الحكام لا يتغاضون عن نشاط هذه الميليشيا فقط، بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغارض حكمهم الخاصة. وكان ذروة نشاط «الأحداث» في الفترة المحصورة ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وأواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، لاسيما عندما سيطر الفاطميون على أجزاء كبيرة من الشام، ولم يتمكن الفاطميون من السيطرة على دمشق إلا بعد القضاء على غالبية أفراد الأحداث، ولكن بقيت لهم قوة في شمالي الشام أي في حلب، وعندما سيطر السلاجقة على الشام فيما بعد، قاموا بتصفية هذه المنظمة، لذلك عندما جاء الصليبيون إلى المنطقة وجدوه خالياً من جميع القوى والميليشيات الشعبية، واستطاعوا انتزاع أجزاء كبيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء. زكار: ص٧٧-٨٠.

عنه بمقابل مادي، والغريب أن ابن القلانسي يورد الخبر بصيغة لا توحي بعملية ابتزاز من قبل الملك، وإنما مجرد جملة عابرة، مرّ عليها هذا المؤرخ مرور الكرام، وهذا الأسلوب سوف يستخدمه هذا المؤرخ كثيراً عندما يكون عاجزاً عن الدفاع عن طغتكين على وجه التحديد، حيث قال في حوادث سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م: «وفيها قبض الملك شمس الملوك دقاق على أمين الدولة أبي محمد الصوفي رئيس دمشق، وصالحه على حملة من المال، يحملها إلى خزانته، وأطلقه من الاعتقال، وأقره على رئاسته»[١].

٤- عاد دقاق واعتقل ابن الصوفي مرة أخرى في عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م، وبالتأكيد كان هذا الاعتقال أيضاً من أجل المال، ويقول ابن القلانسي عن هذا الحدث: «كان الملك شمس الملوك قد حمل على الرئيس أبي محمد بن الصوفي[٢] رئيس دمشق، إلى أن قُبِض عليه في سنة ست وتسعين وأربعمائة، وبقي معتقلاً إلى أن قررت عليه مصالحة نهض فيها» أي أنه دفع المال مرة أخرى، ومن نافلة القول أن هذه الأموال كانت تذهب لنفقات الحرب التي يقودها دقاق ضد أخيه رضوان[٣].

ويذكر العظيمي أن دقاق بعد أن قام بابتزاز ابن الصوفي «نفاه فمات بحلب»[٤]. ولا يذكر ابن القلانسي موته هناك، بينما يذكر سبط ابن الجوزي

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٠.

(٢) ابن الصوفي: الحسن بن الحسين بن محمد الصوفي أبو محمد الكلابي، رئيس دمشق وأصله من حلب، وسمي بالصوفي لأنه كان يقصر ثيابه، وكان شجاعاً جواداً مقداماً جليلاً نبيلاً، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨٨، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج٤ ص١٧٤، وأبوه هو جد سديد الملك علي بن منقذ صاحب شيزر لأمه. ابن العديم: البغية ج٥ ص٤٠١.

(٣) مصطغى: ص٤٨.

(٤) العظيمي: ص٣٦٠.

أنه مات بدمشق، ويقول ابن القلانسي بعد أن دفع ابن الصوفي الأموال لدقاق: «وبعد ذلك عرض له مرض قضى فيه محتوم نحبه، وصار منه إلى ربه، وقام بعده في منصبه أبو المجلي سيف وأخوه أبو الذواد المفرج»[(١)]. ولكن بعد وفاة دقاق في عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م أي بعد سنة من وفاة ابن الصوفي، استدعى ظهير الدين أبي المجلي وأبي الذواد «وطيّب نفسيهما، ووكّد الوصية عليهما في استعمال النهضة في سياسة الرعايا»[(٢)].

٥- بعد موت تتش عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، تمزقت بلاده بين الأمراء المحليين، فقد أخذت الفرنج جميع ديار بكر، ولم يبق للملك دقاق إلا ميافارقين، والأمير ينال بعده آمد، بينما ملك حسام الدولة كمشتكين[(٣)] بليس وأرزن[(٤)] وكان الأمير شارخ مَلَك أرزن ثم أخذها حسام الدولة، وملك شاروخ حاني بينما ملك قزل أرسلان أسعرد وطنزى[(٥)] وباهمود ومَلَك سقمان بن أرتق عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م حصن كيفا[(٦)]. أما ميافارقين فقد كانت لدقاق بعد موت أبيه «لكن بُعدها الجغرافي أسقط يد دمشق عنها بسرعة، لا سيما بعد أن حاول أرتاش أو ألتاش الثورة بها والإنفصال»[(٧)]. فقد استطاع صاحب خلاط الأمير سقمان

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

(٣) يرسمه الفارقي تمتكين. ص٢٦٩.

(٤) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. الحموي: ج١ ص١٥٠.

(٥) طنزة: بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر. المصدر نفسه: ج٤ ص٤٣.

(٦) الفارقي: ص٢٦٨-٢٦٩.

(٧) مصطفى: ص٤٩.

القطبي[١] أن يتملكها عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م بالأمان «بعد أن حصرها وضيّق على أهلها عدة شهور، فعدمت الأقوات بها، واشتد الجوع بأهلها فسلَّموها»[٢].

٦- استولى على جبلة قبل أن تذهب منه، ففي شعبان من عام٤٩٤هـ/ يونيو١١٠١م تفاجأ طغتكين برسول من المتغلب على جبلة كما يسميه ابن القلانسي، القاضي ابن صليحة[٣] يطلب منه أن «يلتمس منه مَن يراه من ثقاته ليُسلّم إليه ثغر جبلة»[٤] مقابل أن يأتي ابن صليحة إلى دمشق بأهله وأمواله، ثم يتوجّه إلى بغداد بحماية طغتكين.

وقد أدرك ابن صليحة أنه غير قادر على حماية هذا الثغر المهم من الصليبيين، الذين سبق لهم حصارها أكثر من مرة، كما أنه كان يرى تساقط المدن الكبيرة أمامهم. فلم يُرِد طغتكين أن تضيع منه هذه الفرصة الذهبية خصوصاً أنها جاءت وفق ما يريده ويتمناه، أي محاصرة حلب من مختلف الجهات.

---

(١) كان سكمان أو سقمان مملوكاً لإسماعيل صاحب مدينة مرند من أذربيجان، ولقب إسماعيل قطب الدين، وكان من بني سلجوق، ولذلك قيل لسقمان القطبي، وملك خلاط واستمر فيها إلى أن توفي سنة ٥٠٦هـ، وملكها بعده ابنه ظهير الدين إبراهيم. تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٧، ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٣.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٣٠، الفارقي: ص٢٧٤.

(٣) القاضي ابن صليحة: أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليبحة، كان والده رئيس جبلة عندما كانت لدى الروم، يقضي بينهم، ثم ملكها المسلمون، وصارت تحت حكم صاحب طرابلس ابن عمار، ولما توفي منصور قام ابنه أبو محمد مكانه، فأراد ابن عمار أن يقبض عليه، فعصى عليه، وأقام الخطبة العباسية، فقدم ابن عمار لملك دمشق المال كي يحاصره، وتوجه طغتكين لمحاصرته لكنه لم يحقق شيئاً وإنما أصيب ظهير الدين بنشابة في ركبته وبقي أثرها، وقد حاول الفرنج حصار جبلة مرتين لكن دون فائدة. التفاصيل لدى ابن الأثير: ج٨ ص٤٢٤-٤٢٥.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨١، ابن الأثير: ج٨ ص٤٢٥، رنسيمان: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، نقلها إلى العربية د. الباز العريني، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٢ ص٢٧.

لذلك قرر ظهير الدين أن يولي ابنه تاج الملوك بوري عليها، وتم الاتفاق على ذلك مع الملك دقاق الذي كان خارج دمشق عندما جاء ابن صليحة، «وتوجَّه تاج الملوك في أصحابه إلى جبلة، فتسلَّمها، وانفصل ابن صليحة عنها»[(١)]. إلا أن بوري بن طغتكين وأصحابه أساؤوا التعامل إلى أهل البلد «وقبحوا السيرة فيهم، وجروا على غير العادة المرضية من العدل، والإنصاف»[(٢)] فشكى أهل البلد حالهم إلى صاحب طرابلس القاضي فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن عمار، وذلك لقرب هذا الثغر من بلده، «فوعدهم المعونة على مرادهم، وإسعادهم بالإنفاذ لهم»[(٣)] فأرسل ابن عمار جيشه ودخل جبلة، ووقف أهل البلد مع الجيش القادم إليهم وسيطروا على البلد، بعد أن قام ابن عمار بتحصينه.

أما بوري بن طغتكين فقد تم الإمساك به «وحملوه إلى طرابلس، فأكرمه فخر الملك، وأحسن إليه، وسيَّره إلى دمشق، وكتب إلى والده أتابك يُعرّفه صورة الحال، ويعتذر إليه مما جرى»[(٤)]. وبذلك لم تنجح خطة طغتكين ودقاق في اكمال الطوق على رضوان، نتيجة لسوء تصرف بوري، فذهبت جبلة إلى طرابلس وليس إلى دمشق.

٧- في الوقت الذي تقاعس فيه دقاق وطغتكين عن نصرة بيت المقدس عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وطرابلس عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، وقبلهما أنطاكية التي سقطت بيد الفرنج في عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، حينما وقف عسكر دمشق أول الأمر

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٠، ابن الأثير: ج٨ ص٤٢٤-٤٢٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٢٠-٢١، ابن الوردي ج٢ ص١٨، أبو الفداء: ج٢ ص٣٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨٣.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٤٠.

عاجزاً أمام فرقة فرنجية كانت موجودة في شيزر، بعدما طلب صاحب أنطاكية المعونة من دمشق، قبل سقوط البلد بيد الفرنج، وأيضاً خلال الحصار الذي فرضه المسلمون على الصليبيين بعد سقوط المدينة، فقد كان دقاق وطغتكين وعسكرهما، من أوائل الذين فرّوا من أرض المعركة في أنطاكيا، لأنهم كانوا يخشون من رضوان الذي لم يشترك في هذا الحصار بأن يهاجم دمشق، كما كانوا يخشون الفاطميين بعدما أخذوا بيت المقدس من الأراتقة أتباع دمشق.

في هذا الوقت كان الشغل الشاغل لطغتكين بعد كل تلك الأحداث، تحديداً في عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م أي قبْل سقوط طرابلس، أن يفرض سيطرته على المناطق المحيطة بحلب، كي يطوّق رضوان من كل جانب، فقد أخذ الرحبة من قايماز[١] الذي كان تابعاً لوالي الموصل كربوقاً، ولكن بعد وفاة الأخير في ذي القعدة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م فوجئ قايماز بتطويق جيش دمشق لمدينته، وتم الاستيلاء عليها، ولكن ذلك لم يطل كثيراً[٢].

٨- الاستيلاء على حمص، في ٢٢ رجب ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م قُتِل جناح الدولة حسين[٣] أتابك رضوان بن تتش، على يد الإسماعيلية أو الباطنية، عندما كان متوجهاً لصلاة الجمعة، وقيل إن ذلك تم بأمر مِن صاحب حلب الملك رضوان[٤] الذي كان على خلاف معه.

(١) توفي قايماز بعد هذه الأحداث بأشهر قليلة أي في صفر ٤٩٦هـ. ابن الأثير: ج٨ ص٤٥٨.

(٢) مصطفى: ص٤٩، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٣٠، أبو الفداء: ج٢ ص٣٤، ابن العديم: ج١ ص٣٦٠، ابن كثير: ج٨ ص٣٦٩، ابن الوردي: ج٢ ص٢٠.

(٣) جناح الدولة: حسين بن ملاعب، كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحرب بنفسه. ابن تغري: النجوم ج٥ ص١٦٨. وهو عربي وشقيق خلف بن ملاعب.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣٥٩.

وبعد مقتل جناح الدولة بثلاثة أيام، حاصر الفرنج مدينة حمص، فاستدعت زوجته أم رضوان، ولدها ملك حلب لتسلَّم البلد، إلا أن قادة العسكر رفضوا هذه الفكرة «وخافوا منه لسوء رأيهم فيه»[١] وأرسلوا إلى صاحب دمشق الملك دقاق، الذي وصل بالفعل إلى حمص، وتسلَّمها، وأحسن إلى أهلها، ونقل أهل جناح الدولة وأولاده إلى دمشق، ثم قام بتسليم حمص إلى طغتكين، أمَّا الفرنج فإنهم رحلوا قبل وصول دقاق إلى المدينة، بعد أن أخذ الأموال من أهلها[٢].

ويتضح من كل هذا أن دقاق وأتابكه طغتكين كانا عاجزين عن الوقوف أمام الصليبيين، بل إنهم تخلوا عن المسلمين في أكثر من موقع ومعركة، لأنهما كانا منشغلين بأمر آخر، وهو محاصرة حلب وصاحبها رضوان بن تتش، وكان ذلك جلياً من خلال أخذهما الرحبة وحمص، وكذلك محاولتهما الاحتفاظ بميافارقين وجبلة، وهو ما لم يحدث.

٩- ويلاحظ أن سياسة الإزدواجية في التعامل التي انتهجها ظهير الدين، سواء في مهادنة الإفرنج أو الوقوف إلى جانبهم أو معاداتهم، استمرت معه حتى نهاية حكمه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما بدأ بحماية بهرام داعي الباطنية، وحري بنا أن نذكر هنا ما قام به عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، أي بعد الأحداث التي بين أيدينا حالياً بأربع وعشرين سنة تقريباً، مع ذلك الدعي، فقد أعطاه قلعة بانياس، رغم أن ابن القلانسي نفسه يقول إن بهرام: «استفحل أمره، وعظم خَطبِه في حلب والشام»[٣].

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٣٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٣٥٩، ابن القلانسي: ص٢٤٣-٢٤٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨٩، ابن تغري: ج٥ ص١٦٨-١٦٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٤٩.

ثم يصف ابن القلانسي حال بهرام وهو يتنقل متخفياً بحيث يقوم بتغيير ملابسه ويطوف البلاد من دون أن يعرفه أحد[(١)] ويكمل في حديثه عن بهرام: «وتنقلَ من مكان إلى مكان، وتبعه من جهلة الناس، وسفهاء العوام، وسفساف الفلاحين الطُغام مَنْ لا عقل له، ولا ديانة فيه، احتماء به، وطلباً للشر بحزبه»[(٢)] ثم نتفاجأ بأن طغتكين وبالاتفاق مع نجم الدين إيلغازي أعطاه قلعة بانياس، وكان ذلك في ذي القعدة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م بعد أن طلب وزير طغتكين ذلك منه؟ «ليكون عوناً له على فعله، وتقوية يده في شغله»[(٣)] وماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟ «اجتمع إليه أوباشه من الرعاع، والسفهاء، والفلاحين، والعوام، وغوغاء الطغام، الذين استغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليله، فعظمت المصيبة بهم، وجلت المحنة بظهور أمرهم، وشينهم، وضاقت صدور الفقهاء والعلماء وأهل السنة والمقدمين وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين، وأحجم كل منهم عن الكلام فيهم، والشكوى لواحد منهم، دفعاً لشرهم، وارتقاباً لدائرة السوء عليهم، لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال، ويرافدهم، بحيث لا يُنكر عليهم سلطان ولا وزير، ولا يفل أحد شرهم مقدم ولا أمير»[(٤)]. ويشرح أيضاً الذهبي هذا الوضع بقوله: «فتوجَّع أهل الخير، وتستروا من سبِّهم، وكانوا قد قتلوا عدة من الكبار»[(٥)].

هذه هي الحال التي شرحها المؤرخ ابن القلانسي بدقة فائقة وبعبارات

(١) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٩-٣٥٠.

(٥) الذهبي: السير ج١٤ ص٤٢٩.

موجزة، نتيجة للقرار الذي اتخذه طغتكين بإعطاء داعي الباطنية بهرام ثغر بانياس، وصحيح أن ابن القلانسي لم يستطع أن يدين أتابك دمشق، ولو بكلمة تجرحه، لكنه عندما شرح الحال، وما آل إليه الوضع والمآل، فإنه كان بذلك ينتقد تلك السياسة التي جلبت المصائب على الأمة والعلماء والفقهاء، وما قام بهرام فيما بعد، خير دليل على ذلك[١].

ولكن بعد وفاة طغتكين في صفر ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م، استلم الحكم بعده ابنه بوري، وفي رمضان ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م أمر جنده بقتلهم «فوضعوا السيف بدمشق في الملاحدة الإسماعيلية فسبكوا (قتلوا) منهم في الحال نحواً من ستة آلاف نفس في الطرقات، وكانوا قد تظاهروا وتفاقم أمرهم، وراح في هذه الكائنة الصالح بالطالح»[٢].

* تجميل صورة طغتكين:

عموماً خلال السنوات اللاحقة وقعت العديد من الحوادث لكن كان أهمها المعارك بين السلطان بركيارق وشقيقه محمد، ووفاة الملك دقاق بن تتش، وبالنسبة لتلك المعارك فقد استمرت خمس سنوات من عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م إلى أن تصالحا في ربيع الآخر ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م (تم التطرق إليها في فصل: طمع وطموح تتش) وقد انشَغلَتْ خلالها الدولة السلجوقية بهذه الحرب المؤرقة، وبسببها أُتيحت الفرصة للصليبيين بالتوسع على حساب القوى الإسلامية من دون أن يجدوا قوة حقيقية توقفهم.

أما دقاق بن تتش فقد توفي أو قُتِل في ١٢ رمضان ٤٩٧هـ/ يونيو ١١٠٤م

---

(١) ابن القلانسي يشرح بالتفصيل الأعمال التي قام بها بهرام. ص٣٤٠-٣٥٠.

(٢) الذهبي: السير ج١٤ ص٤٢٩.

(تناولنا هذا الموضوع في فصل الاغتيالات السياسية) وأصبح ظهير الدين أمام منعطف خطير، فموت دقاق كان يعني ضرورة وجود ملك في دمشق، ولكن ليس أي ملك، وإنما لابد أن يكون سلجوقياً من دماء سلجوقية، وليس مملوكاً حتى لو كان هذا المملوك أتابكاً أو مقدماً في الجيش!.

ورغم ذلك يروي ابن القلانسي أن الأمر آل إلى ظهير الدين، فقد «نص على الأمير ظهير الدين طغتكين في الولاية لدمشق من بعده، والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق بن تاج الدولة إلى حين يكبر»[(١)] ولكي يقبله الشعب، لابد أن يُجمَّل طغتكين نفسه، ويظهر لهم بصورة مغايرة عما ألفوه، فكان من المهم توزيع الأموال على الشعب ليصبح مقرباً ومحبوباً إليهم، كما يروي ابن القلانسي أن ظهير الدين أُصيب بمرض ثم شُفي منه[(٢)] ولا ندري إن كان هذا الأمر صحيحاً أم أنها مجرد حركة كان لابد منها من أجل تبرير الحركة التي بعدها، حيث قام بعد ذلك بما يلي[(٣)]:

- شرع في إحسان السيرة في العسكرية والرعية.
- أحسن إلى الأمراء والمقدمين في الدولة.
- أطلق يده من الخزانة في الخلع والتشريفات والصلات والهبات.
- أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.
- أقام الهيبة على المفسدين المسيئين.
- بالغ في الإحسان إلى المطيعين والمحسنين.

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

- تألّف القلوب بالعطاء.
- استمال الجانح بالتودد والحباء.

ومن دون شك فإن الوسيلة الأولى والأهم في كل ما اتخذه كان توزيع الأموال، وهي أشبه ما يمكن القول عنه بشراء الذمم، وكانت النتيجة بعد ذلك، وهي أمر طبيعي قد «أجمع على طاعته الجمهور»[١]. لأنه كان يدرك جيداً أن الجميع لن يتقبله.

كما أن الأتابك ظهير الدين، الذي لا يعرف سوى القسوة في قراراته، أظهر الرحمة والعطف والشفقة لابني رئيس أحداث دمشق أبي محمد بن الصوفي الذي اعتقله دقاق في عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م، ثم تُوفي بعد أن تم الإفراج عنه، بعدما قدّم الأموال التي فرضها عليه دقاق، فقام في منصبه ولده أبو المجلي سيف وأخوه أبو الذواد المفرج، وكتب لهما المنشور في الاشتراك في الرئاسة. وبعد موت دقاق أحضرهما طغتكين «وطيّب نفسيهما، ووكّد الوصية عليهما في استعمال النهضة في سياسة الرعايا، وإنهاء أحوالها، فيما يستمر من صلاح وفساد، ليقابل المحسن إليها بالإحسان، والجاني عليها بالتأديب والهوان، فامتثلا أوامره، وعملا بأحكامه»[٢]. والقصد من كل ذلك هو «استرضاء أكبر أسرة ذات نفوذ في دمشق»[٣] هذه الأسرة المسؤولة عن زعامة منظمة الأحداث.

كان ظهير الدين معروفاً بقسوته منذ أيام تتش بن ألب أرسلان، ثم يصفه ابن القلانسي بأنه سخي اليد، عطوفاً، كما أن طغتكين الذي لا يعرف أن يخوّف

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

(٣) مصطفى: ص٥٣.

الآخرين إلا بالقتل أصبح فجأة رحيماً، ويروي أسامة بن منقذ رواية تؤكد هذا المعنى، وهي أن إيلغازي أسر قائداً من الفرنج يدعى روبرت الأبرص[١] صاحب حصن صهيون، وقد وعد أن يدفع عشرة آلاف دينار من أجل الإفراج عنه، فطلب إيلغازي إرساله إلى طغتكين كي يُفزّعه، وعندما رآه طغتكين شمّر عن ذراعه، وأخذ سيفه وقتله، وحينما عَلِم إيلغازي، عاتبه، وقال له: «نحن محتاجون ديناراً واحداً للتركمان، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار، نفذتُه إليك تُفزعه، لعله يزيدنا في القطيعة، فقَتَلتُه! قال: أنا ما أُحْسِن أُفزّع إلا هكذا»[٢]. بينما يُرجِع رنسيمان سبب قتله إلى أن طغتكين لم يُشبع نهمه من سفك الدماء، رغم أن روبرت كان صديقاً لطغتكين منذ العام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م[٣].

الأهم من كل هذا وذاك، أن ابن القلانسي أظهر الأتابك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهي المرة الأولى والأخيرة التي يقول عنه مؤرخ دمشق أنه يفعل ذلك، أو حتى أنه قام بأي عمل ديني آخر، حتى لو كان مجرد أمر بمعروف أو نهي عن منكر.

*** تخويف أرتاش:**

أرتاش أو ألتاش بن تتش بن ألب أرسلان (١٠ سنوات) هو الشقيق الأصغر للملكين رضوان ودقاق، وهو من أهم الشخصيات التي كانت تشكل خطراً حقيقياً على طموح طغتكين، ومَن معه في دمشق، ليس لأنه شخصية قوية، وإنما لأن الدماء السلجوقية تسري في عروقه، كما أنه حفيد تتش بن ألب أرسلان سيد

(١) رنسيمان: ج٢ ص٢٤٤.

(٢) ابن منقذ: الاعتبار ص١٥٠-١٥١.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٢٤٤.

طغتكين، حيث يقول ابن القلانسي: «وكان الملك شمس الملوك (دقاق) رحمه الله، قبل وفاته قد سيّر أخاه الملك أرتاش ابن السلطان تاج الدولة إلى حصن بعلبك، ليكون به معتقلاً عند واليه فخر الدولة -خادم أبيه- كمشتكين التاجي، فرأى ظهير الدين أتابك في حكم ما يلزمه لأولاد تاج الدولة أن يراسل الخادم المذكور في إطلاقه وإحضاره إلى دمشق، فوصل إليها، وتلقاه وأكرمه وبجّله وخدمه، وأقامه في منصب أخيه شمس الملوك، وتقدم إلى الأمراء والمقدمين والأجناد بالطاعة لأمره، والمناصحة في خدمته، وأجلسه في دست[1] المملكة، في يوم السبت لخمس بقين من ذي الحجة سنة سبع وسبعين وأربعمائة فاستقامت بذلك الأمور وسكنت إليه نفوس الجمهور»[2].

ووفقاً لهذه الرواية فإن دقاق لسبب ما قرر إيداع أخيه أرتاش في السجن في بعلبك، وهذا القرار جاء بسبب ظاهرة منتشرة في هذا العصر، وفي هذا العهد على وجه التحديد، وهو خروج الأخ على أخيه، واندلاع الحروب بينهما، كما رأينا من قبل مع طغرل بك وإخوته، وألب أرسلان وإخوته، وكذلك بركيارق وإخوته، كما أن دقاق لا يريد أن يفعل ما فعله أخوه رضوان عندما قتل أخويه أبا طالب وبهرام في بداية استلامه حكم حلب، كل ذلك أقلق صاحب دمشق، وبالتالي قرر إيداع أخيه أرتاش في السجن، كي لا تتكرر المأساة من جديد.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ماذا سيفعل الأتابك ظهير الدين الذي بدأ

---

(١) دست: كلمة فارسية أخذتها العرب وتصرفت بها، وهي تعني الثوب والوسادة والورق وصدر المجلس والحيلة، ولها بالفارسية معان كثيرة منها: اليد والفائدة والنصرة والقوة واللعب والمقياس وصدر البيت..الخ، والدست بمعنى سرير الملك أو قاعدته، عرفت في العصور العباسية المتأخرة. غنام: الألفاظ التاريخية ص١٥٢.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٤٨.

يشعر أن كل ما فعله طوال السنوات الماضية قد يضيع في مهب الريح؟ فهو كان قائد جيش دمشق، وأتابك صاحبها، لأنه كان وصياً على دقاق، وقد مات الآن، وبالتالي فإن وجوده على رأس دمشق قد يصبح لا معنى له، رغم أنه زوج أم الملك، ورغم أن مفاصل الجيش وقادته كلهم بيده، لكن أرتاش في النهاية هو شقيق الملك السلجوقي المتوفي، وابن ملك سلجوقي هو تتش بن ألب أرسلان، الذي كان في يوم ما سيد طغتكين، ومن ثم فإن أرتاش هو الأحق بالحكم، وربما يكون من بعده تتش بن دقاق، لهذا أدرك ظهير الدين خطورة الأمر، وقرر التفكير ملياً قبل اتخاذ أي خطوة أخرى، فقد كان أمامه شخصان مؤهلان شرعياً لحكم دمشق هما:

- أرتاش شقيق الملك المتوفي دقاق.

- تتش الصغير ابن المتوفي.

كان ظهير الدين يدرك جيداً أن المجتمع الدمشقي والسلطان السلجوقي وكذلك الخليفة العباسي، كلهم لن يقبلوا بغير ملك سلجوقي في حكم دمشق. وإنما هو في الوقت الحالي مجرد أمير استيلاء!. لذا كانت الخطوة الأولى التي اتخذها الأتابك هي استدعاء أرتاش (عمره ١٠ سنوات) المعتقل في حصن بعلبك عند الوالي فخر الدولة كمشتكين التاجي، خادم تتش، وإحضاره إلى دمشق[١].

وبالتأكيد فإن طغتكين كانت لديه أسباب عدة جعلته يتخذ هذا القرار تتمثل في ما يلي:

١- إبعاد الشبهة عنه في وفاة دقاق.

---

(١) المصدرنفسه ص٢٤٧- ٢٤٨، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧.

٢- إيصال صورة عنه لدى العامة والمقربين أنه ما زال يدين بالولاء لسيده تتش بن ألب أرسلان لذلك قام باستدعاء ابنه أرتاش لحكم دمشق.

٣- كان لابد أن يملأ أحد ما مكان الملك المتوفي، وكان من الصعب أن يحتل هذا المكان شخص آخر غير سلجوقي، لهذا فإن أرتاش هو أفضل الحلول بالنسبة إليه على الأقل في الوقت الحالي.

٤- كان أرتاش يمثل خطراً كبيراً على طغتكين والدائرة المحيطة به، وأفضل الحلول للسيطرة على هذا الخطر هو إحضاره إلى دمشق حتى يكون تحت أعينهم وقريباً منهم، ومن ثَمَّ يمكنهم بعد ذلك اتخاذ أي قرار بشأنه حتى لو أدى الأمر إلى تصفيته جسدياً إذا ما حاد عن جادتهم.

ويقول ابن القلانسي: «فرأى ظهير الدين، أتابك في حكم ما يلزمه لأولاد تاج الدولة أن يراسل الخادم المذكور في إطلاقه وإحضاره إلى دمشق»[١] الغريب أن ابن القلانسي ذكر أن الملك دقاق «نص على الأمير ظهير الدين طغتكين في الولاية لدمشق من بعده»[٢] فإذا كان كذلك فلماذا إذن يتنازل بسهولة لأرتاش؟ ولا شك أن ما قام ظهير الدين من استدعاء أرتاش يدحض رواية ابن القلانسي الخاصة بنص الأمر لطغتكين. وهو ما يؤكد أن مؤرخ دمشق يناقض نفسه!.

عموماً وصل أرتاش إلى دمشق «يوم السبت لخمس بقين من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وأربعمائة»[٣] «وتلقاه طغتكين وأكرمه وأقامه في منصب أخيه، وتقدم إلى الأمراء والمقدمين، والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته،

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٧- ٢٤٨، المصدر نفسه: ج١٣ ص٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٦- ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

وأجلسه في دست المملكة، وحسب رأي ابن القلانسي فقد «استقامت الأمور لأرتاش وسكنت له نفوس الجمهور»[١].

أما الخطوة الثانية التي أراد ظهير الدين وزوجته القيام بها، من أجل التخلص من هذا الخطر القادم من بعلبك، ولكن من دون أن يتركا أي أثر، وتتمثل هذه الخطوة بضرورة تخويف هذا الملك الصغير[٢] وأمه وبث الرعب في قلبيهما، كي يخرجا من دمشق، حتى يبدو الأمر أنه لا علاقة للأتابك أو قادته في ذلك، لا من قريب ولا من بعيد، أو على الأقل من دون أن يعلم عامة الجمهور أن لهم أي علاقة في هذا الخروج إن حدث. وهذا الدور قام به كل من: طغتكين وصفوة الملك. فقد صاغ ابن القلانسي روايته بأسلوب سجع منمق وهو يمهد للحديث عما حصل لأرتاش حيث يقول: «واتفق للأمر المقضي الذي لا يُدافع، والمحتوم الذي لا يمانع، من سعى في إفساد هذا التدبير»[٣]. وكأنه يريد القول أن هناك من سعى لإفساد العلاقة بين أتابك دمشق، والملك الصغير، من دون أن يحدد الآن من الذي سعى إلى ذلك؟.

أما نوع هذا الإفساد فتمثل في جعل أُم الملك الصغير القادمة مع ابنها من بعلبك تخاف عليه من قادة وعساكر دمشق، وخصوصاً من طغتكين وزوجته صفوة الملك. وكما يقول ابن القلانسي «وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما، وأوهمته

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٨، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧، ابن الوردي: ج٢ ص٢١، أبو الفداء: ج٢ ص٣٥-٣٦.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٨.

أنهما ربما عملا عليه فقتلاه»[١] «وأشارت عليه بالعود إلى بعلبك»[٢]حتى هرب الأول من دمشق سراً وذلك في صفر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة[٣].

وبالطبع فإن ابن القلانسي المُدافع الأول عن ظهير الدين، صاغ الخبر بكلمة «أوهمته» في إشارة إلى عدم صحة هذا الأمر، ومن الطبيعي أن يوحي هذا المؤرخ إلى ذلك، حتى لا يظهر طغتكين بصورة موحشة.

وهكذا نجحت الخطة كما تم الترتيب لها، ولعل أهم مكسب من ذلك أن الجميع لن يتهم الأتابك وصفوة الملك بما حدث، على اعتبار أن أوهام أم أرتاش هي السبب في فرار ابنها من دمشق، وكما يقول ابن القلانسي عنها «أوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه»[٤]. كما أن هذه الأوهام -حسب ادعاء ابن القلانسي- نقلها الواشي إلى أرتاش نفسه[٥].

ويمكن القول إن هناك أموراً حدثت لأرتاش في دمشق جعلته يخاف على حياته، صحيح أننا لم نعرف على وجه التحديد ماذا حدث له؟ لكن ووفقاً للمنطق، فإن وجود أرتاش في دمشق بهذه الطريقة كان خطأ فادحاً، خصوصاً أنه قدِم إلى دمشق من دون عسكره ورجاله، بدليل أن ابن القلانسي علّل سبب خروجه سراً من دمشق إلى بعلبك «لتجتمع إليه الرجال والعسكرية»[٦] وهذا يعني أنه حتى وإن جاء معه عسكره، فبالتأكيد هم قلة وسط العساكر الدمشقية

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٨، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٨، المصدر نفسه: ج١٣ ص٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

المحتشدة التي تدين بالولاء والطاعة لطغتكين.

ومن المؤكد أن هناك مؤامرة كانت تحاك ضد أرتاش، وأول من فطن إليها أمه -وهي غير أم دقاق صفوة الملك- ولم يذكر المؤرخون اسمها، حيث يقول ابن القلانسي «فأوحش الملك محيي الدين أرتاش من ظهير الدين أتابك، ومن الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك، وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما، وأوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه»[١]. ويؤيد العظيمي هذا السيناريو إلى حد بعيد حيث ينسب إلى ظهير الدين صراحة هذه التهمة وأنه خوّفه، لهذا هرب إلى [٢].

أما ابن الأثير فيذكر أن الأتابك أشار على أرتاش بالتوجه إلى الرحبة، فخرج فملكها[٣] ولمْ يحدد هذا المؤرخ متى كان ذلك؟ ويمكن أن نتتبع هذا الخبر الذي أورده ابن الأثير، الذي ذكره أيضاً عدد من المؤرخين، فقد جاء الخبر مفصلاً كما يلي[٤]:

أ- طغتكين خطب لولد دقاق الصغير...

ب- قطع خطبة الولد، وخطب لبكتاش (أي أرتاش) ...

ت- أشار طغتكين على أرتاش التوجه إلى الرحبة، وعاد إلى دمشق فمنعه من دخول البلد...

ث- أعاد الخطبة للطفل...

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٢) العظيمي: ص٣٦٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٦٧.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٦٧، ابن الوردي: ج٢ ص٢١، ابن القلانسي: ص٢٤٨-٢٤٩، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ وذكره في العبر: ج٢ ص٣٧٤، أبو الفداء: ج٢ ص٢٥-٣٦.

ج- ثم يقول ابن الأثير بعد ذلك: وقيل إن سبب استيحاش أرتاش من طغتكين أن والدته خوَّفته منه..

وهذا يعني أن ابن الأثير يملك روايتين لكنه لم يُرجّح أيهما الأقرب إلى الحقيقة، الأولى: أن ظهير الدين أخرجه من دمشق بإغرائه بتملّك الرحبة، ويبدو أنه عندما ملكها أخذ يقارن بينها وبين دمشق، فلم يقتنع بها، أو أنه وجدها لا تلبي طموحه، فقرر العودة إلى دمشق، لكن ظهير الدين أقفل بوجهه أبواب البلد. وهذه الرواية لا يذكرها مؤرخ طغتكين ابن القلانسي المعاصر للأحداث.

وبعد ذلك قرر أرتاش اللجوء إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وبصحبته صاحب بصرى أيتكين الحلبي، وطلبا منه العون والنصرة على دمشق، «فلمَّا يئسا من نصره عادا وتوجها في البرية إلى الرحبة فملكها أرتاش، وعاد عنها، واستقام أمر طغتكين بدمشق، واستبد بالأمر»[١].

وأما الرواية الثانية لدى ابن الأثير هي نفسها التي يذكرها ابن القلانسي أن أم أرتاش أوقعت في نفس ولدها الخوف من طغتكين وصفوة الملك، وقالت له: «إنه زوج والدة دقاق، وهي لا تتركه حتى يقتلك، ويستقيم الملك لولدها، فخاف»[٢]. فخرج سراً من دمشق. لكنه ذكر هذه الرواية الثانية بصيغة «وقيل» وهي صيغة تضعيف، وكأنه يؤيد الرواية الأولى.

ومن المؤكد أن ظهير الدين كان في حيرة من أمره في هذا الوقت، ماذا يفعل إزاء الوضع الجديد بعد وفاة الملك دقاق؟ هل يُعلن نفسه ملكاً حسب وصية

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٦٧، ابن القلانسي: ص٢٤٨، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٧٥، وذكره في تاريخ الإسلام: ج٣٤ ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٦٧.

ابن القلانسي المزعومة؟ أو يُخرج شقيق الملك من سجن بعلبك ويُحضره إلى دمشق؟ أو يُجلس الطفل الصغير تتش بن دقاق مكان أبيه؟ ومن الواضح أنه درس الوضع بشكل جيد، وتأكد له أن الجميع لن يوافقوا على وجوده ملكاً على دمشق، لأنه ليس سلجوقياً، وإنما مجرد مملوك حتى لو كان قائداً كبيراً، وأتابكاً لملك سلجوقي، وبالتالي رأى ضرورة التدرج بالأمر كي يتم قبوله، لذلك فضّل أن يجلب أرتاش من بعلبك، فلمَّا أجلسه عل العرش، شعر بأنه أخطأ في قراره، وأن أرتاش ومَنْ معه، سوف يسحبون البساط من تحته، وبالتالي فكّر في حيلة تخرجه من دمشق، فاقترح عليه أن يتملَّك الرحبة، وهذا الأمر يفيد الطرفين، لأرتاش كي يبتعد عن جو الخوف الذي يعيشه في دمشق، ومن ثم النجاة بنفسه من عملية الاغتيال كما وصلته المعلومات التي تفيد بذلك، وأيضاً لطغتكين من أجل الإنفراد بالسلطة، وبالفعل ذهب أرتاش إلى الرحبة وملكها كما يقول ابن الأثير، ثم رجع لكن ظهير الدين الذي كان في دمشق، لم يسمح له بالدخول.

ومن ثم بات واضحاً أن نوايا الأتابك بأن يكون هو على رأس دمشق، بدأت تظهر إلى العلن، لهذا أعاد الطفل الصغير تتش بن دقاق البالغ من العمر عدة أشهر، فهذا الطفل ليس له حاشية، كما يمكن أن يستمر طغتكين في الحكم باسمه، من خلال تولي حضانته، وبالتالي فهو أسهل عملياً من أرتاش.

كما أن هناك شخصاً آخر أبلغ أرتاش بما يُحاك ضده وأنه مقتول على أي حال، ويجب عليه الهرب من دمشق في أسرع وقت، وقد وصفه ابن القلانسي بـ«الواشي» حين قال: «والأمر بالضد مما نقله الواشي إليه وألقاه»[1] ومن الواضح أن أرتاش بعدما تواترت إليه الأنباء عن نية الأتابك ومَنْ حوله بالتخلص

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٨.

منه، قرر الهرب إلى بعلبك حيث يقول ابن القلانسي بعد الحديث عن الواشي: «فخاف منهما (من طغتكين وزوجته صفوة الملك) وحسّن له الخروج من دمشق ومملكتها، والعود إلى بعلبك لتجتمع إليه الرجال والعسكرية فخرج منها سراً في صفر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة»[(١)].

واتضح فيما بعد أن هذا الواشي كما يسميه ابن القلانسي، هو صاحب بصرى آيتكين الحلبي، حيث يقول : «وخرج آيتكين الحلبي صاحب بصرى هارباً لتقرير كان بينهما في هذا الفساد، فعاثا في ناحية حوران وراسلا بلدوين[(٢)] ملك الإفرنج بالاستنجاد به، وتوجها نحوه»[(٣)]. «والنص يكشف عن ظهور فئتين تتنازعان للانفراد بالسلطة، وكل واحدة منهما تختبئ وراء أمير سلجوقي: فريق طغتكين وصفوة الملك وراء تتش الصغير، وفريق تزعمه آيتكين الحلبي وراء أرتاش، وإذا لم يستطع أرتاش أن يبقى شهرين في الحكم فلأن صفوة الملك، بالمكر النسائي والدسائس ضد ضرتها والدة أرتاش، استطاعت ارعابه فهرب من البلد»[(٤)].

كان هناك تفكير محكم ومرتب بين طغتكين وزوجته أم دقاق صفوة الملك حول الطريقة المثلى للتعامل مع أرتاش لفرض سيطرتهما على دمشق، خصوصاً من قبل صفوة الملك العاشقة للسلطة والمُلك حتى لو كان ذلك على حساب ابنها وحفيدها وابن زوجها السابق.

وكان الاتفاق بين الطرفين أي طغتكين وزوجته، يقضي بإزاحة أي شخص

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٢) بعض المؤرخين ومنهم ابن القلانسي يرسمونه بغدوين.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٨.

(٤) مصطفى: ص٥٣.

يقف في طريقهما بغية الوصول إلى هدفهما، وهو حكم دمشق، رغم وعورة الطريق، إلا أن استخدام التصفية الجسدية كان كفيلاً بوصولهما إلى أبعد مدى. ومن المحتمل أنهما استبعدا أول الأمر قتل أرتاش، خشية افتضاح أمرهما أمام الرأي العام، لا سيما أن وفاة دقاق لم يمض عليها وقت طويل بعد، كما أن هناك ترتيبات كانت تعد للقضاء على ابن دقاق الطفل الصغير الذي أصبح في حضانة طغتكين إلى حين يكبر[١]. لهذا فإن الحل البديل هو إدخال الرعب في قلب أرتاش، ولكن لا نعرف ماذا فعلت صفوة الملك على وجه التحديد حتى جعلت أم أرتاش تشعر بالخطر الذي يحدق بابنها وخافت على حياته؟. وهذا ليس بالأمر المهم، لكن المهم أن رسالة صفوة الملك وصلت إلى أم أرتاش، لهذا طلبت من ابنها الهرب على وجه السرعة.

وبهروب أرتاش انتهى حكمه في دمشق الذي دام أقل من شهرين من ٢٥ ذي الحجة ٤٩٧هـ/ ١٧ سبتمبر ١١٠٤م إلى صفر ٤٩٨هـ/ أكتوبر ١١٠٤م[٢]. ومع ذلك فإنه سوف يحاول استعادة ملكه الضائع ويطالب الآخرين بمساندته.

بعد أن هرب أرتاش، وارتاح طغتكين وزوجته صفوة الملك من الخطر الحقيقي الذي كان يهدد سلطتهما على دمشق، وبعد أن «استقام الأمر لظهير الدين أتابك، وتفرد بالأمر، واستبد بالرأي»[٣] ترك سياسة العصا لفترة وجيزة واستخدم سياسة الجزرة هذه المرة مع القادة العسكر، والأمراء، والرعية، فأغدق عليهم الهدايا والعطايا وتوزيع الأراضي، حيث يقول ابن القلانسي: «فرخصت الأسعار، والغلات ظهرت، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٦.

(٢) مصطفى: ص٥٢.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٩.

دمشق»[١]. ومثل هذه السياسة يسير عليها الملوك دوماً من أجل استرضاء القادة والأمراء وكسب ودّهم، بل يذهب ابن القلانسي إلى أبعد من ذلك حينما يصف النتيجة التي آلت إليها الأوضاع وتفرد الأتابك بالسلطة بأنه «حسنت أحوال دمشق وأعمالها بأيالته، وعمرت بجميل سياسته» كما أنه «بث العدل فيهم وكف أسباب الظلم عنهم»[٢].

بعد أن هرب أرتاش من دمشق مع آيتكين الحلبي توجها إلى حوران كما يذكر ابن القلانسي حيث يقول: «فعاثا في ناحية حوران وراسلا بلدوين ملك الإفرنج بالاستنجاد به، وتوجها نحوه، وأقاما عنده مدة بين الإفرنج يحرضانه على المسير إلى دمشق، ويبعثانه على الإفساد في أعمالها، فلم يحصلا منه على حاصل، ولا ظفرا بطائل، فحين يئسا من المعونة، وخاب أملهما في الإجابة، توجها إلى ناحية الرحبة في البرية واستقام الأمر بعدهما لطغتكين، وتفرد بالرأي واستبد بالأمر»[٣].

وبعد ذلك «عاد أرتاش وآيتكين الحلبي إلى بصرى من الرحبة، فخرج طغتكين بالعساكر ونازل بصرى وحصرهما فيها»[٤] ثم توجَّه مع الجيش المصري لقتال الإفرنج، «فالتقى الفريقان في رابع عشر ذي الحجة من السنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) فيما بين يافا وعسقلان، فاستظهر الإفرنج على المسلمين»[٥] وعاد عسكر المصريين إلى عسقلان، وعسكر طغتكين إلى بصرى، وعندما وصل

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ص١٤٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٠٠.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

ظهير الدين إلى هناك، كان أرتاش وآيتكين قد خرجا منها إلى الرحبة[١]. «وأقاما بها مدة، وتفرقا، وراسل المقيمان ببصرى: أنوشتكين، وفلوا من ظهير الدين يطلبان الأمان والمهلة لهما بالتسليم مدة اقتراحهما، فأجابا إلى ما التمساه منه، ورحل عنهما، ولمَّا بلغ الأجل منتهاه، والوعد مداه، سلَّما بصرى إليه، وخرجا منها بما وعدهما من الأمان والإقطاع، وزاد على ذلك، وأقاما عليه مدة أيامه»[٢].

باختصار ما حدث لأرتاش بن تتش، حسب رواية ابن القلانسي المؤرخ لدولة طغتكين، هو مثال صارخ لصورة الرعب التي رسمها هذا المؤرخ، من دون أن يدري، في دمشق التي يسيطر عليها طغتكين ورجاله. لهذا اتخذ ظهير الدين جميع التدابير اللازمة التي تجعله على اطلاع بكل صغيرة وكبيرة، وتجعله مسيطراً على جميع الأمور، فهو لا يريد أن يترك شيئاً يخرج من يده أو عن طاعته، لا سيما بعد أن أصبح السيد المطلق في دمشق من دون أي منازع إثر خروج أرتاش، حتى لو كان مجرد أمير استيلاء، ومن دون وجود صيغة شرعية له في الحكم، ومن ثَمَّ فإن أي تحركات سيقوم بها ظهير الدين بعد ذلك، إنما هي مبررة، حسب وجهة نظره ونظر مؤرخه، لأنها ستكون للدفاع عن مصالحه الشخصية، والمكتسبات التي حققها، والحفاظ على المكانة التي بلغها، وسيفرض سيطرته الكاملة على دمشق، وجميع المدن والنواحي التابعة لها.

* تأديب كمشتكين:

ولهذا فإن عملية هروب أرتاش من دمشق، لم يتركها طغتكين تمر مرور الكرام، من دون ان يعرف تفاصيلها، فقد علم أن من قام بتهريبه هم جماعة

---

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٠٠.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٥٣-٢٥٤.

كمشتكين التاجي حيث يقول ابن القلانسي عن هروب أرتاش: «الأمر بالضد مما نقله الواشي إليه، ألقاه، فخاف منهما -أي من طغتكين وزوجته صفوة الملك- وحسّن له الخروج من دمشق ومملكتها، والعودة إلى بعلبك، لتجتمع إليه الرجال والعسكرية، فخرج منها سراً، في صفر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، خرج آيتكين الحلبي صاحب بصرى هارباً، لتقرير كان بينهما في هذا الفساد»[١].

فقد أحس والي بعلبك كمشتكين التاجي أن وجود أرتاش إلى جانبه قبل أن يتوجه إلى دمشق، كان يعطيه أفضلية على غيره من المماليك المتنافسين معه، ويعطيه «سلاحاً سلجوقياً ممتازاً فسُحِب من يده دون أن يدري»[٢] لذلك قام بما قام به من الاتفاق مع القائد آيتكين الحلبي بتهريب أرتاش من دمشق، بل والاتفاق مع الإفرنج ضد طغتكين، كما يقول ابن القلانسي[٣]. والغريب أن مؤرخ دمشق يعتبر التعاون مع الفرنج تهمة إذا قام بها أي شخص، ثم يراها ضرورة وقد تقتضيها المصلحة العامة إذا قام بها طغتكين، كما سنرى ذلك لاحقاً!.

لهذا فإن ظهير الدين رأى ضرورة التحرك نحو بعلبك لتأديب واليها كمشتكين التاجي، قبل أن يستفحل أمره. خصوصاً أن الأخير لم يكن يرى نفسه أقل شأناً من الأول[٤] وأن وجود أرتاش ابن الملك السلجوقي الراحل تتش بن ألب أرسلان وشقيق ملك دمشق الراحل دقاق بن تتش، سوف يُقوي من وضعه من الناحية الشرعية، ويضعه جنباً إلى جنب طغتكين الذي غدا الآمر الناهي في

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٨.

(٢) مصطفى: ص٥٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٤) مصطفى: ص٥٩.

دمشق، حيث يقول ابن القلانسي: «وفي أول شعبان[١] توجّه ظهير الدين طغتكين أتابك إلى بعلبك في العسكر، ونزل متنكراً على كمشتكين الخادم التاجي واليها»[٢].

وفي أول الأمر لم يكشف ابن القلانسي بشكل جلي السبب وراء توجه ظهير الدين نحو بعلبك، إذ اكتفى بالقول: «لأسباب انتهت إليه عنه فأنكرها منه»[٣] وهذه الأسباب ليست الاتفاق مع صاحب بصرى لتهريب الملك أرتاش فحسب، وإنما لاتفاقه مع الفرنج ضد طغتكين.

ما يهمنا من كل ذلك أن الأتابك تحرك نحو بعلبك وقام بمحاصرتها، وأحس كمشتكين بعدم قدرته على مواجهته، ويُلخص ابن القلانسي موقف والي بعلبك بقوله: «فلمَّا نزل عليه، وضايقه، عرف ما في نفسه، أنفذ إليه الطاعة والخدمة، والانكار لما افتُري به عليه، والتنصل مما نُسب إليه، والحلف على البراءة مما اختلق من المحال عليه»[٤] ولا شك أن هذا الوالي أدرك حقيقة كانت غائبة عنه، أنه ليس بنظير لطغتكين، وأنه لا يملك القوة التي يمكنه مواجهته، وأن ظهير الدين اليوم ليس هو صاحب الأمس، الذي كان مجرد مملوك أو حتى قائد أو أتابك، وإنما هو اليوم ملك لكنه غير متوج، لهذا لم يكن أمامه سوى التنصل من كل التهم التي أُلصقت به، وإزاء ذلك قرر طغتكين الصفح عنه، فيقول ابن القلانسي: «فصفح له عن ذلك، ورضي عنه، وقرر أمره، وأوعز بكف الأذية

(١) ١ شعبان ٤٩٨هـ/ ١٨ إبريل ١١٠٥. المصدر نفسه: ص٥٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

عنه»[١].

صحيح أن ظهير الدين لم يقرر قتل كمشتكين، لكنه اعتقد أنه حقق هدفه من هذه الحملة، وهو القضاء على أحد أطراف المؤامرة التي حيكت ضده، إذ نرى أن والي بعلبك ركن إلى الهدوء بعيداً عن طغتكين ولو لفترة معينة فقط.

لهذا فإن صاحب دمشق قام بفك الحصار عن بعلبك وتوجّه «إلى ناحية حمص، وقصد رفنية، ونزل عليها، ووفد عليه خلق كثير من جبل بهراء[٢] فهجموا رفنية على حين غفلة من أهلها، وغرة من مستحفظها، وقتلوا من بها، وبأعمالها، والحصن المحدث عليها من الإفرنج، أحرق ما أمكن إحراقه في الحصن وغيره، وهدم الحصن، وملكت أبراج رفنية، وقتل من كان فيها، وعاد العسكر إلى حمص»[٣].

وفي عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م أي بعد خمس سنوات تقريباً من تلك الأحداث، كرر والي بعلبك كمشتكين التاجي خروجه عن طاعة ظهير الدين، واتفق مع الإفرنج، وطلب منهم شن الغارات على أطراف الشام، وأبلغهم بأنه سيّر أخاه بايتكين الخادم التاجي إلى السلطان السلجوقي من أجل التوصل إلى إفساد الوضع بينه وبين طغتكين، وقد سمع الأخير بهذا الخبر عندما كان في طريقه إلى بغداد، وتحديداً عندما كان في وادي المياه[٤] فقرر إرسال مجموعة من عسكره للبحث في المسالك والطرقات عن بايتكين، ولكنهم لم يتمكنوا من العثور

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

(٢) جبل بهراء: جبال النصيرية أو العلويين حالياً. المصدر نفسه: حاشية (١) ص٢٥٢، زكار: ص٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

(٤) يقول الحموي: «وجدت بعض التواريخ أن وادي المياه بسماوة كلب بين الشام والعراق». الحموي ج٥ ص٣٤٦.

عليه، ولهذا بعث طغتكين إلى ابنه تاج الملوك بوري في دمشق، كي يقوم بفرض الحصار على بعلبك «فسارع إلى امتثال أمره، وسار إليها ونزل عليها على غفلة من أهلها، وغرة ممن بها، ثم أرسل إلى الخادم المذكور (أي كمشتكين) يلتمس منه الدخول في الطاعة، وتسليم الموضع إليه، ويحذره من الاستمرار على المخالفة، والعصيان، ويخوّفه الإقامة على ما يفضي إلى سفك الدماء، وبالغ في الإعذار له والإنذار، فلم يجب المراد والإيثار، وأصر على الخلف والإنكار»[١].

وإزاء ذلك جمع الأتابك العساكر وتوجَّه إلى بعلبك لحصارها، ووصل إليها، ونصب المجانيق عليها «وشرع في عمل آلة الحرب والنقوب لقصد الأماكن المستضعفة منها لانتهاز الفرصة فيها، وترامى إليه من أحداث أهلها وأجنادها جماعة أحسن إليهم، وخلع عليهم، وزحف إلى سورها وقاتل من عليه، فقتل منهم جماعة، فحين شاهدوا الجد في القتال، والصبر على النزال جنحوا إلى الدخول في الطاعة»[٢].

وعند ذلك لم يكن أمام كمشتكين إلا اللعب بالورقة الأخيرة، وهي استعداده لتسليم قلعة بعلبك، مقابل «شرط اشترطه واقطاع عيّنه»[٣] فتمَّت الموافقة على طلبه، وتنازل عن حصن بعلبك، الذي قال عنه ابن القلانسي «هو في غاية المنعة والحصانة، ومن العجائب المذكورة، والقلاع المشهورة»[٤]. الغريب أن طغتكين صفح عن صاحب الأمس وعدو اليوم كمشتكين التاجي، حيث يقول ابن القلانسي: «وجرى على عادته الجميلة في الصفح عمن أساء إليه، وأظهر

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٧٨-٢٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

العصيان عليه، وعوَّضه عن بعلبك حصن صرخد، وهو مشهور بالحصانة والمنَعة أيضاً، وأعاد إليه ما كان قبض عنه من مُلك وإقطاع، وسلّم ظهير الدين أتابك بعلبك إلى ولده تاج الملوك بوري»[١] وكان ذلك في ٢٢ رمضان ٥٠٣هـ[٢]/ ١٤ إبريل ١١١٠م بعد ٣٥ يوماً من الحصار[٣].

أما قول ابن القلانسي: «وجرى على عادته الجميلة في الصفح عمن أساء إليه» فهو قول يجافي الحقيقة، ويجانبه الصواب، وإنما كل الأدلة التي ذكرناها سابقاً كانت تشير إلى عكس ما قاله هذا المؤرخ، وربما السبب في عدم قتل ظهير الدين لصديق سابق له، هو أنه ما زال يذكر أنه وكمشتكين التاجي كانا مملوكين لدى تاج الملوك تتش، حتى أن كمشتكين ما زال ينسب إليه، فالتاجي منسوب إلى تاج الدولة، إضافة إلى أنها كانت فرصة من الضروري الاستفادة منها لتجميل صورته أمام سكان بعلبك، كما أن قتل كمشتكين لن يفيده كثيراً لا سيما بعد أن أزاله عن طريقه إلى الأبد. كما تخلَّص قبل ذلك من مشكلة أرتاش بن تتش وبايتكين التاجي.

***موقف رضوان:**

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، أين رضوان من كل تلك الأحداث السابقة؟ وماذا فعل بعد موت شقيقه ملك دمشق الذي كان يقاتله لسنوات طويلة؟. بالتأكيد فإن رضوان لم يقف مكتوف اليدين، وإنما أراد التدخل في دمشق، واسترجاع ملك أبيه من طغتكين، خصوصاً بعدما أوصى ملك دمشق لابنه الصغير تتش من

(١) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(٣) مصطفى: ص٦٠.

بعده، لأن رضوان كان على يقين أن ظهير الدين طغتكين القوي، لن يترك السلطة تضيع منه، ولن يعطيها حتى للطفل الصغير تتش إذا كبر. ويقول ابن العديم بعد موت دقاق: «فتوجَّه الملك رضوان نحو دمشق، وحاصرها، وقرر له الخطبة والسكة، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب»[1]. لكن ابن العديم لم يبين كيف أنه قرر الخطبة والسكة له، وهو لم يدخلها، وإنما اكتفى بمحاصرتها؟ ومن الواضح أن طغتكين وبقية قادة العسكر، منعوه من الدخول، كما يبدو أن هذا الحصار لم يدم طويلاً، وإنما لفترة وجيزة، بعدما أدرك رضوان استحالة دخول دمشق، في ظل الدفاعات القوية التي وضعها طغتكين على دمشق.

* سقمان وطغتكين:

ومن الملاحظ أن هذه المحاولة الجادة كانت الأولى والأخيرة التي قام بها رضوان بعد موت دقاق لاسترجاع مُلك أبيه، فقد أيقن أن طغتكين بات مسيطراً على مقاليد الحكم في دمشق سيطرة كاملة، وأنه في حقيقة الأمر لم يعد خاضعاً لسلطان السلاجقة، حتى لو ادعى غير ذلك، وحتى لو أظهر غير ما يبطن، بل تأكد لرضوان وغيره من حكام الأقاليم أن ظهير الدين هو وحده مَنْ يقرر لمن يسلّم السلطة طواعية إذا أراد ذلك وليس السلطان أو حتى الخليفة، كما أنه بات على قناعة كاملة أنه مهما حدث فإن ظهير الدين لن يُسلّمه دمشق، بل قد يُفكر بتسليمها لشخص آخر، لكن بالتأكيد لن يكون هذا الشخص من أبناء ملوك السلاجقة، وهذا ما كان طغتكين يفكر به عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م عندما وقع مريضاً، وتوقع أن يلقي حتفه فخاف على دمشق لذلك راسل سقمان بن أرتق[2] ليوصي إليه بحفظ

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٦٢.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٤٩.

البلد[١] واستجاب سقمان له وأراد المجيئ إلى دمشق لكنه توفي في الطريق (تناولنا مسألة وفاته في فصل الاغتيالات السياسية) وألقى أصحاب طغتكين اللوم عليه، كيف يفرط بالبلد، ويخرجها من يده؟.

وكل هؤلاء الذين انزعجوا من قرار الأتابك باستدعاء سقمان وتسليمه دمشق إن جاءت منيته، هم الدائرة الضيقة المستفيدة من وجوده على رأس السلطة بدمشق، وبالطبع لن يكون لهم أي ذكر في حال قدوم سقمان لأنه سيحضر معه المقربين له. ومن هؤلاء المحيطين بظهير الدين: ناصر الدولة طرخان بن محمود الشيباني، حارق بن كمشتكين العراقي، آيتكين، كمشتكين الحلبي، بوري خان، التاش الدقاقي، أكز الدقاقي، جاروخ التركماني، بختيار السلار، وبلطاش[٢].

وهناك عبرة مهمة من تلك الرواية التي ساقها مؤرخ دمشق، التي قام أصحاب الأتابك بتذكيره بما حدث لملك دمشق أتسز عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م عندما استولى تتش على بلاده، ثم قتْله، وكأنهم بذلك يرون عاقبة أمرهم وأمره أمام أعينهم في حال استلام سقمان بن أرتق دمشق، كما حدث لأتسز على يد تتش بن ألب أرسلان، لا سيما أن طغتكين كان أحد المشاركين في عملية الاغتيال تلك.

وتلك المجموعة المستفيدة من وجود ظهير الدين، والتي ألقت اللوم عليه عندما فكّر باستدعاء سقمان بن أرتق، كانت ترفض دخول أي عضو جديد إليهم، يقاسمهم في مكتسباتهم التي حققوها في دمشق، وما تحت أيديهم من اقطاعات

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٦، ابن القلانسي: ص٢٤٩-٢٥٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٩.
(٢) مصطفى: ص٥٨.

مستقرة[١] ففي عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م وصل إلى دمشق الأصبهبذ[٢] صباوة بن خمارتكين[٣] «من ناحية عمله، فأكرمه ظهير الدين، وأحسن تلقيه، وأقطعه وادي موسى ومآب والشراة والجبال والبلقاء، وتوجّه إليها في عسكره، وكان الإفرنج قد نهضوا إلى هذه الأعمال، وقتلوا فيها وسبوا ونهبوا ما قدروا عليه منها، فلمّا وصل وجد أهلها على غاية من الخوف، وسوء الحال عما جرى عليهم من الإفرنج فأقام بها»[٤].

ولا شك أن طغتكين ومَنْ معه، كان لهم هدف آخر من إقطاع هذا القائد، تلك المنطقة الخطرة الواقعة على الضفة الشرقية للأردن[٥] فكان يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، أن يتخلص من خطر هذا القائد وأن يُبعد خطر الصليبيين عن دمشق[٦] لا سيما أن ظهير الدين وقادة جيشه، كانوا يعلمون مدى خطورة الوضع في هذه المنطقة.

وبالفعل «نهض الإفرنج إليه لمّا عرفوا خبره من ناحية البرية، ونزلوا بإزاء المكان الذي هو نازل به، وأهملوه إلى أن وجدوا الفرصة فيه فكبسوه على غرة، فانهزم في أكثر عسكره، وهلك باقيه، واستولوا على سواده، ووصل إلى عين الكتيبة من ناحية حوران، والعسكر الدمشقي نازل عليها، فتلقاه ظهير الدين

---

(١) المصدر نفسه: ص٥٨.

(٢) الأصبهبذ: أي قائد العسكر، ويرسمه ابن القلانسي»الأصفهبذ» ويذكر ابن الأثير: أن هذا القائد حضر الحرب مع بركيارق، ولما انهزم العسكر قصد بغداد. غنام: الألفاظ التاريخية ص٢٤، المصدر نفسه: ص٢٦٦، ابن الأثير: ج٨ ص٤١٧.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤١٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٦٦.

(٥) مصطفى: ص٥٨.

(٦) جوني: ص١٢٦.

متوجعاً بما جرى عليه، مسلياً عما ذهب منه، وعوضه، وأطلق له ما صلحت به الحال»[١] ويقول شاكر مصطفى: «فلمّا انهزم فيها أمام الفرنج أعادوه من حيث أتى»[٢]. ويذكر ابن الأثير في سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م: «وفيها عاد الأصبهبذ صباوة عاد من دمشق، وكان هرب عند قتل أياز، فلمّا قدم أكرمه السلطان وأقطعه رحبة مالك بن طوق»[٣].

كما أن هناك حادثة أخرى وقعت في ٥٠٧هـ/ ١١١٣م أي في السنة نفسها التي توفي فيها ملك حلب رضوان بن تتش، لكنها جاءت بروايتين:

الرواية الأولى: يقول مؤرخ حلب ابن العديم: «إن رضوان حين ضعف أمره رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه يستصلحه، فاستدعاه إلى حلب، عندما أراد أن ينزل تانكريد[٤] على قلعة عزاز، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك، فامتنع تانكريد من ذلك، فوصل طغتكين أتابك، وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال[٥].

هكذا تم الأمر بين الإثنين، وإزاء ذلك ووفقاً لرواية ابن العديم، أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق، لكن رضوان لم يقدم لأتابك دمشق ما وعد به من مال ورجال، ولم يلتزم بالوفاء الذي تعاهدا عليه»[٦].

وهذه الحادثة تؤكد أن طغتكين هو صاحب الأمر والنهي في دمشق، وهو

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٦٧.

(٢) مصطفى: ص٥٨.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥١٨.

(٤) ابن العديم يرسمه طنكريد.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٣٧٢.

(٦) المصدر نفسه: ج١ ص٣٧٢.

المتحكم في مصيره وليس السلطان السلجوقي، رغم أنه مازال تابعاً للسلاجقة على الأقل اسمياً، إلا أنه في الوقت نفسه لم يستطع حتى هذه اللحظة أن يعلن انفصاله رسمياً عن السلاجقة، أو يعلن استقلاله عن سلطنتهم. إلا أنه في الوقت نفسه قادر على اتخاذ أي قرار يتعلق بمصير الدولة من دون الرجوع إلى السلطان.

ومع ذلك فهذه الحادثة غير منطقية، حتى وإن وقعت بالفعل، لا سيما أن الرجلين على خلاف دائم، فرضوان يعلم أن ظهير الدين سلب منه دمشق، وطغتكين يدرك أن ملك حلب يتربص به، ولو كان الأمر بيده لانقضّ عليه، أما اتفاقهما بهذه الشاكلة، وبهذه الطريقة فهو بعيد عن الواقع، لكن ربما تكون مصلحة الطرفين من هذا الاتفاق هي التي فرضت نفسها، ولذلك جاء هذا الاتفاق.

الرواية الثانية: بعد معركة طبرية عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م «وعقيب هذه النوبة، وصل من حلب من عسكر الملك فخر الملوك ظهير الدين مائة فارس على سبيل المعونة، خلاف ما كان قرره، وبذله، فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل إليه، وإقامة الخطبة له، وذلك في أول شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة»[١].

وهكذا عاد الوضع بينهما إلى صورته الحقيقية وهي التخاصم والعداء، وقد تكون هذه الحادثة صحيحة لاسيما أن رضوان معروف عنه البخل، فكان يحب المال، ولا يسمح لنفسه بإخراجه، لدرجة أن أمراءه وكتابه ينعتونه بـ «أبي حبة»[٢].

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٧، ابن العديم: ج١ ص٣٧٣.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٧٣.

وهاتان الروايتان رغم أن ابن العديم وابن القلانسي يؤكدان أن المتسبب في فشل الاتفاق هو الملك رضوان، لكن ما لا يمكن قبوله، ولا يمكن للمرء أن يتخيله ويستسيغه هو هل يمكن أن يكون الأتابك صادقاً بأن يتنازل عن كل ما حققه، ووصل إليه، ويصبح أقل شأناً من الملك رضوان الذي كان إلى عهد قريب عدوه الأول، واستمر في قتاله منذ العام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وحتى هذا العام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م؟. كما أن الأتابك كافح وقاتل وأفنى كل عمره وحياته لكي يصبح في مقام ومكانة رضوان، أي بأن يكون ملكاً مثله، لكن الفرق بينهما أن رضوان بلغ هذه المكانة، بحكم الدم السلجوقي، بينما المستولي على دمشق ظهير الدين، هو في حقيقته «أمير استيلاء» وأراد ذلك بالقوة وبحكم الواقع، ومع ذلك فهل يُقبل أن يتنازل عن كل ما حققه؟.

كما يمكن القول، ووفقاً لشخصية ظهير الدين طغتكين الذي يعرف كيف يدير الأمور لصالحه، نظراً لحنكته السياسية، وبراعته في المراوغة وخداع الآخرين، أنه أراد أن يثبت لمودود وللسلطان السلجوقي أن رضوان الذي كان ظالماً وفاتكاً[١] وبخيلًا[٢] لا يصلح للحكم، ومن ثَمَّ لا يوجد من أبناء السلاجقة وتحديداً من أبناء وأحفاد سيده السابق تتش، من يصلح للحكم، مما يعني أنه أي ظهير الدين أولى بحكم دمشق من غيره!. وحتى لو افترضنا أن الأتابك كان صادقاً في مسعاه، لكنه «يرحب باتفاق تكون يده فيه هي العليا، كما كان يبيع معونته بيعاً لرضوان ليضمن لنفسه شرعية امتلاك جنوب الشام»[٣].

بينما شاكر مصطفى له رأي آخر حول اتفاق طغتكين ومودود مع ملك

(١) ابن تغري: ح٥ ص١٥٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٨.

(٣) مصطفى: ص٦٧.

حلب، حيث يقول: «وواضح أن المشروع يهدف إلى سلجقة الشام كله وراء رضوان. ويظهر أنه امتد أيضاً ليشمل عن طريق مودود، إمارة الموصل، فإن طغتكين فيما يبدو قد استغل وحشة الأمير مودود مع أصفهان، ومجيئه إلى الشام للجهاد ليقنعه بمشروعه مع رضوان، وبإقامة جناح سلجوقي ضخم في مثلث الموصل -حلب- دمشق، يواجه الأطماع السلجوقية الإيرانية، وتم الاتفاق على ذلك بالفعل، ولسنا نعرف متى كان الاتفاق، لأننا إنما علمنا به عند نقضه سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م»[١] أي من خلال رواية ابن القلانسي المذكورة آنفاً.

وحتى لو افترضنا أو استنتجنا أن كل ما يقوم به ظهير الدين، صحيحاً، لكن عليك أن تبحث عن مصلحته فيما يفعل، فشخصيته كما بدأنا نعرف تفاصيلها الدقيقة تؤكد لنا أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا إذا كان هو المستفيد الأول من ذلك، فإن وصلت إلى هذه الحقيقة، أيقنت أن هذا الفعل يمكن أن يتم، حتى لو وضعها ابن القلانسي في قالب آخر، وفي صورة غير صورتها، وحتى لو أسند لهذا الفعل أسباباً غير تلك الأسباب الحقيقية.

* الملك الأخرس:

ثم توفي ملك حلب رضوان بن تتش[٢] بعد ثلاثة أشهر فقط من تلك الحادثة، وكان ذلك في ٢٨ جمادى الآخرة ٥٠٧هـ/ ١٠ أكتوبر ١١١٣م[٣] بعد

(١) المصدر نفسه: ص٦٧.

(٢) رضوان بن تتش: كان غير محمود السيرة، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وقتل أخويه أبا طالب وبهرام، وقتل خواص أبيه واحداً واحداً، وكان ظالماً بخيلاً شحيحاً فبيح السيرة، ليس فس قلبه رحمة، ولا شفقة على المسلمين، وكانت الفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم، ومرض أمراضاً مزمنة، ورأى العبر في نفسه». سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٨.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٧٣، ابن القلانسي: ص٣١١، ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٢، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٧-٣٤٨، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٨٩، وذكره في تاريخ الإسلام: ج٣٥ ص٢٠، اليافعي: =

مرض أصيب به واشتد عليه، وقيل أنه خلّف في خزانته من العين والعروض والآلات والأواني تقدير ستمائة ألف دينار[١]. وتولى الحكم بعده ابنه ألب أرسلان[٢]الأخرس (١٦ عاماً) ولم يكن أخرساً بالفعل، وإنما في لسانه حبسة وتمتمة[٣] وأمه بنت صاحب أنطاكية ياغي سيان، وقام الأخرس بقتل أخويه ملكشاه وهو من أبيه وأمه، ومبارك[٤] من أبيه، وهو بذلك يكرر ما فعله أبوه رضوان من قبل عندما قتل أخويه بهرام وأبا طالب[٥] وقبض الأخرس على رجال دولة أبيه، وقتل بعضهم، وأخذ المال من البعض الآخر، وقام خادم أبيه لؤلؤ الذي يُعرف باليايا[٦] بتدبير دولته، وكان هو السيد بالفعل، أما ألب أرسلان فلم يكن معه إلا اسم السلطنة، والمعنى الحقيقي للؤلؤ، وقد أساء كل منهما التدبير[٧].

وهكذا تتكرر القصة من جديد، ولكن هذه المرة ليس في دمشق وإنما في حلب.. ملك صغير، وأتابك جشع، له أطماعه ومآربه في الوصول إلى السلطة،

= مرآة الجنان ج٣ ص١٤٧، ابن الحنبلي: ج٤ ص١٦، ابن أبي الهيجاء: ص١٧٠، الأصفهاني: البستان ص٣١٨، العظيمي: ص٣٦٦، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٢ ص١٥٣.

(١) ابن القلانسي: ص٣١١.

(٢) يذكر ابن العديم: أنه يسمى محمداً أيضاً. البغية ج٤ ص٥٨٠.

(٣) يذكر ابن العديم: أنه كان ألثغاً لا يحسن الكلام. المصدر نفسه: ج٤ ص٥٨٠.

(٤) ابن الأثير والذهبي يرسمانه مباركشاه، بينما ابن القلانسي مؤرخ دمشق وابن العديم مؤرخ حلب يرسمانه «مبارك». ويذكر ابن العديم اسم أخويه في بغية الطلب ملكشاه وميريجا. ج٤ ص٥٨٢، ولدى ابن عساكر «أميركاد». ابن عساكر ج٩ ص٢٠٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٨.

(٥) ابن القلانسي: ص٣١١، ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٧٣، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٢-١٣، ابن الوردي: ج٢ ص٣١.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٣٧٤. ولدى ابن عساكر: لؤلؤ البابا. ج٩ ص٢٠٤.

(٧) ابن القلانسي: ص٣١١، ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٢، ابن العديم: ج١ ص٣٧٣-٣٧٤، ابن الوردي: ج٢ ص٣١.

يبحث عن المجد لنفسه، ومن أجل تحقيق كل ذلك، فهو على استعداد لفعل أي شيء كي يحافظ على المكاسب التي حققها.

*** خطة طغتكين الجديدة:**

بعد ذلك، بدأ ظهير الدين فصلاً جديداً في تعامله مع المحيطين به، لإظهار أن كل مَنْ يستحق ملك دمشق، غير مؤهل لذلك، حتى لو كان من أبناء السلاجقة. وكان الهدف هذه المرة حاكم حلب الجديد أرسلان بن رضوان الأخرس.

صحيح أن أرسلان هذا، ساذج وغير مؤهل لقيادة أي بلد، لا سيما في تلك الظروف التي تعيشها الأمة، لكن الأسلوب الذي اتبعه أتابك دمشق، كان واضحاً، فقد أراد إرسال رسالة إلى أهل دمشق، وإلى سلطان السلاجقة، وحاشيته، أنه لا يصلح لحكم دمشق سواه.

كما لا يمكن اغفال الظروف المحيطة بطغتكين في تلك الفترة، لا سيما بعد اتهامه بقتل مودود، وموقف السلطان والخليفة وكذلك الرأي العام الذين اتهموه جميعاً بأنه وراء عملية الاغتيال تلك، وأيضاً وقوفه إلى جانب الفرنج ضد المسلمين بعد ذلك.

وبعد شهر واحد فقط من موت رضوان عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، قُتِل شرف الدين مودود، ثم قام ألب أرسلان بقتل الباطنية الذين كثروا في حلب[١] بعد أن وصلته رسالة من السلطان محمد بن ملكشاه يطلب منه قتلهم[٢] لذلك وكما يقول ابن القلانسي: «دعت الملك ألب أرسلان الحاجة إلى من يدبر أمره، ويثقف أوده، فوقع اختياره على ظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، فراسله في ذلك، وألقى

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٢.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٧٤.

مقاليده إليه واعتمد في صلاح أحواله عليه، وسأله الوصول إلى حلب، والنظر في مصالحها»[١] وقيل أنه أشار عليه خدمه وأصحابه في مكاتبة طغتكين[٢] وبالفعل كتب له بعد أن رغب في استعطافه[٣] «فأجابه طغتكين إلى ذلك، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة، ثم قدِم ألب أرسلان في هذا الشهر دمشق، وتلقاه طغتكين وأهل دمشق في أحسن زي، وأنزله في قلعة دمشق، وبالغ في إكرامه، فأقام بها أياماً، ثم عاد إلى حلب في أول شوال، وصحبه طغتكين، فلما وصل حلب لم ير طغتكين منه ما يحب ففارقه، وعاد إلى دمشق»[٤].

وفي هذه الرواية لم يكشف ابن القلانسي ما الذي لم يعجب ظهير الدين من ألب أرسلان الأخرس؟ ولم يوضح ما الأسباب التي دعته إلى مفارقته؟ لكنه في رواية أخرى يكشف غموض تلك الأسباب، فيقول: «وقصد أتابك في دمشق ليجتمع معه ويؤكد الأمر بينه وبينه، فوصل إليه في النصف من شهر رمضان من السنة، فلقيه أتابك بما يجب لمثله من تعظيم مقدمه، وإجلال محله، وأدخله إلى قلعة دمشق، وأجلسه في دست عمه شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة، وقام هو والخواص في خدمته، وحُمِل إليه ما أمكن حمْله من تحف وألطاف تصلح لمثله، وكذلك لجميع من وصل في صحبته، وأقام أياماً على هذه الحال، وتوجه عائداً إلى حلب في أول شوال من السنة ومعه ظهير الدين أتابك في أكثر عسكره، ووصل إلى حلب، وأقام أياماً، وأشار عليه قوم من أصحابه بالقبض على جماعة من أعيان عسكره، وعلى وزيره أبي الفضل بن الموصول، وكان حميد الطريقة،

---

(١) ابن القلانسي: ص٣١٢.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٣٧٥، ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٨٣.

(٤) ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٨٣-٥٨٤، العظيمي: ص٣٦٦.

مشهوراً بفعل الخير، وتجنب الشر، ففعل ذلك واستخلص ظهير الدين أتابك من جملتهم الأمير كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره، وخالف ما في نفس أتابك من صائب الرأي، ومحمود التدبير، فحين شاهد الأمر على غير السداد والصواب، وبان له فساد التدبير، واختلاف التقدير، رأى أن الإنكفاء إلى دمشق أصوب ما قصد، وأحسن ما اعتمد، وفي صحبته والدة الملك رضوان لرغبتها في ذلك وإيثارها له»[1].

ولابن العديم رواية أخرى مشابهة، حيث يقول: «وبالغ في إكرامه وخدمته والوقوف على رأسه، وحمل إليه دست ذهب، وطيراً مرصّعاً، وعدة قطع ثمينة، وعدة من الخيل، وأكرم من كان في صحبته. وأقام بدمشق أياماً وسار في أول شوال عائداً إلى حلب، ومعه أتابك وعسكره، فأقام عنده أياماً، واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره، وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بقبضه، وقبض جماعة من أعيان عسكره، وقبض الوزير أبي الفضل بن الموصول، ففعل ذلك، فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه. وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع، وكان وجيهاً عند أبيه رضوان، فصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالاً، وأخرجه وأهله من حلب، فتوجَّه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر. وسلَّم رئاسة حلب إلى إبراهيم الفراتي، فتمكن ولُقِّبَ ونُوّه باسمه، وإليه تُنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب. ثم رأى أتابك من سوء السيرة، وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره، فعاد من حلب إلى دمشق،

(١) ابن القلانسي: ص٣١٢-٣١٣.

وخرجت معه أم الملك رضوان هرباً منه»[١].

ويرى شاكر مصطفى سبب قيام طغتكين بكل هذه الحفاوة والاستقبال لألب أرسلان: «إنما كانت جواباً على غضب السلطان وعلى الإتهام الذي وُجه لطغتكين، وهدد مركزه بسبب مقتل مودود، لقد وجد الأتابك أحسن تغطية شرعية لحكمه في هذا الفتى ألب أرسلان الأخرس»[٢]. وبعد ذلك قام لؤلؤ الخادم[٣] بقتل ألب أرسلان في ٢ ربيع الآخرة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م بقلعة حلب ونصّب أخاه وعمره ست سنوات[٤] يدعى سلطانشاه[٥] وقال عنه سبط ابن الجوزي: «وكان سيئ السيرة مع عسكره ورعيته، فلم يحزنوا لقتله»[٦] ثم قام ظهير الدين بعقد هدنة مع الإفرنج، ليرتمي في أحضانهم، من أجل الهرب بعيداً عن ضغوط السلطان والرأي العام الذين اتهموه بقتل مودود.

وحَكَم لؤلؤ الخادم في دولة سلطانشاه أكثر من حكمه في دولة ألب أرسلان، وفي العام ٥١١هـ/ ١١١٧م[٧] قُتِل لؤلؤ على يد جماعة من الأتراك، وقيل كان سبب قتله، أنه أراد قتل ملك حلب، كما فعل مع أخيه، ففطن له أصحاب سلطانشاه، فقتلوه، وتولى أتابكية سلطانشاه بن رضوان، شمس الخواص ياروقتاش، فبقي شهراً وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي، ثم عزلوه وصادروه، ثم إن أهل حلب خافوا من الفرنج، فسلَّموا البلد

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٧٥-٣٧٦.

(٢) مصطفى: ص٦٨.

(٣) قتل لؤلؤ الخادم في عام ٥١٦هـ. ابن العديم: البغية ج٤ ص٥٨٣.

(٤) المصدر نفسه: ج٤ ص٥٨٣، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٤.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٠.

(٦) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٤.

(٧) ابن الأثير: قيل كان قتله في عام ٥١٠هـ. ج٨ ص٥٧٦.

إلى نجم الدين إيلغازي[١].

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٧٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٧٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٧٩، ابن الوردي: ج٢ ص٣٤، أبو الفداء: ج٢ ص٥٠، الأصفهاني: البستان ص٣٢١.

الفصل الخامس: الحملة الصليبية الأولى وموقف طغتكين منها

إمارة الرها، إمارة أنطاكية، كربوقا يحاصر أنطاكية، البارة ومعرة النعمان، مملكة بيت المقدس، إمارة طرابلس.

* فوضى عارمة:

في ظل هذه الأحداث المتسارعة والفوضى العارمة التي عمَّت سلطنة السلاجقة، وفي ظل الأزمات المتلاحقة التي تطاردها، نتيجة للصراعات المستمرة على العرش بين الأطراف المختلفة، وفي ظل الصراع الطويل بين الخلافتين العباسية والفاطمية، كان من الطبيعي أن تتهالك قوى الخلافتين وتضعف وتضمر، وكان من الطبيعي أن يمر العالم الإسلامي بفترة غيبوبة لم يتمكن من الاستفاقة منها، إلا بعد أن حلّت مصيبة جديدة لكن هذه المرة من عدو لم يكن في الحسبان أو الخاطر ألا وهم الفرنج أو الصليبيون، فقد جاؤوا إلى المنطقة بقضهم وقضيضهم وبعِدّتهم وعتادهم و«عالم لا يحصى عدده كثره»[1] لغزو العالم الإسلامي، وكان هدفهم الأول هو الاستيلاء على بيت المقدس، لكن الغريب في الأمر أن تتوافق هذه الحملة مع الصراعات الدامية في المشرق الإسلامي.

واستطاع الصليبيون في بادئ الأمر أن يعبروا دولة سلاجقة الروم، ويستولوا على نيقية، ودارت بينهم رحى حرب طاحنة، لكنهم استطاعوا العبور والسير

(١) ابن القلانسي: الذيل ص٢٣٢.

نحو المشرق الإسلامي، ولمَّا وصلوا إلى هناك وجدوا المنطقة كلها مُقسَّمة، ومُعدة سلفاً للسقوط، خصوصاً في ظل صراع أبناء السلاجقة على الحكم، وانفصال الشام شبه الرسمي عن الدولة السلجوقية، ووجود الأخوين رضوان ودقاق على حلب ودمشق، واستمرار الصراع بينهما، ودخول صاحب أنطاكية في تلك المنازعات[1] وبذلك «استفاد الصليبيون من الخلافات بين الدول الإسلامية سواء عند زحفهم عبر آسيا الصغرى، أو عبر الشام وفلسطين. ولم يكن المسلمون في وضع يمكّنهم من تقدير الخطر الذي يحيق بهم، ولهذا لم يجدوا أنه من الضروري القضاء على منازعاتهم الداخلية»[2].

وتمكَّن الفرنج خلال فترة قصيرة من تأسيس أربع إمارات صليبية في المشرق الإسلامي، كانت الأولى إمارة الرها وذلك في ربيع الأول ٤٩١هـ/ فبراير ١٠٩٨م، ثم استولوا على أنطاكية وذلك في جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ أوائل يونيو ١٠٩٨م، وبعد عام واحد تقريباً وتحديداً في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليو ١٠٩٩م حققوا هدفهم الرئيسي من حملتهم، وهو الاستيلاء على بيت المقدس. وأخيراً إمارة طرابلس عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م.

(١) باركر: آرنست، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت ص٣٢.

(٢) ماير: هانسن إبرهارد، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص٨٦.

أولا: إمارة الرها[١]:

من المعروف أن الرها كانت بيد بوزان من عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م- ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، ثم استطاع قائد أرمني يدعى ثوروس بن هيثوم الذي كان من رجال الحاكم السابق فيلارتوس[٢] أن يفرض سيطرته عليها، مُعترفاً بتبعيته للملك السلجوقي تتش بن ألب أرسلان[٣] الذي أصبح سيد المنطقة بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

وكان ثوروس رجلاً مُسناً، وليس له ولد يرثه، فخشي أن يستولي الأتراك على إمارته، وحينما وصل الصيليبيون إلى المنطقة، واستولى القائد الصليبي القادم مع الحملة الأولى بلدوين البولوني على الكثير من المواقع والمدن والقلاع، ومنها تل باشر[٤] التي أخذها من السلاجقة، قام ثوروس باستدعاء بلدوين البولوني، ليكون قائداً لجيشه، فلم يتردد بلدوين في ذلك، فقد أسرع إلى ثوروس في ٤٩١هـ/ فبراير ١٠٩٨م على رأس قوة صغيرة من ثمانين فارساً، ودخل المدينة، وتم استقباله بحفاوة، واتخذه ثوروس ابناً له بالتبني، ووريثاً وشريكاً له في الحكم، ثم قام أهالي الرها بثورة ضد ثوروس، انتهت بوصول

---

(١) الرها: كانت بيد الدولة البيزنطية، حتى فتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب في عام ١٨هـ، ثم استردتها الإمبراطورية البيزنطية عام ٤٢٢هـ، وفي عام ٤٧٠هـ تمكن فيلارتوس الأرمني من انتزاعها لتكون ضمن نفوذه حتى استعادها السلاجقة في عهد ملكشاه وأسند إمارتها إلى بوزان الذي استمر والياً عليها حتى عام ٤٨٧هـ، وهي حالياً في تركيا واسمها أورفا.

(٢) عاشور: الحركة ج١ ص١٤٦.

(٣) الشمري: غانم، الزنكيون تاريخ دولة وقصة جهاد، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م ص٥٥.

(٤) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب. الحموي: المعجم ج٢ ص٤٠.

بلدوين إلى الحكم[١]. وهكذا قامت أول إمارة صليبية في المنطقة.

والملاحظ من هذه الأحداث عدم تدخل القوات السلجوقية بكل ما جرى في الرها، باستثناء قيام والي الموصل قوام الدولة كربوقا بمحاصرة المدينة مدة ثلاثة أسابيع ولكن من دون جدوى[٢].

ولعل أهم سبب في عدم تدخل السلاجقة مباشرة ومبكراً في هذه الأحداث، يعود إلى عدم إدراك جميع الأتراك بماهية القادمين من غرب أوروبا، لا سيما أن الكثيرين كانوا يعتقدون أنهم مجرد مغامرين، يبحثون عن المال والشهرة، وسرعان ما سيعودون إلى بلادهم، إضافة إلى أن ثوروس الذي كانت الرها بيده، هو من طلب من بلدوين الحضور إلى بلاده، خوفاً من أن يأخذها الأتراك منه، على عكس ما سوف يجري في الإمارات التي سوف يستولي عليها الصليبيون، حيث يطلب صاحب البلاد أو حتى الشعب نفسه، معاونة السلاجقة أو الخليفة العباسي، للتدخل ضد الصليبيين، وهو ما سنراه في أنطاكية.

ثانياً: إمارة انطاكية:

فتح سليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم أنطاكية في ١٠ شعبان ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م[٣] وأخذها من صاحبها فلاردوس[٤] التابع للإمبراطورية البيزنطية، بعد أن كانت تابعة لها لنحو مائة وعشرين عاماً، ثم قُتِل سليمان على يد تتش بن ألب

(١) عاشور: ج١ ص١٤٧- ١٤٩، الشارتري: فوشيه، الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥- ١١٢٧م ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ص١٠٦- ١٠٨، يذكر الكثير من المؤرخين أن بلدوين كان وراء هذه الثورة.

(٢) الشارتري: ص١١٧، ماير: ص٨٤.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٠٦.

(٤) بعض المؤرخين يذكرون أن اسمه فردوس.

أرسلان في عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وأخذ أنطاكية وسلَّمها إلى ياغي سيان الذي كان على درجة من الكفاية السياسية مكّنته من اكتساب رضا تاج الدولة تتش بعد وفاة السلطان ملكشاه، وظل ياغي سيان محتفظاً بأنطاكية، بعد وفاة تاج الدولة، من دون أن يستطيع ملك حلب رضوان بن تتش انتزاعها منه[١] وخلال هذه الفترة كان الصراع على أشده بين رضوان وشقيقه دقاق، وكان صاحب أنطاكية من الأضلع الرئيسة فيه، فقد كان أول الأمر مع دقاق، ثم انقلب عليه، وانضم إلى حزب رضوان، وتوثقت العلاقة بينهما لدرجة أن رضوان تزوج ابنة ياغي سيان[٢] وبات مشغولاً عن بلاده، منشغلاً في الصراع الدائر بين الأخوين الملكين (تناولنا هذا الموضوع في فصل الصراع بين دمشق وحلب) لهذا عندما كان إلى جانب رضوان في حربه ضد أخيه دقاق، كان الفرنج قد توجهوا إلى أنطاكية، كما أنه كان على خلاف مع جناح الدولة حسين أتابك رضوان، وعلاوة على ما سبق، فإن سيرة ياغي سيان ساءت كثيراً في الأعمال التابعة لأنطاكية، لهذا نجد أهل أرتاح[٣] هم أنفسهم يطلبون العون من الفرنج ضد صاحب أنطاكية[٤].

وعندما علم ياغي سيان بتوجه الفرنج إلى بلاده، ذهب إليها، وحفر خندقاً حولها[٥] وجمع الجند بجد واجتهاد من الأقاليم والمدن المجاورة، وشجَّع سكان المدينة على جمع كل المواد اللازمة من حديد وفولاذ، التي قد تفيده في

(١) عاشور: ج١ ص١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٤٣.

(٣) أرتاح: اسم حصن منيع، ومدينة من أعمال حلب. الحموي: ج١ ص١٤٠.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣٤٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٩٨.

الحصار المتوقع على مدينته[١] فلمَّا جاء الفرنج حاصروها حصاراً شديداً استمر تسعة أشهر[٢].

وخلال هذه الفترة تمكّن ياغي سيان من الدفاع عن بلده بشكل جعل ابن الأثير يشيد به وبأفعاله حيث قال عنه :»وظهر من شجاعة ياغي سيان[٣] وجودة رأيه، وحزمه واحتياطه ما لم يُشاهد من غيره«[٤].

وكان يمكن ألاَّ تطول مدة الحصار على هذا النحو، لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم، ولم يُضيّعوا وقتاً طويلاً في الانتظار والتفكير، لا سيما أن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التي استولت على الأتراك داخل أنطاكية، عندما علموا بوصول الصليبيين[٥].

وأرسل ياغي سيان ولده إلى دمشق يطلب العون من الملك دقاق[٦] وكان من الطبيعي ألا يرسله إلى حلب، لا سيما أنه تغيّر على صاحبها الملك رضوان، وتخلّى عنه، وبالتالي كان يتوقع ألا يوافق الأخير على طلبه، ولا يشترك في الحلف الذي يسعى إلى تكوينه للدفاع عن أنطاكية. كما طلب العون من جناح الدولة في حمص، وسائر البلاد والأطراف «بالاستصراخ والاستنجاد، والبعث

(١) الصوري: وليم، تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، دار الفكر بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ج١ ص٢٩٩.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٨، ابن الحنبلي يرى أن الحصار دام سبعة أشهر. الشذرات ج٢ ص٣٩٦، ابن الوردي: ج٢ ص١٥.

(٣) ابن الأثير يسميه باغيسيان.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٨، ابن الوردي: ج٢ ص١٥.

(٥) عاشور: ج١ ص١٥٨.

(٦) ابن القلانسي: ص٢٣٢.

على الخفوف في الجهاد»[١].

وكان الفرنج قد كتبوا إلى صاحبي حلب ودمشق بأنهم لا يريدون غير البلاد التي كانت بيد الروم، ولا يريدون سواها[٢] وبالطبع فإن الأحداث التي سارت فيما بعد، تؤكد أن هذا مكر وخديعة منهم، كي لا يُقدما العون والمساعدة لصاحب أنطاكية، وهو ما تم بالفعل، وحتى دقاق الذي أرسل عسكره بقيادة طغتكين بكل تأكيد، فقد توقف عند شيزر[٣] حيث كانت هناك فرقة عسكرية فرنجية تتألف من ثلاثين ألفاً، عاثت فساداً في الأطراف، ووصلت إلى البارة[٤] وعندما وصل جيش دمشق إلى شيزر التقى الطرفان في البارة، ويبدو أنه لم يحصل اشتباك كبير، وإنما تمت مطاردة الفرنج، وتم قتل عدد قليل منهم، أو كما قال ابن القلانسي «قُتِل منهم جماعة»[٥]. لكن الغريب أن جيش دمشق بقيادة ظهير الدين تراجع أمام هذه الفرقة العسكرية. ويقول شاكر مصطفى عن موقف طغتكين هذا: «حتى إذا لقي بعض طلائع من الجيش الفرنجي عند شيزر تركها وعاد»[٦].

فلمَّا طال حصار الفرنج على أنطاكية، قاموا بمراسلة أحد المستحفظين للأبراج، وقدَّموا له مالاً وإقطاعاً، ووافق على ذلك، وصعد إلى البرج نحو خمسمائة محارب، وذلك عند السحر، وتمكّنوا من الاستيلاء على البلد، ونهبوه، وقتلوا مَنْ فيه مِن المسلمين، وذلك في جمادى الأولى، وعندما عَلِم ياغي سيان

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٢.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٣٣.

(٤) البارة: بليدة وكورة من أعمال حلب. الحموي: ج١ ص٣٢٠-٣٢١.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٣٣.

(٦) مصطفى: طغتكين ص٤٩.

بذلك، خرج هارباً ومعه ثلاثين غلاماً. ولمَّا طلع النهار بدأ يُفكر بما حدث، أو كما قال ابن الأثير: «رجع إليه عقله وكان كالولهان»(١) وكان قد قطع فراسخ عدة، وسأل مَنْ معه: أين أنا؟ فقيل: على أربعة فراسخ من أنطاكية، وقد ندم على فعلته هذه، التي فرَّ بها من بلده، رغم أنه كان المسؤول الأول عن الدفاع عنه، لكنه فشل في هذا الاختبار الحقيقي، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن ينهار وينتهي كل شيء. ولم يفعل شيئاً سوى أنه «نزل من فرسه فحثا التراب على رأسه وبكى ولطم»(٢). هذا أقصى ما كان عند هذا الرجل الذي كان يوماً ما ملكاً لأنطاكية.

ويقول ابن الأثير عن حال ياغي سيان هذه: «فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه، مغشّياً عليه، فلمّا سقط إلى الأرض، أراد أصحابه أن يُركبوه، فلم يكن فيه مسكة، قد قارب الموت فتركوه، وساروا عنه، واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق، فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية»(٣). فيما يروي ابن القلانسي: «انهزم ياغي سيان، وخرج في خلق عظيم، فلم يَسلم منهم شخص، ولمَّا حصل بالقرب من أرمناز، وهي ضيعة قرب معرة مَصْرِين(٤) سقط عن فرسه على الأرض، فحمله بعض أصحابه، وأركبه، فلم يثبت على ظهر الفرس، وعاود سقط، فمات»(٥).

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٢٥٨.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٩، ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٦٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٤، وذكره في العبر: ج٢ ص٣٦٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٥٨، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٢٧، ابن الوردي: ج٢ ص١٥، الشارتري: ص١١٥.

(٤) معرة مصرين: بليدة وكورة بنواحي حلب، ومن أعمالها. الحموي: المعجم ج٥ ص١٥٥. وهي تبعد حالياً عن مدينة إدلب ١١ كم باتجاه الشمال الشرقي. المعجم الجغرافي: ج٥ ص٣٠٤.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٣٤، ابن أبي الهيجاء: ص١٥١.

وقد قُتِل من أنطاكية وأُسِر وسُبِي من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر، كما هرب عدد آخر يقدر بنحو ثلاثة آلاف شخص إلى القلعة وتحصنوا بها[١] «حتى عظُم المصاب على المسلمين برواح أنطاكية وأهلها»[٢] وكان ذلك في جمادى الأولى ٤٩١هـ/ إبريل ١٠٩٨م.

والغريب أن الدولة الفاطمية لم تعر أي اهتمام لما حدث في أنطاكية، بل استغلت الوضع، بعدما عَلِمت بمحاصرة الفرنج للأتراك هناك، وأنهم أي الأتراك في حالة ضعف وتفرق[٣] فأرسلت جيشاً بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي، وقاموا بمحاصرة سقمان وإيلغازي ابني أرتق التركماني في بيت المقدس، وحاصروا البلد وقاتلوا أهله ودام القتال أكثر من أربعين يوماً، ثم استسلم أهل بيت المقدس، وأخذت الدولة الفاطمية المدينة في شعبان ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وأنابت رجلاً يدعى افتخار الدولة فيها[٤].

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا اختار الفاطميون هذا التوقيت بالذات، أي حصار أنطاكية، لأخذ بيت المقدس؟ يجيب عن هذا السؤال المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي يؤكد أن الفاطميين أرسلوا رسلهم في سفارة إلى الصليبيين أثناء حصار أنطاكية، وقد أبدى الفاطميون سعادتهم بالخسائر التي تعرض لها السلجوقي قلج أرسلان في نيقية قبل الوصول إلى أنطاكية، وأكدوا لهم أن الخسائر التي يتعرض لها الأتراك هي مكسب لهم، وأن اضطراب أوضاع الأتراك هي سلام لهم، وأن هؤلاء الرسل أكدوا للصليبيين أن الدولة الفاطمية على أتم

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٤.

(٢) الذهبي: العبر ج٢ ص٣٦٤.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٥.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٥.

الاستعداد لتقديم كل الدعم المالي والعسكري لاستمرار حصار أنطاكية[١].

وقدّم رسل الفاطميين عرض الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إلى الصليبيين يتمثل في اقتسام الدولة السلجوقية بين الطرفين، بحيث يمتلك الفرنج شمال الشام، ويمتلك الفاطميون القدس[٢] وقد وافق الفرنج على ذلك بل وأرسلوا سفارة إلى مصر تحمل الهدايا الوفيرة إلى الخليفة الفاطمي[٣].

*** كربوقا يحاصر أنطاكية:**

وعندما سمع والي الموصل قوام الدولة كربوقا بما حدث في أنطاكية، وما حدث لواليها، أسرع الخطى إليها، وحاول عبثاً أن يفعل شيئاً يحفظ للمسلمين ماء الوجه، فقام بحملة عسكرية بمشاركة «عسكر الشام، تُركها وعربها»[٤] وشاركه فيها كل من: ملك دمشق دقاق بن تتش، وأتابكه طغتكين، وصاحب حمص جناح الدولة حسين، وصاحب سنجار أرسلان تاش وكذلك سقمان[٥] بن أرتق[٦] «وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم»[٧] وكما قيل «في عدد لا يدركه حصر ولا حرز»[٨]. ورغم كل ذلك إلا أنه وصل متأخراً نتيجة لما قام به من حصار

---

(١) الصوري: ج١ ص٢٩٨.

(٢) رنسيمان: ج١ ص٣٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٣٤٤.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٩٩.

(٥) يرسمه بعض المؤرخين سكمان وسليمان.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٥٩. وسبط ابن الجوزي يذكر أن صاحب حلب رضوان بن تتش كان مشاركاً في الحملة.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٠.

(٨) ابن القلانسي: ص٢٣٥.

فاشل للرها، وعندما وصل لأنطاكية كانت المدينة قد سقطت بأيدي الفرنج(١). وكان من الطبيعي ألا يحقق أولئك المتنافرة قلوبهم النصر على الصليبيين، ولعل الأحداث التي وقعت فيما بعد كشفت السبب في ذلك، نوجزها فيما يلي:

١- عندما أراد كربوقا اقناع ملك حلب رضوان بن تتش المشاركة في هذه الحرب، نظراً لحاجته الماسة لهذه المساعدة، لأن عدم وجوده في هذه الحرب، وكذلك خلافه مع أخيه رضوان، كانا من العوامل التي خلقت جواً من القلق والإستياء في صفوف المسلمين(٢) وعندما وصلت رسل ملك حلب لوالي الموصل، «توّهم دقاق من ذلك»(٣) وأخذت الشكوك تفعل فعلها في نفس ملك دمشق، واعتقد أن هناك اتفاقاً بينهما ضده وضد مملكته.

٢- خلال هذه الفترة، كان الفاطميون يحاصرون بيت المقدس لأخذها من الصليبيين، فخشي ملك دمشق على مملكته منهم، لذلك كان حريصاً على أن يعود إلى الجنوب(٤) أي إلى دمشق، فهذا التوسع الفاطمي سبّب له قلقاً(٥).

٣- أن والي حمص جناح الدولة حسين خاف من أمير الرحبة ومنبج يوسف بن أبق وأخيه(٦) نظراً للعداء الأسري بينهما، وكان يوسف هذا على اتفاق مع رضوان في صراعه ضد أخيه دقاق(٧) وهو ما يعني أنه لن يكون هناك أي تعاون

(١) ماير: ص٨٨-٨٩.

(٢) عاشور: ج١ ص١٧١.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٤) رنسيمان: ج١ ص٣٦٨.

(٥) عاشور: ج١ ص١٧١.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٧) عاشور: ج١ ص١٧١.

بين والي حمص وأمير الرحبة[١].

٤- أن العنصرية كانت العنوان الأبرز للجيوش الإسلامية المُشارِكة في حصار أنطاكية، فقد انقسم المسلمون إلى فريقين، الأول: فريق الأتراك ويقودهم كربوقا، والثاني: فريق العرب ويقودهم وثّاب بن محمود المرداسي.

ويُلخص ابن العديم ما حدث بين الفريقين من تشاحن وتباغض كان سببها رسالة من الملك رضوان، حيث يقول: «وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها، وتفرَّق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته»[٢]. صحيح أن ابن العديم لم يُوضّح شيئاً عن محتوى هذه الرسالة، أو عن دور رضوان في هذه المنافرة، لكن ملك حلب بالتأكيد أثار العصبية في نفوس الأتراك بهدف إضعاف روح الجهاد لدى هذه القوات المسلمة المُحاصِرة لأنطاكية.

وعندما حاصر المسلمون، الصليبيين في أنطاكية، أصبح المحاصَرون في حال يرثى لها «وعظمت الهيبة عليهم، وخافوا لِما هُم فيه من الوهن، وقِلة الأقوات عندهم»[٣] وأكلوا الميتة[٤] واستمر الحصار اثنى عشر يوماً، ثم حاول عدد من الصليبيين الخروج من الباب، فلمَّا شاهدهم المسلمون تعالت أصواتهم، مطالبين كربوقا بقتل كل من يخرج من الباب، على اعتبار أنَّ أمرهم وهُم متفرقون سهل[٥] أما إذا اجتمعوا ونظَّموا صفوفهم، فيكون من الصعب

(١) رنسيمان: ج١ ص٣٦٨.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠، ابن القلانسي: ص٢٣٥.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣٥.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠.

القضاء عليهم بسهولة، ومن هؤلاء وثّاب بن محمود الذي أشار عليه بمنع خروجهم[١] وضرورة مهاجمتهم[٢]. لكن كربوقاً فاجأ الجميع بقراره الغريب، حيث منع المسلمين، ونهاهم عن مهاجمة الصليبيين، إلى أن تكتمل صفوفهم جميعاً. وقال: «أمهلوهم حتى يكتمل خروجهم فنقتلهم»[٣] حتى أنه عندما قتل بعض المسلمين عدداً من الصليبيين الخارجين من الباب، جاءهم كربوقا بنفسه، ومنعهم ونهاهم عن ذلك[٤].

وكان والي الموصل يخشى أنه إذا أسرع بقتالهم، فإنه لن يقضي إلا على مقدمتهم، أما إذا انتظر فإنه يقضي عليهم دفعة واحدة[٥]. لكنه ضيّع على نفسه، وعلى المسلمين انتصاراً كان في متناول اليد.

عموماً وبعيداً عما حدث من مفاوضات بين الطرفين، فإن الصليبيين، وبسبب الحصار وشدة المجاعة، طلبوا أول الأمر الأمان ليخرجوا من البلد، لكن كربوقا الذي خدعه عدد جيشه، ولم يفطن للخلافات التي كانت فيما بينهم، رفض ذلك وقال: «لا تخرجون إلا بالسيف»[٦]. ومع مرور فترة الحصار بدأ زمام الأمور يفلت منه، حتى أنه «أساء السيرة فيمن معه مِن المسلمين، وأغضب الأمراء وتكبّر عليهم، ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم، وأضمروا له في أنفسهم الغدر»[٧].

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٢) رنسيمان: ج١ ص٣٧٠.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٠.

(٥) رنسيمان: ج١ ص٣٧٠.

(٦) ابن العبري: مختصر الدول ص١٧١.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠، أبو الفداء: ج٢ ص٢٧.

ثم بدأ الصليبيون يخرجون من الباب[١] لمواجهة المسلمين، ومواجهة مصيرهم «فلمَّا تكامل خروجهم، ولمْ يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً»[٢] وكانوا قبل ذلك يتوقعون أن يلقوا من المسلمين هجوماً مفاجئاً وعنيفاً، ولكن عندما رآهم المسلمون على هذه الحال، بدأت صفوفهم بالارتباك والاضطراب[٣] وسط زيادة صلابة الصليبيين، وإزاء ذلك بدأ كثير من الأمراء المسلمين بالانسحاب من ساحة المعركة، والتخلي عن كربوقا يتقدمهم أمير دمشق دقاق بن تتش، وقائده طغتكين، وحقيقة الأمر أنهما تركا أنطاكية، لأن عيونهما كانت شاخصة نحو بيت المقدس التي أخذها الفاطميون، ويقول شاكر مصطفى: «لم يشأ أصحاب دمشق أن يزجوا بقواهم في المعركة أيضاً لا خوفاً من رضوان فقط، ولكن لأن أعينهم كانت على القدس التي طوقها الفاطميون، وأخذوها في تلك الفترة من الأراتقة أتباع دمشق»[٤].

ولم يبق مع كربوقا سوى سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، فقد خاف الأتراك أنه إذا أحرز والي الموصل قوام الدولة كربوقا النصر، فإنه يصبح أكثر قوة، ما يعني أنهم أول مَنْ يدفع الثمن، ليس هذا فحسب، بل حتى سقمان بن أرتق وجناح الدولة، قررا الفرار من المعركة بعد ذلك، لهذا أدرك كربوقا أن المعركة خاسرة، وبالتالي انصرف عن القتال، حتى قال وليم الصوري: «وهرب بسرعة كبيرة، ودون أن ينتظر أحداً من الناس»[٥] وتداعى كل ذلك الجيش الكبير الذي

---

(١) قصة خديعة الحربة المدفونة التي ذكرها راهب لشحذ همم المحاصرين، لدى ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٠.

(٣) رنسيمان: ج١ ص٣٧١.

(٤) مصطفى: ص٤٩.

(٥) الصوري: ج١ ص٣٦٣.

اغتر بعدده أول الأمر، وسط ذهول وعدم تصديق الصليبيين[١] وعندما تم خروج جميع الفرنج ولّى المسلمون منهزمين[٢] «ولَمْ يضرب أحد منهم بسيف، ولا طَعَنَ برمح، ولا رمى بسهم»[٣]. وشرح ابن القلانسي حال المسلمين، ووضْع الفرنج أثناء خروجهم بكلمات موجزة حيث قال: «ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف إلى عساكر الإسلام، وهم في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرَّقوا جموعهم»[٤].

وفي النهاية فشل كربوقا في استعادة أنطاكية من يد الفرنج. وتعرَّض المسلمون لخسارة فادحة في المعركة، وفرَّقَ الفرنج جمْع المسلمين، حتى قال سبط ابن الجوزي:»ووقع السيف في المجاهدين والمطوّعين»[٥].

والحقيقة الثابتة أن المسلمين لم ينهزموا في نهاية المعركة، بل انهزموا قبل أن تبدأ، نتيجة للهزيمة الداخلية التي كانوا يعيشونها، بسبب الانشقاق الواقع بين صفوفهم، وكل الأحداث التي سارت بعد ذلك تؤكد هذه الحقيقة، كما أن الهزيمة لم تلحق جهة واحدة، بل جهات عدة في معركة واحدة، وهم: سلاجقة الروم ممثلين في أنطاكية، وسلاجقة فارس الذين يمثلهم القائد كربوقا عن السلطان بركيارق، وأخيراً سلاجقة الشام ويمثلهم: ملك دمشق ووالي حمص.

وكان لانتصار الصليبيين في هذه المعركة التي جرت في ٦ رجب

---

(١) رنسيمان: ج١ ص٣٧١.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠، ابن العديم: ج١ ص٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٠.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣٥. القصة كاملة لدى ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٥٩، ابن العديم: ج١ ص٣٤٩-٣٥١، الشمري: ص٦٢-٦٦، رنسيمان: ج١ ص٣٧٠-٣٨٠، ابن تغري: النجوم ج٥ ص١٤٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٥٩-٢٦٠.

٤٩١هـ/ ١٠٩٧م نتائج بالغة الأثر على المستويين القريب والبعيد أبرزها:

- تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية.

- فتح الطريق أمام الصليبيين للتوجه نحو بيت المقدس.

- التأكيد على أن المسلمين بحاجة إلى قائد أكثر حزماً وعزماً من كل القادة الذين شاركوا في حصار أنطاكية.

- أكد هذا الانتصار علو كعب الصليبيين في الجانب الحربي وتماسكهم أمام الضعف الإسلامي.

- ميزان القوى من الآن وصاعداً سوف يميل لصالح الصليبيين.

*** البارة ومعرة النعمان:**

بعد انتصار الفرنج في تلك المعركة، أصبحت أنطاكية مركزاً لإمارة صليبية ثانية في الشرق بعد الرها، ومن خلالها أخذوا يشنّون الغارات على الشام، فقد اتجهوا أولاً إلى البارة التي تبعد مسير يومين عن أنطاكية، واضطر سكانها إلى التسليم فوراً[١] ومع ذلك قتل الفرنج كل سكانها وصادروا كل شيء فيها[٢] وفي ١٤ محرم ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م قاموا بمهاجمة معرة النعمان ومحاصرتها بشكل محكم[٣] وكان موقف القوى الإسلامية المختلفة مما حدث متخاذلًا، إذ لم يجد أهل البلد أي معونة تُذْكر من كل المحيطين بهم. لا سيما من ملك حلب رضوان بن تتش، ووالي حمص جناح الدولة، فقد استنجد بهما الأهالي، لكنهم لم يجدوا

---

(١) الصوري: ج١ ص٣٧٨.

(٢) الشارتري: ص١٢٨.

(٣) رنسيمان: ج١ ص٣٨٦.

منهما أذناً صاغية[١] وعندما وقع قتال بين الطرفين أي الفرنج وأهل المعرة، كان للأهالي موقف بطولي، فقد «قاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية، ولقوا منهم الجد في حربهم، والاجتهاد في قتالهم»[٢] وثبتوا من الفجر حتى المغرب[٣] ولكن لم تكن لديهم القوة الكافية، ولا الإمكانات التي تُمكّنهم من الاستمرار بالقتال[٤] لهذا طلبوا «التماس التقرير والتسليم وإعطاء الأمان على نفوسهم، وأموالهم»[٥] ولكن الفرنج دخلوا البلد[٦] وغدروا بهم، واستباحوا المدينة لمدة ثلاثة أيام، حتى قتلوا أكثر من مائة ألف[٧]. بل يقول الشارتري وهو أحد شهود العيان بصفته مرافقاً للحملة الصليبية الأولى: «وفي ذلك اليوم واليوم التالي، قتلوا جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم، ونهبوا كل الممتلكات»[٨].

ويلخص رنسيمان ما حدث من ارتكاب المجزرة بقوله:» لم يبق أحد منهم على قيد الحياة»[٩] علاوة على سبي الأطفال والنساء، حتى أن ابن الأثير يقول:

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٥٥.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠١، الصوري: ج١ ص٣٨٠.

(٣) ابن العديم: ج١ ص٣٥٥، ابن القلانسي: ص٢٣٥.

(٤) عاشور: ج١ ص١٨٦.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٣٦.

(٦) عمل الفرنج برجاً على سور المدينة حتى تمكنوا من اقتحامها. ابن العديم: ج١ ص٣٥٥، ابن الأثير: ج٨ ص٤٠١، ابن القلانسي: ص٢٣٥، الشارتري: ص١٢٨، الصوري: ج١ ص٣٨٠.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٦، بينما يذكر ابن العديم أن عدد القتلى ٢٠ ألف. ج١ ص٣٥٥، ابن العبري: ص١٧١، ابن أبي الهيجاء: ص١٥١، ابن كثير: ج٨ ص٣٦٣، ابن الوردي: ج٢ ص١٥، أبو الفداء: ج٢ ص٢٧، ابن الحنبلي: الشذرات ج٣ ص٣٩٦.

(٨) الشارتري: ص١٢٨.

(٩) رنسيمان: ج١ ص٣٩١.

«وسبوا السبي الكثير وملكوه»[١] ثم «تقرر بيع النساء والأطفال رقيقاً»[٢] ويذكر رنسيمان أن: «الصليبيين لم يتركوا المدينة إلا بعد أن أشعلوا فيها النيران»[٣].

في هذه الفترة الحساسة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، ظهر جلياً المواقف المتخاذلة من جميع الحكام الذين كانوا سبباً رئيساً فيما آلت إليه الأوضاع نتيجة لحروبهم المتبادلة، حتى وجد العدو الطريق سالكة لتأسيس إماراتهم.

وكما حدث في أنطاكيا عندما رفض حاكم حلب رضوان بن تتش المشاركة في القتال إلى جانب الآخرين، عاد هذا الحاكم نفسه، مع والي حمص جناح الدولة حسين ليرفضا تقديم أي عون لأهالي معرة النعمان[٤] حتى لقوا مصيرهم المحتوم. بل إنهما تخليا عن أي فكرة تدعو إلى مقاومة الفرنج[٥].

وأيضاً عندما علم السلطان بركيارق بهذه الفاجعة التي حلَّت بأهل المعرة تأثر بذلك، وطلب من الأمراء في بغداد أن يتجهزوا مع الوزير ابن جهير لقتال الفرنج، واستعد بعض الجيش للخروج إلى القتال «ثم انفسخت هذه العزيمة»[٦] لمَّا علِموا أن عدد الفرنج «ألف ألف مقاتل»[٧] وذهب كل شيء أدراج الرياح.

كما أن صاحب شيزر الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ، أجرى

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠١.

(٢) رنسيمان: ج١ ص٣٩١.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٣٩٤، عاشور: ج١ ص١٨٢.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣٥٥.

(٥) رنسيمان: ج١ ص٣٩٩.

(٦) ابن كثير: ج٨ ص٣٦٣.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٣٦٣.

اتصالات مع القائد الصليبي ريموند صنجيل (ريموند سانت جيل) وتعهَّد له بألا يعترض طريقهم عند اختراقهم إقليم شيزر، وأن يُقدِّم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة[١] كما أرسل ابن منقذ إليه سفراء، يعرض عليه خدماته من خلال تقديم الأدلاء[٢] والمؤن، عندما كان متجهاً من معرة النعمان إلى كفر طاب «وهي قلعة على بعد عشرين كيلو متراً إلى الجنوب»[٣] وذلك في ٤٩٤هـ/ ١٦ يناير ١٠٩٩م، وقام أدلاء أمير شيزر بإرشاد الجيش الصليبي لعبور إقليم العاصي وتأمين الطريق لهم[٤].

وأشار وليم الصوري إلى أنه عندما مرَّ الجيش الصليبي بمناطق حاكمي شيزر وحمص[٥] قدّما لهم الهدايا من الذهب والفضة، وكذلك الحيوانات كالخيول والماشية، إضافة إلى جميع المؤن[٦].

وعندما أراد بعض الصليبيين أن يتجِّهوا للاستيلاء على جبلة، وهي مدينة ساحلية تقع على جنوبي اللاذقية، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار،

---

(١) عاشور: ج١ ص١٨٥.

(٢) سعيد عاشور يحدد عدد الأدلاء بإثنين فقط. ج١ ص١٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص١٨٥.

(٤) رنسيمان: ج١ ص٣٩٩.

(٥) يقول سعيد عاشور عن موقف الحكام العرب وتحديداً أمراء حمص وشيزر وطرابلس: «بوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العبية التي انتهزت فرصة انحلال قوة السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن والحصون مثل: حمص وطرابلس وشيزر، وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسلك الأرتاك الذين لم يعرفوا سوى السيف، في حين أدرك الأمراء العرب في الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض» عاشور: ج١ ص١٨٥.

(٦) الصوري: ج١ ص٣٨٥.

فعدِلوا مؤقتاً عن حصار جبلة، واتجهوا نحو مصياف، فخرج إليهم أميرهم العربي وعقد معهم اتفاقية[١].

وأيضاً عندما استولى الفرنج بقيادة ريموند صنجيل على حصن الأكراد عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وساروا إلى حمص[٢] وصلت رسل جناح الدولة حسين إليه مُحَمّلين بالهدايا، ووعدوهم بألا يتعرضوا إلى الجيش الصليبي أثناء عبوره[٣].

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل حتى عندما قام الفرنج بحصار مدينة عرقة المنيعة الإستحكامات أربعة أشهر[٤] وهي تتبع إمارة طرابلس، أرسل أميرها جلال الملك ابن عمار إلى ريموند رسلاً تعهد له بدفع الأموال لهم[٥] وأبدى استعداده بأن يُشجّع الفرنج على الفاطميين الذين أدركوا متأخرين الخطر الصليبي على المنطقة، كما «تقررت دعوة ريموند بأن يبعث إليه من قبله مندوبين إلى طرابلس للتشاور في التدابير اللازمة لمرور الحملة الصليبية، وليحملوا معهم أعلام تولوز، التي سوف يرفعها الأمير على المدينة أي طرابلس»[٦] وهو ما فعله، ورفع أعلامهم على السور، في إشارة إلى ولائه للصليبيين.

ويحدد رنسيمان ما دفعه ابن عمار للصليبيين عندما اقتربوا من بلاده بما يلي[٧]:

---

(١) عاشور: ج١ ص١٨٥-١٨٧.

(٢) أبو الفداء: ج٢ ص٢٧، ابن الحنبلي: ج٣ ص٣٩٦.

(٣) رنسيمان: ج١ ص٤٠٢.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠١.

(٥) عاشور: ج١ ص١٨٧.

(٦) رنسيمان: ج١ ص٤٠٢.

(٧) المصدر نفسه: ج١ ص٤١٠.

- أَطلق سراح نحو ٣٠٠ من الأسرى المسيحيين الذين كانوا بالمدينة.
- دفع للصليبيين تعويضاً قدره ١٥ ألف دينار و١٥ من الجياد.
- أَمَدَّ الجيش الصليبي كله بدواب الحمل.

ثالثاً: مملكة بيت المقدس:

لا شك أن الهدف الأساسي والرئيس لهذه الحملات الصليبية كان بيت المقدس، وبالتالي لا يمكن للصليبيين أن يتخلوا عن هذا الهدف مهما كانت المغريات التي تُقدم لهم، لهذا رفض الصليبيون العرض الذي قدّمه الفاطميون. حتى وإن أبدوا موافقتهم على ذلك «وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين، فاختاروا أن يتركوهم على عماهم، ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة رداً على سفارة الأفضل، تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك»[1] أي السلاجقة.

وقد انطلت هذه الحيلة على الفاطميين الذين صدّقوا ما قاله الصليبيون لهم، لدرجة أن الفاطميين اعتقدوا أن الوقت قد حان بالفعل للقضاء على السلاجقة، لكنهم سرعان ما صدموا بالواقع، حينما رأوا الصليبيين على أبواب بيت المقدس، هذه المدينة التي استولى عليها الفاطميون أثناء انشغال السلاجقة بموضوع أنطاكية، رغم أنه كان هناك تحالف بين الفاطميين والصليبيين.

وقبل وصول القوات الصليبية إلى بيت المقدس، اجتمع قادتهم في الرملة وعقدوا مجلساً للحرب، وكان من أهم بنود هذا الاجتماع بأن «يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً

(١) عاشور: ج١ ص١٩٢-١٩٣.

في القاهرة، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس فعليهم أن يُؤَمِّنوا أنفسهم بالاستيلاء على دلتا النيل»[١] لكن هذا الرأي بقي مجرد فكرة لم تنفّذ على أرض الواقع، نتيجة لعدم استقرار الأوضاع في بيت المقدس عندما تم الاستيلاء عليها فيما بعد.

وزحف الفرنج إلى بيت المقدس في رجب ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وفرضوا الحصار على المدينة لأكثر من أربعين يوماً، وقد دافع المقدسيون عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً في ظل تخاذل واضح من الدولة الفاطمية للدفاع عن المدينة التابعة لهم، وتخاذل الخلافة العباسية ممثلة بالدولة السلجوقية، وكذلك حلب أو دمشق. فقد تُرِك أهل بيت المقدس يواجهون مصيرهم لوحدهم، ويواجهون الموت والقتل عندما تمكّن الصليبيون من اقتحام المدينة «وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين...وقَتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً[٢] منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم»[٣].

ويعترف المؤرخ الصليبي المعاصر لتلك الأحداث وليم الصوري بهذه المذبحة ويقول: «وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى»[٤]. «وتَرَكَت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، ليس معروفاً بالضبط عدد الضحايا، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها

(١) المصدر نفسه: ج١ ص١٩٥.

(٢) هناك اختلاف بين المؤرخين في عدد القتلى.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٥.

(٤) الصوري: ج١ ص٤٣٦-٤٣٧.

المسلمين واليهود»[١]. وقال ابن تغري: «وقَتَلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم»[٢].

ويقول الشارتري عن المذبحة التي حدثت في القدس: «تم ذبح حوالي عشرة آلاف في المعبد، ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبوحين، ترى ماذا أقول؟ لم نترك أحداً منهم على قيد الحياة، ولم ينج حتى النساء والأطفال»[٣].

وكما ظل الفاطميون مكتوفي الأيدي عند سقوط أنطاكية، على اعتبار أنها تتبع السلاجقة، أيضاً لَمْ يفعل السلاجقة شيئاً عندما سقطت بيت المقدس، رغم أن الفاطميين قاموا بالاستيلاء على بيت القدس التي كانت تابعة للسلاجقة أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، وهو ما يؤكد حالة التشرذم التي كانت سائدة بين المسلمين.

وعندما أراد الوزير المصري الأفضل، الدفاع عن بيت المقدس، كان الأهالي حينئذ يُذبحون ويُقتلون في كل مكان بالمدينة، وعندما نزل الجيش الفاطمي البالغ تعداده عشرة آلاف، في عسقلان في ١٤ رجب٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م تعرضوا لهجوم من قبل الفرنج، أدت إلى خسارتهم المعركة[٤].

والأمر ذاته فعله ملك دمشق دقاق وأتابكه وقائد عسكره طغتكين الذي كان الحاكم الفعلي للبلد، ولكن بطريقة غير مباشرة، وبالتالي لم نشهد له أي تحرك فعلي تجاه الصليبيين. وكان كل ما يهم ظهير الدين ومَن حوله، هو الدفاع عن

(١) رنسيمان: ج١ ص٤٢٧.

(٢) ابن تغري: ج٥ ص١٤٩.

(٣) الشارتري: ص١٣٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣٦-٢٣٧.

المكتسبات التي حققوها جراء وجودهم على رأس الهرم في دمشق، ومقاومتهم لحلب، بينما كان هناك تخاذل واضح وخذلان كبير لكل ما يجري حولهم من الوافد الجديد إلى المنطقة وهو الجيش الصليبي، لا سيما فيما يتعلق ببيت المقدس.

والغريب أن السلاجقة بعد سقوط بيت المقدس، وتحديداً في العام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م دخلوا في حروب طاحنة، دارت بين السلطان بركيارق وشقيقه محمد، في صراع على كرسي العرش استمر خمس سنوات!.

ولم يعر السلطان بركيارق أي أهمية لما يحدث في بيت المقدس، على اعتبار أن هناك أمراً آخر يشغله وهو خروج الأمير أنز في فارس في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م عليه (وهي السنة نفسها التي ملك الفرنج فيها بيت المقدس) بعد أن ولّاه بركيارق هذه البلاد كلها، ثم «عزم على مخالفة السلطان»[١] وجمع أنز عشرة آلاف فارس وسار من أصفهان إلى الري، حتى قُتِل على يد ثلاثة أتراك من المولدين الخوارزم، وكان السلطان قد خرج من خراسان عازماً على قتاله[٢] ثم انشغل بعد ذلك بخروج شقيقه محمد بن ملكشاه عليه[٣].

«وهكذا تغيرت الخريطة السياسية لمنطقة الشرق العربي الإسلامي، وذلك في فترة وجيزة تنحصر بين شهر ربيع الأول ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وشهر شعبان من السنة التالية، ففي هذه الفترة الوجيزة تكوّنت ثالث مناطق نفوذ صليبية، واحدة في الجزيرة، واثنتان في بلاد الشام، وستكتمل ملامح هذا التغير السياسي في

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٠٨.

آخر السنة التالية من القرن السادس الهجري، وذلك بالاستيلاء على طرابلس من ناحية، ووضوح أبعاد التوسع الصليبي من ناحية ثانية»[(١)].

رابعاً: إمارة طرابلس:

تأخر سقوط طرابلس بعض الوقت عن بقية المدن الإسلامية التي سقطت من قبل، فقد توجّه الفرنج إليها بعد الاستيلاء على بيت المقدس، إلا أن أهلها كانوا لهم بالمرصاد، ودافعوا عن بلادهم دفاعاً مستميتاً، ومع ذلك نجح الفرنج في أخذ جبيل التابعة لطرابلس عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م[(٢)] ويقول ابن الأثير في حوادث ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م: «ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم، وحرمهم، فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمار صبر عظيم، وشجاعة ورأي سديد»[(٣)].

وخلال السنوات اللاحقة باءت جميع محاولات الصليبيين في الاستيلاء على طرابلس بالفشل، وعندما اتجَّه صاحب طرابلس ابن عمار إلى بغداد حيث الخليفة العباسي المستظهر، والسلطان محمد السلجوقي، طلباً للعون، في ظل إصرار الفرنج على أخذ البلد منه، لكنه لم يحصل منهما على ما كان يريده.

وكان يفترض بالسلطان السلجوقي والخليفة العباسي أن يقفا إلى جانب فخر الملك ابن عمار، وألا يتركاه وحيداً لا يعرف ماذا يفعل تجاه القوة الضخمة الصليبية التي تريد احتلال طرابلس، لكنهما لم يفعلا له شيئاً، فكان من الطبيعي

---

(١) أبو سعيد: حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ص١٠٧.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٩١.

أن تضيع طرابلس، كما ضاعت من قبل الرها وأنطاكية وبيت المقدس. وعندما عاد فخر الملك إلى طرابلس وجد الفاطميين، الذين كان جل اهتمامهم في هذه الفترة الحساسة التفرغ للقوى الإسلامية، قد امتلكوا البلد، بعدما طلب أهل طرابلس الحماية من الوزير الأفضل الجمالي في القاهرة، إلا أن الفاطميين كانوا أضعف من منح هذه الحماية لهم، إذ تمكَّن الصليبيون من امتلاك البلد خلال فترة وجودهم فيها، وهو الأمر ذاته الذي حدث في بيت المقدس.

ولا شك أن خسارة ابن عمار لطرابلس وهو حليف مهم لطغتكين، كان سبباً في تخاذل الأخير عن تقديم أي عون لهذه المدينة عندما بدأ الصليبيون في محاصرتها، وكان من الأجدر بظهير الدين وغيره، أن يقدّموا العون لأهل طرابلس الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع جيش جرار لا قِبَل لهم به.

لهذا عندما اجتمعت الجيوش الصليبية القادمة من بيت المقدس وأنطاكية، إضافة إلى الأسطول القادم من جنوة عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م ولمْ يكن أمام أهل طرابلس سوى الاستسلام في ظل تأخر الأسطول المصري عنهم[1] بعد أن تمت محاصرتها ست سنوات. وهكذا حقق الصليبيون أهدافهم، فقد احتلّوا أربع مدن إسلامية مهمة، وأسسوا إماراتهم فيها.

---

(١) ابن تغري: النجوم ج٥ ص١٧٩.

الفصل السادس: الاغتيالات السياسية

ساوتكين الخادم، الملك دقاق بن تتش، الطفل تتش بن دقاق، الوزير أبو النجم هبة الله، شرف الدين مودود، مسعود بن آق سنقر البرسقي، سقمان بن أرتق.

* فرض السيطرة:

استطاع ظهير الدين طغتكين أن يفرض سيطرته على دمشق بأكثر من أسلوب وأكثر من طريقة، واستخدم مع كل شخص من منافسيه الطريقة التي تناسبه، ومن ذلك: التخويف وبث الرعب كما فعل مع ابن سيده أرتاش بن تتش، الذي اضطر للفرار بنفسه وأمه من دمشق، حتى ارتمى في أحضان الفرنج، وأيضاً: شراء الذمم، وقد فعل ذلك مع أصحاب النفوس الضعيفة، أمثال حاشية السلطان وقادة عسكره، فظهير الدين لا تهمه الوسيلة بقدر ما تهمه النتيجة، كما استخدم أسلوباً آخر، وهو القتل مع مَنْ لا ينفع معه الأسلوبان السابقان، التخويف والمال. أو الذين يقفون في طريقه، لهذا قتل طغتكين العديد من منافسيه من أجل الوصول إلى غايته وهي ملك دمشق، هذه الغاية التي عض عليها بالنواجذ، وضحّى من أجلها بكل شيء، حتى لو كان ذلك على حساب القضية الإسلامية وهي جهاد الصليبيين.

ومِن الذين كانوا ضحية اغتيالات الأتابك ظهير الدين:

١- ساوتكين الخادم:

عندما كان دقاق في حلب بعد مقتل أبيه تتش عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وصلته

رسائل سرية من الأمير ساوتكين الخادم، والي قلعة دمشق، يدعوه للحضور إلى دمشق على وجه السرعة، ليملكها[١] قبل أن تضيع منه، بعد أن وعده أن يسلّمها له[٢] فلم يتأخر دقاق في الرد، وفر سراً من حلب. وعندما وصل دقاق إلى دمشق سارع ساوتكين إلى طاعته، وصارت دمشق تحت حكمه[٣].

ولا شك أن ساوتكين تجاسر وتقرب من ملك دمشق في ظل غياب أتابكه طغتكين عن الساحة السياسية، نتيجة لوقوعه أسيراً لدى السلطان بركيارق، وكان لوالي القلعة دور كبير في توفير المأمن للملك دقاق، وفرح كثيراً، وأظهر الاستبشار[٤] عندما وصل دقاق إلى دمشق.

وكان مخطط ساوتكين أن يكون بديلاً عن الأتابك، لهذا رأى طغتكين بعد خروجه من الأسر، وبعد أن لقيه دقاق وأرباب دولته وبالغوا في إكرامه[٥]، ضرورة التخلص منه، وذلك بالاتفاق مع الملك دقاق، وقادة العسكر، وكما يقول ابن القلانسي «واقتضت الحال فيها بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على الأمير ساوتكين، والإيقاع به، وتمم عليه الأمر وقُتل»[٦]. ورغم أن ابن القلانسي لم يوضح السبب أو الدافع وراء عملية القتل هذه، لكن من الواضح أن دائرة القادة العسكريين المحيطين بطغتكين أحسوا بخطر ساوتكين عليهم، وعلى ظهير الدين نفسه، لهذا قرروا التخلص منه سريعاً.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٢٣٧.

(٣) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٣٧.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٦) ابن القلانسي: الذيل ص٢٢٨، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٢٣.

وهكذا قُتِل ساوتكين رغم الدور الكبير الذي بذله في تملّك دقاق لدمشق، ولكن هناك عبارة صغيرة أوردها سبط ابن الجوزي حيث قال: «واتهم ساوتكين برضوان»[١] أي أن ساوتكين كان على علاقة مباشرة برضوان، وهي تهمة ألصقت به من أجل القضاء عليه، لأنه من المستبعد أن نعتقد بصحة هذه التهمة لا سيما بعد المجهودات الكبيرة التي بذلها ساوتكين من أجل وصول دقاق إلى دمشق، وقيامه بمراسلته وتشجيعه على الحضور، كي يتملَّك دمشق، ثم فرحه الشديد عند لقياه. لأن ذلك سيجعله مقرباً منه، ومِنْ ثَمَّ فمن المستبعد أن تكون له أي علاقة برضوان عدو دقاق!.

ولو كانت لهذا المملوك والي قلعة دمشق، أي علاقة بملك حلب رضوان بن تتش، لِمَا أرسل كتاباً سرياً إلى دقاق يدعوه إلى الحضور على وجه السرعة لتملك دمشق، ويخرجه من حلب، حيث بلد رضوان، كما كان يمكنه أن يقدم رأس دقاق هدية لرضوان، إن كان على علاقة به، كما ادعى ابن القلانسي!.

لذلك فإن السبب الحقيقي وراء هذه العملية هو محاولة كل طرف فرض السيطرة على الملك دقاق والانفراد بالسلطة، فقد اعتقد ساوتكين أن دعوته لدقاق تعني سيطرته عليه بكل يسر وسهولة، خصوصاً أن أتابكه ظهير الدين كان أسيراً لدى بركيارق، ومن ثم أراد استثمار هذا الوضع والتقرب لملك دمشق، كي يكون مدبّر دولته، ولم يكن ساوتكين يتوقع الإفراج عن طغتكين، إلا أن تخطيطه ذهب أدراج الرياح عندما وصل الأتابك ظهير الدين إلى دمشق، وكان الملك دقاق مِنْ أكثر الناس فرحاً بوصول أتابكه، فهو مربيه وزوج أمه، لهذا «مال إليه

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٣٧.

وحكّمه في بلاده»[١].

ثم اقتضت وجهة نظر طغتكين ودقاق وبقية الأمراء ضرورة القضاء على ساوتكين بأسرع وقت حتى لا يفسد الجو عليهم، ويتخذ قرارات من شأنها أن تقلب الأمور، أو أن يهرب إلى رضوان ويصبح قوة إضافية إليه. ولا يعني ذلك أنه كان على علاقة به.

ومن المستبعد أن يكون شمس الملوك دقاق صاحب فكرة الاغتيال، على اعتبار أن ساوتكين كان له الفضل في تربعه على عرش دمشق، ومن المرجح أن يكون أتابكه هو صاحب هذه الفكرة، لإزاحة منافس كان وجوده يشكل خطراً عليه، لذا فإن الأمثل بالنسبة إليه كان القضاء على هذا الخطر بشكل نهائي، ومن ثم تمت عملية اغتيال ساوتكين. وسنرى فيما بعد أن أتابك دمشق سار على هذا النهج في القضاء على كل خصومه، من أجل الوصول إلى هدفه الذي وضعه لنفسه، وهو السيطرة على دمشق، وأنه على استعداد للقضاء على كل من يقف في طريقه، من أجل الحفاظ على سلطته.

والملاحظ أن ابن القلانسي الذي يبحث دائماً عن الحجج والأعذار لسيده، حتى لو قام بتصفية جسدية لكل من يقف في طريقه، فإن هذا المؤرخ يرفض نفس هذا العمل، وهذه الجريمة لو قام بها آخر، فعلى سبيل المثال، عندما توفي السلطان بركيارق في العام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، توجه الأمير إياز، وهو من مقدمي عسكر السلطان المتوفي، إلى بغداد في يوم الجمعة لثمان بقين من جمادى الأولى[٢] وكان معه الطفل الصغير جلال الدولة ملك شاه بن بركيارق،

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٣٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٤.

وله خمس سنين[١] فلمَّا علم إياز أن السلطان محمد الذي يريد السلطنة لنفسه، قد دخل بغداد خافه، وعرف أنه لا مأمن له إلا بطاعة السلطان، فراسله والتمس منه الأمان، ووافق السلطان على ذلك، ثم غدر به وقتله[٢] ثم يقول ابن القلانسي عن هذا الأمر «واحتج (أي السلطان محمد) بأمور أضمرها وعدّدها، ليعذر في فعله، وما هو بمعذور في فعله ولا مشكور»[٣]. وكم كنا نتمنى لو أن مؤرخ دمشق قال الجملة نفسها لأي عملية اغتيال قام بها طغتكين، أو على الأقل في عملية اغتيال ساوتكين هذه التي يعترف بوقوعها!.

والغريب أن غالبية المؤرخين ساقوا عملية اغتيال ساوتكين، كأنها أمر عادي وطبيعي بل ومن ضمن سياق الأحداث، وليست عملية قتل وتصفية جسدية لشخص قدمّ خدمة جليلة للملك دقاق! لدرجة ان مؤرخ دمشق ابن القلانسي ومؤرخ حلب ابن العديم، المعاصران للأحداث اكتفيا بتلك الكلمة «اقتضت الضرورة» لعملية الاغتيال هذه؟! دون ذكر دوافعها وأسبابها المنطقية؟. وكأنها ضرورة وأمر لا بد منه، ومن المؤكد أن ابن العديم استعار هذه العبارة من ابن القلانسي.

٢- الملك دقاق بن تتش:

رغم اختلاف الروايات في موت ملك دمشق دقاق بن تتش بن ألب أرسلان، إلا أن طغتكين يبقى في دائرة الاتهام، فهناك روايتان حول هذا الموضوع:

(١) الذهبي: دول الإسلام ج١ ص٤٣٥.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٥١، ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٥، ابن الوردي ج٢ ص٢٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٣٥-٣٦، أبو الفداء: ج٢ ص٣٧، ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٧١، النويري: نهاية الأرب ج٢٦ ص٣٥٧- ٣٥٨.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٥١.

الرواية الأولى: يروي ابن القلانسي عن موت دقاق بأنه موت طبيعي، مُبعداً في ذلك أي اتهام عن الأتابك، فيقول في حوادث سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م : «وفي هذه السنة عرض الملك شمس الملوك دقاق ابن السلطان تاج الدولة، صاحب دمشق، مرض تطاول، ومعه تخليط الغذاء، أوجب انتقاله إلى علة الدق فلم يَزَل به وهو كل يوم في ضعف ونقص، فلما أشفى، ووقع اليأس من بُرئه، وانقطعت الرجاء من عافيته، تَقَدّمت إليه والدته الخاتون صفوة الملك بأن يوصي بما في نفسه، ولا يترك أمر الدولة وولده سدى، فعند ذلك نصَّ على الأمير ظهير الدين في الولاية بدمشق من بعده، والحضانة من بعده لولده الصغير تتش بن دقاق بن تاج الدولة إلى حين يكبر، وإحسان تربيته، وألقي إليه ما كان في نفسه، وتوفي إلى جنة الله في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان من السنة»[١].

وينقل سبط بن الجوزي الرواية نفسها ويضيف عليها فيقول: «ودُفِن على الشرق الشمالي بدمشق بقبة الطواويش»[٢] ويقول ابن خلكان: «ودفن في مسجد بحكر الفَهّادين بظاهر دمشق الذي على نهر بَرَدى»[٣].

الرواية الثانية: وهي التي يرويها ابن العساكر فيؤكد مقتل دقاق، مُتهماً أمّه في ذلك رغم أنها تراجعت في آخر الأمر، ولكن سبق السيف العذل، حيث يقول: «ثم عرض لدقاق مرض تطاول به، وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وإن أمَّه زينت له جارية فسمّته في عنقود عنب معلق

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٦-٢٤٧، الصفدي: الوافي ج١١ ص٢١١، الذهبي: السير ج١٤ ص٢٣٦-٢٣٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٢٨٤، نهر بردى: نهر في محافظتي دمشق وريفها، يبدأ مجراه من بحيرة تتجمع فيها ينابيع عدة في سهل الزبداني مشكلاً نهراً. المعجم الجغرافي: ج ٢ ص٢٧٦.

في شجرته، وأومأت إلى الجارية أن لا تفعل، فأشارت إليها أن قد كان، وتهرى جوفه فمات»[١] ويؤيد هذه الرواية ابن خلكان فيقول: «وقيل أن أمَّه سمّته في عنقود عنب»[٢].

فالروايتان، وإن اختلفتا، لكنهما تؤكدان أن المُتهم فيهما واحد، وهي صفوة الملك أم دقاق، تلك السيدة التي تعشق السلطة، وقد استشعرت خطورة الأمر على وضعها بعد أن أصبح لولدها ابناً، وهو ما يعني أن زوجة ملك دمشق وأم ولده الصغير هي التي ستكون المقربة وصاحبة الحظوة والأمر والنهي، وأن دورها أي صفوة الملك قد انتهى، وبالتالي كان التخلص من دقاق هو الحل الوحيد لمشكلتها، وبالطبع تم الأمر بالاتفاق مع زوجها طغتكين، لأنها لا يمكن أن تقوم بمثل هذه الفعلة الشنيعة من دون أن تأخذ رأيه وموافقته، وبالتأكيد أن ذلك جاء وفق ما يحبّه ويتمناه، لأنه سيفتح الطريق له لتحقيق حلمه بالوصول إلى مُلك دمشق!.

ومن الواضح أن الأم التي نُزِعت من قلبها عاطفة الأمومة، بعدما قررت قتل ولدها، ندمت على فعلتها، وأرادت التراجع عندما أومأت إلى الجارية ألا تفعل، لكن الأخيرة أشارت إليها أن الأمر قد انتهى وانقضى وأنه قد مات بالفعل.

وإذا كانت صفوة الملك متهمة في عملية الاغتيال هذه، فإن ظهير الدين متهم مثلها، لأنها لا يمكن أن تفعل ذلك من دون استشارته، خصوصاً أن الإثنين مستفيدان مما حدث، فهي تبحث دائماً عن السلطة، وهو يسعى لفرض سيطرته

---

(١) ابن عساكر: أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله، تاريخ دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، دمشق ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١٧ ص٣٠٤، الذهبي: السير ج١٤ ص٢٣٧، ابن الحنبلي: الشذرات ج٣ ص٤٠٥، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٧٤. زكار: المدخل ص٣٨٥.

(٢) ابن خلكان: ج١ ص٢٨٤.

على دمشق مع المحيطين به من الأمراء والعساكر المؤيدين له، وهو ما حدث بالفعل، كما أن المُلك والسلطة يعود لهما معاً، لهذا بسط ظهير الدين سيطرته على دمشق بعد فترة قصيرة من وفاة دقاق، كما أنه على استعداد لفعل كل شيء، مهما كانت التضحيات، حتى لو كانت التصفية الجسدية بالمَلَك نفسه. والأمر ذاته ينطبق على زوجته صفوة الملك التي ذاقت طعم النعيم والسطوة، وهي متنقلة من زوجها الأول جاولي شقيق ملك دمشق الأسبق أتسز ثم تتش، وبعد ذلك طغتكين، ولأنها خشيت أن تحل زوجة دقاق مكانها، فكان الحل الوحيد أمامها هو التخلص من ابنها بشكل نهائي، أما ندمها فلم ينفعها، لأن أجله قد انقضى.

وتشاء الأقدار بعد نحو اثنين وثلاثين عاماً وتحديداً في عام ٥٢٩هـ أن تقوم ابنة صفوة الملك، زمرد خاتون(١) أو ياقوت(٢) بقتل ولدها اسماعيل صاحب دمشق، ويرى ابن الحنبلي أن قتلها لولدها كان بسبب كثرة فساده، وسفكه للدماء ومواطأته للفرنج على بلاد المسلمين(٣). بينما يقول عماد الدين الأصفهاني في حوادث عام ٥٢٩هـ: «قتلت خاتون المسماة ياقوت ولدها شمس الملوك قدّامها، وجعل يقول لها: زنهار، زنهار، وهي واقفة عليه، حتى قضى، فجعلته في بساط، وقالت للجند: ادخلوا أبصروا سلطانكم، وأجلست أخاً له صغيراً يُعرف بشهاب الدين»(٤). وهو ما يعني أنها قتلته بدم بارد، ومن دون أي مبالاة لتوسلات ولدها، ويبدو أن الابنة حملت في جيناتها الوراثية صفات أمها، وفعلت نفس

---

(١) الذهبي: العبر ج٣ ص٢٧، ابن الحنبلي: ج٤ ص١٧٨، ابن كثير: ج٨ ص٤٤٩.

(٢) الأصفهاني: البستان ص٣٤٤.

(٣) ابن الحنبلي: ج٤ ص١٧٨.

(٤) الأصفهاني: ص٣٤٤.

فعلتها بعد مدة من الزمن.

٣- الطفل تتش بن دقاق:

في خضم الأحداث والمؤامرات التي كانت تحاك في بيت طغتكين ضد أرتاش شقيق الملك الراحل، والذي تم تخويفه، ومن ثم هروبه من دمشق، كان هناك «تدبير آخر يُدبر ضد تتش الطفل، المولود في عام ٤٩٧هـ[١] أي في السنة نفسها التي توفي فيها أبوه دقاق بن تتش، لئلا يصبح وسيلة تهديد واستغلال من قبل بعض الأمراء، ثم نتفاجأ بموت هذا الطفل الصغير، ومن ثم «تتسهل المطالب لظهير الدين برأي امرأته وهيبتها وسياستها»[٢].

وينسب سبط ابن الجوزي قصة الموت بالعنب ثم ندم صفوة الملك، التي رواها ابن عساكر، إلى تتش بن دقاق، وليس لدقاق حيث يقول: «وقضى الله بوفاة تتش بن دقاق، وبسط لطغتكين العدل وأفاض الإحسان ورخصت الأسعار، وكثرت الأدعية لطغتكين. وقيل أن أم دقاق سمّته في عنقود من عنب، أدخلت فيه إبرة مسمومة، وبعثت به مع جارية إليه، ثم ندمت وأرسلت إلى الجارية: لا تفعلي وقد مات»[٣].

وقد أراد صاحب كتاب مرآة الزمان أن يجمع بين الروايتين، رواية وجود مؤامرة وجريمة قتل، تلك التي أشار إليها ابن عساكر، ورواية براءة طغتكين من هذه الجريمة، بمعنى أنه يرى أن دقاق مات بشكل طبيعي، فجعل سبط ابن الجوزي عملية القتل تمت على يد صفوة الملك للطفل الصغير تتش بن دقاق،

---

(١) المصدر نفسه: ص٣١١.

(٢) مصطفى: طغتكين ص٥٣.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٧، ويرى سبط ابن الجوزي أن الملك أرتاش حمل لقب مجير الدين، ج١٣ ص٢٩٧، بينما يرى ابن القلانسي أنه تلَّقب بمحيي الدين: ص٢٤٨.

وفي الوقت نفسه وقف أي سبط ابن الجوزي، مع الذين قالوا: إن دقاق مات بشكل طبيعي، كما ذكر مؤرخ دمشق ابن القلانسي، وكأنه كان يبحث عن حل وسط يرضي الطرفين.

وبشكل عام فإن قتل هذا الطفل السلجوقي كان ضرورة مُلحة لطغتكين وصفوة الملك وفقاً لمصلحتيهما، ومن أجل إزاحته عن طريقهما. أما ابن القلانسي فيروي حدث موت الطفل تتش بن دقاق كحدث عابر لا أهمية له، وكأنه يريد القول إن الأتابك ظهير الدين وزوجته لا علاقة لهما بالأمر، وإنما هو قضاء الله عز وجل، حيث يقول بكلمات مقتضبة «وقضى الله تعالى بوفاة تتش ولد الملك شمس الملوك دقاق المقدم ذكره»[1].

وهذا الأسلوب اعتدنا عليه من مؤرخ دمشق، ومن خلال الكثير من رواياته، عندما يكون عاجزاً عن الدفاع عن سيده، يذكر الرواية بطريقة عابرة أو ساذجة، إذ «إن معرفتنا بطريقة ابن القلانسي في الكلام عن بعض الأمور التي لا يود الإفصاح عنها، تجعل هذا النص معبراً، وتجعله مثيراً للشكوك أكثر مما تجعله نافياً للتآمر»[2].

وهكذا سارت الأمور وفق ما يريده الأتابك وزوجته، فقد سيطرا على مقاليد الحكم، إثر إزاحة الدماء السلجوقية أولاً: دقاق ثم تخويف أخيه أرتاش وهروبه من دمشق، وبعد ذلك الطفل الصغير تتش، كما سيطرا على كل مقاليد الأمور بدمشق، وشاركهما في ذلك قادة العسكر، الذين بالطبع لن يفرّطوا بسهولة ما تمكّنوا من تحقيقه من مكاسب.

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٩.

(٢) مصطفى: ص٥٢.

٤- الوزير أبو النجم هبة الله :

وقف ابن القلانسي في حادثة مقتل هذا الوزير كالمحامي الذي لم يستطع الدفاع عن موكله، وهو يرى جميع الأدلة تدينه، لهذا أورد الخبر، كما اعتدنا عليه، بشكل عابر، وكأنه حدث بسيط جداً، أو أشبه بموت شخص مجهول وليس مقتل وزير. يقول ابن القلانسي في أحداث سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م «وفيها استوزر ظهير الدين أبا نجم هبة الله بن محمد بن بديع الأصفهاني[١] الذي كان مستوفياً لدى السلطان تاج الدولة تتش، وكان قد وزر بعده لولده الملك رضوان بحلب، وبقي في الوزارة مدة، في أوائل سنة اثنتين وخمسمائة، وأفسد قلب ظهير الدين أتابك عليه مع ما كان في قلبه في الأيام التاجية، فأمر بالقبض عليه، واعتقاله في القلعة، وحمل ما كان في داره، وقبض أملاكه، وأقام أياماً في الاعتقال ثم أمر بخنقه، فخنق ورمي في جب بالقلعة، ثم أُخرج ودفن بالمقابر»[٢].

وأبو النجم من المثقفين الثقات حيث يذكر الذهبي العديد من الرجال الذين سمع منهم، وكذلك الذين رووا عنه[٣] كما أنه كان من الذين أخذ عنهم ابن العديم وابن الفوطي، وكان الكتاب الأدبي الذي كتبه أبو النجم «صناعة الشعراء وبضاعة الأدباء، من المصادر التي اعتمد عليها ابن العديم في كتابه بغية الطلب، حيث ترجم أبو النجم في هذا الكتاب للكثير من شعراء عصره، ويقول ابن العديم: «وقد وَقَع إلي كراسة بخط أبي النجم بن البديع، الوزير الأصفهاني وزير

(١) كان مولده في عام ٤٣٦هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٤٩.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٧٣.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٤٩-٥٠.

رضوان بن تتش، من كتاب جمعه في الشعراء، فذكر في الشعراء الحلبيين...»[١].

وابن القلانسي لم يوضح بشكل جلي ما الذي أفسد قلب طغتكين على الوزير؟ وماذا فعل حتى يقلب طغتكين عليه ظهر المجن؟ ولكن يبدو أن علاقته القديمة بالملك رضوان هي السبب في مقتله، خصوصاً أنه كان وزيراً لرضوان قبل أن يستوزره طغتكين، وكانت اتصالات الوزير بهذا الملك مستمرة رغم وجود الخلافات الكبيرة بين الأتابك وملك حلب.

ومن الواضح، إن صحَّت رواية ابن القلانسي، أن ظهير الدين اعتبر هذه الاتصالات بمثابة خيانة له، قد تشكل خطراً عليه وعلى دولته دمشق، ومن ثم كان الحل الوحيد من وجهة نظره، هو القضاء عليه، وإنهاء حياته، لكن الغريب في الأمر هو القتلة الشنيعة التي تلقاها هذا الوزير، حتى أن ابن القلانسي لم يستطع أن يغمض عيناه عن هذا الحدث، لدرجة أنه لم يتورع عن ذكر كيفية قتله بشكل مفصل «فخنق ورمي في جب بالقلعة، ثم أُخرج ودفن بالمقابر». ولم يكتف طغتكين بهذا الأمر بل صادر كل أملاكه وأمواله، وهي عادة ذلك الزمان.

٥- شرف الدين مودود:

كان أمير الموصل شرف الدين مودود من الشخصيات المهمة في التاريخ الإسلامي التي ساهمت بشكل فعال في تحريك الجهاد ضد الصليبيين عند بداية قدومهم إلى المنطقة، ومن ثم تأسيس إماراتهم الأربع (الرها، أنطاكية، طرابلس ثم بيت المقدس).

ويعتبر الأمير مودود هو واضع اللبنات الأولى لفكرة الجهاد الإسلامي، بعد أن تزعّم الجهاد بكل إخلاص، في ظل عصر مليء بالمؤامرات، والبحث عن

---

(١) ابن العديم: البغية ج٩ ص١٤٦ و١٤٧.

الزعامة والمجد الزائف، فلا غرو أنه من الأمراء المشهود لهم بالصلاح والعدل، وهذا الخط هو نفسه الذي سار عليه فيما بعد، عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي، هذا الجهاد الذي استمر لأكثر من تسعين عاماً تقريباً، وقد أدى إلى فتح إمارة الرها وإعادتها إلى الحظيرة الإسلامية على يد عماد الدين بعد احتلال دام نحو خمسين عاماً، ثم فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي بعد نحو أربعين عاماً.

ولمعرفة الطريق الذي سار عليه الأمير مودود سوف نتطرق أولاً إلى الحملات التي قام بها ضد الصليبيين، وهي كالتالي:

الحملة الأولى: بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وتحديداً في شوال ٥٠٣هـ/ إبريل ١١٠٩م، شكَّل الأمير مودود تحالفاً إسلامياً ضم إلى جانبه أمير ماردين إيلغازي الأرتقي، وأمير أرمينية سقمان القطبي المعروف باسم شاه أرمن، إضافة إلى عدد كبير من المتطوعين، ثم شاركهم فيما بعد الأتابك طغتكين، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء، وكل تلك العساكر تحت راية واحدة ضد الصليبيين، إذ أن جميع المعارك السابقة، بدءاً من وصول الإفرنج إلى المنطقة، لم يواجه المسلمون أعداءهم في مثل هذا التجمع من القادة.

صحيح أن هذه الحملة لم تُحقق هدفها المنشود، وهو استرجاع المدن التي ضاعت من المسلمين، لكن النجاح الذي حققه الأمير مودود في هذه المرحلة التي تمر بها الأمة الإسلامية، هو تجميع قادة المسلمين تحت راية واحدة، بعد أن كان التفرق والخذلان هو العنوان الرئيس للمراحل السابقة.

الحملة الثانية: في محرم ٥٠٥هـ/ ١١١١م، جَمَع مودود جميع الأقاليم

التابعة لدولة السلاجقة، وجاءت هذه الحملة نتيجة للضغوط الشعبية التي ندَّدت بالأوضاع السيئة، ودَعَت إلى الجهاد ضد الصليبيين، لاسيما بعد أن ضاق الأمر بأهل حلب نتيجة لتمادي رضوان في موالاته للصليبيين، فضلاً عن الهزائم التي تعرض لها المسلمون في الشام، لذلك «استصرخ الحلبيون العساكر الإسلامية ببغداد للذب عنهم»[١] ومِنْ ثَمَّ تحركت القوات الإسلامية بقيادة الأمير مودود، وإلى جانبه: الأمير سقمان، والأميرين إيلكسي وزنكي ابني برسق، ولهما همذان وما جاورها، وكذلك الأمير أحمديل وله مراغة، والأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين.

ومن دون الدخول في تفاصيل هذه الحملة، فقد وصلت القوات الإسلامية إلى الرها وتمت محاصرة المدينة لفترة من الزمن، إلا أن القوات رحلت عنها بعد ذلك، نظراً للإمدادات التي وصلتها من الصليبيين[٢].

الحملة الثالثة: في محرم ٥٠٦هـ/ مايو ١١١٢م أغار مودود وحيداً على الرها، وحاصرها، ولمَّا يئس من الإستيلاء عليها، ترك قوة من جيشه حولها، ثم اتجّه إلى سروج، لكنه لم ينجح في مهمته بعد أن فرّق جيشه بين الرها وسروج في وقت واحد، وهو ما سهّل الأمر على القائد الصليبي جوسلين صاحب تل باشر بأن يوقع بمودود هزيمة عند تل باشر[٣].

«والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولاً إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق، وتخوفهما من قوة مودود، لذلك عاد مودود

(١) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٦٨.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٤٩.

إلى الموصل حزيناً كاسف البال، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي»[١].

هذه الهزيمة لم تمنع الأمير مودود من المحاولة من جديد، إذ أن فكرة الجهاد بالنسبة إليه لم تكن غاية يريد من ورائها تحقيق مصالح دنيوية، وإنما هدف أسمى آمن به، ودافع عنه بكل شجاعة وبسالة، لذلك قاد تحالفاً إسلامياً جديداً لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناء على النجدة التي طلبها طغتكين أتابك دمشق، بعد أن تعرَّضت إمارته لهجمات عدة من قبل الصليبيين، وقد ضم هذا التحالف كلاً من: دمشق والموصل وسنجار وماردين، وهي المرة الأولى التي تتعاون فيها دمشق والموصل ضد الصليبيين.

والتقت الجيوش الإسلامية بملك بيت المقدس في ١٣ محرم ٥٠٧هـ/ ١١١٣م في معركة طبرية أو الصنبرة[٢] (تناولنا شرح تفاصيلها في فصل معارك طغتكين وتحركاته) وتمكّن المسلمون من تحقيق أول انتصار على الصليبيين في هذه المعركة، فانسحب ملك بيت المقدس إلى طبرية، ثم وصل إلى نجدته أميرا أنطاكية وطرابلس، ولم يتمكن المسلمون من ملاحقته، لاسيما بعد دخول فصل الشتاء، وبعد أسابيع عدة، قرر قادة المسلمين الإنسحاب إلى دمشق[٣] وكان ذلك في ٢١ ربيع الأول من العام نفسه.

وهذا يعني أن هناك ظروفاً منعت المسلمين من مواصلة المعركة لتحقيق هدفهم، ومن أهم هذه الظروف: وصول الإمدادات العسكرية من القادة

---

(١) عاشور: ج١ ص٢٥٨. وكان ملك حلب قام بغلق أبواب مدينته أمام القوات الإسلامية التي قدمت إليه، بينما طغتكين تخوّف من الجيش السلجوقي الذي كان تحت إمرة مودود، ويأخذوا دمشق منه.

(٢) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل العقبة بينه وبين طبرية ثلاثة أميال. الحموي: المعجم ج٣ ص٤٢٥.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٢٠٦.

الصليبيين لملك بيت المقدس، وكذلك البرد الشديد الذي هاجمهم، لهذا تم اتخاذ قرار الإنسحاب، على أن يعودوا لقتالهم من جديد في فصل الصيف.

ما فعله مودود في هذه الحملات لم يكن بالأمر السهل، فقد أعاد الثقة للمسلمين بأنفسهم، بعد هزائم متتالية أمام الصليبيين، وأكد قدرة المسلمين على تحقيق الانتصار على الصليبيين متى ما توافرت الأسباب، ومتى ما كانت الجهود مخلصة، والقلوب صافية، كما أنه أحيا فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعادها إلى الوجود، بعدما كانت هذه الفكرة من المستحيلات بل في عداد الأموات.

ونعتقد أنه لا يمكن لأي أمير آخر، في هذه المرحلة، غير الأمير شرف الدين مودود أن ينجح فيما حققه من نتائج، في ظل وجود أمراء يبحثون عن مصالحهم الشخصية على حساب مصالح الأمة. وكان من الطبيعي أن يصبح شرف الدين ذا شعبية طاغية، وشهرة عالية تفوق جميع الأمراء، ولكن ماذا حدث في دمشق وصاحبها طغتكين بعد أن انسحب إليها مودود؟. وقبل أن نعرف ما حدث بالضبط، لنعرج قليلاً إلى الأحداث التي وقعت قبل عام من معركة طبرية ٥٠٧هـ/ ١١١٣م.

فقد قام ملك بيت المقدس بلدوين بغارات على عمل البثنية[١] وهي من أعمال دمشق، وجراء ذلك انقطعت الطريق، وقلّت الأقوات بها، وغلا السعر فيها[٢] فلم يكن من سبيل لطغتكين سوى البحث عمن يقف إلى جانبه في هذه الظروف، فوجد ضالته في الأمير شرف الدين، لذلك أرسل إليه أكثر من كتاب، حيث يقول ابن القلانسي: «وتتابعت كتب ظهير الدين إلى الأمير شرف الدين

(١) البثنية: أوالبثنة هي اسم ناحية من نواحي دمشق، وقيل هي قرية بين دمشق وأذرعات. الحموي: ج١ ص٣٣٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٠٣.

مودود صاحب الموصل بشرح هذه الأحوال في هذه الأعمال»[١] ولم يُبين ابن القلانسي ردة فعل مودود حيال هذه الكتب المستمرة من أتابك دمشق، ومع ذلك استمر الأخير في إرسال كتبه إلى والي الموصل، لعلمه بحبه للجهاد، لهذا حاول طغتكين شحذ همته لقتال الصليبيين، من أجل «الاعتضاد على دفع المردة الأضداد والفوز بفضيلة الجهاد»[٢].

ولا يمكن أن نأخذ قول ابن القلانسي على عواهنه، بقوله أن طغتكين فعل ذلك من أجل «الفوز بفضيلة الجهاد» فالحقيقة تؤكد أنه فعل ذلك من أجل الدفاع عن المكتسبات التي حققها، والتي أدت به إلى الاستيلاء على دمشق، ودفع خطر الإفرنج عنه فقط، وليس الفوز بفضيلة الجهاد. فبقاء ظهير الدين على رأس الهرم في دمشق والدفاع عن سلطته ووجوده، هو أولوية بالنسبة له لا تضاهيها أولوية أخرى. لهذا كان الأتابك على استعداد بأن يفعل كل شيء، وأي شيء لحماية سلطته، وفرض قبضته على دمشق، حتى لو كان ذلك بالتعاون مع الصليبيين كما سيحدث لاحقاً.

كما أن طغتكين رفع شعار الجهاد، لأنه يعلم جيداً أن هذا الشعار وحده كفيل في هذه المرحلة ببقائه على رأس الهرم بدمشق، فقد كانت الأمة تتوق إلى الجهاد ضد الصليبيين، وتتوق إلى قائد مخلص يقودها لانتصارات وسط الهزائم المتتالية، لهذا كان عليه رفْع راية الجهاد تحت أي ذريعة، باستثناء ذريعة الإخلاص بالطبع، أو حتى الفوز بتلك الفضيلة كما ادعى ابن القلانسي.

لكن صاحب الموصل في هذا الوقت على وجه التحديد، كان منشغلاً بأمر

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٣.

آخر أهم من الاستجابة لطغتكين، رغم حبه للجهاد. إذ كان يمر بظروف استثنائية، عرّضت حياته وحياة عائلته للخطر، فقد تعرض لشائعات كثيرة جعلت العلاقة بينه وبين السلطان السلجوقي تبدو غير طبيعية، وكان هذا هو السبب الذي جعله لا يرد على رسائل ظهير الدين التي تتابعت إليه، ويقول ابن القلانسي عن ذلك: «وكان مودود قد شُنّع عليه عند السلطان غياث الدنيا والدين، بشناعات[١] من المحال، لفّقَها الحسدة الأعداء، أوجبت استيحاشه منه، وبُعده عنه[٢].

وحدَّد ابن القلانسي هذه الشناعات بما يلي:

- أن الأمير مودود، عازم على خلاف وعصيان السلطان وبالخروج عن طاعته.

- أن يد مودود ويد الأتابك طغتكين «صارت يداً واحدة، وآراؤهما متوافقة وأهواؤهما متوافقة»[٣].

وابن القلانسي يقصد من ذلك أن صاحب الموصل اتفق مع الأتابك ظهير الدين، الذي لم يتم الاعتراف بعد بسيادته على دمشق بعد استيلائه عليها، بالخلاف والعصيان على السلطان. ولا شك أن مثل هذا الأمر لا يرضي السلطان السلجوقي، حيث أن ظهير الدين مازال حتى هذه اللحظة مجرد أمير استيلاء، وفق وجهة نظر السلطان، لذلك فإن أي تعاون معه يعتبر عصياناً عليه وخروجاً عن القانون أيضاً.

لهذا حاول الأمير مودود جاهداً تبرئة نفسه من هذه التهم، والتأكيد على أنه

---

(١) شناعات: الشناعة أي الفظاعة، وشنع الأمر أي قَبُح. ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ ج٥ ص٢٠٤.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٣-٣٠٤.

مازال على موقفه السابق من الإخلاص للسلطان، فقرر اتخاذ خطوات عدة في آن واحد، للتأكيد على براءته من التهم التي نسبت إليه، مثل[١]:

- إرسال أولاده وزوجته إلى السلطان في أصفهان ليضعهما بين يديه.

- التأكيد على براءته مما قيل في حقه، وكما قال ابن القلانسي «التنصل والإعتذار»[٢].

- التحرك لإبطال التهمة التي وجِّهت إليه «وإبطال من رقي إليه من المحال، والتبرؤ بما افتُري عليه من إخلاص الطاعة، والعبودية والمناصحة في الخدمة، والاهتمام بالجهاد»[٣].

ولا شك أن كل ذلك أقنع السلطان ببراءة مودود من التُّهم المنسوبة إليه، ومع كل هذا، فإن مودود الذي يصفه وليم الصوري بأمير قوي من أصل رفيع[٤] ويصفه ابن تغري بأنه من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً[٥] لم يكتف بذلك، بل أراد التأكيد على براءته عملياً، فوافق على إلحاح طغتكين في قتال الصليبيين. ومن «ثم جمع عسكره من الأتراك والأكراد ومَن أمكنه، وتوجه إلى الشام»[٦].

أما بخصوص التُّهم الموجّه إلى صاحب الموصل، فمن الواضح أنها صحيحة إلى حد ما، إذ كانت هناك نوايا لدى مودود وطغتكين من أجل إقامة الخطبة لملك حلب رضوان بن تتش، وإن كنا نعتقد أن نوايا مودود كانت حسنة،

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٤) الصوري: الأعمال المنجزة ج١ ص٥٤٧.

(٥) ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٠٧.

(٦) ابن القلانسي: ص٣٠٤.

لكن نشك أن الأتابك كان صادقاً في نواياه، وبالتأكيد فإن جواسيس السلطان أبلغته بهذه المعلومة، من دون أن يكون لديهم الدليل، وهذا الدليل سرعان ما انكشف، ووضحت خيوطه بعد معركة طبرية، فقد اتفقت الأطراف الثلاثة (مودود وطغتكين ورضوان) بأن يقوم ملك حلب بإرسال عدد كبير من الجيوش إلى طغتكين، لكنه لم يُرسل العدد المتفق عليه من الجنود، فتراجع مودود وظهير الدين عن اتفاقهما مع رضوان، وتراجعا عما كانا ينويان عليه، حيث يقول ابن القلانسي في حديثه بعد الانتصار في وقعة طبرية: «وعقيب هذه النوبة (أي طبرية أو الصنبرة) وصل من حلب من عسكر الملك فخر الدولة رضوان مائة فارس على سبيل المعونة، خلاف ما كان قرره، وبذله، فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدولة مودود ذلك منه، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل إليه، وإقامة الخطبة له»[١].

ورغم أن ابن القلانسي أو ابن العديم أو غيرهما من المؤرخين لم يذكروا شروط الاتفاق الذي تم عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، لكن وبناء على إنكار طغتكين ومودود على رضوان لإرساله مائة فارس فقط[٢] يتضح أن الاتفاق كان يقضي بأن يرسل ملك حلب لهما عدداً كبيراً. ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الحجة التي ساقها مؤرخ دمشق صحيحة، إذا نظرنا إلى السنوات الطويلة من الحروب بين حلب ودمشق، وإلى العداء المستمر بينهما، وهو ما زرع الشك والريبة لدى رضوان تجاه الأتابك، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أن ملك حلب مازال ينظر إليه على أنه «أمير استيلاء» استولى على حكم دمشق بعد موت أخيه دقاق وابن

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٧، ابن العديم: الزبدة ص٣٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٧، المصدر نفسه: ص٣٧٢.

أخيه تتش بن دقاق، فضلاً عن تخويف شقيقهما الثالث أرتاش، ومن ثم هروبه. وقبل هذا وذاك كان رضوان يعلم بما فعله ظهير الدين مع غيره، وغدره بهم، لهذا من المؤكد أن رضوان ما زال حتى هذه اللحظة لا يثق حتى بالوعود التي قطعها طغتكين على وجه الخصوص بإقامة الخطبة له.

أما ظهير الدين فكان يدرك ماذا يفعل؟ وماذا يخطط له؟ كان يريد الحفاظ على المكانة التي بلغها، والمكتسبات التي حققها في دمشق التي أوصلته إلى سدة الهرم بأي طريقة وأي ثمن، حتى لو كان ذلك بالاتفاق مع أكثر الأشخاص تخوّفاً منه، ألا وهو شرف الدين مودود. وأكثر الأشخاص عداء له وهو رضوان بن تتش، لأنه وبكل بساطة كان مستعداً لفعل أي شيء مقابل تحقيق هدفه وهو الاحتفاظ بدمشق، ولأنه ببساطة شديدة أيضاً سينقلب عليهما في أول فرصة تحين له.

بينما كان مودود ينوي إقامة الخطبة لرضوان بصدق، لأنه يراه أحق بالحكم من غيره، على اعتبار أنه ملك سلجوقي ابن ملك سلجوقي، وهو أي مودود، مجرد والٍ على الموصل تابع لهذه الدولة، رغم أن اتفاقه مع صاحب دمشق قد يزعج السلطان، أما ظهير الدين فيرى نفسه أكثر من ذلك، فحتى لو وافق على إقامة الخطبة لملك حلب، فهي لا تعدو عن كونها صورية فحسب.

عموماً تمكّن المسلمون من الانتصار في معركة طبرية أو الصنبرة، وصبّ ذلك في مصلحة مودود أكثر من طغتكين، رغم أن الأخير هو الذي كان يرجو ويتمنى من الأول قتال ملك بيت المقدس بلدوين الأول معاً، وقد تتابعت كتبه إلى مودود يشرح فيها أحوال دمشق جراء التهديدات المستمرة من قِبل هذا الملك. لكن والي الموصل أصبح في نظر الكثير من الجماهير المنقذ الوحيد

لهم من خطر الصليبيين الذين سفكوا الدماء وقتلوا الأبرياء في العديد من مدن المسلمين، كما أنه أصبح في نظر السلطان وهو الأهم، الوحيد القادر على توحيد الصفوف وجمع القادة تحت راية واحدة، وكذلك هزيمة الصليبيين الذين حققوا الانتصارات المتتالية في المنطقة.

كل ذلك جعل الخوف يدبّ في قلب طغتكين، وقادة عسكره الذين يكافحون من أجل تشديد قبضتهم على دمشق. وأصبح مودود الخطر الحقيقي على وجودهم فيها. لهذا كان الأتابك يخشى أن يصدر السلطان قراراً يعطي من خلاله دمشق لصاحب الموصل، عندها سيكون في مأزق كبير.

ونظراً لسوء الأحوال الجوية في فصل الشتاء، بعد وقعة طبرية عاد الاثنان إلى دمشق، ويوضح ذلك ابن القلانسي بقوله: «اقتضى الرأي عودة أتابك ومودود إلى دمشق في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة، ونزل مودود في حجرة الميدان الأخضر»[١] وقد قررا العودة لميدان القتال في فصل الربيع[٢] بعد أن تتحسن الأحوال الجوية.

وربما كان مودود هو من اقترح على الأتابك أن يبقى بدمشق بعد أن «ضاقت صدور أصحاب مودود لبعد ديارهم وتأخر عودهم وتعذّر أوطانهم، فتفرَّق أكثرهم وعادوا إلى بلادهم، فاستأذن آخرون في العود، فأذن لهم»[٣]. بينما فضّل مودود البقاء في دمشق كي يكون قريباً من العدو، لا سيما في ظل الأحداث المتسارعة في المنطقة «وينتظر ما يصله من الأمر السلطاني»[٤] حيث

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٨.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥١.

(٣) ابن القلانسي ص٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٠٨.

أن ذهابه إلى بلاده الموصل، سوف يُصعّب الأمر عليه إذا ما طلب منه السلطان العودة من أجل قتال الصليبيين.

ولا شك أن ظهير الدين ومَنْ حوله أدركوا أهمية هذه الفرصة التي جاءتهم على طبق من ذهب، أي وجود مودود بينهم، ومن الضروري التخطيط جيداً لاستثمارها، فهم لا يريدون أن تضيع من بين أيديهم حتى يتم التخلص بشكل نهائي مِن هذا الخطر الذي يؤرقهم ويهدد وجودهم.

وقد حدثت الفاجعة في شهر ربيع الآخر ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، فبعد أداء صلاة الجمعة، قُتل شرف الدين مودود في دمشق، وهنا نترك ابن الأثير يروي تفاصيل الحادثة، فيقول: «ودخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ليقيم عند طغتكين إلى الربيع، فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه وطغتكين، فلمَّا فرغوا من الصلاة، وخرج إلى صحن الجامع، ويده في يد طغتكين، وَثَبَ عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات، وقُتِل الباطني، وأُخِذ رأسه فأُحرِق، وكان صائماً -أي مودود- فحُمِل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر، فلمْ يفعل، وقال: لا لقيتُ الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله»[١].

ويكمل ابن الأثير روايته ويقول: «فقيل أن الباطنية بالشام خافوه، فقتلوه، وقيل: بل خافه طغتكين، فوضع عليه من قتله». ثم يذكر ابن الأثير صفات مودود فيقول: «وكان خَيِّراً عادلاً، كثير الخير»[٢]. ونقل ابن كثير عن ابن الساعي في تاريخه مقتل مودود فقال: «صلّى هو والأتابك طغتكين يوم الجمعة بالجامع، ثم خرجا إلى الصحن، ويد كل واحد منهما بيد الآخر، فظفر باطني على مودود

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥١.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٥١.

فقتله، رحمه الله، ويقال: إن طغتكين هو الذي مالأ عليه»[١]. وذكر ابن الأثير: «وقيل بل خافه طغتكين ووضع عليه من قتله»[٢] في إشارة إلى خوفه بأن يأخذ مودود منه دمشق.

وابن الأثير الذي يبدو أنه أخذ هذه الرواية من ابن القلانسي، حدّد جهتين فقط في عملية القتل تلك، هما: الباطنية، وطغتكين، لكنه ذكر الخبر بصيغة «وقيل» ورغم أن هذا اللفظ يشير إلى التضعيف، لكن من المؤكد أنه تعمَّد اختيار هذه الصيغة حتى لا يُرجِّح رأياً على آخر. ومع ذلك يبقى أتابك دمشق ضمن دائرة الاتهام.

وابن القلانسي مؤرخ طغتكين والقريب من عهده، ذكر الرواية ذاتها مع شيء من التفصيل في بعض الأمور، وما يهمنا هو هذا التفصيل على وجه التحديد، حتى تكون لدينا صورة جلية عن الوضع، فيقول في حوادث سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م: «ولما كان يوم الجمعة الأخير من شهر ربيع الآخر سنة سبع وخمسمائة دخل الأمير مودود من مخيمه بمرج باب الحديد إلى الجامع، على رسمه، ومعه أتابك، فلمَّا قُضيت الصلاة، وتنفل[٣] بعدها مودود، وعادا جميعاً وأتابك معه على سبيل الإكرام له، وحولهما من الديلم والأتراك والخرسانية والأحداث والسلاحية بأنواع السلاح من الصوارم المرهفة والصمامات الماضية، والنواجع المختلفة، والخناجر المجردة ما شاكل الأجمة المشتبكة، والغيضة الآشبة، والناس حولهما لمشاهدة زيهما، فلمَّا حصلا في صحن الجامع، وثب رجل مِن بين الناس لا يُؤبه له، ولا يُحفل به، فقرب من الأمير مودود، كأنه يدعو له ويتصدق منه، فقبض ببند

(١) ابن كثير: ج٨ ص٣٨١-٣٨٢.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥١.

(٣) تنفل: أي صلى النافلة.

قبائه بسرعة وضربه بخنجره أسفل سرته ضربتين، إحداهما نفذت إلى خاصرته، والأخرى إلى فخذه، هذا والسيوف تأخذه من كل جهة، وضُرب بكل سلاح، وقُطع رأسه ليعرف شخصه، فما عُرف، وأضرمت له النار، فأُلقي فيها، وعدا أتابك خطوات وقت الكائنة، وأحاط به أصحابه ...»[١].

هذا الوصف الدقيق لصورة الموقع قبل وأثناء عملية الاغتيال التي نقلها مؤرخ دمشق ابن القلانسي، تشير من حيث لا يدري، إلى صعوبة اقتحام أي شخص للمكان، حتى لو كان من بين المتجمهرين، فابن القلانسي يؤكد أن الحراس من الديلم والأتراك والخرسانية والأحداث كانوا يحملون أنواع الأسلحة، ويُضيفون هالة من الخوف على المكان، وبالتالي من الصعب أن يقوم شخص غريب بهذه العملية بمفرده وبكل هذه السهولة، صحيح أن الباطنية اشتهروا في هذه الفترة باغتيالهم للكثير من الشخصيات المعادية لهم، وقد أثاروا الخوف والرعب في قلوب المسلمين جراء الاغتيالات العديدة التي نفذوها بحق الكثير من القادة والخلفاء، ومِنَ بين الذين تم اغتيالهم الوزير السلجوقي نظام الملك، لكن تلك الاغتيالات لم تكن وسط كل هذه الجموع من الحراسة المشددة والمدججة بمختلف أنواع الأسلحة. كما أنه لم يكن هناك عداء مباشر بين مودود والباطنية «الإسماعيلية». ومع ذلك فإن ابن القلانسي أراد أن يؤكد أن كل هذه الحراسة المشددة تم اختراقها بكل سهولة عندما وصف القاتل بأنه: «لا يُؤبه له، ولا يُحفل به، فقرب من الأمير مودود، كأنه يدعو له ويتصدق منه»[٢] أي أنه خدع كل تلك الحراسة لا سيما عندما اتجه إلى مودود على هيئة رجل فقير يطلب منه الصدقة،

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٨-٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٩.

وبالتالي انطلت الحيلة على الحراس.

ورغم أننا لا نجزم بأن طغتكين هو القاتل الحقيقي، ولكن في المقابل لا يمكن الجزم أيضاً أن الإسماعيلية هم الذين قاموا بهذه الجريمة، خصوصاً أنه بعد عملية الاغتيال تلك، أخذت السيوف تنهال على القاتل «من كل جهة، وضرب بكل سلاح، وقطع رأسه»[1]. ورغم أن طغتكين «قلق لوفاة مودود وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه»[2] إلا أن الاتهامات انهالت عليه، واتهمته صراحة بذلك. وبالتالي أصبح مِن الذين تحوم حولهم الشكوك في هذه الجريمة، لاسيما بعد قتْل الجاني!.

ويرى المؤرخ الإنجليزي رنسيمان أن سبب قيام طغتكن بقتل الجاني مباشرة «لتبرئة نفسه من جريمة القتل»[3] حيث كان يمكن لحراسه المحتشدة في كل أركان الجامع، الإمساك بالجاني والتحقيق معه، لكن الأوامر كانت تقضي بقتله وليس أسره!.

وأشار رنسيمان إلى أن الرأي العام اعتبر ظهير الدين هو الجاني، لكنه استدرك قائلاً: «غير أنهم التمسوا له العذر، بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق»[4]. ومن المستبعد أن يكون الرأي العام التمس العذر لطغتكين في قتل مودود، ولا حتى السلطان السلجوقي، ولا الخليفة، بدليل أن السلطان أرسل جيشه لقتاله، لاسيما أن لصاحب الموصل مكانة مميزة في قلوبهم جميعاً، وكذلك لمواقفه البطولية تجاه الصليبيين، وابن الأثير يؤيد أنه كانت هناك نوايا

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٩.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

لدى مودود لأخذ دمشق من طغتكين، حيث يقول: «نزل على الأمير مودود، فأطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق»[١]. ومع ذلك لم يحدد أي موقف لصاحب الموصل تدل على تلك النوايا،

وإذا أخذنا بقول ابن الأثير، فهذا يعني أن الشكوك كانت تساور طغتكين من مودود، رغم المودة والصداقة التي حصلت بينهما فيما بعد[٢] كما ذكر ذلك ابن طي فيما نقله عنه ابن الفرات بقوله: «إن الأمير طغتكين صاحب دمشق استشعر من الأمير مودود، وأنه عازم على قبضه وأخذ دمشق منه، فحسَّن له ذلك مهادنة الفرنج، فأجاب مودود إلى ذلك، لأن عسكره قد تخاذلوا عليه بالشام، فرأى ذلك صواباً»[٣] وهو ما ذكره أيضاً ابن الأثير في حديثه عن مودود حيث قال: «ثم سار عنها إلى معرة النعمان فحصرها، وجاء إليه الأمير طغتكين[٤] صاحب دمشق، فلمَّا رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمشق، فشرع في صلح الفرنج سراً عن مودود فصالحوه»[٥] ومن الواضح أن الأتابك كان يدبر لمقتل مودود منذ أن شاهد تلك العساكر، وبالتالي قرر مصالحة الفرنج واللجوء إليهم في حال سارت الأمور على عكس ما يتمناه، وحدث ما توقعه، بعد عملية الاغتيال، كما أنه كان على يقين أن السلطان يشك به، لذلك «استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود»[٦].

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٤٥.

(٣) مصطفى: ص٦٢.

(٤) ابن الأثير يرسمه طغدكين.

(٥) ابن الأثير: الباهر ص١٧-١٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٥٥٦.

ورغم أنهما، أي طغتكين ومودود «سيّرا إلى السلطان غياث الدنيا والدين إلى مدينة أصفهان بالبشارة بهذا الفتح، ومعه جماعة من أسارى الإفرنج ورؤوسهم وخيولهم وطوارقهم ومضاربهم وأنواع سلاحهم»[١] إلا أن مودوداً هو الذي اتجه إلى ظهير الدين لمساندته وانقاذه، كما أنه بعدما شنع عليه عند السلطان غياث الدنيا والدين، وأنه كان ينوي الخلاف والعصيان، أراد كسب ود السلطان، وليس أقله من تحقيق انتصار على الإفرنج، لهذا جمع عسكره من الأتراك والأكراد ومن أمكنه، وتوجه إلى الشام، بل إن بلدوين قلق كثيراً وانزعج من الأخبار التي وصلت إليه بأن أمير الموصل قادم لقتاله[٢]. لذا كان من الطبيعي أن ينتاب الخوف والقلق ظهير الدين وجماعته من مودود الذي أخذت أسهمه ترتفع لدى السلطان بعد الانتصار في طبرية، وبالتالي كان من الطبيعي أن يصدر الأتابك أوامره بتصفية شرف الدين مودود بأسرع ما يمكن ومع سبق الاصرار والترصد، لا سيما أنه في معقل طغتكين بدمشق وبين عساكره وجنوده، بينما كان مودود معزولاً عن جنوده الذين عادوا إلى الموصل، ولم يبق منهم أحد، لأنه كان يثق بالأتابك، عندها حدث ما حدث. ولم يكن يعلم ما يدبره صاحب دمشق ضده، وبشكل عام كان غياب مودود عن مسرح الأحداث ضرورة حتمية للكثير من الأطراف، وهي:

أ- **الصليبيون**: الذين «تخلصوا من عدو لهم»[٣] هذا العدو أي مودود، نجح فيما لم ينجح به غيره بإحياء الجهاد في نفوس المسلمين، وتجميع وتوحيد الصفوف، وجعل قتال الصليبيين هدفاً مهماً بالنسبة إليه لا يحيد عنه مطلقاً.

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

ب- الباطنية: وهم أحد المتهمين بعملية الاغتيال، الذين أرّقهم النجاحات التي حققها هذا القائد خلال فترة وجيزة، لا سيما أن تشتت السلاجقة في هذه الفترة، واستمرار ضعفهم يعني بقاء الباطنية كقوة مؤثرة على الساحة من خلال قيامهم بعمليات الاغتيالات وتخويفهم وإرعابهم للخلفاء والأمراء والوزراء وعامة الناس. رغم عدم وجود أي مشاكل أو خلافات بينهم وبين مودود.

ت- طغتكين: الطرف الآخر المتهم في هذه العملية، الذي تزعزع وضعه بعد السمعة التي كسبها المغدور به، وبعد أن أصبح المنقذ لعامة الناس من خطر الصليبيين، فضلاً عن أنه كان يخشى أن يصدر السلطان قراراً بتولية مودود والياً على دمشق، ومِنْ ثَمَّ يضيع كل ما حققه في السنوات الماضية.

٦- مسعود بن آق سنقر البرسقي ٥٢١هـ/ ١١٢٧م:

يبدو أن الأتابك ظهير الدين ظل طوال عمره خائفاً على المكتسبات التي حققها في دمشق، رغم اعتراف السلطنة السلجوقية به كأمير رسمي عليها، ففي أواخر حياته، أي قبل وفاته بسنة، توجّه أمير الموصل الجديد مسعود بن آق سنقر البرسقي الذي تولى الحكم بعد أبيه عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م إلى بغداد حيث كان السلطان السلجوقي هناك، وطلب منه أن ينعم عليه بولاية ما كان لأبيه، فأجابه السلطان إلى ذلك، وكتب له منشوراً بذلك[١]. ثم رتَّب الأمور، وأخذ ما كان لأبيه، وكثر جنده، وكان شجاعاً، فطمع في التغلب على بلاد الشام[٢] ولكن ما السبب الذي جعله يطمع في الشام كما يذكر ابن الأثير؟ هذا الأمر يكشفه ابن العديم الذي يقول: «كان يظن أن قاتل أبيه من أهل حماة، فأضمر للشام وأهله

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٦٥٨، وذكره في الباهر ص٣٢، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٥٨.

شراً عظيماً»[١]. ولا شك أن ابن القلانسي عندما يذكر مثل هذا الخبر، فهو يورده بصيغة تهجم واستهزاء بحق مسعود، فيقول: «فلمَّا استتب أمره، وقويت شوكته، واستقامت ولايته، شمخ أنفه وحدَّثته نفسه في منازلة البلاد الشامية، والطمع في تملّك المعاقل الإسلامية، والإطراح لمجاهدة العصب الإفرنجية، بالضد من أولي الحزامة والسداد، وذوي البأس والبسالة في إحراز فضيلة الغزو والجهاد»[٢].

ووصلت الأخبار إلى طغتكين بما كان يسعى إليه ابن البرسقي، فقرر الاستعداد للخروج إليه عندما يقترب من الشام، كي «يوقع بعسكره ويشفي غليله بالفتك بحزبه»[٣] فجمع مسعود العساكر، وتوجَّه إلى دمشق، ووصل أول الأمر إلى الرحبة، فقام بمحاصرتها عدة أيام، ورفض واليها أول الأمر التسليم، إلا أنه سلّمها بعد ذلك[٤] لكن الغريب أن مسعوداً مات فجاة فيما بعد ومن دون أي مقدمات! بل بعد ساعة واحدة من استلام القلعة[٥]!. ويكشف ابن العديم سر موته حينما ذكر الخبر، وإن كان بصيغة تضعيف: «وقيل سقي سماًّ فمات»[٦] من دون أن يذكر من الذي قام بهذه الفعلة الشنيعة. لكن ابن الأثير الذي نقل الخبر بكل تأكيد عن مؤرخ طغتكين أي ابن القلانسي، يرى أنه أصيب بمرض حاد، وحدّد مرضه قبل استلام القلعة، ويقول: «فأخذه مرض حاد وهو محاصر لها

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٤٣٠.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٢.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٨، ابن العديم: ج١ ص٤٣٠.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٥٨.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٤٣٠.

فتسلّم القلعة، ومات بعد ساعة[١] ولمَّا مات بقي مطروحاً في مكانه لم يُدفن، ثم تفرق عسكره، ونهب بعضه بعضاً[٢].

وعلّق ابن القلانسي على وفاته بسخرية حيث قال: «فما كان بعد ذلك إلا الأيام القلائل حتى انفصمت عرى شبابه، ونزل محتوم القضاء به، بهجوم مرض حاد عليه بظاهر الرحبة، أتى عليه، وأصاره إلى المحتوم الذي لابد له عنه، ولا مجير له منه»[٣]، ووصفه ابن الأثير بقوله: «كان عاقلًا حسن السيرة، فجرت الأمور على أحسن نظام، فلمْ تطل أيامه، وأدركه في عنفوان شبابه حمامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة»[٤].

الغريب في الأمر أن وزير مسعود، وهو المؤيد ابن عبد الخالق الذي كان وزيراً لأبيه[٥]، مات في الوقت نفسه الذي مات فيه البرسقي، وذكر هذا الأمر ابن القلانسي بعد خبر موت سيده مباشرة حيث قال: «وهلك في الحال وزيره وشريكه في الوزر ومشيره، بعلة شديدة أعجلته في إشراك المنية أوبقته»[٦]ويكشف هذا

---

(١) بعد وفاة مسعود البرسقي تسلم ولاية الموصل أخوه الأصغير وقام بتدبير الأمر له مملوك من مماليك أبيه وهو جاولي، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر الولاية له، لكن السلطان منح ولاية الموصل لعماد الدين زنكي، وهذه الولاية هي بداية نشأة الدولة الزنكية، والبداية الحقيقية لعصر عماد الدين زنكي، والمفارقة العجيبة أن يبزغ نجمه قبل وفاة طغتكين بسنة واحدة، كما أنه ملك حلب في السنة نفسها التي توفي فيها ظهير الدين أي ٥٢٢هـ، وعماد الدين زنكي سوف يغير مفهوم الجهاد الإسلامي كلياً، ويضعه في مساره الصحيح، فلا عجب أن يأتي بعد ابنه الزاهد الورع نور الدين محمود زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٨.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٥٢.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص٣٢.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٤٣٠.

(٦) ابن القلانسي: ص٣٥٢.

المؤرخ الذين قتلوه من دون أن يقصد بالطبع: «وهرب جماعة من خواص غلمان أبيه الأتراك، بأعلامه التي كانت قد استعملها على مراده، وإيثاره، وتناهى في إحكامها على قضية اقتراحه واختياره، ووصلوا بها إلى ظهير الدين متحفين بها، متقربين إليه بإهدائها، فأحسن إليهم، وبالغ في الإكرام لهم، والإنعام عليهم، واصطفاهم لنفسه، وضمهم إلى ثقاته، وأهل أنسه، وقابلهم على وفودهم عليه وبالفعل الجميل والعطاء الجزيل»[١].

٧- سقمان بن أرتق:

في عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م وقع ظهير الدين مريضاً، وشعر بدنو أجله، حتى أن «المرض اشتد به، ولازمه، وخاف منه على نفسه، وأشفق على أهله، وأصحابه ورعيته إن تم عليه الأمر»[٢] لهذا راسل طغتكين، سقمان بن أرتق[٣] الذي كان متوجهاً إلى طرابلس للدفاع عنها بعدما وصله كتاب من صاحبها فخر الملك ابن عمار يستدعيه لنصرته على الفرنج، وأخبره أتابك دمشق في الرسالة «أنه مريض قد أشفى على الموت، وأنه يخاف إن مات وليس بدمشق من يحميها، أن يملكها الفرنج، ويستدعيه ليوصي إليه، وبما يعتمده في حفظ البلد»[٤].

وقد استجاب سقمان لطغتكين «وثنى عنانه إلى دمشق، مغذاً في سيره، مواصلاً لجده، وتشميره، وقطع الفرات إلى ما حُض عليه والمغارات»[٥] فلمَّا

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٩.

(٣) قال الذهبي عن سقمان بن أرتق: «صاحب ماردين وجد ملوكها، كان أميراً جليلًا فارساً موصوفاً، حضر عدة حروب، توفي بالشام» العبر ج٢ ص٣٧٧. ابن القلانسي: ص٢٥٠.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٦، ابن القلانسي: ص٢٤٩-٢٥٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٩.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٥٠.

وصل إلى القريتين «لامه (أي طغتكين) أصحابه وخواصه على ما فرّط في تدبيره، وعنّفوا رأيه فيما استدعاه، وخوّفوه عاقبة ما أتاه، وقالوا له: ولّيت الأمير سقمان بن أرتق[١] دمشق، وأخرجتها من يدك، كيف يكون حالك وأحوالنا، أوليس قد عرفت نوبة أتسز، لمَّا استدعى السلطان تاج الدولة ابن ألب أرسلان، وسلّم إليه دمشق؟ وكيف بادر بإهلاكه، ولم يمهله ولا أهله؟ فعند ذلك أفاق لغلطته، وتنبه لغفلته، وندم ندامة الكسعي[٢] وزاده هذا الأمر مرض الفؤاد مع مرض الجسم»[٣].

وأثناء ذلك، وبينما كان ظهير الدين وأصحابه، غارقين في التفكير لا يدرون مايفعلون، وبينما هم يُدبرون الرأي بأي حيلة يردونه، أتاهم الخبر بأن سقمان قد مات، وحمله أصحابه وعادوا به، فأتاهم فرج لم يحسبوه[٤] ولا ندري هل كان موته طبيعياً أم بتدبير من طغتكين وقادته؟ لكن من من اللافت للنظر تلك الموتة الفجائية التي تلاحق كل مَن يفكر بمضايقة الأتابك أو يريد النيل منه، ومِن مصالح القادة المحيطين به! رغم أن سقمان بن أرتق لم يفكر بذلك اطلاقاً، وإنما طغتكين هو مَنْ راسله كي يملّكه دمشق، لكن المحيطين بظهير الدين وربما هو بنفسه استخدموا أسلوبهم المعتاد في القضاء على خصومهم. ويرى بعض المؤرخين أن موت سقمان كان بمرض الخوانيق ومنهم ابن الأثير وأبو الفداء[٥]،

(١) توفي سقمان بن أرتق بمرض الخوانيق. ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٦، أبو الفداء: ج٢ ص٣٧.

(٢) الكسعي: هو محارب بن قيس، وقيل غامد بن الحارث، له قصة ذكرها الميداني في مجمع الأمثال، المثل رقم ٤٢٩٢، وبين في نهايتها أنه كسر قوسه «فندم على كسر القوس، فشد على ابهامه فقطعه». ابن القلانسي: حاشية (١) ص٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٠، ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٩.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٦، ابن القلانسي ص٢٥٠، ابن الوردي ج٢ ص٢٢، ابن الحنبلي: ج٣ ص٤٠٩، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٧٧، أبو الفداء: ج٢ ص٣٧.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٦، أبو الفداء: ج٢ ص٣٧.

ويذكر ابن القلانسي أنه أصيب بمرض شديد(١) وهو أمر متوقع منه!.

ويقول ابن القلانسي عن ذلك:» فَسُرّ أتابك بهذه الحال، سروراً زائداً، كان معه بدء سعادته، وعود برئه إلى جسمه وعافيته»(٢). بينما يضيف سبط ابن الجوزي على هذه الرواية أن طغتكين بعدما نصحه أصحابه راسل سقمان وقال له: «تثبت مكانك فأنا خارج إلى خدمتك، فاتفق أن سقمان مرض تلك الليلة مرضاً شديداً وأصبح ميتاً فأخذه أصحابه في تابوت ورحلوا إلى ماردين، فسُرّ طغتكين»(٣).

وهناك عبرة مهمة من تلك الرواية التي ساقها مؤرخ دمشق، حيث قام أصحاب الأتابك بتذكيره بما حدث لملك دمشق أتسز عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م عندما استولى تتش على بلاده، ثم قتْله، وكأنهم بذلك يرون عاقبة أمره وأمرهم أمام أعينهم في حال استلام سقمان بن أرتق دمشق، كما حدث لأتسز على يد تتش بن ألب أرسلان، لا سيما أن طغتكين كان أحد المشاركين في عملية الاغتيال تلك.

ويقول شاكر مصطفى بعد موت البرسقي: «إن هذه الميتة الفجائية تذكرنا بميتة أخرى من مثلها ذهب بها سقمان بن أرتق من قبل، وكانت دمشق في الحالين مهددة في استقلالها وفي مصالح الجماعة الحاكمة فيها، وإذا بموت «عجائبي» مفاجئ ينقذ الموقف. أليس يدل ذلك على شيء؟»(٤).

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٥٠.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٩.

(٤) مصطفى: ص٦٢.

الفصل السابع: معارك طغتكين وتحركاته

المعركة التي قتل فيها تتش، مواجهة الفرنج في شيزر، معركة أنطاكية، الهجوم على جيش تانكرد، التوجه إلى ميافارقين، معركة نهر الكلب، الهزيمة في طرطوس، الاستيلاء على الرحبة، الاستيلاء على حمص، القتال في بصرى وعسقلان، هدم حصن العال...إلخ

❋ همة عالية:

خاض أتابك دمشق الكثير من المعارك، منذ أن كان شاباً يافعاً حتى آخر عمره، فقد كان شعلة من النشاط، لم يكل أو يمل، وظل وفياً للهدف الذي رسمه لنفسه بعد سيطرته على دمشق، فقد بحث عن الشرعية التي تجعل منه ومِن ذريته ملوكاً على هذه المدينة، لهذا لا نستغرب عندما نجده يحارب بضراوة لتحقيق هذا الهدف، بل نجده أحياناً يتحالف مع الصليبيين، ويقدم تنازلات عدة لهم، ويحارب المسلمين من أجل الوصول إلى حلمه.

في هذا الفصل سوف نورد المعارك التي خاضها أو التي شارك فيها منذ أيام تتش بن ألب أرسلان، وأيضاً الحروب التي قادها بنفسه سواء مع الصليبيين أو ضدهم، حتى آخر عمره، إضافة إلى تحركاته المتعددة، ليتضح لنا مدى الهمة العالية التي كان يتحلى بها، رغم تعب السنين.

١- المعركة التي قتل فيها تتش ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م:

شارك الأتابك ظهير الدين في المعركة التي هزم فيها سيده تاج الدولة تتش

بن ألب أرسلان أمام ابن أخيه السلطان بركيارق، حيث جرت المعركة عند الري في ١٧ صفر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وكان عدد جيش تتش ١٥ ألف جندي، وبركيارق ٣٠ ألفاً[١] وفيها قُتِل تاج الدولة، بعد أن تعرَّض جيشه لهزيمة منكرة، وتفرَّق جنده، وتم أَسْر الكثير منهم، وعلى رأسهم قائده طغتكين. وبعد ذلك وفي العام نفسه تم الإفراج عنه، وعاد إلى دمشق واستقبله السيد الجديد لها دقاق بن تتش وأرباب دولته استقبالاً كبيراً[٢] حتى قال ابن القلانسي: «وبولغ في إكرامه»[٣].

٢- مواجهة الفرنج في شيزر ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م :

في عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م بدأ ظهور الفرنج في حربهم الصليبية الأولى التي أدت فيما بعد إلى تأسيسهم أربع إمارات في الشرق، وتوجَّهوا إلى أنطاكية، عندها طلب صاحبها ياغي سيان المساعدة من جيرانه، لا سيما مِنْ دمشق وحمص، وغيرهما من البلاد، فأرسل صاحب دمشق الجيش لمد يد العون لأنطاكية، فوصل الفرنج إلى البارة، وكان طغتكين على رأس جيش دمشق، ورغم أن ابن القلانسي لم يذكر ذلك صراحة، حيث اكتفى بالقول: «وكان عسكر دمشق وصل ناحية شيزر لإنجاد ياغي سيان»[٤] فلا يعقل أن يكون هناك أي تحرك لهذا الجيش من دون أن يكون قائده على رأسه، لا سيما في هذه المرحلة الحساسة التي تمر فيها دمشق، وفي ظل بداية زحف الصليبيين على بلاد المشرق الإسلامي، وتحديداً إلى أنطاكية.

ما يهمنا أن طغتكين كان مشاركاً في هذه المعركة الصغيرة، ومن نتائجها

(١) سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٢٣٦.

(٢) ابن القلانسي: الذيل ص٢٢٦-٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٣٣.

كما قال ابن القلانسي أن «قُتِل منهم جماعة»[١] ويقصد من الفرنج، وذلك عندما تواجه معهم جيش دمشق، وبعد ذلك عاد الفرنج إلى الروج[٢] وتوجهوا إلى أنطاكية ومِن ثمَّ تمت محاصرتها وبالتالي سقوطها.

٣- معركة أنطاكية ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م:

عندما سقطت أنطاكية بيد الصليبيين عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، جمع صاحب الموصل كربوقا العساكر وتوجَّه إلى الشام، واجتمعت معه عساكر الشام كما يقول ابن الأثير: «تُركها وعَرَبها سوى من كان بحلب، فاجتمع معه دقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم»[٣] وتوجَّهوا جميعاً إلى أنطاكية وحاصروا الفرنج لمدة اثني عشر يوماً، وبعد ذلك فشل المسلمون في تحقيق أي شيء في هذه المعركة التي انتصر فيها الفرنج، وقد شرحنا تفاصيلها في (فصل الحملة الصليبية الأولى وموقف طغتكين منها).

٤- الهجوم على جيش تانكرد عام ٤٩٣هـ/ ١٨ يونيو ١١٠٠م:

بعد المكاسب التي حققها الصليبيون، بقيادة ملك بيت المقدس غودفري، على حساب المسلمين، ترتب على ذلك ازدياد نفوذ غودفري في أراضي المسلمين المجاورين له، وتشجّع لمد سلطانه على الأراضي الواقعة وراء نهر الأردن[٤] وتعاون مع تانكرد للتوغل في منطقة أو إقليم السواد (سواد البلقاء) وهي

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٣.

(٢) كورة من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة. الحموي: المعجم ج٣ ص٧٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٣٩٩-٤٠٠.

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٤٥٩.

المنطقة الواقعة شرقي بحيرة طبرية، وهي تتبع لملك دمشق[١] وكان يحكمها أمير يطلق الصليبيون عليه اسم «الفلاح السمين»[٢] وقد اضطر هذا الأمير بأن يعترف بسيادة القائد الصليبي تانكرد عليه، لكنه نقض ولاءه [٣] فخرج هذا القائد على رأس مائتي فارس، وألف من المشاة، وقاموا بإغارات مدمرة في أقليم السواد استمرت ثمانية أيام، أنزلت بالإقليم الكثير من الأضرار في الأموال والأرواح[٤] وذلك في ٤٩٣هـ/ ١٨ يونيو ١١٠٠م وعادوا «مثقلين بغنيمة وافرة»[٥] لذلك طلب الفلاح السمين أو أمير السواد المساعدة من سيده ملك دمشق شمس الملوك دقاق بن تتش.

وأعدّ دقاق جيشه، الذي كان بكل تأكيد على رأسه قائده وأتابكه ظهير الدين، ويضم خمسمائة فارس[٦] فانقض على مؤخرة الجيش الصليبي، ولم يَعْلم غودفري بما حدث، لذلك تابع سيره، وكانت مسؤولية حماية الجيش منوطة بتانكرد، الذي لم يستطع أن يُخلِّص نفسه إلا بعد أن فقد عدداً كبيراً من رجاله، وأضاع كل ما حققه من غنائم، غير أن دقاق لم يكن لديه من القوة ما يجعله يطارد الفرنج، فرجع إلى دمشق بعد أن اطمأن أنهم غادروا بلاده، وتوجَّه غودفري بغنيمته إلى بيت المقدس، أما تانكرد فاشتدت ثائرته للانتقام.

وبعد أن استراح جيش تانكرد لفترة قصيرة في طبرية، وجهَّز جيشه، قام

(١) عاشور: الحركة ج١ ص٢١٥.
(٢) رنسيمان: ج١ ص٤٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٤٥٩.
(٤) عاشور: ج١ ص٢١٥.
(٥) رنسيمان: ج١ ص٤٦٠.
(٦) عاشور: ج١ ص٢١٦.

بغارة جديدة على دمشق، وقد بلغت من العنف والشدة، أن طلب شمس الملوك دقاق عقد الهدنة، وقد استغل تانكرد ضعف ملك دمشق، بأن قام بإذلاله، وبعث إليه ستة فرسان عرضوا عليه، إما أن يصبح مسيحياً أو يترك دمشق، وعندما سمع ذلك «هاج دقاق لهذه الإهانة»[١] فردَّ على الرسل إما باعتناق الإسلام أو القتل! فلم يتخل عن دينه إلا فارساً واحداً، فقام بقتل الباقين[٢].

واتفق تانكرد وغودفري على أن يقوما بغارة أكثر عنفاً وشدة من الأولى، وظلاّ إسبوعين كاملين يعيثان في الأرض فساداً في الجولان، بل إنهما اقتربا من دمشق نفسها[٣] ولم يتحرك دقاق أو طغتكين لرد هذا العدوان، حتى قال رنسيمان: «ولزم المسلمون مواضعهم خلف أسوار مدنهم، وعلى الرغم من شدة حرص دقاق على أن يقوم بحملة على الصليبيين فإنه لم يحاول مقاومتهم»[٤]. أما الفلاح السمين كما تذكره المصادر الأجنبية، وبعد أن أدرك أن سيده دقاق تخلى عنه، وأنه عاجز عن حمايته، وأن الفرنج عاثوا خراباً في بلاده واستباحوها «وافق مرة أخرى على أن يقبل تانكرد سيداً له، ويؤدي له الجزية بانتظام»[٥].

٥- التوجه إلى ميافارقين ٤٩٣هـ/ ١٨ يونيو ١١٠٠م:

في الوقت الذي كانت فيه كل الدلائل تشير إلى ضرورة أن يتوجه دقاق وقائده طغتكين لقتال تانكرد، بعدما فعل ما فعله بالفلاح السمين والعبث في بلاده، وبعد أن أخذ بعض المناطق من دمشق، «توجه صاحب دمشق الملك

---

(١) رنسيمان: ج١ ص٤٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٤٦٠.

(٣) عاشور: ج١ ص٢١٦.

(٤) رنسيمان: ج١ ص٤٦٠.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٤٦٠.

شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة في عسكره إلى ديار بكر، لتسلّمها من المستولي عليها، ووصل إلى الرحبة في البرية، ووصل إلى ديار بكر وتسلَّم ميافارقين، ورتَّب فيها من يحفظها ويذب عنها»[١]. وكانت ميافارقين قبل ذلك تتبع دمشق، ثم مَلَكها بنو مروان.

وكل ما يهم طغتكين ودقاق في هذه المرحلة الحرجة هو توسيع نفوذهما على حساب القوى الإسلامية، وقد استغلا ضعف ميافارقين وحالة الفوضى التي تمر فيها، لذلك سارعا إلى الاستيلاء عليها، وإعادتها إلى حظيرة دمشق. وكان يفترض بهما التفكير جيداً في ردع القوات الصليبية التي تمادت كثيراً حتى أخذت بعض المناطق من دمشق، ولكن هذا ما لم يحدث!.

٦- معركة نهر الكلب[٢] محرم ٤٩٤هـ/ أكتوبر ١١٠٠م:

عندما توفي ملك بيت المقدس غودفري عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، توجّه أخوه صاحب الرها بلدوين إلى بيت المقدس، بعد أن اجتمعت عليه آراء الصليبيين ليرث ملك أخيه، وعندما وصل إلى بيروت بالقرب من نهر الكلب كان معه خمسمائة فارس وراجل كما تذكر المصادر العربية[٣] فيما يحدد فوشيه الشارتري ورنسيمان عددهم بمائتي فارس وسبعمائة من المشاة[٤] بينما يحددهم وليم الصوري بمائتي وثمانمائة من الرجالة[٥].

ويقول فوشيه الشارتري عن موقف المسلمين حيال ذلك: «وقد تعجَّب

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٣٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٦٩، العظيمي: تاريخ حلب ص٣٦٠.

(٢) نهر الكلب: بين بيروت وصيدا. الحموي: ج٥ ص٣٢٣.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٣٨، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨١، ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣.

(٤) الشارتري: الاستيطان الصليبي ص١٥٥، رنسيمان: ج١ ص٤٧٨.

(٥) الصوري: الأعمال المنجزة ج١ ص٤٨٣.

البعض من جرأته، أي بلدوين، على المسير خلال هذه المناطق المعادية الكثيرة بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال»[١]. ويؤكد الصوري أن رحلة بلدوين إلى بيت المقدس بدأت في أكتوبر من تلك السنة[٢].

وحدَّد الصوري سير خط بلدوين من الرها إلى أنطاكية، ثم إلى اللاذقية، ثم تابع سيره على طول الساحل خلال جبلة وبانياس والمرقب وطرسوس وعرقة ثم إلى طرابلس، وتوجّه بعد ذلك إلى جبيل ثم نهر الكلب[٣].

وعندما وصل بلدوين إلى جبلة تناقص عدد الذين كانوا معه، وبلغوا مائة وستين فارساً وخمسمائة من الرجالة، لكنه وصل سالماً إلى طرابلس[٤]. وهناك أمدّه أميرها فخر الملك ابن عمار بكل ما يحتاج إليه من المؤن، خصوصاً أن علاقة ابن عمار في هذه الفترة مع ملك دمشق دقاق «بلغت منتهاها من السوء، نظراً لأن دقاق حاول أن يمد سلطانه ونفوذه حتى الساحل الجنوبي»[٥]. وقدّم ابن عمار لبلدوين الخبز والنبيذ والعسل البري، أي السكر، والغنم، كما أخبره بأن ملك دمشق قد نصب له كميناً وأنه ينتظره مع جمع غفير من العرب والأتراك على طول الطريق[٦]. ويقول الشارتري عن هذا الأمر: «وعلى الرغم من أننا لم نصدق هذا تماماً، فقد أدركنا فيما بعد أنها كانت الحقيقة»[٧].

---

(١) الشارتري: ص١٥٥.

(٢) الصوري: ج١ ص٤٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٤٨٣، الشارتري: ص١٥٥.

(٤) رنسيمان: ج١ ص٤٧٨.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٤٧٨.

(٦) الشارتري: ص١٥٦.

(٧) المصدر نفسه: ص١٥٦.

ويصف الصوري نهر الكلب بقوله: «يوجد هنا ممر خطر جداً بين بحر عاصف وجبال شاهقة، تجعل الطريق بين الصخور الوعرة المرتقى الشديد الإنحدار غير سالكة تقريبا، ولا يتجاوز طول الممر أربع مراحل، بينما يبلغ عرضه ذراعين، كانت الطريق الخطرةً خلال هذا الممر الضيق قد سُدت لمنع عبورها»[١].

ونترك هنا الشارتري الذي كان مشاركاً مع بلدوين في هذه الرحلة، ليحدثنا عن موقف المسلمين: «عندما عرف الأتراك والمسلمون أننا نقوم بهذه الرحلة جمعوا أكبر عدد ممكن من رجالهم وخرجوا بالسلاح لقتالنا، حيث ظنوا أن بوسعهم أن يُلحقوا بنا الأذى البالغ»[٢].

وكان ملك بيت المقدس، يعلم ما يخطط له المسلمون، وكما يقول الصوري أنه استنبط ذلك ببصيرته الذكية المألوفة كما قام بخداعهم، فقد وضع المقاتلين الأضعف في الأمام وخلفهم المحاربين الأكثر مقدرة لتحمل الثقل الأكبر لأي هجوم يشن على المؤخرة أو أحد الجناحين، وكان هدفه من ذلك التضليل على المسلمين وخداعهم، حتى يعتقدوا أن الجيش الصليبي ضعيف، ومن ثم ملاحقتهم عند الإنسحاب من الممرات الضيقة المحصورة والتوجّه إلى السهل، وكذلك حتى يتمكن من الاشتباك مع المسلمين بحرية أكبر، لا سيما أنه خاف كثيراً من الممرات الضيقة والمحصورة[٣].

وبالفعل نجحت خطة بلدوين، وعندما شاهد الدمشقيون انسحابه، ظنّوا

(١) الصوري: ج١ ص٤٨٣-٤٨٤.

(٢) الشارتري: ص١٥٥.

(٣) الصوري: ج١ ص٤٨٤.

أن ذلك بسبب الخوف، فتبعهم الدمشقيون الذين كان يتقدمهم ملكهم دقاق بن تتش، وقائد جيشه طغتكين، وكذلك جناح الدولة حسين[١] ولاحقوهم في الأراضي المفتوحة.

وهناك دارت المعركة وتعرَّض الدمشقيون، ومَن معهم إلى هزيمة نكراء، وذلك وفق المصادر الفرنجية كوليم الصوري[٢] فيما تذكر المصادر العربية أن النصر كان حليف المسلمين، حيث قال ابن الأثير في عبارة مقتضبة عن الملك دقاق، ومَنْ معه كجناح الدولة «فقاتله فنصر على الفرنج»[٣].

كما أن دقاق قدّم فدية مقدارها خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى الذين وقعوا في يدي بلدوين في هذه المعركة[٤] بينما لم يُقدَّم الثاني شيئاً للأول، وهو ما يشير إلى عدم وقوع أسرى صليبيين لدى المسلمين، مما يؤكد انتصار الصليبيين في المعركة.

وهناك ملاحظات عدة على هذه المعركة:

أ- أن روايات المؤرخين المسلمين عن هذه المعركة كانت مقتضبة جداً، فهم لم يشرحوا تفاصيلها، ومنهم بطبيعة الحال ابن القلانسي المعاصر لكل تلك الأحداث والموجود في دمشق، ناهيك عن الآخرين. وفي الجانب الآخر نرى الإسهاب في الروايات الصليبية، سواء من قبل فوشيه الشارتري المشارك فيها أو وليم الصوري، وغيرهما. وهذا يؤكد أن الروايات الصليبية هي الأقرب إلى الصحة خصوصاً عند النظر إلى ما آلت إليه الأحداث فيما بعد. وتحديداً رواية

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣.

(٢) الصوري: ج١ ص٤٨٤-٤٨٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص١١٩-١٢٠.

فوشيه الشارتري على اعتبار أنه كان شاهد عيان، فقد ذكر معلومات وتفاصيل أكثر دقة من غيره، وأكد أن المسلمين حققوا الانتصار أول الأمر، حتى أنه قال عندما رأى الأتراك: «أننا قد ولَّينا الأدبار، نزلوا في الحال من المرتفعات لمطاردتنا، وكان بعضهم على متن السفن في البحر، على حين كان البعض الآخر خلفنا على الطريق الذي كنا قد جئنا منه، وآخرون جاؤوا من الجبال والتلال، فرساناً ورجالاً، وأخذوا يسوقوننا مثل القطيع من الماشية يساق إلى الحظيرة»(١). حتى أنه وصف وضعهم في أول الأمر في هذه المعركة بالمهانة والضعف والهلاك الكبير الذي سيَطْبق عليهم(٢). ثم يقول بعد انتصارهم في المعركة: «لقد كنا مهزومين ولكننا تحوَّلنا من الهزيمة إلى النصر»(٣).

ب- أن الروايات اختلفت بين الفريقين حول نتيجة المعركة، فالمؤرخون المسلمون يرون أن النصر كان حليف الدمشقيين ومن معهم، فيما يرى مؤرخو الفرنج أن النصر من نصيب الملك بلدوين وأصحابه.

ت- الشارتري والصوري يؤكدان أن صاحب طرابلس قد أوشى بالمسلمين عند ملك بيت المقدس، وأخبره أنهم احتشدوا له، وهم ينتظرونه على طول الطريق الذي سيمر منه(٤).

ث- أرجع الصوري سبب هزيمة المسلمين إلى جمعهم الغنائم في أول المعركة بعد أن ظنَّوا أن النصر حليفهم(٥) لكن الوضع انقلب بعد ذلك لصالح

---

(١) الشارتري: ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ص١٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ص١٥٦، الصوري: ج١ ص٤٨٣.

(٥) الصوري: ج١ ص٤٨٥.

الفرنج.

ج- ما يؤكد صحة رواية الصليبيين أن المؤرخ ستيفن رنسيمان يذكر أن الملك دقاق عرض على الملك بلدوين خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى الذين وقعوا في يدي بلدوين في معركة نهر الكلب[1]. ولا يمكن أن يدفع دقاق هذا المبلغ الضخم من المال، إلا إذا كان عدد الأسرى كبيراً جداً. والغريب في الأمر أن رنسيمان لم يذكر ما إذا وقع في الأسر أحد القادة الكبار أم لا؟ وإن كنا نستبعد ذلك.

ح- لم يذكر المؤرخون المسلمون أن طغتكين كان مشاركاً في هذه المعركة، ورغم هذا التجاهل، إلا أننا نعتقد أنه كان أحد المشاركين فيها، بل هو قائد جيش دمشق الذي كان على رأسه دقاق، لأنه من المستبعد أن يخرج شمس الملوك من دون أتابكه وقائد جيشه، خصوصاً في هذه المرحلة الحساسة من عمر الدولة. كما أن الخسارة التي حلت بالمسلمين في المعركة غطت على أي حدث آخر، ورغم أن المؤرخين المسلمين قالوا إن النصر كان حليف دقاق ومَنْ معه، إلا أنهم لم يذكروا الأعمال البطولية لأي قائد مسلم، خصوصاً بحجم طغتكين، وهو ما يؤكد أن المسلمين جميعاً بما فيهم الأتابك لم يحققوا شيئاً في معركة نهر الكلب، وبالتالي كانت الخسارة من نصيبهم وليس النصر، كما ادعى المؤرخون المسلمون جميعاً. الذين نقلوا الخبر كلهم عن ابن القلانسي المعاصر لتلك الأحداث.

خ- هذه المعركة التي جاءت في بدايات تأسيس مملكة بيت المقدس، وقبل استلام ملكها الثاني بلدوين مقاليد الحكم، أكدت بما لا يدع مجالاً للشك

(١) رنسيمان: ج٢ ص١١٩-١٢٠.

أن حكام المنطقة، الممزقين والمشتتين، يخشون الفرنج، وأنهم على استعداد لفعل أي شيء من أجل المحافظة على كراسيهم حتى لو كان ذلك على حساب الشعوب.

لهذا وبسبب كل ذلك لن يكون طغتكين شاذاً عن تلك القاعدة، فهو سوف يهادن في فترات معينة وفقاً لمقتضيات مصلحته، من أجل المحافظة على ما حققه في دمشق، على حساب بقية الإمارات الأخرى، خصوصاً بعدما رأى هؤلاء الحكام سقوط المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى خلال فترة قصيرة، ويتضح كل هذا مما قام به القاضي ابن عمار عندما كان بلدوين في طريقه إلى القدس، وقبل الاصطدام بالعساكر الدمشقية، فقد أرسل، وفقاً لرواية فوشيه الشارتري إلى بلدوين، الخبز والنبيذ والعسل البري، أي السكر، والغنم[١]. ولم يكتف بذلك، بل أخبره أيضاً عن تحركات ملك دمشق[٢] وملك حلب وأنهما ينتظران ومعهما عدد كبير من الأتراك والمسلمين والعرب بعدما احتشدوا على طول الطريق التي سوف يسير فيها[٣] كما ذكرنا آنفاً.

كما أن وليم الصوري ذكر المعلومة نفسها حيث يقول عن حاكم طرابلس: «وحيَّاه حاكم ذلك الموقع في معسكره المضروب خارج المدينة، وأمطره بالهدايا والتشريفات، وتلقى من هذا الحاكم نفسه معلومات تفيد أن دقاق ملك دمشق قد نصب له الكمائن بعيداً على طول خط زحفه»[٤]. فيما اكتفى رنسيمان

(١) الشارتري: ص١٥٦.

(٢) عاشور: الحركة ج١ ص٢٣٠.

(٣) الشارتري: ص١٥٦.

(٤) الصوري: ج١ ص٤٨٤.

بقوله: «وأنذره أمير طرابلس»[١] وبالطبع ونتيجة لهذه المعلومة الخطيرة التي لم يذكرها المؤرخون المسلمون، أصبح بلدوين على أتم الاستعداد للقتال بعدما نظَّم صفوفه، بل إن الصوري يؤكد أن ملك بيت المقدس هو الذي زحف إلى المسلمين[٢] بينما كان دقاق يريد مفاجأة العدو، وهو ما لم يحدث، ومِنْ ثَمَّ آلت الأوضاع إلى ما آلت إليه من انتصار الفرنج في المعركة.

ولا شك أن ما قام به ابن عمار يدل على حالة التمزق والتفرقة التي بلغتها القوات المسلمة في هذه المرحلة، إضافة إلى الخوف من العدو، لدرجة أن الكثير من الأمراء كانوا على استعداد لتقديم كل العون إلى الصليبيين من أجل المحافظة على أرواحهم. والأمر ذاته فعله أمير مدينة بيروت بعد انتصار بلدوين في هذه المعركة، فقد أرسل إلى الصليبيين القوارب المحمَّلة بالطعام بصفة يومية، ويؤكد الشارتري أن هذا التصرف كان بسبب الخوف لا الحب، وفعل مثل هذا التصرف أمراء صور وصيدا وعكا[٣] «فقد أظهروا الصداقة ولم يكن في قلوبهم شيء منها»[٤].

ثم يقول الشارتري: «وأما أهالي المدن الأخرى التي مررنا أمامها فقد تصرفوا بالمثل، مثل: صور وصيدا وعكا. فقد أظهروا الصداقة ولم يكن في قلوبهم شيء منها[٥]. ويذكر رنسيمان أنه وصلت سفارات من المدن الساحلية

(١) رنسيمان: ج١ ص٤٧٩.

(٢) الصوري: ج١ ص٤٨٤.

(٣) الشارتري: ص١٦٠.

(٤) المصدر نفسه: ص١٦٠.

(٥) المصدر نفسه: ص١٦٠.

المذكورة آنفاً بالإضافة إلى قيسارية وأرسوف، تحمل إليه الهدايا القيمة[١] ويقول عاشور: «ويبدو أن التحصينات التي قام بها الصليبيون (تحصينات يافا عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) بالإضافة إلى ما رآه المسلمون من مجيء بوهيمند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة، هي التي جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل أموال تعهدوا بدفعها»[٢].

وكان من الطبيعي أن يقول الشارتري عن فعل ابن عمار، وغيره وتقديمهم العون لبلدوين: «وعلى الرغم أننا لم نصدق هذا تماماً، فقد أدركنا فيما بعد أنها كانت الحقيقة»[٣] لأن ما قام به صاحب طرابلس وما فعله الآخرون كان مستغرباً على الأقل بالنسبة إلى الصليبيين.

وكل ما قام به هؤلاء الأمراء لم يمنع الصليبيين من الاستيلاء على حيفا بالسيف، وأرسوف بالأمان، ثم قاموا بإخراج أهلها منها، وفي آخر رجب ٤٩٤هـ/ ١٧ مايو ١١٠١م[٤] استولوا على قيسارية بالقوة، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها، وكان ذلك بمعاونة الجنويين[٥]. وقد أحدث الصليبيون مذبحة في قيسارية حتى الذين دخلوا الجامع ذبحوهم عن آخرهم، ولَمْ يُفرِّقوا بين الرجال والنساء والأطفال، حتى تحوَّل الجامع إلى بركة كبيرة من دماء المسلمين[٦] كما أنهم قبل ذلك مَلَكوا مدينة سروج في الجزيرة[٧]. وبالطبع لم تفعل دمشق أو حتى

(١) رنسيمان: ج٢ ص١١٩.
(٢) عاشور: الحركة ج١ ص٢٢٣.
(٣) الشارتري: ص١٥٦.
(٤) عاشور: الحركة ج١ ص٢٣٨.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٣٨، ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣-٤٣٤.
(٦) عاشور: ج١ ص٢٣٨.
(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨١.

حلب أي شيء تجاه كل ما حدث لتلك المدن، ولذلك القتل المروع للأهالي، وكأن الأمر لا يعني ملك دمشق، أو ملك حلب، ولا حتى سلطان السلاجقة، خصوصاً أن تلك المناطق يفترض أنها تابعة للسلاجقة.

ويتساءل الشارتري مستغرباً موقف الحكام المسلمين بقوله: «ولم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها -أي مدينة بيت المقدس- ضد المسلمين إذا فكروا بمهاجمتنا. لماذا لم يجرؤوا على ذلك؟ لماذا خافت كل هذه الأعداد الكبيرة من الناس والممالك مهاجمة مملكتنا الصغيرة وشعبنا الضعيف؟ لماذا لمْ يجمعوا من مصر ومن فارس ومن بلاد الرافدين ومن سوريا على الأقل مائة ألف محارب يمكنهم أن يحاربوا ضدنا، بوصفنا أعداءهم، بشجاعة؟ لماذا لمْ يقوموا، وهم في كثرة الجراد في حقل صغير، بالتهامنا تماماً وتدميرنا بحيث لا يبقى لنا ذكر في الأرض التي كانت ملكاً لنا منذ زمن بعيد؟»[١].

أما قول الشارتري إن ملك حلب كان مشاركاً في هذه المعركة، فهو غير صحيح وإنما كان يقصد صاحب حمص جناح الدولة حسين، كما ذكرت المصادر العربية كابن القلانسي[٢] وابن الأثير[٣] وغيرهما.

وما ذكره فوشيه الشارتري بشأن خوف المسلمين من الفرنج حقيقة لا يمكن تغافلها أو تجاوزها، لأن الخوف الذي ملأ قلوب المسلمين لم يكن سببه انتصارات الصليبيين، إنما نتيجة للأعمال الإجرامية والمذابح والقتل، وحرق القرى، وغيرها من الأعمال التي كانوا يقومون بها بعد كل انتصار لهم[٤]. وهو ما

(١) الشارتري: ص١٦٦- ١٦٧.

(٢) ابن القلانسي: ج١ ص٢٣٨.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٣٣.

(٤) الشارتري: ص.١٦٢.

يعترف به الشارتري عند مهاجمة قيصرية حيث يقول: «وعندما رأى المسلمون وحشية رجالنا وأنهم استولوا على المدينة بالفعل، فروا مذعورين إلى كل مكان»[١] بينما يذكر رنسيمان أن الفاطميين قدموا لبلدوين المؤن له عن طيب خاطر[٢].

٧- الهزيمة في طرطوس ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م:

تعرَّضت طرابلس لهجوم من قبل الأمير الصليبي ريموند دي تولوز أو ريموند سانت جيل أو ريموند صنجيل[٣] المتغلب على طرسوس، وذلك في جمادى الآخرة ٤٩٥هـ/ مارس ١١٠٢م فاستنجد صاحب طرابلس فخر الملك بن عمار بكل مِنْ: خليفة جناح الدولة على حمص[٤] الأمير باخز، وبملك دمشق دقاق بن تتش، وأرسل لهما المكاتبات، يلتمس المعونة لدفع ريموند واستصرخ ابن عمار «بالعسكر الدمشقي، ويستغيث بهم»[٥] ويقول: «من الصواب أن يعاجل ريموند صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة»[٦] فأجيب إلى ما التمس[٧].

وإزاء هذه الرسالة خرج الأمير باخز بنفسه، بينما سيّر دقاق ألفي مقاتل[٨] وفوق هذا وذاك وصلتهم الإمدادات من طرابلس، فاجتمعوا كما يقول ابن

---

(١) المصدر نفسه: ص١٧١.

(٢) رنسيمان: ج١ ص٤٨٠.

(٣) يسمى في المصادر العربية بـ «صنجيل» لدى ابن الأثير، على سبيل المثال، أو «ابن صنجيل» لدى ابن القلانسي.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٦٦.

(٥) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤١.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٦.

(٧) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤١.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٦.

القلانسي «في عدد دثر»[١] وقصدوا انطرسوس[٢] وهناك التقت الجيوش وتمكن الجيش الصليبي بقيادة ريموند سانت جيل من الانتصار في هذه المعركة. و«انفل عسكر المسلمين من عساكر المشركين»[٣] «وأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة، وولّوا منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق»[٤] وقُتِل الكثير من المسلمين، وأما مَن سَلَم منهم فقد عاد إلى دمشق وحمص. وحدد ابن القلانسي موعد وصولهم في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة[٥].

ولم تذكر المصادر العربية أي شيء عن طغتكين في هذه المعركة، رغم أن وجوده أمر مؤكد، إذ أنه لو لم يكن مشاركاً لذَكَر ذلك المؤرخون. ويبدو أن خسارة المعركة كما شاهدنا في المرات السابقة هي السبب في عدم التطرق إليه أو الدور الذي قام به في هذه المعركة، ومع ذلك فإن عدم مشاركته أمر لا يمكن استبعاده، لا سيما أن ابن الأثير قال عبارة مقتضبة وهي «وسيّر دقاق ألفي مقاتل» إذ لو كان مشاركاً فيها لأتبع تلك العبارة بقوله «وكان طغتكين على رأسهم» لكنه لم يذكر ذلك، وهنا تكمن علامات الاستغراب!.

وتُرِك أهل طرابلس يواجهون الموت لوحدهم أمام جيش ريموند الصليبي، حتى أنه قُتِل منهم سبعة آلاف شخص[٦] وقام ريموند بمحاصرة المدينة، فقاتل أهلها الصليبيين قتال الأبطال، وعندما عجز القائد الصليبي عن اقتحام المدينة

(١) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤١. دثر: هو الكثير من كل شيء. ابن منظور: اللسان ج٣ ص٢٩٦.

(٢) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤٠ يرى ابن الأثير أن القتال كان على أبواب طرابلس. ج٨ ص٤٤٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤١، انفل: أي أنكسر. ابن منظور: ج٧ ص١٦٤.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٦.

(٥) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤٢.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٦.

هادنهم على مال وخيل، ورحل عنهم إلى مدينة أنطرسوس، وهي من أعمال طرابلس، فقام بمحاصرتها حتى سقطت بين يديه، ونكّل بالمسلمين[(١)].

٨- الاستيلاء على الرحبة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م:

في شعبان ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م، تمكَّن ملك دمشق شمس الملوك دقاق وأتابكه طغتكين من الاستيلاء على الرحبة[(٢)] التي كانت بيد أحد مماليك السلطان السلجوقي ألب أرسلان، ويدعى قايماز[(٣)] وهذا الأخير استولى على المدينة بعد مقتل كربوقا. ونزل دقاق وظهير الدين على الرحبة، بعد أن ضايقا مَنْ بها، وتمت محاصرتها ومُنِع دخول الطعام إليها، حتى اضطر المقيم بها قايماز إلى طلب الأمان له ولأهل البلد، وتم له ذلك، وقد سُلّمت البلد إلى الملك دقاق بعد قتال شديد، «ورتب أمرها، وندب من رآه من الثقات لحفظها، وقرر أحوال من بها» ثم رحلا عنها، وعادا إلى دمشق في ٢٢ جمادى الآخرة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م[(٤)].

ويسرد ابن الأثير قصة قايماز في حوادث ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م ويقول: «وتوفي قايماز هذه السنة في صفر، وقام غلام تركي اسمه حسن فأَبعدَ عنه كثيراً من جنده، وخَطَبَ لنفسه وخاف من دقاق، فاستظهر وأخذ جماعة من السلارية الذين يخافوهم فقبض عليهم، وقتل جماعة من أعيان البلد وحبس آخرين وصادرهم، فتوجه دقاق إليه، وحصره فسلَّم العامة البلد إليه، واعتصم حسن بالقلعة فأَمَّنه

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٥٨، ابن الوردي: ج٢ ص٢٠، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٥٩، ابن القلانسي: ص٢٤٣، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٣٤، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٣٠، وذكره في دول الإسلام ج١ ص٤٣٣، ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٦٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٩٠، اليافعي: مرآة الجنان ج٣ ص١٢١.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٤٥٨، قايماز من أصحاب كربوقا، وكانت الرحبة له. ابن العديم: ج١ ص٣٥٩.

(٤) ابن القلانسي: ج١ ص٢٤٣.

دقاق فسلَّم القلعة إليه، فأقطعه إقطاعاً كثيراً بالشام، وقرر أمر الرحبة، وأحسن إلى أهلها، وجعل فيها من يحفظها ورحل عنها إلى دمشق»[(١)].

وكان جناح الدولة قد خرج إلى حلب للاستيلاء عليها، إلا أنه عاد أدراجه بعد أن عَلِم أن الأمر فاته، وذهبت الرحبة إلى ملك دمشق، وتوجَّه جناح الدولة إلى النقرة وخرج إليه دقاق وتصالح معه، وأخذه معه إلى حلب، وأقام في ضيافته عشرة أيام، ومع ذلك لم يَصف قلب أحد منهما للآخر[(٢)].

٩- الاستيلاء على حمص:

نظراً لنشوة الانتصارات المتتالية التي حققها الصليبيون خلال هذه الفترة، على حساب القوى الإسلامية المختلفة، لا سيما في طرابلس، وغيرها من المدن، أراد ريموند صنجيل، استثمار هذه الفرصة من أجل مواصلة انتصاراته وكسب المزيد من الأراضي، فقرر التوجّه إلى حصن الطوبان أولاً لكنه فشل في الاستيلاء عليه[(٣)] ثم تركه وتوجَّه إلى حصن الأكراد المقابل لحمص من الغرب، والذي يمتاز بمناعته[(٤)] وفَرَضَ حصاراً عليه، عند ذلك جمع جناح الدولة حسين أتابك رضوان بن تتش[(٥)] عسكره ليسير إليه، لكنه قُتِل على يد باطني بالمسجد

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٥٨.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٥٩.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٩٨.

(٤) حصن الأكراد: كان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً، وجعل فيه قوماً من الأكراد، طليعة بينه وبين الفرنج، وأجرى لهم أرزاقاً فتديروها بأهليهم، ثم خافوا على أنفسهم فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غزواتهم، فنازلوه، فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج، وهو بين أيديهم إلى هذه الغاية، بينه وبين حمص يوم. الحموي: ج٢ ص٢٦٤.

(٥) جناح الدولة: حسين بن ملاعب، كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحرب بنفسه. ابن تغري: النجوم ج٥ ص١٦٨.

الجامع، وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله[١] وكان ذلك في ٢٢ رجب ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م[٢].

فانزعج أهل حمص لهذا الحادث الجلل الذي أصاب أميرهم، خصوصاً في هذه الفترة المضطربة ووسط التوترات والمعارك الدائرة في الشام[٣] فلم يُرد صنجيل أن يُفوّت هذه الفرصة التي جاءته على طبق من ذهب، بعد أن أصبحت حمص من دون أمير أو قائد يحميها، فنازلها في اليوم التالي، وحصر أهلها وسلك أعمالها، ونزل على عكا في جمادى الآخرة وضيّق عليها، وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات[٤] والأبراج وكان له في البحر ست عشرة قطعة، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا إلى منجنيقاتهم وأبراجهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم أيضاً[٥].

بينما يذكر ابن العديم أنه بعد مقتل رضوان، استدعت زوجته أم رضوان، ولدها فخر الملوك ملك حلب رضوان لتُسلِّم البلد إليه، إلا أن قادة العسكر رفضوا هذه الفكرة «وخافوا منه لسوء رأيهم فيه»[٦] فأرسلوا إلى صاحب دمشق الملك دقاق، فوصل إلى حمص، وتسلَّمها، وأحسن إلى أهلها، ونقل أهل جناح

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٧.

(٢) بن العديم: ج١ ص٣٥٩. يذكر سبط ابن الجوزي وفاة جناح الدولة حسين في عام ٤٩٥هـ ج١٣ ص٢٨٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٣.

(٤) المنجنيق: آلة خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل، وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله إلى أعاليه، استعمل ضد القلاع والحصون. غنام: الألفاظ التاريخية ص٢٩٩.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٤٤٧.

(٦) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٥٩.

الدولة وأولاده إلى دمشق، ثم قام بتسليم حمص إلى طغتكين، أما الفرنج فإنهم رحلوا قبل وصول دقاق إلى المدينة، بعد أن أخذوا الأموال من أهلها[١].

ويقول ابن القلانسي: «انزعج أهل حمص لهذا الحديث، وأجفلوا في الحال، وهرب أكثر سكانها من الأتراك إلى دمشق، واضطربت الأحوال بها، وراسلوا الملك شمس الملوك بدمشق يلتمسون إنفاذ من يتسلم حمص، ويعتمد عليه في حمايتها، والذب عنها قبل انتهاء الخبر إلى الإفرنج، وامتداد أطماعهم فيها، فسار الملك شمس الملوك وظهير الدين أتابك في العسكر من دمشق، ووصل إلى حمص وتسلمَّها، وحصل في قلعتها، ووافق ذلك وصول الإفرنج إليها ونزولهم على الرستن[٢] لمضايقتها ومنازلتها، فحين عرفوا ذلك أحجموا عن القرب إليها، والدنو منها ورحلوا عنها»[٣].

ويتضح من هذه الروايات أن ريموند لم يكن يملك القدرة الكافية على مواجهة دقاق وطغتكين، فهو لم يتوقع أن يرى جيش دمشق عند حمص، لذلك لم يكن مهيئاً لهذا القتال، ومن ثَمَّ فضَّل الإنسحاب إلى الساحل[٤].

١٠-القتال في بصرى وعسقلان ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م «معركة الرملة الثالثة»[٥]:

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٥٩، ابن القلانسي: ص٢٤٣-٢٤٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٢٨٩، ابن تغري: النجوم ج٥. ص١٦٨-١٦٩.

(٢) الرستن: بليدة قديمة كانت على نهر الميماس، وهذا النهر هو اليوم المعروف بنهر العاصي، والرستن بين حماة وحمص. الحموي: ج٣ ص٤٣.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٣-٢٤٤.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٩٩.

(٥) وقعت معركة الرملة الأولى عام ٤٩٦هـ/ ١١٠١م وتحديداً في ٧ سبتمبر ١١٠١م بين الفاطميين والصليبيين، وقاد الفاطميون في المعركة سعد الدولة الطواشي الذي قتل فيها بعد أن انتصر الصليبيون، الذين كان يقودهم ملك بيت المقدس بلدوين الأول وقد ملكوا جميع ما للمسلمين. ابن الأثير: ج٨ =

كان على طغتكين أن يُؤدّب صاحب بصرى آيتكين الحلبي كما فعل مع صاحب بعلبك فخر الدولة كمشتكين التاجي، بعد أن وقف الأول إلى جانب أرتاش بن تتش، وهرّبه من دمشق في صفر ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، بينما تمرد الثاني عليه، بعد أشهر قليلة من هروب أرتاش من دمشق[١] لهذا قرر الأتابك أن يقود عسكره بنفسه إلى بصرى، وفي هذا الوقت كان حلفاؤه الفاطميون في مصر، يستعدون لقتال الإفرنج، «فخرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس، وراجل مع الأمير شرف المعالي ولد الأفضل»[٢] ووصلت الكتب إلى طغتكين من المصريين تدعوه «بالاستدعاء للمعونة والاعتضاد إلى جهاد الكفرة والأضداد»[٣] ومن الواضح أن الذين أرسلوا الكتب إلى طغتكين هم: سناء الملك حسين الابن الثاني للوزير المصري الأفضل، الذي توجَّه إلى ساحة المعركة بعد عودة شرف المعالي، ومن الأمراء: النائب بعسقلان للمصريين جمال الملك[٤] وغيرهما.

وكان على طغتكين أن يختار إمَّا قتال آيتكين الحلبي والملك أرتاش بن تتش في بصرى أو مساندة الجيش المصري لقتال الإفرنج، فاختار أول الأمر

= ص٤٥٩، عاشور: ج١ ص٢٣٩. أما معركة الرملة الثانية فوقعت في العام نفسه ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م حيث لم يطق أمير الجيوش الوزير الأفضل صبراً بعد خسارة المعركة فأرسل ابنه شرف المعالي لقيادة الجيش الفاطمي، وتمكن من الانتصار في المعركة وفر بلدوين من الرملة متخفياً إلى يافا وقُتِل من الصليبيين أربعمائة صبراً وأُسِر منهم ثلاثمائة تم أخذهم إلى مصر، واستولى الفاطميون على الرملة. ابن الأثير: ج٨ ص٤٥٩، عاشور: ص٢٤١.

(١) مصطفى: طغتكين ص٥٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٣.

(٤) يرسمه ابن الأثير أحيانا جمار الملك. ج٨ ص٤٧٩.

التوجّه إلى بصرى، واعتذر للمصريين من عدم قدرته على قتال الإفرنج، وقال ابن القلانسي عن ذلك: «فلمْ يتمكّن من الإجابة إلى المراد لأسباب عاقته عن المعونة والإسعاد، وتوجه في العسكر إلى بصرى»[١] وربما كانت الضرورة تقتضي ذهابه إلى بصرى أولاً للقضاء على من يخشى منهم على مكانته التي بلغها، وعلى حُكمه في دمشق. بل إنه نزل على بصرى بالفعل، لكنه غيّر رأيه بعد ذلك، وتوجَّه إلى عسقلان لمساندة الجيش المصري[٢]. لأنه «استصوب المسير إلى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد»[٣].

ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه الحرب تختلف عن غيرها، على اعتبار أن الفاطميين هم الذين يريدون القيام بالهجوم على الصليبيين، بمعنى أنهم ليسوا بموقف المدافعين، كما كان يحدث سابقاً، وقد رأى ظهير الدين أهمية مشاركته في هذه الحرب، لأنه يعلم أن الفاطميين لم يَقْدموا على هذه الخطوة إلا بعد أن استعدوا لها جيداً، لذلك أراد أن يكون متواجداً ويفوز معهم بالنصر. وما يؤكد هذه الحقيقة، أي نية الفاطميين بالهجوم على الصليبيين، ما ذكره المؤرخ فوشيه الشارتري المعاصر لهذه الأحداث عن قصْد حاكم مصر من هذه المعركة: «كان ظنه وقصده أن يطردنا جميعاً من الأراضي المقدسة»[٤].

وهذا يعني أن طغتكين وصل إلى بصرى وحاصرها، لكنه شعر بحرج موقفه من التخلي عن حلفائه الفاطميين، ورأى من الأوْلى الذهاب إلى عسقلان لمساندتهم. ولم يوضّح ابن القلانسي أو غيره هل كان ذلك نصيحة من أحد

(١) ابن القلانسي: ص٢٥٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٣.
(٤) الشارتري: ص١٩٩.

قادته أم لا؟ فقد اكتفى مؤرخ دمشق بالقول إنه: «استصوب المسير إلى العسكر المصري». مما يعني أن هناك من نبهه إلى ضرورة مساندة الدولة الفاطمية أولاً ثم العودة إلى بصرى بعد ذلك.

لكن ابن الأثير الذي كان أكثر شرحاً لهذه الحرب من ابن القلانسي ذكر أن الأتابك أرسل إلى الجيش المصري بالفعل أصبهبذ بن صباوة، ومعه ألف وثلاثمائة فارس[١] مما يؤكد أن ظهير الدين أرسل هذا القائد أولًا مع هذا العدد من الجيش، ثم عندما غيَّر رأيه، توجَّه بنفسه إلى عسقلان[٢]. ولكن متى كان ذلك؟.

يقول ابن الأثير أنهم : «أرسلوا إلى طغتكين أتابك بدمشق يطلبون منه عسكراً»[٣] بينما قال ابن القلانسي: «وكوتب ظهير الدين أتابك بالاستدعاء للمعونة والاعتضاد إلى جهاد الكفرة»[٤] فهل كان هناك كتابان أم كتاب واحد؟ فابن القلانسي يحدد أن المصريين طلبوا من طغتكين مساندته في قتال الصليبيين، لكنه لم يتمكَّن من الإجابة إلى المراد، لأسباب منعته، ومن الواضح أن القصد من ذلك كان حضوره شخصياً، ومشاركته بنفسه في قتال العدو، لأن المصريين كانوا يعلمون مدى قوة طغتكين وشجاعته وخبرته وحنكته في قتال الصليبيين. بينما يرى ابن الأثير أنهم طلبوا منه عسكراً، ولم يطلبوا مشاركته في هذه الحرب، لهذا لم يذكر ابن الأثير ما ذكره ابن القلانسي من اعتذاره، وتعلّلِه عن قتال الصليبيين، بل ذكر أنه أرسل إليه قائده أصبهبذ.

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٩، ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٩.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

لذا من المتوقع أن الفاطميين أرسلوا كتابين إلى طغتكين، كان الكتاب الأول يؤكد ضرورة حضوره شخصياً للمشاركة في هذه المعركة، ولمَّا اعتذر عن ذلك لأسباب عاقته عن المعونة، لأنه كان يريد التوجّه إلى بصرى لمحاصرتها، بعثوا إليه كتاباً آخر يطلبون إمدادهم بالجند، فأرسل أصبهبذ ومعه ألف وثلاثمائة فارس. ولكن لم نعرف الفترة الزمنية بين الكتابين، لكنها بالتأكيد كانت قصيرة، خصوصاً أن ابن الأثير يؤكد أن هناك حرباً وقعت بين الفرنج والمسلمين قبل المعركة التي دارت في عسقلان، والتي استُدعي إليها طغتكين، وفي البداية لم ينتصر فيها أي طرف، ثم أرسل الأفضل ولده شرف المعالي إلى الإفرنج، وقهرهم، وأخذ الرملة منهم، ثم اختلف المصريون والعرب بعد أن ادعى كلٌّ منهما أن الفتح له، وفي هذا الوقت جاءتهم سرية من الفرنج «فتقاعد كل فريق منهما بالآخر، حتى كاد الفرنج ينتصرون في هذه المعركة»[١].

هكذا كانت تسير الأحداث، قبل أن يعود شرف المعالي إلى أبيه في مصر، ويرسل ابنه الثاني سناء الملك حسين. وبالتالي فإن الكتاب الأول كان من شرف المعالي، والثاني من سناء الملك. لذا شعر طغتكين بحرج موقفه من الاعتذار مرة أخرى، وأدرك أن الوضع خطير في عسقلان، وأنه من الضروري حضوره ومشاركته في الحرب، لهذا قال ابن القلانسي: «استدرك الرأي واستصوب المسير إلى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد، فسار إليه ووصل إلى ظاهر عسقلان»[٢] وبلغ عدد العسكر الذين رافقوه ألف وثلاثمائة مقاتل، بينما كان عدد

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٩.

(٢) ابن القلانسي: ج١ ص٢٥٣، سبط ابن الجوزي يذكر أن عدد الجيش الفاطمي عشرة آلاف. ج١٣ ص٣٠٠، المقريزي: اتعاظ ج٣ ص٣٥.

الفاطميين خمسة آلاف كما يذكر الذهبي[١] فيما يبلغ عدد جيش الفرنج ألف وثلاثمائة فارس و٨ آلاف راجل[٢].

وفي عسقلان، وتحديداً بين يافا وعسقلان[٣] التقى الجيشان الفرنجي من جهة، والمصري والدمشقي من جهة أخرى في ١٤ ذي الحجة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م[٤]. ويرى ابن القلانسي أن النصر كان حليف الفرنج في المعركة حتى أنهم قتلوا والي عسقلان، وأسروا بعض قادة الجيش، ومِنْ ثَمَّ عاد الجيش المصري إلى عسقلان، والجيش الدمشقي إلى بصرى[٥] بينما يقول ابن الأثير: «فلمْ تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقُتِل من المسلمين ألف ومئتان، ومن الفرنج مثلهم، وقُتِل جمال الملك والي عسقلان»[٦] فهو يرى أن التساوي بين الطرفين كان حتى في عدد القتلى لدى الجانبين. ويُكمل ابن الأثير بقوله: «فلمَّا رأى المسلمون أنهم قد تكافؤوا في النكاية قطعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان، وعاد صباوة إلى دمشق»[٧] ويقول ابن القلانسي: «وقيل إن الذين قُتلوا من المسلمين

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ج١ ص٤٣٥، المقريزي: ج٣ ص٣٥، بينما يذكر الذهبي أن: عدد جيش دمشق ألفي مقاتل. العبر ج٢ ص٣٧٩، الحريري: أحمد بن علي، كتاب الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح دمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ص٧٠، ويذكر الصوري أن: عدد قتلى المسلمين ٤ آلاف، والفرنج ٦٠ رجلاً. ج١ ص٥٢٢، أما الشارتري فيرى عدد الجيش الفرنجي ٥٠٠ فارساً غير المشاة، وعدد المسلمين ١٥ ألف. ص٢٠١.

(٢) الذهبي: دول الإسلام ج١ ص٤٣٥، المقريزي: ج٣ ص٣٥.

(٣) ابن القلانسي: ج١ ص٢٥٣، المقريزي: ج٣ ص٣٥، الصوري: ج١ ص٥٢٠-٥٢٢.

(٤) ابن القلانسي: ج١ ص٢٥٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٤ ص٣٧، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٠٠، الشارتري: ص١٩٨-٢٠٤.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٦) ابن الاثير: ج٨ ص٤٧٩.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٩.

بإزاء الذين قتلوا من المشركين»[١] ويذكر الذهبي أن عدد القتلى من كل جانب بلغ فوق الألف[٢].

ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن النصر كان حليف المسلمين أولاً في المعركة الأولى التي غزوا فيها الرملة، لكن الجيش الصليبي انتصر في نهاية الأمر: «وعاد الملك إلى يافا منتصراً حيث حيَّاه الناس هناك بتهاليل الابتهاج، وعاشت المملكة في سلام لفترة تقارب سبعة أشهر»[٣]. وقد اشترك أرتاش أو بكتاش كما يسميه ابن الأثير في هذه المعركة إلى جانب ملك بيت المقدس بلدوين الأول، بعد أن فرَّ من دمشق[٤] وبعد المعركة خرج مع آيتكين من بصرى إلى الرحبة[٥].

١١-هدم حصن العال أو علعال[٦] عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م:

في ظل استمرار المعارك بين الأتابك ظهير الدين طغتكين المُسيطر على

(١) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٢) الذهبي: العبر ج٢ ص٣٧٦.

(٣) الصوري: ج١ ص٥٠٧.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٤٧٩.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٥٣.

(٦) اختُلف في تحديد موقع علعال أو العال.. والأقرب إلى الدقة بالنسبة إلى هذا الموقع هو قرية علعال «العال حالياً» الأردنية الواقعة على رأس وادي الشلالة تقريباً، وتقع علعال أيضاً بين عيني ماء، احداهما في طرفها الجنوبي وتعرف بعين السكر، والأخرى في طرفها الشمالي وتعرف بعين سيحا، وبالتالي فهي موقع مناسب لإقامة تحصينات، وارتفاع القرية ٤٠٠ متى عن سطح البحر، أما الطريق الموصلة إليها حالياً من أربد فهي: أربد -حكما- مرور علعال، حيث تنتهي الطريق باتجاه الشمال، وهذه المواقع كلها تقع إلى الشرق من بيت رأس التي كانت احدى كور جند الأردن ومركزاً لهذه الكورة. بينما يقول سهيل زكار: يقع هذا الحصن في محافظة القنيطرة السورية، منطقة فيق ويبعد عن فيق مسافة ٧ كم، وعن القنيطرة ٤٩ كم. جوني: دمشق حاشية (١) ص١١٦، ابن القلانسي: حاشية (١) ص٢٥٤.

الأمور في دمشق، وملك مملكة بيت المقدس بلدوين الأول، وفي ظل تبادل النصر بينهما، وكما يقول ابن الأثير «فتارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء»(١) عندها قرر بلدوين أن يبني قلعة بينه وبين دمشق(٢) ليوقف هجمات الدمشقيين على بلاده، وتحديداً في الجبال على الطريق بين صور وبانياس ودمشق، وهي مُطلّة على مدينة صور(٣) وتُسمى تورون أو تيرون(٤) المعروفة باسم تبنين(٥) وقيل أن هيو دي سانت أومر، الذي عهد إليه بلدوين إمارة الجليل، هو الذي بنى هذه القلعة(٦) كما بنى قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية تسمى العال أو علعال وذلك في ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م(٧). إلا أن ظهير الدين أدرك خطورة وجود قلعة علعال بالقرب من بلاده، لأنها ستلحق به ضرراً كبيراً(٨) خصوصاً أن القلعة من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة(٩) ويقول ابن القلانسي: «فلمّا عرف ظهير الدين أتابك هذا العزم منهم، أشفق من إتمام الأمر فيه، فيصعب تدارك الأمر وتلافيه، فنهض في العسكر، وقصدهم وهم في غفلة مما دهمهم، فأوقع بهم، وقتلهم بأسْرهم، وملك الحصن بما فيه، من آلاتهم وكراعهم وأثاثهم، وعاد إلى دمشق برؤوسهم وأسرائهم، وغنائمهم، وهي على غاية الكثرة في يوم الأحد

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٤٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٨٣.

(٣) الصوري: ج١ ص٥٢٥.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٥٢٥.

(٥) رنسيمان: ج٢ ص١٥٥.

(٦) رنسيمان: ج٢ ص١٥٥، الصوري: ج١ ص٥٢٥.

(٧) المصدر نفسه: ج٢ ص١٥٥، المصدر نفسه: ج١ ص٥٢٥، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٠٤.

(٨) ابن الأثير: ج٨ ص٤٨٣.

(٩) ابن القلانسي: ص٢٥٤.

النصف من شهر ربيع الآخر»[١].

ويصف ابن الأثير ما حدث في المعركة بقوله: «فاقتتلوا واشتد القتال»[٢] ثم فرَّ الفرنج إلى الحصن، وقال طغتكين لعسكره: «من أحسن قتالهم، وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير»[٣] وصعد عسكر دمشق إلى الحصن وقاموا بتكسير حجارته، وحملوها إلى الأتابك، وأعطاهم ما وعدهم به، وقام بأسر مائتي فارس، وهم الذين كانوا في الحصن ثم عاد إلى دمشق، وزيَّنها لمدة أربعة أيام[٤].

ويقول رنسيمان: «بينما كان هيو عائداً إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد غارة موفقة، انقض عليه جيش دمشق، فأصابت هيو جراح أودت به، وتفرَّق رجاله، ولم يجد طغتكين حينئذ صعوبة في الاستيلاء على القلعة»[٥]. بينما يرى الصوري أن هيو توفي نتيجة هجومه على الدمشقيين، وتمكَّنوا من صدّه مرتين بقوة في اليوم نفسه، لكنه أُصيب بجراح مميتة إثر ضربة سهم أودت بحياته[٦] ويرى الشارتري أن هيو انتصر في هذه الحرب الثالثة ضد جنود دمشق، بعد هزيمته مرتين أمامهم، وقَتَل منهم مائتين، كما استولى على عدد مماثل من خيولهم[٧].

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٥٤، سبط ابن الجوزي يذكر أن طغتكين عاد إلى دمشق في جمادى الآخرة. ج١٣ ص٣٠٥، الذهبي: تارخ الإسلام ج٣٤ ص٣٨-٣٩.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٤٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٨٣.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٨٣، ابن كثير: ج٨ ص٣٧٢، الذهبي: دول الإسلام ج١ ص٤٣٦، وذكره في العبر ج٢ ص٣٧٨، وذكره في تارخ الإسلام: ج٣٤ ص٣٨-٣٩.

(٥) رنسيمان: ج٢ ص١٥٥.

(٦) الصوري: ج١ ص٥٢٥.

(٧) الشارتري: ص٢٠٦.

١٢- طبرية ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م :

بعد تزايد فساد الفرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف[١] اشتكى أهالي هذه المناطق إلى طغتكين، فجمع العسكر والتركمان، وخيّم في السواد، وفي هذا الوقت قاد والي صور الأمير عز الملك حملة عسكرية إلى حصن تبنين[٢] التابع للفرنج، وقَتَلَ مَنْ كان فيه وغَنَمَ الكثير منه، ثم اتجه إلى طبرية، ويرى رنسيمان أن الغارتين لم تحققا شيئاً[٣]. ثم توجّه ظهير الدين إلى حصن بالقرب من طبرية، فقاتل الفرنج وقَتَلَهم ومَلَكَ الحصن منهم[٤] ثم توجَّه إلى المدان[٥] وعندما علم الإفرنج بذلك أرسلوا الجيش لملاقاة ظهير الدين، إلا أن هذا الجيش سرعان ما عاد أدراجه بعد أن قويت نفوس جيش طغتكين ونظَّموا صفوفهم، فعاد الجيش الصليبي إلى طبرية، ومنها إلى عكا، وعاد الأتابك ومَنْ معه إلى دمشق[٦].

* تقديم العون لابن عمار:

وخلال هذه الفترة، وتحديداً في شعبان من عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م زاد الصليبيون في حصارهم على طرابلس ويصف ابن القلانسي حال ابن عمار بقوله: «اشتد الأمر بفخر الملك بن عمار بطرابلس، من حصار الإفرنج، تطاول

---

(١) جبل عوف: جبل بالقرب من عجلون، كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة، فعُرف بهم، من أعمال دمشق القبلية. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٨٦. جوني: دمشق حاشية (١) ص١٢٧.

(٢) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. الحموي: ج٢ ص١٤.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص١٥٦.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٥٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٠٧.

(٥) المدان: قريبة من منطقة الشيخ مسكين في سورية. ابن القلانسي: حاشية (٣) ص٢٥٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٥٦.

أيامه، وتمادي الترقب لوصول الإنجاد، وتمادي تأخر الإسعاد»[١] فلم يُخيب طغتكين ظن صديقه صاحب طرابلس فخر الملك ابن عمار فقد أرسل إليه أحد كبار أمراء دمشق ومِن المقربين إليه، وهو الأمير أرتق بن عبد الرزاق، وطلب ابن عمار من الرسول أن يأخذه إلى دمشق للقاء طغتكين، فتوجّها إليه «وبالغ ظهير الدين في إكرامه، وتناهى في احترامه، وحَمَل إليه العسكرية ومُقدموه مِن الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ما أمكنهم حمله واتحافه به»[٢] وعرج ابن عمار بعد ذلك إلى بغداد للقاء الخليفة العباسي، فأرسل الأتابك معه ابنه تاج الملك بوري «فلمَّا وصلا إلى بغداد لقي فخر الملك من السلطان الإكرام والاحترام، ما زاد على أمله»[٣] وطلب من كبار الأمراء مساعدته في محنته وفك الحصار عن بلاده طرابلس، لكنه لم يجد في بغداد ما كان يتمناه، حتى أنه ظل فترة طويلة فيها، لدرجة أنه ضجر من المكوث هناك، فقرر العودة إلى دمشق في محرم ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م[٤]. وهذا يعني أن ابن عمار بقي بعيداً عن طرابلس ستة أشهر من شعبان ٥٠١هـ/ ١١٠٧م إلى محرم ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، وهي المدة نفسها التي قال عنها ابن القلانسي إن ابن عمار أطلق لأهل طرابلس «واجب ستة أشهر»[٥]. وهذا يدل على أن فخر الملك كان شعبه يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره رغم محنته. كما يؤكد وقوف ظهير الدين إلى جانب ابن عمار في هذا الموقف الصعب، رغم أن مهمة الأخير لم يُكتب لها النجاح في بغداد.

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧٠.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٦٩.

١٣- مقتل ابن أخت بلدوين ٥٠١هـ/ ١١٠٧م[١]:

في عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م وقعت الحرب بين أتابك دمشق والفرنج، وصفها ابن الأثير بأنها «حرب شديدة»[٢] وكان ظهير الدين في ألفي فارس وكثير من الرجالة، بينما كان مع الفرنج الذي يقودهم ابن أخت بلدوين ملك بيت المقدس، أربعمائة فارس وألفي راجل[٣]. وقسّم ظهير الدين جنده إلى فرقتين، الأولى توجَّهت إلى أرض فلسطين[٤] وأخرى قادها بنفسه إلى طبرية، وهناك التقى بالقائد الفرنجي جرفاس[٥] أو جيرفاس برسوك[٦] وأحاط الأتابك وعسكره بهذا القائد وبمن معه، فقُتِل الكثير منهم[٧] وكانت مقتلة عظيمة، كما وصفها سبط ابن الجوزي[٨] كما تم أسر جرفاس، وأسر معظم قادة جيشه، وطلب ظهير الدين من ملك بيت المقدس بلدوين الأول، المدن الثلاث: طبرية وعكا وحيفا من أجل اطلاق سراحهم، لكن بلدوين رفض ذلك، فأمر ظهير الدين بقتلهم، هذه الرواية يذكرها المؤرخ رنسيمان[٩] أما الرواية العربية فتذكر أنه تم قتلهم في الأسر، رغم أنهم قدَّموا الكثير من الأموال من أجل الإفراج عنهم، لكن لم يتم قبول

---

(١) ابن الأثير يذكر هذه المعركة في حوادث ٥٠٢هـ. ج٨ ص٥٢٧. وابن القلانسي يذكرها في حوادث ٥٠١هـ. ص٢٧١.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٧١، يحدد رنسيمان المكان ويقول أنه توجه إلى الجليل. ج٢ ص١٥٦.

(٥) يرسمه سبط ابن الجوزي: جرفاش. ج١٣ ص٣١٨، الحريري: الإعلام والتبيين ص٧١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٦.

(٦) رنسيمان: ج٢ ص١٥٦.

(٧) ابن القلانسي: ص٢٧١.

(٨) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣١٨.

(٩) رنسيمان: ج٢ ص١٥٦.

عرضهم[١]. كما أن جرفاس عرض على طغتكين الإفراج عن خمسمائة أسير، وتقديم ٣٠ ألف دينار عن نفسه، لكنه رفض ذلك وقتله[٢].

ويتحدث ابن الأثير عن سبب قتل «ابن أخت بلدوين»[٣] ويبدو أن المقصود هو نفسه جرفاس، أن طغتكين عرض عليه الإسلام، لكنه رفض، ورغم أنه قدَّم لظهير الدين عرضاً مالياً كبيراً، إلا أن الأخير لم يقبل منه غير الإسلام، فلمَّا لم يُجِب، قَتَلَه بيده[٤]. لكن الغريب أن الأتابك لم يستفد من هذا الانتصار، ولم يحقق بعدها شيئاً يذكر، وإنما تصالح مع الفرنج واتفق الطرفان على هدنة مدتها أربع سنوات[٥].

واعتبر ابن الأثير هذا الاتفاق بأنه «من لطف الله تعالى بالمسلمين»[٦] وهذا يعني بكل تأكيد أن المسلمين كانوا يمرون بأضعف حالاتهم، وهو ما جعل طغتكين يتصالح مع بلدوين. ولم يحدد ابن الأثير على وجه الدقة مَنْ الذي عرض الصلح على الآخر. إلا أن ابن القلانسي كان أكثر وضوحاً منه، ويرى أن ملك بيت المقدس هو الذي أراد هذه المصالحة، وهو الذي بدأ بها، حيث يقول: «وترددت رسل الملك بلدوين إلى ظهير الدين في التماس المهادنة» مما يعني أن بلدوين أرسل رسله مرات عدة إلى طغتكين، وكان هذا الأخير يرفض هذه الهدنة لسببين:

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧١، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣١٨.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٢٧، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص٧، العظيمي: تاريخ حلب ص٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٧.

١- كي لا يُظهر ضعفه لملك بيت المقدس. وقد كان بالفعل ضعيفاً لدرجة أن ابن الأثير اعتبر هذه الهدنة من لطف الله على المسلمين.

٢- حتى يحقق أكبر قدر من المكاسب في حال بدأت المفاوضات بين الطرفين.

وعندما استمرت رسل بلدوين في التردد على دمشق، وافق الأتابك على الهدنة، بينما يرى رنسيمان أنها جاءت من الطرفين حيث يقول: «لعل الرغبة في عقد هدنة جاءت من جانب بلدوين، نتيجة لما حاق بجرفاس من هزيمة، وأيضاً من قبل المسلمين عقب الغارتين[١] اللتين وقعتا مؤخراً»[٢].

واتفق الطرفان على أن يكون «السواد أثلاثاً: للأتراك الثلث، للإفرنج والفلاحين الثلثان»[٣]. ويرى رنسيمان أن هذه الهدنة تمت بناء على تشابك المصالح بينهما، وأن أسباب الهدنة ترجع إلى دواع تجارية، لأن الغارات دمَّرت التجارة البرية التي تجتاز الإقليم، وسوف تفيد جميع الأطراف من استئناف التجارة[٤] كما أن الهدنة ليس لها إلا صفة محلية، فَلَمْ تمنع طغتكين من النهوض لمساعدة المدن الإسلامية الساحلية، ولم توقِف محاولة بلدوين من إخضاع

(١) يقول رنسيمان عن الغارتين: قاد أحدهما حاج مسيحي قدم حديثاً إلى فلسطين، وهو وليم كليتون بن روبرت النورمندي، فهاجم أميرة عربية موسرة، كانت قادمة من بلاد العرب إلى دمشق، بكل ما تملك من الأمتعة، بينما وقعت الغارة الثانية على قافلة تجارية من دمشق قاصدة مصر، وفي الغارة الأولى وقع في أيدي الفرنج أربعة آلاف جمل، بينما حاز الفرنج في الغارة الثانية كل ما في القافلة من السلع التجارية، وأجهز البدو فيما بعد على من صادفوه حياً من رجالها، وانتفضت الهدنة سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م حينما أغار بلدوين على أراضي دمشق». ج٢ ص١٥٨. ويذكر ابن القلانسي أن الهدنة نقضها بلدوين في عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م ص٢٨٩.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص١٥٨.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٧٥.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص١٥٧.

مدينة بعلبك له»[١].

ولا شك أن هذا التنازل الذي قدَّمه ظهير الدين للفرنج، لم يكن الأخير، وإنما استمر في ذلك لأكثر من مرة، لإدراك الصليبيين أن صاحب دمشق يبحث دائماً عن مصالحه الشخصية على حساب مصالح أمته، وأنه مستعد لتقديم الكثير من التنازلات من أجل التمسك بالسلطة. بدليل أنه قدّم تنازلاً آخر للفرنج، عندما عَلِم بتوجّه الإفرنج إلى رفنية عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م بعد سيطرتهم على طرابلس، فتوجَّه إليها، وخيّم بالقرب من حمص، ويرى سبط ابن الجوزي أن تحرك طغتكين جاء بعد نهبها من دون منازلتها[٢] ويقول ابن القلانسي: «فلم يتمكن الإفرنج من منازلتها ومضايقتها وترددت بينه وبينهم مراسلات ومخاطبات، أفضت إلى أن أجاب كل واحد من الفريقين إلى تقرير الموادعة على الأعمال والمسالمة»[٣].

إلى هنا يبدو أن كل شيء كان طبيعياً، ومن هذا الخبر يتضح أن الكفتين كانتا متساويتين بين الطرفين، بدليل أن ابن القلانسي قال إن المراسلات والمخاطبات ترددت بينهما، من دون أن يحدد من بدأ في هذه المراسلات، وكان قصده من ذلك، أن يضع طغتكين في كفة متساوية في القوة مع الإفرنج، كي لا يقلل من قيمته، لكن الغريب فيما بعد هو أن تكون شروط الصلح والموادعة لصالح الفرنج، وتقديم صاحب دمشق تنازلات عدة.

فقد اتفق الطرفان على الشروط التالية[٤]:

- أن يكون للإفرنج الثلث من استغلال البقاع، ويكون لهم أيضاً حصنا

(١) المصدر نفسه: ج٢ ص١٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٢٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٧٦.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧٦.

المنيطرة[١] وابن عكار[٢].

- يكف الإفرنج عن العيث والفساد في الأعمال والأطراف.

- أما حصون: مصيات[٣] والطوبان[٤] والأكراد[٥] فهي داخلة في شروط الموادعة، ويحمل أهلها مالاً معيناً كل سنة إلى الإفرنج[٦].

ولعل أهم ما في هذه التنازلات الكبيرة التي غنمها الإفرنج، أنهم حققوا كل ذلك من دون وقوع أي حرب، ومن دون أن يخسروا قطرة دم واحدة! وكل ما قدموه مقابل كل تلك الغنائم هو أن يكفوا عن العيث والفساد! وكأن طغتكين قدّم لهم كل تلك الأراضي والحصون هدية وعلى طبق من ذهب، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كَفَّ الإفرنج عن العيث والفساد، بعد أن حققوا تلك المغانم الكثيرة؟ بالطبع لا، لأن ابن القلانسي أجاب عن هذا السؤال في نهاية الخبر نفسه عندما قال: «فأقاموا على ذلك مدة يسيرة، فلم يلبثوا على ما تقرر، وعادوا إلى رسمهم في الفساد والعناد»[٧].

---

(١) حصن المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس. المصدر نفسه: حاشية (١) ص٢٧٦.

(٢) حصن ابن عكار: قلعة صغيرة في شمال لبنان (٢٥ ميلًا تقريباً إلى الشمال الشرقي من طرابلس) تربض فوق جرف جبلي على السفح الشمالية لجبل عكار. المصدر نفسه: حاشية (٢) ص٢٧٦.

(٣) حصن مصيات: قلعة ومدينة صغيرة في وسط سوريا إلى الغرب من مدينة حماة، تقع فوق تل متدرج الانحدار في الشعاب الشرقية لجبال العلويين. المصدر نفسه: حاشية (٣) ص٢٧٦.

(٤) حصن الطوبان: يقع ما بين طرسوس وطرابلس. المصدر نفسه: حاشية (٤) ص٢٧٦.

(٥) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. الحموي: ياقوت ج٢ ص٢٦٤، وتعرف الآن بقلعة الحصن، تربض في وسط سوريا إلى الغرب من حمص في منطقة وادي النضارة، موقعها ممتاز فوق ذروة مرتفعة عن ٢١٠٠ قدم، وتحيط بها من جميع جهاتها مدرجات متوسطة الانحدار. المصدر نفسه: حاشية (٥) ص٢٧٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٧٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٢٦.

(٧) المصدر نفسه: ص٢٧٦.

١٤- هزيمة طغتكين عند عرقة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م:

بعد مقتل جرفاس، عقد الأتابك مع بلدوين الأول هدنة مدتها أربع سنوات[١] إذ يقول ابن القلانسي: بأن رسل بلدوين هي التي ترددت على ظهير الدين في «التماس المهادنة والموادعة، فاستقر الأمر بينهما على أن يكون السواد وجبل عوف أثلاثاً: للأتراك، وللإفرنج، وللفلاحين»[٢].

وكان ابن الأثير صادقاً في وصف تلك المهادنة بأنها كانت من لطف الله بالمسلمين[٣] كما ذكرنا آنفاً بدليل أن طغتكين في شعبان من السنة نفسها تعرض لهزيمة عند حصن عرقة، إلا أن الانتصار الذي حققه الأتابك على ابن أخت بلدوين، جعله لا يدرك الحقيقة، وكأن ذلك الانتصار أخفى ضعفه، ومن ثمَّ تعرَّض للهزيمة، أما عن أسبابها ومسبباتها، فنترك ابن الأثير يُحدثنا عن تفاصيلها، حيث يقول في حوادث ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م: «في هذه السنة، في شعبان، انهزم أتابك طغتكين من الفرنج، وسبب ذلك أن حصن عرقة، وهو من أعمال طرابلس، كان بيد غلام للقاضي فخر الملك أبي علي بن عمار، صاحب طرابلس، وهو من الحصون المنيعة، فعصى على مولاه، فضاق به القوت، وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الفرنج في نواحيه، فأرسل إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق، وقال له: أَرسِلْ من يتسلَّم هذا الحصن مني، قد عجزتُ عن حفظه، ولَأَن يأخذه المسلمون خيراً لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج، فبعث إليه طغتكين صاحباً له اسمه إسرائيل، في ثلاثمائة رجل، فتسلَّم الحصن، فلمَّا نزل غلام ابن عمار منه رماه إسرائيل في الأخلاط بسهم فقتله، وكان قصده بذلك

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٢٧.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٧٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٢٧.

أن لا يطَّلع أتابك طغتكين على ما خلَّفه بالقلعة من المال، وأراد طغتكين قصد الحصن للاطلاع عليه، وتقويته بالعساكر، والأقوات، وآلات الحرب، فنزل الغيث والثلج مدة شهرين ليلاً ونهاراً، فمنعه. فلمَّا زال ذلك سار في أربعة آلاف فارس ففتح حصوناً للفرنج منها: حصن الأكمة، فلمَّا سمع السرداني الفرنجي بمجيء طغتكين، وهو على حصار طرابلس، توجّه في ثلاثمائة فارس، أشرف أوائل أصحابه على عسكر طغتكين، انهزموا، وخلّوا ثقلهم ورجالهم ودوابهم للفرنج، فغنموا، وقووا به، وزاد في تجمّلهم، ووصل المسلمون إلى حمص على أقبح حال من التقطع، ولم يُقتل منهم أحد لأنه لم تُجر حرب. وقصد السرداني إلى عرقة، فلمَّا نازلها طلب من كان بها الأمان، فأمَّنهم على نفوسهم، وتسلَّم الحصن، فلمَّا خرج مَنْ فيه قبض على إسرائيل، وقال: لا أطلق عنه إلا بإطلاق فلان، وهو أسير كان بدمشق من الفرنج منذ سبع سنين، ففودي به، وأطلقا معاً، ولمَّا وصل طغتكين إلى دمشق بعد الهزيمة أرسل إليه ملك القدس يقول له: «لا تظن أنني أنقُضُ الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة، فالملوك ينالهم أكثر مما نالك، ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة. وكان طغتكين خائفاً أن يُقصد بعد هذه الكسرة، فينال من بلده كل ما أراد»[1].

وربما الفائدة الوحيدة التي جناها الأتابك من عقد تلك الهدنة، أن بلدوين لم يُهاجم دمشق، رغم أنه كان قادراً على ذلك، وربما حينها قد يتعرض ظهير الدين لهزيمة منكرة.

وإذا كان ابن الأثير علّق على تلك الهدنة بقوله إنها كانت من لطف الله، فإن مؤرخ دمشق اكتفى بذكر الهدنة فقط، من دون أن ينبس ببنت شفه عنها سواء

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٢٨.

بالسلب أو الإيجاب، وهذا الأمر أصبح واضحاً من أسلوبه في الكتابة حين يكون ظهير الدين في موقف محرج، فإنه يكتفي بذكر الخبر.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك: ماذا حدث بعد هذه الهزيمة التي لم يحسب لها طغتكين حساباً؟. لا شك أن ما حدث كان أمراً مُروعاً فقد سقطت طرابلس بيد الفرنج في ١١ ذي الحجة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م[١] وهي التي كانت لدى الفاطميين في هذه المرحلة، من دون أن يستطيع الأتابك مد يد العون لأهلها، وظل مع كل القادة المسلمين يتفرجون على القاتل كيف يفترس ضحيته، وكيف يفتك بأهل طرابلس، من دون أن يتحرك لهم جفن، رغم أن حصار طرابلس استمر خمسة أشهر، ويكفي أن نعرف أن الصليبيين «نهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها، وما كان منها من خزائن أربابها ما لا يحد عدده، ولا يحصر ذكره»[٢].

وربما أن من الأسباب التي دعت طغتكين إلى عدم مساعدة طرابلس، أنها كانت قد خرجت من يد صاحبه ابن عمار قبل سنة من سقوطها، وذلك عندما أراد الخروج إلى بغداد، فاستناب أبا المناقب ابن عمه، الذي بدوره أظهر العصيان لابن عمار، ونادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش الفاطمي. ولكن هل يُقبل منه هذا التصرف؟ ومِن الواضح أن مسألة التفرج هذه التي تكررت مع سقوط ثلاث مدن عربية من قبل، أصبحت لا تحرك قلوب السلاطين والملوك ولا حتى مشاعرهم.

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٧٤.

١٥- إلى بغداد وبعلبك ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م:

عندما عزم السلطان محمد بن ملكشاه على غزو الفرنج، أمر طغتكين أن يقيم مكانه بالعسكر إلى أن يأتيه الإمداد، ولكن حدثت بعض الأمور حالت دون وصول تلك العساكر إلى ظهير الدين، فقرر الأخير وابن عمار التوجه إلى بغداد، لملاقاة الخليفة والسلطان، حاملاً الهدايا والتحف إليهما، كي يوضح لهما ما يجري من أحداث في الشام، ويحث السلطان على الجهاد، وعندما وصل إلى وادي المياه، وصلته أخبار تفيد أن الخليفة قلّد الشام لشخص آخر، هنا قرر طغتكين العودة إلى دمشق، وسلّم الهدايا لابن عمار الذي واصل المسير نحو بغداد، وهناك علم بعدم صحة الأخبار التي وردته بشأن الشام.

وفي طريق عودته إلى الشام علم ظهير الدين أن والي بعلبك كمشتكين الخادم، اتفق مع الإفرنج، وأمرهم بالغارات على أطراف المدن الإسلامية، فكتب طغتكين إلى ولده تاج الملوك في دمشق بإنفاذ العساكر إلى بعلبك، وبالفعل توجه إلى هناك ونصب المجانيق على المدينة، وأثناء ذلك وصل الأتابك وجنوده إلى بعلبك، إلا أن كمشتكين سرعان ما أعلن استسلامه، وتسلَّم طغتكين المدينة منه، وسلّمها إلى ولده تاج الملوك بوري، وأقطع كمشتكين في دمشق ليكون قريباً منه[1].

١٦- إلى الرقة وقلعة جعبر ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م:

عندما قرر عدد من قادة المسلمين، ومنهم: صاحب أرمينية وخلاط وميافارقين محمد شاه سقمان، وصاحب الموصل شرف الدين مودود، وصاحب ماردين نجم الدين إيلغازي، مواجهة الإفرنج في الرها أولاً والشام

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٢٧.

ثانياً، وتوجهوا إلى الرها بالفعل، سار طغتكين إلى ناحية الرقة وقلعة جعبر، فوجد الإفرنج على الفرات، ولمَّا عَلِم المسلمون بذلك تركوا الرها وتوجَّهوا نحو الفرات، وهناك التقى الفريقان، وتمكَّن الإفرنج من تكبيد المسلمين خسائر فادحة، ثم عادوا إلى مراكزهم، وكان الأتابك يريد الاشتراك في هذه المعركة، لكنه وصل متأخراً، فقرر العودة إلى دمشق خوفاً من أن يهاجمها الفرنج، وتوجَّه القادة المسلمون إلى الرها لمنازلتها، ولمَّا طالت المنازلة عليهم، قرروا التفرق والعودة إلى بلادهم من دون أن يحققوا شيئاً[١].

١٧- إلى حوران ٥٠٤هـ/ ١١١٠م:

نقض صاحب بيت المقدس الملك بلدوين الهدنة التي كانت بينه وبين صاحب دمشق، وهي التي تم الاتفاق بشأنها في العام ٥٠٤هـ/ ١١١١م وقاد ملك بيت المقدس جيشه، وكان معه صاحب طرابلس ريموند صنجيل، واتجه ناحية البثنية من حوران «وقد أطرح كل مَنْ في الشام، ولم يبق في عينه أمر يحفل به من جهتهم»[٢] وعندما عَلِم طغتكين بذلك توجَّه إليه، ونزل في رأس الماء[٣]لكنه سرعان ما عاد إلى اللجاة[٤] وقد أراد ظهير الدين خداع بلدوين ومَنْ معه كي يلحقوا به إلى الصنمين[٥] ويوقعهم في شركه. وهو ما فعله الفرنج، فقد

(١) المصدر نفسه: ج١٣ ص٣٢٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٨٩.

(٣) اسمه الآن نبع السريا قرب قرية فقيع بحوران بين جاسم ونوى، جرت مياهه إلى قرية الشيخ مسكين ويبعد عن دمشق مسافة ٧٠ كم. المصدر نفسه: حاشية (١) ص٢٨٩.

(٤) اللجاة: اسم للحرة السوداء بأرض صلخد من نواحي الشام فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة يشملها هذا الاسم. الحموي: ج٥ ص١٣.

(٥) الصنمين: على الطريق الدولية التي تصل دمشق بدرعا، وتبعد عن دمشق حوالي ١٥ ميلاً. ابن القلانسي: حاشية (٢) ص٢٨٩، كتاب المعجم الجغرافي: ج ٤ ص١٥٠.

لحقوا بجيش ظهير الدين، قام بمحاصرتهم «وفرَّق العسكر عليهم من جهات عدة، وبثَّ في المعابر والمسالك خيلاً تمنع حمل الميرة إليهم وضايقهم»[١] إزاء هذا الحصار الذي فرضه الأتابك على الفرنج والذي أدى إلى منع وصول الميرة أو التموين إليهم، ورغم أن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن مدة هذا الحصار الذي لم يدم طويلاً، لكنه في النهاية حقق الغاية المطلوبة، فقد اضطر الفرنج إلى قبول مبدأ السلم أو كما يقول ابن القلانسي «المسالمة والموادعة»[٢].

ولم يكن من السهل على طغتكين تقديم هذا التنازل رغم أنه كان يحاصر بلدوين ومَنْ معه، إلا لأنه يعرف جيداً قوة الصليبيين واجتماعهم، في ظل ضعف المسلمين وتفرّقهم، لا سيما بعد سقوط طرابلس، حيث أن سقوط هذه المدينة غيّر كثيراً في ميزان القوة لصالح الصليبيين، لهذا لم يكن أمام ظهير الدين إلا الرضا بأقل الخسائر حسب وجهة نظره.

وبعد أن تواصلت الرسل بين الطرفين مرات عدة، اضطر الأتابك إلى تقديم تنازلات للفرنج واتفقوا على «أن يكون لبلدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والحيانية[٣] مضافاً إلى ما في يده، ومن هذه الأعمال التي يليها في أيدي العرب من آل جراح»[٤] كل ذلك كان يعني استمرار صاحب دمشق في تقديم التنازلات للفرنج.

(١) ابن القلانسي: ص٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٨٩-٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٨٩-٢٩٠.

١٨- إلى حلب ثم شيزر ٥٠٤هـ/ ١١١٠م:

قرر السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه إرسال الجيوش لقتال الفرنجة، بعد أن وصلت إلى بغداد جماعة من الفقهاء والصوفية والتجار إلى جامع السلطان في بغداد يوم الجمعة «فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر، وكسروه، وصاحوا وبكوا لِمَا لحق الإسلام من الفرنج، وقتْل الرجال وسبْي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بما يُسكّنهم من إنفاذ العساكر، والانتصار للإسلام من الإفرنج والكفار، وعاودوا في الجمعة الثانية المصير في جامع الخليفة، وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب»[١] فاجتمع العديد من عساكر المسلمين، التي كان يقودها صاحب الموصل الأمير شرف الدين مودود، إضافة إلى كل من[٢]: صاحب تبريز وديار بكر الأمير سقمان القطبي والأمير أيلبكي وزنكي ابنا برسق، ولهما همذان وما جاورهما، وصاحب مراغة في أذربيجان الأمير أحمديل، والأمير أبي الهيجاء وكذلك الأمير إياز بن إيلغازي، وتوجَّهوا جميعاً إلى مدينة سنجار وفتحوا العديد من حصون الفرنج، ثم توجَّهوا إلى الرها وقاموا بمحاصرتها، لكن هذا الحصار لم يحقق أهدافه بعد أن وفرَّ الفرنج في الرها «كل ما يحتاجون إليه، بعد أن كانوا قليلي الميرة، وقد أشرفوا على أن يُؤخذوا، وأخذوا كل مَنْ فيه عجز وضعف وفقر، وعادوا إلى الفرات»[٣].

بعد ذلك عبرت العساكر السلطانية -كما يسميها ابن الأثير- الفرات،

(١) المصدر نفسه: ص٢٨٨.

(٢) أوردنا جميع أسماء الأمراء التي ذكرها ابن الأثير وابن القلانسي وسبط ابن الجوزي، مع بعض الاختلافات فيما بينهم.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٣.

وتوجَّهت إلى تل باشر وقاموا بمحاصرة قلعتها خمسة وأربعين يوماً[(١)] دون جدوى، ثم توجَّهوا إلى حلب للاجتماع بالملك رضوان بن تتش لكنه أغلق الباب أمامهم ولم يجتمع بهم[(٢)] فكتبوا إلى صاحب دمشق الأتابك طغتكين وطلبوا الاجتماع به، بل قرروا «رد التدبير فيما يعتمدونه عليه إليه»[(٣)] كما وصل إليه كتاب من السلطان بهذا الشأن، فلم يكتف الأتابك باستقبالهم بل توجَّه بنفسه إليهم بعد أن «جمع ما أمكنه من رجال حمص وحماة ورفنية وسائر البلاد الشامية»[(٤)] وكما يقول ابن القلانسي: «فاقتضت الصورة وصائب الرأي أن ينهض في العسكر نحوهم للاعتضاد على الجهاد، وتقوية النفوس على حماية هذه البلاد من أهل الشرك والإلحاد»[(٥)] وعندما وصل إليهم تم استقباله بحفاوة بالغة، وبالكثير من الاحترام، «وقويت بوصوله النفوس واشتدت الظهور وسرّوا بحصوله عندهم سروراً»[(٦)] ولكن بعد ذلك وقعت أمور عدة غيّرت مجرى الأحداث نوجزها فيما يلي:

- الملك رضوان كما اتضح، تخلى عن الجيش ورفض استقبالهم خوفاً على بلاده منهم.

- أدرك طغتكين أن كل هذه العساكر لم تكن لديهم عزيمة صادقة لجهاد

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٤٤، ابن القلانسي: ص٢٩١.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٩١.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٩١.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٩١.

الإفرنج[١] لهذا قرر مهادنة الفرنج سراً[٢] وهو ما يؤكد أن غالبية تلك العساكر بما فيهم ملك دمشق لم يكونوا جادين في جهادهم، وان الشكوك فيما بينهم تكاد تتسع.

- اشتداد المرض بسقمان القطبي، فعاد أدراجه إلى بلاده، وتوفي قبل وصوله الفرات[٣].

- كان برسق، وهو أكبر الأمراء، به نقرس[٤] وكان يُحمل في محفة، ولم يستطع فعل أو حتى قول شيء[٥].

- أراد أحمديل العودة ليطلب من السلطان أن يقطعه ما يملكه سقمان من البلاد، في ظل مرض الأخير[٦].

- ظهر لطغتكين سوء نية لدى بعض القادة تجاهه، وهو ما جعله ينفر منهم، وقد علم أن الملك رضوان راسل بعض أمراء العساكر للعمل ضده[٧].

وقد أثَّر فشل هذا الحلف الإسلامي الكبير، الذي تألف من العديد من الأمراء، سلباً في الأمراء أنفسهم، وفي هذا التحالف الذي انفرط عقده قبل أن يكتمل، لأن هذا الفشل الذريع أكد حقيقة لا مناص منها أن التفرق هو الشيء الحقيقي الوحيد الموجود بين القوات الإسلامية، وأن هذه القوات لا يمكن

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٩١.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٤.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٩٢.

(٤) ابن الأثير: ح٨ ص٥٤٤. النقرس: داء معروف يأخذ في الرجْلن وفي التهذيب يأخذ في المفاصل.ابن منظور: ج٨ ص٦٧٣.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٩٣.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٤.

(٧) ابن القلانسي: ص٢٩٣.

أن تتمكن من القضاء على الصليبيين، وأن هذا الطريق مازال بعيد المنال، وأن الأمة بحاجة إلى قائد حقيقي يقودها إلى مواجهة الفرنج بصورة أكثر جدية وأكثر صدقاً، ومع ذلك لا يمكن العودة عن هذا الطريق مطلقاً، وإنَّما لا بد من بقاء بصيص من الأمل حتى لو تمثَّل ذلك في تشكيل تحالفات ثنائية فيما بعد، وهو ما حدث بالفعل، حينما تشكل حلف بين الأتابك طغتكين وشرف الدين مودود في عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م لمواجهة الخطر الصليبي في معركة طبرية.

وكانت النتيجة، بعد أن تفرقت كل تلك العساكر الإسلامية، أراد الفرنج مهاجمة شيزر، ولمَّا علم صاحبها سلطان بن منقذ بذلك، سار إلى مودود وظهير الدين «وهوّن عليهما أمر الفرنج، وحرّضهما على الجهاد»[١] فتوجَّهوا جميعاً إلى شيزر لصد العدوان الصليبي، ولمَّا عَلِم الفرنج بذلك تخلّوا عن مهاجمة شيزر، وعادوا إلى أفامية[٢].

١٩- إلى بانياس ثم إلى الساحل عند صور- صيدا:

بعد فشل حملة المسلمين عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م عقد الفرنج بقيادة ملك بيت المقدس الملك بلدوين، العزم على قصد مدينة صور ومحاصرتها، فحشدوا وجمعوا ونازلوها وحصروها في ٢٥ جمادى الأولى ٥٠٥هـ/ ١١١٣م[٣]. ويشرح الصوري ما قام به بلدوين بقوله: «جمع كل السفن التي وجدها على طول الساحل، وأعدّ اسطولاً منها، وأمره بالتقدم إلى مدينة صور بالسرعة الكاملة، وقام شخصياً بجمع كل القوات البرية والناس من جميع أنحاء المملكة،

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٤.

(٢) ابن الأثير يرى أن هذه الأحداث وقعت في العام ٥٠٥هـ.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٤٤-٥٤٥.

وزحف إلى هناك، ووضع جنوده في دائرة حول المدينة»[١]. فقام والي صور عز الملك الأعز وأهلها بمراسلة ظهير الدين «يستصرخون به ويستنجدونه»[٢] وأكدوا له أنهم على استعداد لتسليمها إليه إن بادر إليهم، وتعجَّل في إنقاذهم، ومَدَّ يد العون لهم من خلال ارسال العسكر إلى البلد قبل أن يسقط بيد الفرنج، وأخبروه «إن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الإفرنج»[٣].

الغريب في الأمر هو الصمت المطبق من قبل الدولة الفاطمية حول ما يحدث لصور رغم أن هذا البلد الذي يقع تحت سلطتهم، وكان السبب وراء طلب أهل صور العون من دمشق ليأسهم من وصول المساعدة من مصر، فقام أتابك دمشق بما يلي:

- سار بنفسه إلى بانياس[٤].

- أسرع «بإنفاذ جماعة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين، فرساناً رماة أبطالاً»[٥] إلى صور.

- بث السرايا في المنطقة كي تتابع جميع تحركات الفرنج ومراقبتهم.

- بث «الحرامية في أعمال الإفرنج، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والإخراب والحرق طلباً لإزعاجهم وترحيلهم عنها»[٦].

وتمكَّنت القوات التي أرسلها صاحب دمشق إلى مدينة صور من دخول

---

(١) الصوري: ج١ ص٥٤٥.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٩٥.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٥.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٩٥.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٩٥.

البلد والوقوف إلى جانب أهلها والصمود أمام الفرنج بعدما دافع أهلها عنها بضراوة حتى «قيل أن أهل صور رشقوا في بعض أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم»[١].

وهنا نترك فوشيه الشارتري يصف ما قام به ملك بيت المقدس بلدوين وأهل صور بقوله: «وكان قد أمر ببناء برجين خشبيين أعلى من سور المدينة، وحركهما نحو السور، وفي ظنه أنه يمكن أن يستولي على المدينة بهذه الطريقة. لكن المسلمين الذين شعروا بخطورة ذلك عليهم، هزموا المهارة بالمهارة، وجابهوا المكر بالمكر، وقابلوا الشجاعة بالشجاعة. فعندما رأوا أن ارتفاع برجيْنا يفوق ارتفاع سور مدينتهم، توصلوا بسرعة إلى حل للمشكلة. فقد بنوا برجين فوق أسوارهم في أثناء الليل، وكان هذان البرجان مرتفعين، بحيث تمكّن المسلمون من الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد تماماً من أعلى، عندما أشعلوا النيران في برجينا وأحرقوهما، وهُزِم جنودنا بسبب هذا»[٢].

أما ظهير الدين الذي خرج إلى بانياس، ومنها «أخذ يُغير على أعمال الفرنج»[٣] بهدف تخفيف الحصار عن صور، وهذه الطريقة من الأساليب الحربية التي كانت مُتّبعة في ذلك الوقت، وقد فعلها الكثير من القادة المسلمين، عندما كانوا يرون الصليبيين يحاصرون بلدة ما، فإنهم يتوجَّهون لأي بلد يتبع الفرنج فيقومون بمحاصرتها بهدف الضغط عليهم وتشتيت انتباههم، حتى يدب الخوف في قلوبهم.

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٩٥.

(٢) الشارتري: ص٢١٨.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٦.

ثم توجَّه طغتكين إلى أحد حصونهم ويدعى «الحبيس[١] الذي في السواد، وهو حصن منيع لا يرام»[٢] فقام بمحاصرته حتى اقتحمه ثم قتل كل مَنْ فيه، وملكه بالقوة، وهو بذلك يرسل رسالة إلى الفرنج بأنه قادر على منازلتهم وأخذ ما بيدهم من حصون حتى لو حاصروا المدن الإسلامية، وحققوا منها مكاسب معينة. ولم يكتف بذلك بل سار إلى ميناء صيدا الذي كان بيد الفرنج «فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل»[٣] ومثل هذه التحركات لطغتكين تنم عن ذكاء هذا القائد العسكري، لذلك خافوا أن يقوم ملك دمشق بغزو بلادهم، وبالتالي قرروا العودة إلى عكا في ١٠ شوال ٥٠٥هـ/ ١١١١م بعد حصار مدينة صور دام أربعة أشهر ونصف الشهر[٤].

وكان من الطبيعي بعد جلاء هذه الأحداث ألا يفي أهل صور بالوعد الذي قطعوه إلى طغتكين من تسليم البلد إليه، على اعتبار أن سمعته وشدته وغلظته في أحيان كثيرة قد سبقت أفعاله إليهم، لكنهم تفاجؤوا بردة فعله حينما قال لهم بعد نكثهم بوعودهم له: «إنما فعلتُ ما فعلتُ لله تعالى، وللمسلمين، لا لرغبة في مال ولا مملكة»[٥] ويزيد سبط ابن الجوزي: «ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي»[٦].

ورغم أن بعض المؤرخين اعتبروا أن هذا الأمر دليل على تديّن ملك

(١) الحبيس: قلعة بالسواد من أعمال دمشق يقال لها حبيس جلدك. الحموي: ج٢ ص٢١٦.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٩٥-٢٩٦.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٤٦.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٩٩.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٩٩.

(٦) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٣٥.

دمشق، لكن الحقيقة أن كلام الأتابك هذا يخالف سيرته، واستعماله القوة والبطش والقتل أحياناً كثيرة لأخذ ما يريد، ولا يمكن أن تكون مجرد مقولة قالها في لحظة ما لهدف ما، دليلاً على تديّنه، فلا يمكن الحكم على شخص بالتدين إلا إذا كانت سيرته تؤكد على ذلك. أما القول لماذا لم يبطش بأهل صور إذن. ولَمْ يقتلهم بعدما نكثوا بوعودهم معه؟ فبالتأكيد أنه كان يخشى معاودة الفرنج لأخذ صور، وخشيته من تسليم أهلها البلد لهم، كما أنه كان ينتظر فرصة أفضل من هذه لأخذ صور، أو ربما شهامة منه، لكنها لن تتكرر ثانية في أي بلد آخر!.

عموماً كل ما جرى لم يمنع أهل صور من الخوف من الفرنج، إذ لا طاقة لهم بمجابهتهم، كما أنهم باتوا على قناعة أن الدولة الفاطمية لن تكون سنداً لهم في المستقبل، لذلك أجمع أهل صور على تسليم البلد إلى أتابك دمشق، «بحكم ما سبق مِن نصرته لهم في تلك النوبة ومعاضدته إياهم في تلك الشدة»[١] فاختاروا منهم رسولاً يمثلهم، وتوجَّه الرسول إلى بانياس في عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢م حيث سيف الدولة مسعود، الوالي على بانياس من قبل ظهير الدين «لتقرير الحال بمحضر منه»[٢] وسار الأمير مسعود والرسول إلى دمشق، لكنهما علما أن الأتابك توجَّه إلى حماة، وخشي مسعود «أن يتأخر الأمر إلى حين عود ظهير الدين من حماة، فيبادر بلدوين بالنزول على صور، ويفوّت الغرض المطلوب فيها»[٣] لهذا لم يكن أمامه سوى الاتفاق مع ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين النائب عنه في دمشق، على أن يتوجَّه بوري بنفسه إلى بانياس لتسلم صور، وهو ما حدث بالفعل، بينما سار مسعود إلى صور «ومعه مَنْ يعتمد عليه من العسكر،

(١) ابن القلانسي: ص٣٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠١.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠١.

ولَمْ ينتظر وصول أتابك، ووصل إليها»[١] ومِن ثَمَّ استلم صور. ولمَّا عَلم طغتكين بذلك أرسل فرقة من دمشق إلى صور، محمَّلة بالأموال، لتوزيعها على أهلها وبالتالي «طيّب نفوس أهل البلد»[٢].

وبعد هذه العبارة يكملها ابن القلانسي بقوله: «وأجروا الرسم في إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ولم يُغيّر لهم رسم»[٣] وهو ما يعني أن أتابك دمشق لم يُغيّر من أوضاع صور، فبقيت تتبع الدولة الفاطمية سواء من حيث الولاء أو حتى في عملتها، لكن القوة الفعلية على أرض الواقع كانت للأتراك عبر ظهير الدين، وهو بالطبع ما أقلق الفاطميين، لأنهم لن يرضوا بأي حال من الأحوال على ذلك، لذا أسرع أتابك دمشق بإرسال رسالة إلى الوزير الفاطمي الأفضل الجمالي يُعلمه الوضع، ويُبرر له سبب وجوده في المدينة، قال فيها: «إن بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور، وإن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني دفعه عنهم، فبادرتُ بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها، والمراماة دونها إليه، وحصلوا فيها، ومتى ما وصل مَنْ يتولى أمرها، ويذب عنها، ويحميها بادرت بتسليمها إليه، وخروج نوابي منها، وأنا أرجو أن لا يُهمل أمرها وإنفاذ الأسطول[٤] بالغلة إليها، والتقوية لها»[٥].

واستحسن الوزير الفاطمي الأفضل رأي أتابك دمشق، وشكره على صنيعه، وقال له في رسالة كتبها إليه : «إن هذا الأمر وقع منا أجمل موقع، وأحسن

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠١.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠١.

(٤) ابن القلانسي رسمها الآصطول ص٣٠٢.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٠١-٣٠٢.

موضع»[١] وأرسل له اسطولًا فيه الميرة، ومال النفقة للعساكر والغلات، وكذلك الخلع الفاخرة لكل من: طغتكين وابنه بوري ولخواصه ولوالي صور مسعود[٢].

ولا شك أن هذا الموقف من ظهير الدين سيغضب الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، فقد اعتبروه متحالفاً لعدوهم اللدود، وهو ما جعل حُساد ظهير الدين كما أسماهم ابن القلانسي في قصر السلطان وقصر الخليفة، يحسبون هذا الموقف منه ضده لا له.

وذكر سبط ابن الجوزي في رسالة ظهير الدين للوزير الفاطمي: «إن الفرنج نزلوا على صور وشارفوا أخذها، وبعث أهلها إليّ يستنجدون بي، وإنني أنجدتهم بنفسي ومالي ورجالي، سألوني بعد ذلك إنفاذ عسكر إليهم فبعثتُ رجالي، متى وصل إليها مِن مصر مَنْ يذب عنها، سلَّمتُها إليه، فلا تهمل حال الأسطول وإنفاذ الغلة والقوت»[٣].

ونزلت هذه الأخبار كالصاعقة على ملك بيت المقدس الذي صب جام غضبه على القوافل التجارية، حيث عَلم أن إحدى القوافل الدمشقية قد رحلت من بصرى إلى مصر، وفيها الكثير من الأموال، فقام بالهجوم عليها والاستيلاء على كل ما فيها من الأمتعة والبضائع، إضافة إلى خمسين ألف دينار وثلاثمائة أسير، وقد تعرض الكثيرون للخسارة جراء ما حدث لهذه القافلة، لدرجة أن ابن القلانسي قال: «ولم يبق بلد من البلاد إلا وقد أصيب بعض تجاره في هذه القافلة»[٤] كما شرع ملك بيت المقدس في «الغارات على حوران والسواد، وكثر

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ج١٣ ص٣٤٦.

(٣) المصدر نفسه: ج١٣ ص٣٤٢.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٠٢.

فُساده»[١]. وقد بلغ ما استولى عليه نحو خمسين ألف دينار وثلاثمائة أسير، ثم عاد إلى عكا[٢]. ويقول ابن الأثير حول ما قام به بلدوين: «تابع الغارات على بلد دمشق، ونهبه، وخربه، أواخر سنة ست وخمسمائة، وانقطعت المواد عن دمشق، فغلت الأسعار فيها، وقلّت الأقوات»[٣]. كما يصف ابن القلانسي الحال بقوله: «وتواترت غارات بلدوين على عمل البثنية من أعمال دمشق، وانقطعت الطريق، وقلّت الأقوات بها، وغلا السعر فيها»[٤].

٢٠- إلى سليمة ثم البقاع وطبرية «معركة طبرية أو جسر الصنبرة» ٥٠٧هـ/ ١١١٣هـ:

نتيجة لِما قام به بلدوين من الإغارة على القوافل وتهديده للمدن، أدرك طغتكين ضرورة طلب العون والمساندة من صاحب الموصل شرف الدين مودود، قبل أن يستفحل الأمر، ويخرج كل شيء من يديه، خصوصاً أن مودوداً عُرف عنه الإصلاح، وحبه للجهاد وقتاله الفرنج، ويُدرك ظهير الدين أنه عندما يطلب من أمير الموصل ذلك فإنه لن يتردد مطلقاً، لذلك خاطب أتابك دمشق مودوداً بما يحبه ويهواه وهو الجهاد، فبعد أن شرح له الأوضاع، والأحوال وطلب حضوره للاعتضاد به، حثّه على «الفوز بفضيلة الجهاد»[٥] وبالطبع فإن صاحب الموصل لمْ يتردد مطلقاً أمام هذا الطلب، وقرر مساندته.

لكن صاحب الموصل في هذا الوقت على وجه التحديد، تعرّض

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٢.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٠٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٠.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٠٣.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٠٣.

لشائعات كثيرة، ما جعل العلاقة بينه وبين السلطان تبدو غير طبيعية (وقد تمت مناقشة هذا الموضوع في فصل الاغتيالات السياسية) ولمَّا تم حل المشكلة توجّه إلى الأتابك للوقوف إلى جانبه، وعندما عَلِم بلدوين بقدومه «قلق لذلك وانزعج لخَبَره»[١] لكن ما ساعد مودود أنَّ صاحب تل باشر جوسلين كان على خلاف مع خاله صاحب الرها بلدوين دي بورج[٢] وصار جوسلين مع ملك بيت المقدس بلدوين، فعَرَض جوسلين على الأتابك ظهير الدين «المصافاة والمودة، ويرغبه في الموادعة والمسالمة»[٣] وذلك مقابل أن:

- يُسلّم طغتكين لجوسلين حصن تبنين المجاور لحصن هونين، وجبل عاملة.

- يحصل ظهير الدين مقابل ذلك على حصن الحبيس الذي في السواد، ونصف السواد.

- يضمن عن بلدوين الوفاء لأتابك دمشق، والثبات على المودة والمصافاة وترك التعرّض لأي عمل من أعمال دمشق.

- لا يتعرض الأتابك لأي عمل من أعمال الفرنج[٤].

ومع كل ذلك رفض ظهير الدين كل هذه العروض، وانطلق بجيشه الذي انضم إليه من كان بحمص وحماة ورفنية[٥] وتوجَّهوا إلى مودود، والتقيا في مرج سليمة، وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من حماة، وأرسل مودود إلى كل

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٢) يسميه ابن القلانسي بلدوين الرويس.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٠٤.

من: صاحب سنجار الأمير تميرك، وصاحب ماردين الأمير إياز بن إيلغازي، ووصلوا إلى سليمة، ثم انطلقوا جميعاً إلى البقاع ووادي التيم ثم بانياس واتفقوا على ضرورة مواجهة ملك بيت المقدس، وعدم تفويت هذه الفرصة. ووصف الصوري قوات مودود بأنها: «قوات ضخمة لا حدود لها»[(١)].

ولم يذكر المؤرخون ما إذا كان مودود قد أرسل إلى هؤلاء الأمراء فقط، أو أرسل إلى غيرهم، ومن المتوقع أن مودوداً، الذي يحب اجتماع الكلمة والقتال تحت راية واحدة، راسل عدداً من الأمراء، لكن ربما لم يستجب لدعوته سوى المذكورين.

ويحدد فوشيه الشارتري طريق سير قوات المسلمين بقوله :»وقد تركوا أراضي أنطاكية التي كانت على يمينهم، وعبروا سوريا بالقرب من أفامية، وتركوا دمشق عن شمالهم، وعبروا فيما بين صور وقيصرية التي تسمى بانياس في إقليم فينيقيا»[(٢)].

على أي حال، كان عدد هؤلاء الأمراء كافياً لبث الرعب في قلب ملك بيت المقدس، وعندما «يئس من إجابة أتابك إلى الموادعة واصل الغارات والفساد في الشام»[(٣)] كما استدعى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس للوقوف إلى جانبه ضد التحالف الإسلامي الجديد كي «يُخلّص نفسه»[(٤)] لكنه لم يستدع صاحب الرها على اعتبار أنه قريب من الموصل، وبالتالي قد يتعرّض لهجوم السلاجقة أكثر من غيره.

---

(١) الصوري: ج١ ص٥٤٧.

(٢) الشارتري: ص٢٢٠.

(٣) ابن القلاسي: ص٣٠٥.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

والتقى الفريقان عند طبرية في الثالث عشر من محرم، واشتد القتال بينهم، وتعرَّض الفرنج لهزيمة فادحة «وكثر القتل فيهم والأسر»(١) بل إن ملك بيت المقدس بلدوين الأول وقع في الأسر، لكن لم يعرفه المسلمون، فأخذوا سلاحه وأطلقوه(٢). وقيل أن عدد قتلى الفرنج بلغ نحو ألفي فارس(٣) بعد أن غرق الكثير منهم في نهر الأردن أو بحيرة طبرية(٤) و«صارت البحيرة دماً وامتنع الناس من الشرب منها أياماً»(٥).

ويصف المؤرخ وليم الصوري ما حدث بقوله: «وحاول شعبنا المقاومة في البداية لصد الأعداء بالسيوف عندما انقضوا بضراوة عليهم، إلا أن الأعداد المتفوقة قهرتهم وأجبرتهم على الفرار، غير أنهم لم يجدوا السلامة في تلك الطريقة، حيث أُنزلت بهم مذبحة مريعة أثناء هروبهم، وحتى الملك نفسه رمى الراية التي كانت بيده، ونجا بصعوبة من المذبحة»(٦) واختصر رنسيمان ما حدث لبلدوين بقوله: «ونزلت به هزيمة ساحقة»(٧).

فيما قال فوشيه الشارتري: «يا له من حزن عميق، ففي ذلك اليوم جَلَبت علينا خطايانا الكبيرة عاراً عظيماً، فقد هرب الملك، وفَقَد رايته وخيمته، وكثيراً من الأثاث والأواني الفضية، كما أن البطريرك الذي كان موجوداً هرب هو

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٥٠، ابن القلانسي: ص٣٠٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٢.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٢، يقول ابن القلانسي: «فقتل فيها من الإفرنج تقدير ألفي رجل من الأعيان، ووجوه من الأبطال الشجعان» ص٣٠٦.

(٤) عاشور: ج١ ص٢٥٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٣.

(٦) الصوري: ج١ ص٥٤٨.

(٧) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

الآخر، وقد خسرنا حوالي ثلاثين من خيرة فرساننا، وحوالي ألف ومائتين من المشاة»[١].

هذا الانتصار الذي حققه المسلمون بعد فضل الله، لمْ يأت من فراغ، وإنما تحقق بعد جهود كبيرة بذلها كل مَنْ رفع راية الجهاد من قبل، سواء كربوقا أو شرف الدين مودود، وغيرهما، ولمْ يكن لمثل هذا النصر أن يتحقق إلا للمساعي التي قام بها مودود من خلال توحيد الجيوش الإسلامية تحت راية واحدة، وكذلك إخلاصه لقضية الجهاد، كما أن هذا النصر الذي تحقق بعد مدة طويلة، جعل فكرة الجهاد حقيقة واقعة، وأمراً ليس بمستحيل، متى ما توافرت النوايا الصادقة.

بعد هذا النصر الكبير الذي حققته القوات الإسلامية المتحالفة توجّه مودود وطغتكين إلى دمشق، من أجل الاحتفال بذلك، وطلب الأول من عسكره «العودة والاستراحة، ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه»[٢] ولكن بعد أسابيع قليلة قُتِل شرف الدين مودود، وكما يقول فوشيه الشارتري: «إنه لسيئ الطالع الذي ينتهي بهزيمة المنتصر»[٣] وقد لخّص رنسيمان حال الفرنج إثر مقتل مودود بعبارة واحدة: «وقد تخلَّص الفرنج من عدو لدود لهم»[٤].

فقد تعرض شرف الدين مودود لطعنة أدت إلى مقتله عند ذهابه لأداء صلاة الجمعة في جامع دمشق مع طغتكين في ظل حراسة مشددة، وهو ما جعل السلطان ينقم على الأتابك، المغضوب عليه في الأساس بسبب استيلائه على

---

(١) الشارتري: ص٢٢١.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥١.

(٣) الشارتري: ص٢٢٤.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٠٦.

دمشق من أبناء تتش، ووجّه الرأي العام الإتهامات إليه. (وقد تناولنا هذا الحدث بشيء من التفصيل في فصل الاغتيالات السياسية). وترتب على هذا القتل، بأن العلاقة باتت سيئة بين السلطان السلجوقي محمد وظهير الدين الذي خشي أن ينقلب السلطان عليه، كما يقول ابن الأثير: «وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان، لأنه نسب إليه قتل مودود»[١] ومن ثمَّ خشي أن يصدر قراراً بعزله من ولاية دمشق، لهذا قرر الأتابك أن يتصالح مع الفرنج، فيقول ابن الأثير بعدما استوحش طغتكين من السلطان، وكان معه إيلغازي الذي كان قد خلص من الأسر: «فاتفقا على الامتناع والالتجاء إلى الفرنج والاحتماء بهم، فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه، فحضر عندهما على بحيرة قَدَس[٢] عند حمص، وجدّدوا العهود»[٣]. «وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت لم يقدّروا المصلحة العليا للعالم الإسلامي، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام، مما دفعهم إلى محالفة الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم، خوفاً من أن تلتهمهما سلطنة السلاجقة في فارس واحدة بعد أخرى»[٤].

ولكن لو نظرنا إلى ابن القلانسي مؤرخ طغتكين لوجدناه يصف ما حدث كأنه أمر طبيعي، بل كأنه خلاف بين قوتين مسلمتين، لدرجة أن أصبح التصالح بين دمشق والفرنج ضرورياً لإعمار البلاد! حيث يقول: «ولمّا حصل في دمشق اتصلت المراسلة بينه وبين بلدوين ملك الإفرنج، في إيقاع المهادنة والموادعة

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٦.

(٢) بحيرة قدس: بين حمص وجبل لبنان، تنصب إليها مياه تلك الجبال، ثم تخرج منها فتصير نهراً عظيماً وهو نهر العاصي. الحموي: ج١ ص٣٥٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٦.

(٤) عاشور: ج١ ص٢٦١-٢٦٢.

والمسالمة! لتعمر الأعمال بعد الإخراب، وتأمن السوابل من شر المفسدين والخراب، فاستقرت هذه الحال بينهما، وإخلاص المودة والصفاء، وأَمِنتْ المسالك والأعمال، وصلحت الأحوال وتوفر الاستغلال»[(١)].

ولا شك أن الخاسر الأكبر من هذا القرار هما:

- أولاً: الجهاد الإسلامي ضد الفرنج، والتحالفات التي تضم العديد من القادة المسلمين، هذه التحالفات قُصمت أولا بمقتل مودود، وثانياً بخروج ظهير الدين أتابك منه، ثم انضمامه للحلف الصليبي.

- ثانياً: أتابك دمشق: رغم اختلاف الآراء حول شخصية وأفعال هذا القائد، وحتى نواياه في الجهاد، لكنه مع ذلك فقد قاتل الفرنج بشراسة في معارك كثيرة، بل كان القائد القوي الوحيد القادر على مجابهتهم وقتالهم لاسيما أن إمارته دمشق كانت الأقرب للصليبيين.

وقد برز أتابك، رغم عدم اخلاصه لقضية الجهاد بصدق، كقوة قادرة على إيقاف الصليبيين والانتصار عليهم، خصوصاً عندما يتحد مع جميع القادة المسلمين، ولعل معركة طبرية أو الصنبرة دليل على ذلك، كما أن النصر في طبرية رفع أسهم طغتكين، لكنه بتحالفه مع الصليبيين فإنه قد أساء لنفسه قبل أن يسيئ لغيره، فهو قاتل الفرنج لفترة طويلة من الزمن، رغم أن قتاله لهم كان لأغراض خاصة في نفسه تتمثل في إبعاد خطر السلاجقة وأعينهم عن مصالحه وأهدافه وتطلعاته في دمشق، وكذلك إبعاد الخطر الصليبي عنه، لكنه يبقى أنه كان يقاتلهم مهما كانت تلك الدوافع، وهذا ما جعل كافة المؤرخين يغضون الطرف عن أخطائه الكثيرة، لدرجة أنه لم يقل أحد منهم أي كلمة تسيئ له سوى

---

(١) ابن القلانسي: ص٣١٣.

الذهبي فقط عندما قال: له خرمة[١] ورغم أن تحالفه مع الصليبيين استمر لفترة محدودة لكنه كان نقطة سوداء في تاريخه.

وإضافة إلى ما سبق فإن دمشق التي كانت شوكة قوية في حلق الفرنج، وحجر عثرة من الصعب تخطيه، لكن بعد تحالف أتابكها معهم، تم تجاوزها، بل انضمت إليهم في قتال المسلمين، وهكذا تبدلّت الأدوار، فأصبح ظهير الدين، الذي كان الفرنج يحسبون له ألف حساب، صديقاً وحليفاً قوياً مهماً لهم. عدواً للمسلمين يجب القضاء عليه.

وكما سنرى من سير الأحداث أن الصراع الذي كان دائراً لسنوات طويلة بين المسلمين والفرنج، قد تداخلت خطوطه ليتحول بين المسلمين أنفسهم، وتحديداً بين أتابك دمشق والسلطان السلجوقي.

ولم يكن الأتابك وحده الذي عصى السلطان، وإنما انضم إليه إيلغازي، فوقفا إلى الجهة المعادية للمسلمين، ولا شك أن تصرف هذين القائدين الكبيرين ساهم في إضعاف القوى الإسلامية، وجعل كفة الميزان تميل لصالح الفرنج، نظراً لما يتمتعان به من شجاعة وحنكة سياسية. وتصرفهما هذا، أغضب السلطان السلجوقي غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، فرأى ضرورة أن يفرض سلطته على كل الأمراء المسلمين بالشام[٢] خصوصاً أنه لم يعد هناك أي أمير موالٍ له فيها سوى ابن منقذ في شيزر، وأمير حمص قيرجان بن قراجة[٣] فقام السلطان بتجهيز جيش كبير لقتال المنشقين، وتحديداً طغتكين وإيلغازي،

---

(١) الذهبي: السير ج١٤ ص٢٢٩، الخرم: مصدر قولك خَرَمَ، وما خرمتُ منه شيئاً أي ما نقصت وما قطعت، التخرم والإنخرام أي التشقق. ابن منظور: ج٣ ص٧٦.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص٢١٢.

(٣) المصدر نفسه: ج٢ ص٢١٢.

وهو ما يعني أن هدف هذه الحملة هو الانتقام من أتابك دمشق، وليس جهاد الفرنج[١] وكان جيش السلطان بقيادة صاحب همذان الأمير برسق بن برسق البرسقي، ومعه الأمير جيوش بك «لقتالهما على تمالئهما على عصيان السلطان، وقطْع خطبته»[٢] على أن يتوجّه كل من برسق وجيوش بك فيما بعد إلى الفرنج، وقد أوصى السلطان قائد جيشه البرسق بقتل طغتكين وتسليم بلده إلى صاحب حمص قيرجان بن قراجة، ويقول عن ذلك سبط ابن الجوزي: «وقيل إن السلطان جهّز البرسقي، وابنه منكلي صاحب همذان، وأخاه زنكي[٣] ودفع ولده مسعود إلى البرسقي، وقال له: «اقصد صاحب ماردين، ثم طغتكين، وجهَّز معه أعيان الأمراء، فسار في عشرة آلاف، فعيَّدوا عيد الأضحى على الرقة، وعبروا الفرات، وخلَّفوا إيلغازي وراءهم، وقالوا: إذا فرغنا من الشام رجعنا إليه، فنزلوا الناعورة على فرسخين من حلب، وراسلوا لؤلؤاً[٤] وطلبوا منه تسليم حلب، فقال: أمهلوني أياماً...وكان السلطان قد أوصاهم كلّما فتحوا بلداً سلّموه قيرجان[٥] بن قراجة»[٦]. وهو ما ذكره ابن الأثير أيضاً[٧] كما تمكّن الجيش السلطاني من الاستيلاء على حماة التي كانت تابعة لأتابك دمشق «وقد حوت على قدر كبير

(١) الذهبي: العبر ج٢ ص٣٩٣.

(٢) ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤.

(٣) يرسمه سبط ابن الجوزي: رتكي. ج١٣ ص٣٥٥.

(٤) بعد موت رضوان، واستلام ابنه أرسلان ألب الأخرس الحكم، سيطر لؤلؤ الخادم عليه وعلى حلب.

(٥) يرسمه سبط ابن الجوزي خرجان. ج١٣ ص٣٥٦، وابن القلانسي: خير خان.

(٦) المصدر نفسه: ج١٣ ص٣٥٥-٣٥٦.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦١.

من متاعه»[١] وفتحها برسق عنوة، ونهبها ثلاثة أيام[٢] ثم سلّمها إلى صاحب حمص[٣] كما قرر مهاجمة كفر طاب التي كانت تابعة للفرنج، وهناك «لم يستغرق القتال إلا وقتاً قصيراً، فاستولى على القلعة وسلَّمها إلى بني منقذ»[٤].

٢١- التوجه إلى أنطاكية ٥٠٨هـ/ ١١١٤م[٥]:

في ظل رغبة السلطان في القضاء على طغتكين وإيلغازي، فقد قررا طلب المساعدة من صاحب أنطاكية الفرنجي الأمير روجر[٦] وانضم إليهم ملك بيت المقدس بلدوين الأول، واتفقوا عند اجتماعهم على تشكيل تحالف ثلاثي يضمهم جميعاً، وكان هذا التحالف الجديد يعني تحوّل صاحب دمشق وصاحب ماردين رسمياً إلى صفوف الفرنج ضد المسلمين، ويقول الشارتري: «اكتشف طغتكين ملك دمشق هذا، وتأكد أن الأتراك يكنّون له العداء مثل عدائهم للفرنج، لأنه شارك باغتيال مودود.. وعقد طغتكين سلاماً مع الملك بلدوين وروجر أمير أنطاكية، بحيث ينضم إلى جيوشهما جيش ثالث، وتم عمل قوات حليفة ثلاثية لا يمكن للأتراك أن يهزموها، لأنه كان يخاف إن بقي وحيداً أن يتم القضاء عليه هو ومملكته تماماً»[٧].

---

(١) رنسيمان: ج٢ ص٢١٣، ابن الأثير: ج٨ ص٥٦١، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٨٠.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦١، ابن الوردي ج٢ ص٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٦١، اليافعي: ج٣ ص١٥٠-١٥١.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢١٤، ابن الوردي ج٢ ص٣٣، اليافعي: ج٣ ص١٥٠-١٥١، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٤، وذكره في العبر ج٢ ص٣٩٣، وذكره في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٣، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٨٠، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤.

(٥) ابن الأثير يذكر توجه طغتكين إلى أنطاكية في حوادث ٥٠٩هـ. ج٨ ص٥٦١.

(٦) يرسمه ابن الأثير روجيل.

(٧) الشارتري: ص٢٢٥.

وكان هدف الاجتماع الدفاع عن حماة، لكنّهم عندما عَلِموا باستيلاء برسق عليها، تخلّوا عن هذه الفكرة، ثم اجتمعوا من جديد بقلعة أفامية، وبقوا فيها نحو شهرين، حتى منتصف سبتمبر، وكما يقول ابن الأثير: «لمَّا رأوا عزم المسلمين على المقام، تفرَّقوا، فعاد إيلغازي إلى ماردين، وعاد طغتكين إلى دمشق، والفرنج إلى بلادهم»(١).

ويذكر ابن العديم أمراً مهماً لا يمكن اغفاله، حيث يقول: «وجعل أتابك يُريّث الفرنج عن اللقاء، خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية، فيأخذوا الشام جميعه، أو أن ينكسروا فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده»(٢). وهذا يؤكد أن أتابك دمشق كان بين نارين أحلاهما مُر، فانتصار الفرنج يعني سقوط الشام في أيديهم، بما في ذلك أحلامه ومُلك دمشق، أما انتصار العساكر السلطانية، فهو يعني أنه سيكون الخاسر الوحيد في هذه الحرب، على اعتبار أن ملوك الفرنج سيعودون إلى بلادهم حتى لو تعرَّضوا إلى الهزيمة، بينما يخسر هو بلده.

ولا شك أن الأتابك بدأ يعيش في صراع نفسي بعد القرار الذي اتخذه بوقوفه إلى جانب الفرنج في هذه المرحلة الحساسة، فقد أصبح يخشى ضياع دمشق، ففي جميع الأحوال سواء عند الانتصار أو الهزيمة سيكون هو الخاسر الأكبر فيها، لذا بدأ يشعر بالندم على قراره بترك الصف الإسلامي، وهذه حقيقة لا مناص فيها، رغم أنه، وحسب وجهة نظره، كان مجبراً على ذلك بسبب القرار الذي أصدره السلطان الخاص باغتياله.

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢١، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٨٠.

(٢) ابن العديم: ج١ ص٣٨٠.

لهذا فإن الحل الأمثل بالنسبة إلى ظهير الدين في هذا الوقت يتمثل في بقاء الوضع على ما هو عليه، وعدم وقوع المعركة التي هي قادمة لا محالة، على اعتبار أن المنتصر فيها في جميع الأحوال هم الفرنج، لأنهم إن خسروها سيتخلصون من عدو كان مزعجاً لهم، حتى وإن أصبح حليفاً لهم اليوم، وإن انتصروا فقد تذهب دمشق مِن بين يديه، وهذا هو السبب الذي جعل سبط ابن الجوزي يُرجِع السبب في عودة طغتكين إلى دمشق بالخوف عليها[1].

وما فعله الأتابك بعودته إلى دمشق ينم عن خبرة سياسية كبيرة، وحنكة في الحروب، وقراءة صحيحة لها ولنتائجها، وبالتالي من المؤكد أنه هو مَنْ أقنع الفرنج بعد ذلك في عودة كل فريق إلى بلاده، وقد جاء هذا الأمر موافقاً لهواهم بعد أن سئموا من الصبر والانتظار، وهم بعيدون عن بلادهم، خصوصاً إن خسروا المعركة، فإن القضاء عليهم قد يكون سهلاً ويسيراً.

ولكن لم يكن من اليسير تجنب هذه المعركة إن وقعت، فبعد أن توجَّه طغتكين إلى دمشق، التقى جيش السلاجقة بقيادة برسق بالفرنج وقد جاؤوا من: بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس، وذلك يوم الثلاثاء ٢٠ ربيع الآخر٥٠٩هـ[2] الموافق ١٤ سبتمبر ١١١٥م[3] بمكان يُعرف باسم دانيث[4] ومن دون الدخول في تفاصيل المعركة التي سُميت نسبة إلى المكان الذي وقعت به، انتهت بهزيمة

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٦.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٨١.

(٣) يحدد رنسيمان تاريخ وقوع المعركة في ١٤ سبتمبر ١١١٥م. ج٢ ص٢١٤.

(٤) ابن العديم: ج١ ص٣٨١، ماير: تاريخ الحروب الصليبية ص١١٤، دانيث: بلد من أعمال حلب، بين حلب وكفر طاب. الحموي: ج٢ ص٤٣٤.

المسلمين «بعدما قُتِل منهم نحو خمسمائة وأُسِر نحوها»[١] وقضي على معظم الجيش[٢] واختصر الذهبي ما حدث بقوله: «فانكسر المسلمون كسرة صعبة، وتمزَّقوا، ونجا مقدمهم (أي البرسقي) بالجهد، وتبدّل فرح الإسلام بالحزن، وجاءهم ما لم يكن في حسابهم، لأنهم رجوا النصر بعساكر السلطان، فنعوذ بالله من الخذلان»[٣]. وكما قال ابن كثير: «وتمزَّق الجيش شذر مذر»[٤].

نتيجة هذه المعركة أنهت أي أمل للسلاجقة في استعادة الشام[٥] خصوصاً بعدما أدركوا أن أتابك دمشق لَمْ يعد من السهولة كبح جماحه، وأنه مستعد لفعل أي شيء لبلوغ أهدافه، لا سيما بعدما ارتمى في أحضان الفرنج.

كما أن برسق بن برسق لم يُعمَّر طويلاً بعد هذه المعركة بعد أن تعرَّض للخزي والهوان[٦] وكان خيّراً ديّناً، وقد ندم على الهزيمة، وتوفي في العام ٥١٠هـ/ ١١١٦م عندما كان يتجهز للعودة إلى الغزاة أتاه أجله[٧].

ولمَّا سمع الحراس المسلمون الموكلون بالأسرى الذين أُخِذوا من كفر طاب ما حدث في تلك المعركة، قاموا بقتلهم[٨]. ولا يختلف اثنان على أن

---

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٨٢، اليافعي: ج٣ ص١٥١، ابن الوردي ص٣٣، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٤، وذكره في العبر ج٢ ص٣٩٣، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤، العظيمي: ص٣٦٧، فوشيه الشارتري يقدر عدد قتلى المسلمين بثلاثة آلاف. ص٢٢٧.

(٢) عاشور: الحركة ج١ ص٢٦٣.

(٣) الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٤-١٥.

(٤) ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤.

(٥) ماير: ص١١٤.

(٦) رنسيمان: ج٢ ص٢١٦.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤، العظيمي: ص٣٦٧.

(٨) يذكر ابن الأثير أن الموكل بحراسة أياز بن إيلغازي قام بقتله بعدما عرفوا نتيجة المعركة ج٨ ص٥٦٢.

الجيوش الإسلامية قاطبة، كانت تعيش في هذا الوقت في فوضى عارمة، وفرقة كبيرة، ولم يكن بينها أي تحالف حقيقي بعد مقتل مودود، باستثناء التحالف بين طغتكين وإيلغازي[١] لكنه كان إلى جانب الفرنج، بينما كان كل أمير مسلم يخاف على ما في يده من أقرب الأمراء إليه، لهذا لم يكن مستغرباً أن تميل القوة في هذا الوقت لصالح الفرنج.

والأهم من كل ما سبق، أن السلاجقة لم يعد يفكروا بدمشق التي باتوا على يقين أنها ذهبت من أيديهم إلى مملوك كان تابعاً لهم في يوم من الأيام، وبات الشك يساورهم في ذهاب الشام كله إلى الفرنج، لهذا السبب لم يعد السلطان يفكر مطلقاً بعد معركة دانيث بإعادة فرض سيطرته على الشام أو حتى دمشق.

٢٢- إلى حمص ٥٠٨هـ/ ١١١٤م:

بعد مقتل مودود أرسل السلطان محمد، الأمير آق سنقر البرسقي إلى الموصل والياً عليها، كما أرسل معه ابنه الملك مسعود في جيش كبير لقتال الفرنج، ووصل إلى الموصل وكذلك وصلت عساكرها، إضافة إلى صاحب سنجار تميرك وسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر، فسلَّمها إليه نائب مودود الذي كان يحكمها، وسار معه إلى ماردين، وفي البداية رفض إيلغازي الإذعان إليه، لكنه وافق في نهاية الأمر على ذلك، كما سيّر معه عدداً من العساكر الذين يقودهم ولده إياز، بعد أن قبض عليه، ثم توجَّه البرسقي بجيشه البالغ تعداده خمسة عشر ألف جندي[٢] إلى الرها لقتال الفرنج، ووقع القتال بينهما في ذي

(١) رنسيمان: ج٢ ص٢١٨.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٥، الحريري: ص٧٥، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٣، وذكره في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢١، ابن الوردي ج٢ ص٣٢، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٤٧، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤، رنسيمان: ج٢ ص٢٠٨.

الحجة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، ويصف ابن الأثير ما حدث بقوله: «فاشتد القتال حينئذٍ، وحمي المسلمون، وقاتلوا، فَقَتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم، وأقام عليها، وضاقت الميرة على المسلمين، فرحلوا من الرها إلى سميساط»[١]. ثم وقعت حرب بين البرسقي وإيلغازي انتصر فيها الأخير[٢].

واستطاع إياز أن يتخلّص من أسر البرسقي، وعندما علم السلطان بذلك أرسل إليه رسالة يتهدده بها، فخاف إياز منه، فتوجّه إلى حميه طغتكين، الذي أصبحت بينه وبين السلطان وحشة، بعد أن وُجّهت إليه أصابع الإتهام بقتل مودود[٣] فاتفق الاثنان على الوقوف إلى جانب الإفرنج ضد السلطان وباقي القوى الإسلامية، وكما يقول ابن الأثير: «فاتفقا على الامتناع، والالتجاء إلى الفرنج، والاحتماء بهم»[٤] ويقول الذهبي: «خلع طاعة السلطان، وعاضد الفرنج»[٥]. فقاما بمراسلة صاحب أنطاكية، واجتمعوا عند بحيرة حمص، وجددوا العهود، فعاد كل منهم إلى بلاده. ولكن: «ليس معروفاً أيهما اتخذ المبادرة لعقد الاتفاق»[٦].

والملاحظ أن ابن القلانسي لا يأتي على ذكر هذا التعاون بين طغتكين والإفرنج، وكأنه لم يحدث مطلقاً، رغم أن غالبية المؤرخين ذكروا ذلك. وقد تعمَّد ابن القلانسي اغفال هذا الأمر، حتى لا يُدين صاحبه.

وعندما كان إيلغازي في الرستن، قبض عليه صاحب حمص قيرجان بن

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٥، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤، رنسيمان: ج٢ ص٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٥٦، أبو الفداء: ج٢ ص٤٧–٤٨، رنسيمان: ج٢ ص٢١٠.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٥٦، ابن الوردي ج٢ ص٣٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢١، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤.

(٥) الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٥.

(٦) ( ) رنسيمان: ج٢ ص٢١٣.

قراجة[١] هو وعدد من رجاله الخاصين، وكان ذلك في شهر شعبان[٢] وأبلغ السلطان بالخبر، ولمَّا علم صاحب دمشق بالأمر عاد إلى حمص، وطلب من قراجة الإفراج عنه، فرفض الأخير ذلك وحلف «إن لم يعد طغتكين لنقتلن إيلغازي، فأرسل إيلغازي إلى طغتكين: إن الملاجحة تؤذيني، وتسفك دمي، والمصلحة عودك إلى دمشق، فعاد»[٣]. وعندما تأخر وصول العساكر السلطانية على صاحب حمص، خاف من الأتابك، فتصالح مع إيلغازي، واتفق معه بأن يطلقه، ويأخذ ولده إياز رهينة، ويصاهره، وبالفعل أطلقه، وتحالفا، وسلّم إليه ولده[٤].

ولا يذكر ابن القلانسي قصة مبادلة الابن بالأب، إنما يقول بعد سماعه باعتقال إيلغازي إنه: « كاتب قيرجان بن قراجة بالإنكار عليه، والإكبار لما جرى عليه، وتغيَّرت نيته فيه، وأقام أياماً في اعتقاله إلى أن أطلقه، وخلى سبيله»[٥].

٢٣- التوجه إلى رفنية ٥٠٩هـ/ ١١١٥م:

في الوقت الذي بدأت القوة فيه تميل لصالح الفرنج على حساب القوى الإسلامية، بعد موت مودود، وانضمام طغتكين وإيلغازي إليهم، قام الفرنج بحركة لم يحسبوا حسابها، ولا نتائجها، فارتدت سلباً عليهم، هذه الحركة

(١) يقول الذهبي: وسار إيلغازي إلى ديار بكر، فنزل بالرستن ليستريح، وشرب فسكر، فتبعه صاحب حمص، فأسره ودخل به حمص. تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢١. والأمر ذاته ذكره ابن القلانسي: ص٣١٥. ابن القلانسي يرسمه خيرخان.

(٢) المصدر نفسه: ص٣١٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٥٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢١، رنسيمان: ج٢ ص٢١٢.

(٥) ابن القلانسي: ص٣١٥.

أغضبت أتابك دمشق، وتمثلت في استيلائهم على رفنية في الشام وكانت تابعة لأتابك دمشق، وبعد ذلك «قووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها»[١] هذا الحدث غيّر تفكيره، وجعله يشعر بالخوف من أعداء الأمس أصدقاء اليوم، وشعر أنه ربما يكون لقمة سائغة وسهلة لهم، إن استمر في تحالفه معهم، لأنه حينئذ لن يجد من يقف إلى جانبه من المسلمين لو حدث له أي مكروه، ما جعله يفكر ملياً في العودة عن الطريق الوعر الذي سلكه وهو الوقوف في صف الفرنج، لكن عليه أولاً حل مشكلة رفنية.

ويصف ابن الأثير حال أتابك دمشق بعدما أخذ الفرنج رفنية منه بقوله: «فاهتم لذلك، وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب لها والتخريب لها». لكنه انتظر الفرصة السانحة، وعندما علم بخلوها من العساكر الذين يدافعون عنها، ولا يوجد في المدينة سوى مَن يقومون بترتيبها وحفظها «سار إليها في جريدة[٢] فلمْ يشعر بها إلا وقد هجم عليهم البلد، فدخله عنوة وقهراً، وأخذ كل مَن فيه من الفرنج أسيراً، فقتل البعض، وترك البعض، وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت أيديهم، وعادوا إلى بلاد المسلمين سالمين»[٣].

كما كان ابن القلانسي أكثر دقة في وصف ما فعله أتابك دمشق حيث يقول: «فلمْ يشعروا إلا والبلاء قد أحاط بهم من جميع جهاتهم، فهجمت الأتراك عليهم

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٣، ابن الوردي ج٢ ص٣٣، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٩، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤.

(٢) جريدة: خيل جريدة أي لا رجالة فيها، ويقال ندب القائد جريدة من الخيل إذا لم يُنهِض معهم راجلًا. ابن منظور: ج٢ ص٨٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٣، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٩.

البلد، فملكوه، وحصل كل من كان فيه في قبضة الأسر، وربقة[١] الذل والقهر، فقَتَل من قَتَل، وأَسَرَ من أَسَرَ، وغنم منهم المسلمون سوادهم[٢] وكراعهم[٣] وأثاثهم[٤] ما امتلأت به الأيدي، وسرت به النفوس، وقويت بمثله القلوب، وذلك يوم الخميس لليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة»[٥].

ويجب ألا ننسى أن حادثة رفنية وقعت في جمادى الآخرة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م[٦] وبعدها في ستة أشهر اعترف السلطان السلجوقي بظهير الدين رسمياً ملكاً على دمشق، وكتب منشوراً بذلك في محرم ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٧] - (سنتناول ذلك بالتفصيل في فصل الطريق نحو الأتابكية) وهو ما يعني أن على الأتابك أن يراجع نفسه ويعيد حساباته مع الإفرنج، وإلا ربما يضيع كل ما قام به وما حققه من نتائج.

٢٤- إلى البقاع ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٨]:

(١) ربقة: وفرج عن ربقته أي كربته. ابن منظور: ج٤ ص٥٢.

(٢) سواد القوم أي معظمهم. المصدر نفسه: ج٤ ص٧٣٨.

(٣) كراعهم: الكرع هم السفلة من الناس، وفي حديث النجاشي: فهل ينطق فيكم الكَرَع؟ قال ابن الأثير: تفسيره في الحديث: الدنيء النفس. وفي حديث علي: لو أطاعنا أبو بكر فيما أشرنا به عليه من ترك قتال أهل الردة، لغلب على هذا الأمر الكرع والأعراب، قال: هم السفلة والطغام من الناس. المصدر نفسه: ج٧ ص٦٤٢.

(٤) الأثاث: أي الكثرة والعِظَم من كل شيء. المصدر نفسه: ج١ ص٧٤.

(٥) ابن القلانسي: ص٣١٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٣١٨.

(٧) المصدر نفسه: ص٣٢٣.

(٨) في ٢٤ ذي الحجة من هذا العام توفي السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان في أصفهان، وعمره ٣٧ سنة، ومدة ملكه بعد وفاة أخيه بركيارق ١٢ سنة، وكان له خمسة أولاد: مسعود، محمود، طغرل بك، سليمان وسلجوق، وفي يوم الجمعة ٢٥ من الشهر نفسه، خطب لابنه محمود وهو ابن ١٤ سنة. ابن الأثير: ج٨ ص٥٧٢، ابن القلانسي: ص٣٢٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ =

جمع صاحب طرابلس ريموند صنجيل عسكره، وتوجَّه إلى البقاع «لإخرابه بالعيث والفساد، والإضرار، والعناد»[١] وهي عادة كان يقوم بها الفرنج من حين إلى آخر لتخريب مناطق المسلمين، من أجل إثارة الخوف والفزع والدمار، وخلال هذه الفترة، وصل إلى دمشق صاحب الموصل سيف الدين آق سنقر البرسقي من أجل تقديم العون لصاحب دمشق ظهير الدين طغتكين، وقد بالغ الأتابك في إكرام ضيفه، وحينئذ علما بما فعله صاحب طرابلس في البقاع، فاتفقا على التحرك من فورهما، ويقول ابن القلانسي: «وأغذّا السير ليلاً ونهاراً، بحيث هجموا عليهم، وهم غارون، في مخيمهم قارون، لا يشعرون، فأرهقهم العسكر، فلمْ يتمكّنوا من ركوب خيلهم، ولا أخذ سلاحهم، فمنحهم الله النصر عليهم، وأطلقوا السيف فيهم قتلاً وأسراً ونهباً»[٢] ووقعت مقتلة عظيمة في صفوف الفرنج، ولم يفلت منهم سوى قائدهم صنجيل، ونفر يسير، واستولى جيش طغتكين والبرسقي من الفرنج على الخيول والكراع والسواد[٣] وعادا إلى دمشق فرحين بهذا «النصر الهنيء، والغنائم الوافرة، والنعم المتوافرة، فلم يفقد من العسكريين البشر، ولا أصابهم بؤس ولا ضرر»[٤] وأقام البرسقي أياماً في دمشق،

= ص٣٧٦-٣٧٧، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٩٧، وذكره في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٨٠، وذكره في دول الإسلام ج٢ ص١٦، ابن الحنبلي: الشذرات ج٤ ص٣٠، ابن الوردي ج٢ ص٣٤، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٥٠، ابن العبري: مختصر الدول ص١٧٣، الدواداري: أبو بكر بن عبدالله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وهو «الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية» تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص٤٨٢، ابن تغري: ج٥ ص٢١٤.

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٢٤، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٢٤، الذهبي: العبر ج٢ ص٣٩٥، وذكره في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٦٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٢٤.

ثم قرر العودة إلى بلاده «بعد استحكام المودة بينه وبين ظهير الدين، والمصافاة والموافقة على الاعتضاد في الجهاد متى حدث أمر أو حَزَب خطب»[١].

٢٥- إلى طبرية ثم عسقلان ٥١٢هـ/ ١١١٨م:

في ذي الحجة ٥١١هـ/ ١١١٧م توفي ملك بيت المقدس بلدوين الأول بعد أن توجَّه إلى مصر بهدف الاستيلاء عليها[٢] ووصل إلى الفرما[٣] وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها، ثم وافته المنية قبل وصوله إلى العريش، ووصى في الحكم بعده لصاحب الرها بلدوين لي بور الذي أُطلِق عليه بلدوين الثاني[٤].

وكان طغتكين قد خرج من دمشق لقتال الفرنج، بعد أن تحالف مع مصر[٥] فنزل بين دير أيوب وكفر بصل باليرموك، ولم يكن يعلم بموت ملك بيت المقدس، حتى سمع بخبره بعد ثمانية عشر يوماً، وحينئذ وصلته رسل الملك الجديد تطلب المهادنة، فوافق ظهير الدين من حيث المبدأ، لكنه اشترط أخذ كل الأراضي الواقعة وراء نهر الأردن، وترْك المناصفة[٦] التي بينهم، وتحديداً في:

(١) المصدر نفسه: ص٣٢٤، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٤، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٦، وذكره في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٨٠، ابن الحنبلي: ج٤ ص٣٠، المقريزي: ج٣ ص٥٦، الصوري: ج١ ص٥٦٧.

(٣) الفرما: مدينة قديمة بين العريش وفسطاط، قرب قطية وشرقي تنيس على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر. الحموي: ج٤ ص٢٥٦.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٣٠، المقريزي: ج٣ ص٥٦.

(٥) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٣٢، الصوري: ج١ ص٥٦٨.

(٦) المناصفة: هي بلاد حدودية تقع بين الطرفين المتحاربين، وقد رأى حكامها سواء تلك التابعة للمسلمين أو للصليبيين، أن تدار بطريقة المناصفة، حتى يتجنب الطرفان المشاكل، ويستفيدان من عائداتها، فيتنازل المسلمون عن نصف دخلها للفرنج اتقاء لشرهم، إذا كانت تابعة لهم، وإذا كانت =

جبل عوف والحنانة[١] والصلت والغور، لكن الرسل لم توافق على ذلك، وكان ظهير الدين يتحدث من منطق القوة، لأنه يعلم أن المصريين الذين تحالف معه سيأتون إليه[٢] لهذا أراد أن يفرض على الفرنج سياسة الأمر الواقع، وكان أكثر ما يخشاه ملك بيت المقدس هو إقامة مثل التحالف، لأنه يعني وقوع مملكته بين شقي الرحى[٣] لذلك أصر طغتكين على رأيه، وقد أظهر لهم قوته، وعندما رفض الرسل العرض الذي قدمه لهم، توجَّه إلى طبرية، ونهبها، ونهب ما حولها[٤] ثم عرج إلى عسقلان لتسلّم الخلع الفاطمية[٥].

٢٦- إلى ماردين ثم حلب ٥١٢هـ/ ١١١٨م:

اجتمع الأتابك بعساكر الدولة الفاطمية المتواجدين في عسقلان، وكان عددهم سبعة آلاف فارس، وقد أرسلهم الوزير الفاطمي بعد عودة ملك بيت المقدس إلى بلاده، وأبلغ قائد الجيش المصري طغتكين بأن لديه أوامر بأن تكون جميع العساكر تحت أمر وتصرف ملك دمشق، وبقي العسكر في عسقلان لمدة شهرين، ولمَّا تيقنوا أن الفرنج قد عادوا إلى بلادهم، أو كما قال ابن الأثير: «لم يؤثروا في الفرنج أثراً»[٦] عندها قرر ظهير الدين العودة إلى دمشق، وهناك شاعت الأخبار وانتشرت بأن الفرنج قد شرعوا في الاستعداد لغزو المناطق

= بحوزة الفرنج، يقتسمون ريعها مع المسلمين كنوع من المهادنة. جوني: دمشق ص١٠٢.

(١) الحنانة: ناحية غربي الموصل. الحموي: ج٢ ص٣١٠.

(٢) الصوري: ج١ ص٥٧٥.

(٣) عاشور: ج١ ص٤٠٢.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٤.

(٥) الأصفهاني يذكر توجه طغتكين إلى طبرية وعسقلان في عام ٥١١هـ، البستان ص٣٢١.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٥.

التابعة لدمشق، فأرسل ظهير إلى جميع «أرباب الجهات والمناصب، وبعثهم على التعاون على دفع شر الملاعين بالتواز والتواظب»[١] كما بلغته معلومات تفيد بأن مائة وثلاثين فارساً من الفرنج أخذوا حصناً من أعماله يُعرف باسم حصن الحبس أو جلدك[٢] بعد أن سلّمهم إياه المستحفظ به.

وعلى الفور أرسل ظهير الدين ابنه بوري إلى الفرنج لقتالهم، وفي بادئ الأمر لمَّا علم الفرنج بقدوم جيش من دمشق، هربوا ولجؤوا إلى جبل، «فنازلهم، فأتاه أبوه ونهاه عنهم، فلَمْ يفعل، وطمع فيهم، فلمَّا أيس الفرنج، قاتلوا قتالاً مستقتلاً، فنزلوا من الجبل، وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً»[٣] فعاد جيش دمشق المنهزم إلى بلاده وهو في وضع سيئ[٤]. وعند ذلك التقى ظهير الدين بإيلغازي بن أرتق بدمشق في عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م[٥] وقد «اجتمعا وتعاهدا على بذل المكنة والاجتهاد في مجاهدة الكفرة الأضداد، وطردهم عن الإفساد في هذه المعاقل والبلاد»[٦] وخلال هذه الفترة هاجم الفرنج حوران التي كانت تابعة إلى دمشق «فنهبوا وقتلوا، وسبوا وعادوا»[٧] واتفق الاثنان على قتالهم.

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٧.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٨٥.

(٥) ابن القلانسي: ص٣٢٧، ابن الأثير يرى أن الاجتماع عقد في حلب. ج٨ ص٥٨٥، وفي هذه السنة توفي الخليفة العباسي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي وله ٤٢ سنة وخلافته ٢٥ سنة و٣ أشهر. وتولى الخلافة بعده ابنه المسترشد بالله.

(٦) ابن القلانسي: ص٣٢٧.

(٧) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٥.

٢٧- معركة ساحة الدم ٥١٣هـ/ ١١١٩م[(١)]:

نتيجة للأوضاع الصعبة التي تمر بها حلب، لا سيما بعد مقتل لؤلؤ الخادم، بدأ صاحب أنطاكية روجر في العام ٥١٢هـ/ ١١١٨م يهدد المدينة، بعد أن حدّثته نفسه بالاستيلاء عليها، فنقض الهدنة التي عقدها من قبْل مع المتصرف الأسبق في حلب بارقتاش[(٢)] وغنم من أهلها أموالًا طائلة، وكما قال ابن العديم: «أخذوا مالاً لا يحصيه إلا الله»[(٣)]. فتوجَّه فقهاء البلد وأعيانها إلى إيلغازي، وسلّموه البلد[(٤)].

(١) في هذه السنة أي ٥١٣هـ اندلعت الحرب بين السلطان محمود وعمه سنجر، انتصر فيها الثاني، وخطب له ببغداد في ٢٦ جمادى الأولى، وقطعت خطبة السلطان محمود، ثم تصالحا بعد أن سارت في الصلح والدة سنجر وهي أيضاً جدة محمود، وكتب السلطان سنجر إلى جميع أعماله بأن يخطب للسلطان محمود بعده، ويكون ولي عهده، وأعاد له كل ما كان يملكه من البلاد سوى الري. ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٩-٥٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ج١٧ ص١٧٢، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٥٢، الذهبي: دول الإسلام ج٢ ص١٨، وذكره أيضاً في تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٨٢-١٨٤، وذكره في العبر ج٢ ص٤٠٠، ابن الوردي ج٢ ص٣٥، ابن القلانسي: ص٣٣٠، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٨٦، النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص١٥.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٣٨٦.

(٤) بعد وفاة ملك حلب رضوان بن تتش، تولى الحكم ألب أرسلان، ثم قتل، بعدها تولى الوصايا على المملكة لؤلؤ الخادم المعروف باليايا، كما مر بنا آنفاً، ثم شمس الخواص بارقتاش وبعده العميد أبو المعالي المحسن بن الملحى. فدبر أمورها وساسها وضعفت حلب في هذه الفترة وخربت أعمالها. وصل إيلغازي إلى حلب وأجلسه أهلها في قلعة الشريف، ومنعوه من القلعة الكبيرة، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطانشاه في عام ٥١١هـ ثم قبض على أبو المعالي بن الملحّى، ولكن سرعان ما ساءت الأوضاع بينه وبين أهل حلب وجندها فخرج إلى ماردين وأخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعيد إلى تدبير أمور حلب. وعندما بدأ الفرنج بمضايقة عزاز وقد أشرفت على الأخذ وانقطعت قلوب أهل حلب، لأنه لم يبق أحد يستطيع تقديم العون لهم سوى عزاز، بينما ما يتبع حلب من بلاد كانت بيد الفرنج، وعندما يئسوا من وصول نجدة لهم، اتفقوا على أن يستدعوا إيلغازي من جديد ليدفع عنهم الفرنج، فوصل إلى حلب وتسلم القلعة وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان بن تتش، كما =

وقد أدرك إيلغازي خطورة الوضع، لذلك شحذ همة الأتراك والأكراد والعرب ومختلف القوى الإقليمية، كما أرسل رسوله إلى بغداد يستنفرهم على الفرنج، ويذكّرهم بما فعلوه بالمسلمين، في بلاد الجزيرة، وأنهم ملكوا قلعة عند الرها[١] من أجل تشكيل حلف قوي لمواجهة الشر القادم من أنطاكية، ودرء الخطر عن حلب، على اعتبار أن ضياع هذا البلد سوف يتبعه ضياع الشام كله، ثم طاف في أملاكه يحشد عساكره من الأتراك، كما توجَّه بنفسه إلى ماردين لجمع العساكر والمتطوعين للمشاركة في الجهاد وقتال الفرنج، ثم تجهز لاستقبال مَنْ يَقْدم عليه سواء من الأكراد في الشمال أو القبائل العربية في بادية الشام[٢] ومِن الذين استجابوا له: طغتكين[٣] وأسامة بن المبارك بن شب الكلابي، وصاحب بدليس وأرزن الأمير طغان أرسلان بن المكر[٤] أما أمير شيزر أبو العساكر سلطان بن منقذ فوعده بمهاجمة الأطراف الجنوبية لإمارة أنطاكية، كي يشغل صاحبها روجر[٥].

وبالفعل تجمَّع قادة الجيوش الذين لبّوا دعوة إيلغازي في حلب، ووصف ابن القلانسي وضع التركمان في هذا الاجتماع: «قد اجتمعوا من كل فج، وكل صوب في الأعداد الداثرة الوافرة، والقوة الظاهرة، كأنهم الأسود تطلب فرائسها،

= أنزل سلطانشاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب، وأخذ جميع أموال أبيه. ابن العديم: الزبدة ص٣٨٤-٣٨٧.

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٨٦.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص٢٣٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٢٨، لدى ابن العديم أرسلان بن دملاج. الزبدة ج١ ص٣٩٠. سبق وأن علمنا أن إيلغازي متزوج من ابنة طغتكين. ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٥٩٢-٥٩٣.

(٥) عاشور: ج١ ص٤٠٤، رنسيمان: ج٢ ص٢٣٦.

والشواهين إذا حامت على مكاسرها»[١].

وعلم المجتمعون أن روجر[٢] صاحب أنطاكية يقود جيشاً قوامة ٢٠ ألف فارس وراجل[٣] وفي «أتم عدة وأكمل شكة، وأنهم نزلوا في الموضوع المعروف بسرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب»[٤] وتوجَّه جيش الأراتقة البالغ عدده ٤٠ ألفاً إليه، وقد تلقى روجر هذا الخبر بشيء من الهدوء، فبعث برسالة إلى إيلغازي وقال له فيها: «لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك»[٥] لكنه استنجد بملك بيت المقدس بلدوين الثاني، وأبلغه بالمخاطر التي تحدق به، وناشده وناشد بقية ملوك الفرنج أيضاً «بإلحاح بالغ أن لا يتأخروا في القدوم لمساعدته في هذا الطارئ المُلح»[٦]. فأبلغه بلدوين بقدومه إليه، وتقديم العون له، وأنه سيصحب معه قوات طرابلس، وطالبه بأن يلتزم بخطة الدفاع[٧].

ورغم أن ملك بيت المقدس تحرك بسرعة وتوجَّه إلى أمير طرابلس، وضمَّا قواتهما معاً، إلا أن ذلك أدى إلى تأخرهما، وكان روجر قد خرج من أنطاكية

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٨.

(٢) المصادر العربية تسمي روجر، باسم سرجال. وهو زوج أخت ملك بيت المقدس. الصوري: ج١ ص٥٧٩.

(٣) سبط ابن الجوزي يذكر أن عدد جيش الفرنج ٢٠ ألفاً. ج١٣ ص٣٨٨، ابن الأثير يقول: ٣ آلاف فارس و٩ آلاف راجل. ج٨ ص٥٩٣، ويقول الشارتري أن روجر خرج مع كل شعبه وقادته لقتال الأترك ويذكر أن عدد قتلاه ٧ آلاف ولم يقتل من الأتراك سوى ٢٠. ص٢٤٠. الصوري يقول: كان مع روجر ٧٠٠ فارس و٣ آلاف من المشاة المدربين. ج١ ص٥٨٠، ويذكر رنسيمان أن عدد جيش الفرنج ٧٠٠ فارس و٤ آلاف راجل. ج٢ ص٢٣٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٢٩.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٥٩٣.

(٦) الصوري: ج١ ص٥٧٩.

(٧) رنسيمان: ج٢ ص٢٣٦.

وخَيّم أمام قلعة أرتاح، وانتظر وصول بلدوين عدة أيام[١] ولمَّا طال انتظاره، لم يطق صبراً «وأعلن بعناد أنه لن ينتظر أكثر من ذلك»[٢] ثم أمر الجيش أن يتقدم رغم معارضة البطريرك[٣] وقاد جيشه حتى وصل إلى موقع قرب أرتاح[٤]قريباً من جيش المسلمين، وكان إيلغازي عَلِم عن طريق عيونه بضعف الجيش الفرنجي من الناحية العددية[٥] فاستشار أصحابه، فأشاروا عليه بالتوجّه إليه، وعدم انتظاره حتى يصل إليهم، إلا أنه فضّل أن ينتظر وصول طغتكين كي يتفق معه على الخطوة التالية التي يمكنهما القيام بها معاً، لكن الأتابك تأخر كثيراً، وقد ضجر الأمراء التركمان من طول الانتظار[٦] فحثّوا إيلغازي على سرعة التحرك ومهاجمة العدو، وهو ما فعله[٧]. ومع ذلك لا يمكن الجزم بتأخر ظهير الدين، كما ذكر المؤرخون، ومن الواضح أن الأمراء هم الذين استعجلوا المسير، لسببين:

- لم يذكر ابن القلانسي أو غيره من المؤرخين أن هناك ظروفاً أعاقت ظهير الدين أثناء تحركه.

- أن الأمراء الأتراك، عندما عَلِموا بكل خطوة يقوم بها روجر، وتأكد لهم قلة عدد جيشه، مقارنة بجيوشهم، حثوا إيلغازي على سرعة التحرك، وعدم تفويت مثل هذه الفرصة الذهبية، قبْل أن يصل المدد إليه من قِبل ملك بيت

---

(١) الصوري: ج١ ص٥٨٠، رنسيمان يرى أن روجر عسكر أمام حصن تل عفرين الصغير على الحافة الشرقية لسهل سرمدا. ج٢ ص٢٣٧، وهو ما تذكره المصادر العربية.

(٢) الصوري: ج١ ص٥٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٥٨٠.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٥٨٠، عاشور: ج١ ص٤٠٤.

(٥) عاشور: ج١ ص٤٠٤.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٣٨٩، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٨٨، ابن القلانسي: ص٣٢٩.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٣٨٩.

المقدس أو غيره من أمراء الفرنج، بدليل أن ابن القلانسي قال عبارته بعد معرفة وصول صاحب أنطاكية بصيغة بلاغية: «حين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور»[١].

وفي فجر يوم السبت ٧ ربيع الأول ٥١٣هـ/ ٢٨ يونيو ١١١٩م قام إيلغازي بتطويق معسكر الفرنج، وأراد روجر كسر الحصار فأرسل عدداً من الكشافة فوقع بعضهم في الكمين، وأما مَن رجع منهم سالماً وهم قلة، فقد أكدوا لأصحابهم أنه لا سبيل لاختراق الحصار[٢] وكما يقول رنسيمان: «على أنه لم يكن ثمة أمل منذ البداية، فلا مجال للنجاة من ثنايا جحافل فرسان التركمان ورماتهم»[٣].

ويصف ابن القلانسي المعركة بعد وصول الفرنج إلى موقعها، وتحديداً عند سهل قريب من أرتاح بقوله: «فحين عرف المسلمون ذلك، طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور، فما كان بأسرع من وقوع العين على العين، تقارب الفريقان، حتى حمل المسلمون عليهم، وأحاطوا بهم من جميع الجهات، وسائر الجنبات ضرباً بالسيوف، ورشقاً بالسهام، ومنح الله تعالى وله الحمد، حزب الإسلام النصر على المردة الطغام»[٤]. ويذكر ابن العديم: «وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة، وغُلِبت فرسانها، وطُحِنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام»[٥].

وبعد مضي ساعة واحدة من فجر السبت «إلا والفرنج على الأرض سطحة

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٩.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص٢٣٨، الصوري: ج١ ص٥٨٠-٥٨١.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٢٣٨.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٢٩.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٣٩٠.

واحدة، فارسهم وراجلهم، بِخيْلهم وسلاحهم، بحيث لم يفلت منهم شخص يُخبر خَبَرهم، ووُجِد مقدمهم روجر صريعاً بين القتلى»[١] وتحقق نصر عظيم للمسلمين لم يحققوا مثله منذ سنوات طويلة[٢] وقد عُرفت هذه المعركة باسم موقعة البلاط[٣] «وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذي دارت فيه هذه المعركة اسم ساحة الدم»[٤]. ولم يشترك طغتكين في هذه المعركة، بعدما تحرك التركمان بسرعة للقتال ولم ينتظروا قدومه، وعندما علم بانتصار القوات الإسلامية عاد إلى دمشق[٥] ويقول سبط ابن الجوزي: «وقيل أنه أدركها في آخر الأمر»[٦].

وقد حقق المسلمون في هذه المعركة غنائم لا تعد ولا تحصى لدرجة أن ابن العديم قال: «ولم يبق أحد من الترك إلا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي»[٧]. وقال ابن الأثير: «من جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً، وحملوا إلى حلب،

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٩، الصوري: ج١ ص٥٨٢، الشارتري: ص٢٤٠، رنسيمان: ج٢ ص٢٣٨-٢٣٩، ابن الوردي: ج٢ ص٣٧.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٢٩، الذهبي: دول الإسلام: ج٢ ص١٩، وذكره في تاريخ الإسلام: ج٣٥ ص١٨٤، وذكره في العبر: ج٢ ص٤٠٠، ابن الوردي: ج٢ ص٣٦، أبو الفداء: المختصر ص٥٢، ابن العديم: ج١ ص٣٩٠ ويَذكر أن عدد قتلى الفرنج ١٥ ألف، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٨٨، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٩، الدواداري: ج٦ ص٤٨٥، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣.

(٣) عاشور: ج١ ص٤٠٣.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٤٠٥، رنسيمان: ج٢ ص٢٣٩.

(٥) كان دخول ظهير الدين طغتكين إلى دمشق يوم السبت لليلة بقيت من جمادى الأولى ٥١٣هـ، ووجد زوجته صفوة الملك، والدة دقاق بن تتش، قد شارفت على الموت، وبعد يوم واحد فقط أي الأحد، توفيت بين صلاتي الظهر والعصر في آخر جمادى الأولى، ودفنت عند ولدها في القبة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الأخضر. ابن القلانسي: ص٣٣٠.

(٦) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٨٨.

(٧) ابن العديم: ج١ ص٣٩١.

فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار، فلم يُقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة»[١].

وبعث نجم الدين إيلغازي الكتب والرسائل إلى الملوك والأمراء المسلمين، وكذلك إلى الخليفة العباسي، يبلغهم بما حققه من انتصار، فأرسل إليه الخليفة الخلع والتشريفات مع سديد الدولة بن الأنباري وشكره على ما يقوم به من غزو الفرنج[٢].

وكانت حلب أكثر البلاد شغفاً بسماع نتائج هذه المعركة، لأن الخسارة فيها كانت تعني سيطرة الصليبيين عليها، لهذا فإن أهلها كانوا يتلهفون لمعرفة ما آلت إليه، فوصلت البشائر بالنصر، والحرب مازالت مستمرة، وكان الناس يُصلّون صلاة الظهر في جامع حلب[٣]. ولعل من أهم الدروس المستفادة من هذه المعركة الشهيرة ما يلي:

- أكد هذا الانتصار أنه لا سبيل للمسلمين إلا التوحد لمواجهة الجيوش الصليبية، وأن السبب فيما حققه الصليبيون سابقاً كان بسبب الفرقة والتقاتل بين المسلمين أنفسهم، لا بقوة العدو.

- أعاد هذا الانتصار الروح للشعوب الإسلامية بعدما سئموا من كثرة الهزائم التي تكالبت عليهم طوال السنوات الفائتة.

- كان الفائز الأكبر والنجم الأوحد في هذه المعركة هو إيلغازي بن أرتق، فقد كانت لجهوده الكبيرة التي بذلها هي السبب الحقيقي لهذا الانتصار بعد الله

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣، رنسيمان: ج٢ ص٢٤٠-٢٤١.

(٣) بن العديم: ج١ ص٣٩١.

عز وجل. ولهذا نظم له الشعراء القصائد، ولعل أبرزهم المؤرخ العظيمي الذي قال فيه قصيدة مطلعها: قل ما تشاء فقولك مقبول وعليك بعد الخالق التعويلُ[١].

وقد اكتفى الشارتري المعاصر لهذه الأحداث بالإشارة إلى تلك المعركة بقوله: «ولسنا نريد أن نثقل تاريخنا بأن نروي كل الحوادث السيئة التي حدثت في تلك السنة في إقليم أنطاكية، وكيف أن روجر، أمير تلك المدينة، قد خرج مع قادته وكل شعبه لكي يُقاتل الأتراك، وقُتِل قرب مدينة أرتاح، وكيف أن سبعة آلاف من رجال أنطاكية لقوا مصرعهم، ولم يُقتل من الأتراك سوى عشرين»[٢].

وجدير بالذكر أن ملك بيت المقدس بلدوين الثاني توجّه إلى أنطاكية بعدما عَلِم بمقتل صاحبها روجر، وأصبحت أنطاكية البوابة الشمالية للأملاك الصليبية في بلاد الشام بلا أمير، ولا فرسان، ولا جيش، فوجد بلدوين المدينة في حال يرثى لها، وتسلَّم الوصاية عليها إلى حين وصول بوهيمند الثاني بن بوهيمند مؤسس إمارة أنطاكية، ثم قام بلدوين بتنظيم شؤون الإمارة والاستعداد لصد أي هجوم من المسلمين[٣]. لكن الغريب أن إيلغازي ومَنْ معه تغافلوا عن التوجه إلى أنطاكية!.

٢٨- إلى معرة قنسرين ٥١٣هـ/ ١١١٩م[٤]:

كان إيلغازي مزهواً بالانتصار الذي حققه على الفرنج، وبالمكاسب التي حاز عليها، لا سيما أنه كان النجم الأوحد في موقعة البلاط، وخرج منها كأقوى

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٩٣.

(٢) الشارتري: ص٢٤٠.

(٣) عاشور: ج١ ص٤٠٥.

(٤) في هذه السنة تسلم طغتكين مدينة تدمر والشقيف. ابن الأثير: ج٨ ص٦١٥، الدواداري: ج٦ ص٤٨٥، بينما لم يذكر ابن القلانسي ذلك.

قادة المسلمين في هذه الفترة، علاوة على ضم حلب إلى أملاكه. وإزاء ذلك واصل تحركاته نحو الفرنج مع صاحب دمشق[١] فاتجها إلى الأثارب التي سقطت في أيديهما في ٥١٣هـ/ أغسطس ١١١٩م ومنها إلى زرْدنا[٢] التي استسلمت بعد مقاومة عنيفة[٣] ثم دارت معركة عند دانيث بين المسلمين والملك بلدوين الثاني، وهنا اختلفت الروايات حول مَن الذي انتصر فيها، وكما يقول رنسيمان: «على أن المعركة التي نشبت عقب ذلك، سادها الاضطراب فكلا الجانبين زعم لنفسه النصر»[٤].

فابن الأثير على سبيل المثال يقول عن تحركات إيلغازي لهذه المعركة: «ثم سار إلى الفرنج، وكان قد جمع له جمعاً، فالتقوا بموضع اسمه: ذات البقل[٥] من أعمال حلب، فاقتتلوا واشتد القتال، وكان الظفر له[٦] ثم اجتمع إيلغازي وأتابك طغتكين صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في معرة قنسرين يوماً وليلة»[٧] إلا أن ظهير الدين اقترح على إيلغازي بفك الحصار عنهم «كيلا يحملهم الخوف على

(١) ابن العديم: ج١ ص٣٩٢.

(٢) زردنا: بليدة من نواحي حلب الغربية. الحموي: المعجم ج٣ ص١٣٦، وفي المعجم الجغرافي ج٣ ص٥٤٧-٥٤٨: «زرْدنا «المشهد» قرية في هضبة إدلب الشمالية تقع ناحية معرة مصرين مركز منطقة ومحافظة إدلب. احتلها البيزنطيون ثم ألحقت بإمارة أنطاكية الفرنجية حتى حررها عماد الدين زنكي عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م».

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٩٣، يذكر رنسيمان أن طغتكين شارك إيلغازي في فتح هذه الحصون. ج٢ ص٢٤٣.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٤٤.

(٥) ابن الأثير: ج٨ ص٦٠٣، ابن الوردي: ج٢ ص٣٧.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣، المصدر نفسه: ج٢ ص٣٧.

(٧) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣.

أن يستقتلوا ويخرجوا على المسلمين، فربما ظفروا»[١] لذلك فك نجم الدين إيلغازي الحصار عنهم[٢]. ولعل السبب في ذلك أن إيلغازي : «كان لا يطيل المقام في بلد الفرنج، لأنه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق، وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجَّلها ويعود، فإن طال مقامهم تفرّقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم»[٣].

وكان هذا هو الفرق بين جيش نجم الدين إيلغازي وبين بقية جيوش المسلمين، فجيشه عبارة عن مرتزقه، همّهم الأول والأخير هو المال، لذلك فإنهم يريدون جمعه بسرعة كي يعودوا، وليس لديهم صبر للجهاد، علاوة على ذلك فإن إيلغازي ليس لديه الكثير من الأموال ليفرقها عليهم كما ذكر ابن الأثير.

عموماً فإن الصوري يؤكد أن النصر كان حليف الفرنج، ويذكر تفاصيل كاملة وطويلة عن هذه المعركة التي اندلعت في عام ٥١٤هـ/ ١١١٩م، ويؤيده في ذلك سعيد عاشور، ولكنه يقول أن النصر لم يكن حاسماً[٤]. إلا أن ابن العديم يذكر أن طغتكين وإيلغازي أشاعا أنهما انتصرا في المعركة[٥].

ويشرح الصوري الوضع الذي كانت عليه هذه المعركة بقوله: «ثم تقابلت الصفوف في قتال مرير، وأعقب ذلك قتال قريب بالسيوف، وتحارب الطرفان بإهمال وازدراء لقوانين الإنسانية، وبحماسة متقدة وبكراهية لا تعرف الحدود،

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٠٣.

(٤) عاشور: ج١ ص٤٠٦.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٤٠٦، نقلاً عن ابن العديم: الزبدة.

وكأن الطرفين يحاربان ضد وحوش برية»[١]. ويذكر أن عدد قتلى الفرنج بلغ سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان، بينما بلغ قتلى المسلمين أربعة آلاف قتيل[٢] وبعد انتصار الفرنج في المعركة وفقاً لرأي الصوري، قال: «وتخلى إيلغازي عن جنوده، وتركهم في براثن الموت ولاذ بالفرار مع ملك دمشق طغتكين ودبيس أمير العرب»[٣].

وفي نهاية العام ٥١٤هـ/ ١١١٩م عقد إيلغازي هدنة مع بلدوين الثاني[٤]«وتقررت الموادعة والمسالمة، وكفّ كل جهة من الفريقين الأذية عن الآخر»[٥] بحيث يكون للفرنج المعرة وكفر طاب والجبل والبارة، وضياع من جبل السُّمَّاق، وضياع من ليلون وضياع من عزاز[٦]. وهو ما يعني اعترافه بحق إمارة أنطاكية الصليبية في الاحتفاظ بممتلكاتها شرقي نهر العاصي، وبذلك يكون بلدوين قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين من دون أن يخوض أي معركة[٧].

وفي عام ٥١٥هـ/ ١١٢٠م خرج عن طاعة نجم الدين إيلغازي ابنه سليمان في حلب، وكان عمره عشرين عاماً، وقد اعتقد سليمان وبسبب تهوره أن أباه غير قادر على أخذ حلب منه بعد الهزيمة التي تعرض لها أمام الكرج[٨] في عام

---

(١) الصوري: ج١ ص٥٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٥٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٥٨٥.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٦١٨، عاشور: ج١ص٤٠٧، أبو الفداء: ج١ ص٥٧، ابن الوردي ج٢ ص٤٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٩٣، ابن العديم: ج١ ص٤٠١.

(٥) ابن القلانسي: ص٣٣٢.

(٦) ابن العديم: ج١ ص٣٩٧.

(٧) عاشور: ج١ ص٤٠٧.

(٨) الكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق، وبلد السرير فقويت شوكتهم، حتى =

٥١٤هـ/ ١١١٩م[١].

ولكي يحافظ سليمان على حلب، قام بعقد هدنة مع الصليبيين، تنازل بمقتضاها عن كل المكاسب التي حققها أبوه من قبل، حيث أعطاهم حصني زردنا والأثارب[٢]. فنزل هذا الخبر كالصاعقة على أبيه، أو كما قال ابن العديم، ضاقت عليه الأرض[٣] فسار إليه على الفور، فاعتذر له عن فعلته فقبض عليه، وكاد يقتله، فمنعه عن ذلك رقة الوالد، وتمكَّن سليمان من الهرب إلى دمشق، فاستبقاه طغتكين عنده، وأرسل إلى نجم الدين إيلغازي ليشفع له، فلم يجبه إلى ذلك، فاستناب إيلغازي بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقّبه بدر الدولة[٤]. ورأى إيلغازي أنه من الحكمة أن يوافق على المعاهدة التي عُقِدت مع بلدوين، وعاد ملك بيت المقدس إلى مملكته فرحاً بما حققه من انتصارات[٥] خصوصاً أن بعضها تم من غير إراقة دماء. وذكرت بعض المصادر أن المسلمين استطاعوا ارجاع الأثارب من الفرنج[٦] لكن لم تحدد تلك المصادر متى وكيف تم ذلك؟.

وقد أقطع السلطان محمود، مدينة ميافارقين لنجم الدين إيلغازي في عام

= ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم، وملكٌ ولغة وشوكة وكثرة عدد، قال المسعودي وقد وصف سكان جبال القبق: ويلي مملكة خيزان مما يلي باب القبقن وهم أصحاب برزيتان، ويُعرف بلده هذا بالكرج. الحموي: ج٤ ص٤٤٦.

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٦١٨، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص١٩٣.

(٢) عاشور: ج١ ص٤٠٧.

(٣) بن العديم: ص٤٠٢.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٦١٨.

(٥) رنسيمان: ج٢ ص٢٥٥.

(٦) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٥٨.

٥١٥هـ/ ١١٢٠م بعد أن أرسل نجم الدين إليه ولده حسام الدين تمرتاش، وعمره سبعة عشر عاماً[١] وكانت لدى سقمان صاحب خلاط[٢] وبقيت بيد إيلغازي وبيد أولاده إلى أن أخذها منهم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[٣]- وتوفي نجم الدين إيلغازي في ٦ رمضان ٥١٦هـ/ ١١٢١م في قرية عجلون في الطريق إلى ميافارقين، وكانت معه زوجته الخاتون بنت طغتكين[٤] وسبب وفاته أنه أكل لحم قديد كثيراً، وجوزاً أخضر، وبطيخاً وفواكه[٥] ثم تمزقت دولته: فمَلَك ابنه حسام الدين تمرتاش ماردين، والجزء الجنوبي من ديار بكر، وأخذ ابنه سليمان ميافارقين والجزء الشمالي من ديار بكر[٦] بينما احتفظ بلك بن بهرام[٧] وهو ابن

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٦١٩.

(٢) في يوم الخميس جمادى الأولى ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م حاصر الأمير سقمان صاحب خلاط ميافارقين لمدة ٧ أشهر ثم سلمها إليه أتابك خمرتاش في شوال ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م. الفارقي: ص٢٧٥.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦١٩، ابن كثير: ج٨ ص٣٩٣.

(٤) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤١٤، ابن العديم: ج١ ص٤٠٦، ابن القلانسي: ص٣٣٨، ابن الوردي ج٢ ص٤٤، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣، الذهبي: تاريخ الإسلام: ج٣٥ ص١٩٨، وذكره في دول الإسلام: ج٢ ص٢٢، وذكره في العبر: ج٢ ص٤٠٦، ابن الحنبلي: ج٤ ص٤٨، ابن العبري: مختصر الدول ص١٧٦، الدواداري: ج٦ ص٤٩٠، الأصفهاني: البستان ص٣٢٦، العظيمي: ص٣٧٢، ابن أبي الهيجاء: ص١٧٨.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٤٠٥.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٦٢٨، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٤، ابن القلانسي: ص٣٣٨، ابن العديم: ج١ ص٤٠٦، ابن الوردي ج٢ ص٤٤، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩، ابن كثير: ج٨ ص٣٩٦، ابن العبري: ص١٧٦، العظيمي: ص٣٧٢، عاشور: ج١ ص٤٠٩.

(٧) تمكن أمير خرتبرت بلك بن بهرام في عام ٥١٥هـ/ ١٣ سبتمبر ١١٢٢م من أسر أمير الرها جوسلين دي كورنتاي، وفي صفر ٥١٧هـ/ ١٨ إبريل ١١٢٣م استطاع هزيمة الصليبيين في موقعة أورش وقام بأسر ملك بيت المقدس بلدين الثاني، لكن بلك قتل عام ٥١٨هـ/ ٦ مايو ١١٢٤م بسهم طائش خلال قتاله الفرنج. ابن الأثير: ج٨ ص٦١٩ و٦٣٤ و٦٣٩. ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤١٦، رنسيمان: ج٢ ص٢٦٤.

أخ إيلغازي، بمنطقة خَرْتِبرت[١] في الشمال، وأضاف إليها حران في الجنوب، وآلت حلب إلى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، الذي أنابه فيها إيلغازي عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، لكنه كان ضعيفاً، ولم تكن لديه القدرة على مواجهة الفرنج فصالحهم، وقدّم لهم الأثارب على طبق من ذهب، وسلّمه لهم بالمجان[٢] فعظم ذلك على ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق، وأدرك أن ابن عبد الجبار غير قادر على حفظ بلاده، فسار إليه، وضايقه ثم سلَّم إليه حلب وقلعتها بالأمان في غرة جمادى الأولى ٥١٧هـ/ ١١٢٢م[٣] وعندما قُتِل بلك عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م مَلَك حلب بعده ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي في ٢٠ ربيع الأول من السنة نفسها[٤].

٢٩- إلى طبرية ٥١٤هـ/ ١١٢٠م:

منذ عودة الأتابك ظهير الدين طغتكين إلى دمشق في عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م، كانت دمشق تعيش أجواء هادئة، بعيداً عن أي خطر صليبي نتيجة للقلق الكبير الذي سبّبه لهم نجم الدين إيلغازي، وعند ذلك قرر الأتابك التحالف مع أحد

---

(١) خرتبرت من ديار بكر. ابن الأثير: ج٨ ص٦٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٣٣، ابن العديم: ج١ ص٤٠٨، ابن القلانسي: ص٣٣٩، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩، ابن الوردي: ج٢ ص٤٤.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٢٨ و٦٣٣، ابن القلانسي: ص٣٤٠، ابن العديم: ج١ ص٤٠٩، ابن الوردي: ج٢ ص٤٤، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٣، ابن العبري: ص١٧٦، الأصفهاني: البستان ص٣٢٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٢٧، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠١.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٦٣٩، اليافعي: ج٣ ص٥١٩، ابن كثير: ج٨ ص٣٩٩، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٢، ابن العبري: ص١٧٦، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، أبو الفداء: ج٢ ص٦٠، ابن العديم: ج١ ص٤١٦، الأصفهاني: البستان ص٣٢٨.

زعماء العرب[١] وأدرك ظهير الدين انشغال بلدوين بأنطاكية بعد مقتل صاحبها، وسعيه إلى ترتيب شؤونها الداخلية، فضلاً عن المسؤولية الملقاة على عاتقه، بصفته ملك بيت المقدس، لهذا ضم أتابك دمشق جيشه إلى جيش هذا الزعيم، وأرسل الجنود إلى طبرية. ولمَّا سمع صاحب بلدوين بذلك جمع جيشه من صيدا ويافا[٢] وتحرك باتجاهه، فلمَّا عَلِم صاحب دمشق بقدومه، قرر الإنسحاب، لأنه أدرك أنه لن يحقق شيئاً بمجيء بلدوين، عندئذ توجَّه الأخير إلى جرش[٣] وكان طغتكين أنشأ فيها قلعة بمبالغ كبيرة، فهاجم بلدوين المدينة بعنف شديد، فأعلنت الاستسلام، إلا أن الأهالي اشترطوا أن يُسمح للجنود المتواجدين في القلعة والبالغ عددهم ٤٠ جندياً بالرحيل سالمين إلى أهاليهم، فوافق على ذلك، وتشاور بلدوين مع مستشاريه بشأن القلعة، هل يتم الاحتفاظ بها أو يتم تدميرها؟ فاتفق الجميع على الرأي الثاني[٤] لسببين:

- أنها تحتاج إلى نفقة عالية، وبالتالي صعوبة تزويدها بالرجال والمؤن اللازمة.

- كل من يأتي إلى هذه المنطقة سوف يتعرض إلى مخاطر عالية[٥].

٣٠- إلى الجليل والجولان وجبل عجلون ٥١٥هـ/ ١١٢١م:

ليس لدينا معلومات كافية عما حدث في هذه الحملة التي قادها الأتابك

---

(١) لم يذكر وليم الصوري الذي أورد الخبر اسم هذا الزعيم العربي، ولم تأت المصادر العربية على ذكر هذا التحالف أو اسم هذا الزعيم.

(٢) الشارتري: ص٢٤٧.

(٣) جرش: في شرق جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق. الحموي: ج٢ ص١٢٧.

(٤) الصوري: ج١ ص٥٨٩، الشارتري: ص٢٤٧-٢٤٨.

(٥) المصدر نفسه: ج١ ص٥٨٩.

بنفسه في عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م سوى ما ذكره ابن الأثير، وسبط ابن الجوزي، فقد ذكر الأول أنه: «في جمادى الأولى، أوقع أتابك طغتكين بطائفة من الفرنج، فَقَتَل منهم وأَسَر، وأرسل الأسرى والغنيمة للسلطان والخليفة»(١). فيما قال الثاني إن: «طغتكين قَتَلَ وسبى وغنم، وكانت كسرة عظيمة»(٢) لكن المصادر اختلفت في مكان وقوع هذا الحدث، فبينما يتجاهل ابن القلانسي هذه الحملة، ولا يذكر ابن الأثير مكانها، فإن سبط ابن الجوزي وابن أبي الهيجاء يحددان الموقع في زجر العقبة، فيما ينقل عاشور عن ابن العديم، ويحدده في الجليل والجولان وجبل عجلون. بينما يذكر الأصفهاني المكان في تل حورين، ويحدده الدواداري في تل حورى، أما العظيمي فيقول إنه في كفر رحو(٣).

٣١- إلى حمص ٥١٧هـ/ ١١٢٣م:

خلال هذه الفترة، ولمدة سنتين تقريباً تغيب المصادر عن ذكر أي تحرك لظهير الدين طغتكين ولا تذكره إلا في عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م فقد توجَّه إلى حمص التي كانت بيد قيرجان بن قراجة، وكان يريد الاستيلاء عليها، فهجم على المدينة، ونهبها، وقام بإحراق الكثير من البلد ومِن حصونها، فاستعان قيرجان بصاحب بدليس وأرزن طغان أرسلان بن حسام(٤) ولمَّا عَلِم ظهير الدين بذلك عاد إلى دمشق(٥) ولمْ يُحقق ما كان يريده.

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٦٢٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ج١٣ ص٤٠٨، ابن أبي الهيجاء: ص١٧٧، عاشور: ج١ ص٤٠٧ نقلاً عن ابن العديم في الزبدة، الأصفهاني: البستان ص٣٢٥، العظيمي: ص٣٧١، الدواداري: ج٦ ص٤٨٨.

(٤) لدى ابن الأثير طغان أرسلان بن المكر. ج٨ ص٥٩٢.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٣٧، ابن القلانسي: ص٣٤٠، العظيمي: ص٣٧٢، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩، ابن الوردي: ج٢ ص٤٥.

٣٢- إلى حماة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م:

تواترت الأخبار بوفاة والي حماة محمود بن قراجة[١] حينما خرج مع رجاله إلى أفامية، فأصابه سهم بيده، واشتد عليه الألم، فعاد إلى حماة، وهناك تم إخراج السهم من يده، فزادت عليه الآلام والمشاكل، فمات، وتسلّمت حماة أول الأمر زوجة المتوفي ابنة طغتكين[٢] التي استدعت والدها لتَسلّم المدينة، ولَمْ يُرد ظهير الدين أن تفوت منه هذه الفرصة، فتوجّه إليها بنفسه وتسلَّمها، ووضع فيها أحد ثقاته والياً عليها، وعسكراً لحمايتها[٣] ألا وهو الحاجب إسرائيل[٤].

٣٣- سقوط صور والتوجّه إلى بانياس ٥١٨هـ/ ١١٢٤م:

سبق أن عرفنا أن الفرنج ضيّقوا على صور التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية آنذاك، ونهبوها أكثر من مرة، وفي عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢م وعندما تجهَّز الفرنج للسيطرة عليها، طلب أهل صور من الأتابك طغتكين أن يُرسل إليهم أميراً من قبله يتولاهم، ويحميهم، وإلا سلَّموا البلد للفرنج، فلم يتردد صاحب دمشق في إرسال عسكر ووالٍ إليهم يدعى مسعود، وسيّر إليهم الميرة والمال وفرّقه عليهم، وطابت نفوس أهل البلد، ولم يُغيّر ظهير الدين الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر الآمر بأحكام الله، وكتب إلى الوزير الأفضل: متى وصل إليها من مصر من يتولاها ويذب عنها، سلّمتها إليه، كما طلب الأتابك من الأفضل ألا ينقطع

---

(١) قال عنه ابن الأثير عند موته: «استراح أهل عمله من ظلمه وجوره». ج٨ ص٦٣٨.

(٢) العظيمي: ص٣٧٣.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٣٨، ابن القلانسي: ص٣٤٢، العظيمي: ص٣٧٣، الأصفهاني: البستان ص٣٢٨، الدواداري: ج٦ ص٤٩٣، ابن كثير: ج٨ ص٣٩٨، أبو الفداء: ج٢ ص٥٩-٦٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠١، ابن الوردي: ج٢ ص٤٥.

(٤) العظيمي: ص٣٧٣.

الأسطول عنها سواء بالمال أو الرجال أو تزويد العسكر كل ما يحتاجون إليه من قوة. وقد شكره الوزير الأفضل على صنيعه هذا، وأثنى عليه، وَصَوّب رأيه فيما فعله، واستقامت أمور البلد حينئذ[١].

واستمر الوضع في صور مستقراً لمدة عشر سنوات تقريباً، وعندما قُتِل الأفضل عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م سيّر الخليفة الفاطمي أسطولاً إلى صور وأمر المقدم أو المسؤول عن الأسطول أن يقبض على مسعود الوالي من قبل طغتكين، ويتسلَّم البلد منه[٢].

ولعل السبب الذي دفع الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله إلى القيام بذلك أن أهل صور اشتكوا إليه أكثر من مرة من هذا الوالي بما «يعتمده من مخالفتهم والإضرار بهم»[٣] كما أن الآمر الذي تخلَّص من سطوة الأفضل أراد أن يصبح سيد نفسه، ويفرض سلطانه على صور[٤] وبالفعل تم القبض على مسعود وإرساله إلى مصر، ثم تقرر إعادته إلى دمشق، ثم أرسل الآمر والياً عنه إلى البلد.

ولمَّا علم الفرنج ما حدث للوالي مسعود، طمعوا باحتلال صور والسيطرة عليها، وبدؤوا بالتجهز والتأهب لمحاصرتها، بينما أدرك الوالي الجديد للمصريين أنه لا طاقة له بالفرنج لقلة الجنود والمؤونة، ولمّا علم الخليفة الفاطمي بحقيقة الأمر، أرجع ولاية صور إلى صاحب دمشق «ليتولى حمايتها والذب عنها، والمراماة دونها، على ما جرى رسمه فيها، وكتب منشور الولاية

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٤٠، المصدر نفسه: ج٣٥ ص٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٤٠.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٦٩.

باسمه»[١] وقام ظهير الدين بدوره بزيادة عدد الجنود فيها، وترتيب أمورها.

ومع ذلك لم يتراجع الفرنج عن سعيهم لتحقيق هدفهم، أي احتلال صور، وضمّها إلى بلادهم، فقاموا بمحاصرتها، وضيّقوا على أهلها، إلى أن خفّت الأقوات، وعدمت الميرة فيها، فطلب أهلها المعونة من صاحب دمشق والخليفة الفاطمي، فلمّا وصلت الرسل إلى ظهير الدين، وأبلغوه بالأوضاع، فإن كل ما فعله هو التوجّه إلى بانياس ليكون قريباً من صور[٢] دون أن يفعل شيئاً، «ولم يشتد حماسه للاشتراك في الدفاع عنها»[٣]. وأخذ يتفرج على سقوط المدينة، ومن المرجح أن هناك أكثر من سبب وراء عدم تحرك طغتكين:

- نتيجة لِما قام به الخليفة الفاطمي من القبض على واليه في صور.

- اعتقاده أنه غير قادر على مهاجمة الفرنج، وأن تدخله كان يعني خسارته حتماً، وبالتالي إضعاف جيشه.

- إيمانه المطلق أن الفرنج لن يتركوا الأمر يمر مرور الكرام إن تدخل لإنقاذ صور، ومِنْ ثَمَّ فإن الهدف التالي سيكون دمشق، لا سيما أن قوات أمير طرابلس بونز تمركزت في بانياس، ودخول طغتكين في النهاية مغامرة وخيمة العواقب.

- أنه كان ينتظر وصول أسطول مصري من أجل القيام بهجوم مشترك، وهو ما لم يفعله الخليفة الفاطمي، وكان أكثر ما يخشاه الفرنج هو اتصال بين القوتين البرية من دمشق والبحرية من مصر[٤].

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٤، ابن الأثير: ج٨ ص٣٤٠، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٣٤، الصوري: ج٢ ص٦٢١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٤.

(٣) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ج٢ ص١٢١.

كما أن الجيش الفاطمي قام بمحاولتين كي يصرف نظر الفرنج عن صور، لكنهما لم تؤتيا أكلهما هما:

١- قام بمهاجمة بيت المقدس، فبلغ أرباض المدينة، غير أن سكانها والتجار ورجال الدين دافعوا عن أسوارها الضخمة، كما أن قائد الجيش الفاطمي لم يخاطر بمهاجمتهم.

٢- قام بنهب مدينة صغيرة اسمها بالين أو المسجد على مسافة بضعة أميال من بيت المقدس، وقتلوا سكانها[١].

ويشرح الصوري ما قام به الفرنج لحصار المدينة بقوله: «سحبوا سفنهم إلى اليابسة، باستثناء شيئين، واحد أُبقي على أهبة الاستعداد، تحسباً لوقوع أي طارئ، ثم حفروا خندقاً عميقاً من البحر في الخارج إلى البحر في الداخل، وبذلك طوّقوا الجيش بأسره، وأمَّنوا الحماية له، وجُلِبت مواد مناسبة لإنشاء الآلات الحربية من المخزونات الضخمة التي كان البنادقة جلبوها معهم، كما استُدعي الصناع لإنشاء الآلات المتعددة الأنواع»[٢] وتمّ بناء برج مرتفع، وبنوا الآلات الحربية القادرة على قذف الحجارة على المدافعين عن المدينة[٣].

واستنجد طغتكين بمصر، فلم ينجدوه، ومع مرور الأيام أشرف الناس في صور على الهلاك، ولأن صاحب دمشق، لا يملك القدرة ولا القوة على مواجهتهم، كما أنه يئس من وصول المساعدات من الفاطميين، لهذا وافق على تسليم البلد إليهم.

---

(١) المصدر نفسه: ج٢ ص١٢١.

(٢) الصوري: ج٢ ص ٦١٧-٦١٨.

(٣) المصدر نفسه: ج٢ ص٦١٧-٦١٨، كما شرح الصوري ما قام به أهل صور والدمشقيون المتواجدون في داخل البلد من الدفاع عنها.

واستمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف، ودافع أهل المدينة عن بلادهم بضراوة، وكان معهم نحو سبعمائة من عسكر دمشق الذين أرسلهم الأتابك لحمايتها، «فقد ألهبت أمثولتهم سكان المدينة بشجاعة للمقاومة، لأن هؤلاء السكان، وإن كانوا نبلاء، فقد كانوا ضعافاً.. وحاول هؤلاء الدمشقيون بسيرتهم أن يشجّعوا سكان المدينة على المقاومة، وأن يزوّدوهم بالمساعدة التي كانوا يحتاجونها بشدة»[1] ولكن كان من الصعب الاستمرار في المقامة في ظل تخاذل جميع القوات الإسلامية المجاورة، وكان من الطبيعي أن تسقط البلد في أيدي الصليبيين جراء هذا الوضع المأساوي الذي تعيشه الأمة كلها.

وأخيراً أبلغ سكان المدينة طغتكين بعدم قدرتهم على التحمل أكثر من ذلك، فأرسل إلى الفرنج «بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب»[2] يعرض تسليم المدينة على أن يُؤمَّن كل مَن بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكر والسكان، ويقيم من أراد الإقامة، وبالفعل تم فتح باب البلد «وأُذِن للناس في الخروج، فحمل كل منهم ما خفَّ عليه، وأطاق حمله، وترك ما ثقل عليه، وهم يخرجون بين الصفين، وليس لأحد من الإفرنج أن يعرض لأحد منهم، بحيث خرج كافة العسكرية والرعية، ولم يبق منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج، فوصل بعضهم إلى دمشق، وتفرّقوا في البلاد، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ثماني عشرة وخمسمائة»[3]. «وكان فتحه وهْناً عظيماً على

(١) المصدر نفسه: ج٢ ص٦١٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٤، ابن الأثير: ج٨ ص٦٤١، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٣٤، رنسيمان: ج٢ ص٢٧٢، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، أبو الفداء: ج٢ ص٦٠، ابن العبري: ص١٧٦، الذهبي: تاريخ الإسلام: ج٣٥ ص٢٠٤، وذكره في دول الإسلام: ج٢ ص ٢٤وذكره في العبر: ج٢ ص٤١٠، ص٢٤، ابن أبي الهيجاء: ص١٨٠، الأصفهاني: البستان ص٣٢٨، ابن الحنبلي: ج٣ ص٥٧، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٨.

المسلمين، فإنه من أحصن البلاد وأمنعها[١] واستمرت صور بيد الفرنج حتى عام ٦٩٠هـ[٢].

ورغم النتائج المؤلمة التي آل إليها حصار صور، والمتمثلة بسقوط المدينة بيد الفرنج، لكن لا يمكن إلقاء اللوم على صاحب دمشق وحده، في ظل هذا التشرذم الإسلامي، والضعف الكبير لدى جميع القوى الإسلامية، خصوصاً في ظل غياب قائد حقيقي للجهاد الإسلامي بمفهومه الصحيح حتى الآن. ولعل من سوء حظ صور أن القائد الشجاع الذي أرهب الفرنج وأرعبهم بلك بن بهرام، والذي قام بأسر الملك بلدوين الثاني وجوسلين، كان قد عزم على نجدة أهل صور، لكنه قُتل خلال حصاره منبج يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الأول ٥١٨هـ[٣].

الغريب أن الفرنج عندما يضيق بهم الأمر، وتزداد الأوضاع لديهم سوءاً، نجد أن جميع الإمارات الصليبية تقف صفاً واحداً للدفاع عن بلادهم، بينما

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤١. وقد ترتب على سقوط صور إطلاق سراح ملك بيت المقدس بعد وفاة بلك بن بهرام، بعد أن صار في حبس حسام الدين تمرتاش مقابل شروط عدة طلبها تمرتاش منها: دفع ٨٠ ألف دينار، وأن يعيد إلى حلب مدن الأثارب وزردنا وعزاز وكفر طاب ويدفع عاجلاً مبلغ ٢٠ ألف دينار، وأن يودع رهائن لدى شيزر إلى حين تسديد باقي الفدية على أن يكون من بين الرهائن: صغرى بنات الملك بلدوين وهي يوفيتا (٤ سنوات) وابن جوسلين ووريثه (١١ سنة) وعشرة من أبناء النبلاء. رنسيمان: ج٢ ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٤، وذكره في دول الإسلام ج٢ ص٢٤، وذكره في العبر ج٢ ص٤١٠، ابن الحنبلي: ج٤ ص٥٧. وقد زار ابن جبير مدينة صور في عهد صلاح الدين الأيوبي، عندما كانت تحت الاحتلال الصليبي ووصفها بقوله: «مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، أعدها الفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مسابة لأمانهم... وأمّا حصانتها ومنعتها فأعجب ما يُحدّث به، وذلك أنها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر محيطة بالباب». ابن جبير: ص٢٤١.

(٣) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤١٥-٤١٦.

الوضع يكون مغايراً لدى القوات الإسلامية، فرغم الأوضاع السيئة التي تحل بهم، وتسقط بلدانهم الواحد تلو الآخر، لكنهم لمْ يتعلّموا الدرس مطلقاً، ونعتقد أن طغتكين والخليفة الفاطمي على أقل تقدير لو تعاونا مع بعضهما البعض كان يمكنهما مد العون لأهل صور الذين دافعوا عن بلادهم بشراسة لأكثر من ثلاثة أشهر، وكان يمكن أن يشترك معهما مسعود البرسقي وكذلك الأمراء الأراتقة وغيرهم، ولكن هذا ما لم يحدث.

٣٤- إلى حلب ٥١٩هـ/ ١١٢٥م[١]:

عندما ملك الفرنج مدينة صور، ازدادوا قوة، وطمعوا في السيطرة على كل الشام، كما شجَّعهم صاحب الحلة دبيس بن صدقة في احتلال حلب، على أن يكون نائباً لهم، وأبلغهم: «إنني أكون هنا نائباً عنكم، ومطيعاً لكم»[٢] وساروا معه إليها، وحاصروها، وأصروا على البقاء هناك لفترة طويلة، مهما كلّفهم الأمر، لدرجة أنهم بنوا البيوت لتقيهم البرد والحر[٣] وقد أدرك أهل حلب خطورة الوضع إنْ لَمْ يتحركوا، خصوصاً بعد أن عَلِموا بضعف حسام الدين تمرتاش، وعدم قدرته على مواجهة الفرنج[٤] كما أنه استقر في ماردين التي مَلَكها بعد موت أخيه سليمان، لأنه رأى في الشام عدم استقرار وبلاء وحروب مع الفرنج،

---

(١) ابن القلانسي يحدد تاريخ وقوع هذه المعركة في عام ٥١٧هـ، ونعتقد أن ابن الأثير الذي وضعها في عام ٥١٩هـ هو الأقرب إلى الصحة.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٢، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، أبو الفداء: ج٢ ص٦٠، الأصفهاني: البستان ص٣٢٩، العظيمي: ص٣٧٤-٣٧٥، وقال ابن العديم: «اتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج». ج١ ص٤١٩.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٢.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٤٢.

وكان يُحب الرفاهية والدعة، لذلك ترك حلب لنوابه[١] وقال عنه ابن العديم: «فإنه لما مَلَك حلب، ألهاه الصّبا واللعب عن التشمير والجدّ والنظر في أمور البلد، وضعف أمر المسلمين بذلك»[٢].

هذا الأمر وضع أهل حلب أمام خيارين لا ثالث لهما، إما تسليم البلد لظهير الدين طغتكين أو إلى البرسقي. ومن المؤكد أن سمعة الثاني رجَّحت كفته على الأول، علاوة على تعاون ظهير الدين أكثر من مرة مع الصليبيين، وتقديمه التنازلات لمرات عديدة لهم، أما البرسقي فإن السلطان السلجوقي يثق به كثيراً، وقد ولاّه مؤخراً ولاية الموصل، بعد أن عزله من منصبه شحنة بغداد للتفرغ للجهاد[٣] وقبل كل هذا وذاك، فإن وجوده في الشام إلى جانب طغتكين سيضيف قوة كبيرة إلى المنطقة، لهذا لم يتردد أهل حلب في أن يرسلوا إليه للاستنجاد به ويسلّموا إليه البلد[٤] وبالفعل جمع عساكره وتوجَّه إليهم، فلمَّا أشرف على الوصول، رحل الفرنج عن حلب، وهو يراهم، وقال: «قد كفينا شرهم، وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب، ونصلح حالها، ونكثر ذخائرها، ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم»[٥] ثم دخل حلب، وأخذها إلى جانب الموصل[٦].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٢، يذكر ابن العديم تفاصيل كاملة عما فعله الحلبيون لاقناع حسام الدين تمرتاش لقتال الفرنج لكنه كان يمنيهم، ويعدهم من دون أن يفعل شيئاً. ج١ ص٤٢٢-٤٢٣.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤١٦، عندما أرسله أبوه إيلغازي إلى الخليفة عام ٥١٥هـ كان عمره ١٧ عاماً، وفي هذه السنة أي ٥١٨هـ عمره ٢٠ عاماً.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤١.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٤٢.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٦٤٣.

(٦) ابن كثير: ج٨ ص٣٩٩، ابن أبي الهيجاء: ص١٨٠، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، الذهبي: تاريخ الإسلام =

وفي ٥١٩هـ/ مايو ١١٢٥م اتفق صاحب حلب الجديد سيف الدين آق سنقر البرسقي، وصاحب دمشق طغتكين على قتال الفرنج عند قلعة عزاز التي كانت تابعة للفرنج، لصاحبها جوسلين، وقاد ظهير الدين جيشه بنفسه، وفي أول الأمر هاجم البرسقي حصن كفر طاب التي كانت بحوزة الفرنج، واستولى عليه، ثم حاصر زردنا، فأسرع إليه بلدوين الثاني، وهو يقود جيوش أنطاكية وطرابلس والرها، وقد بلغ تعداد جيوشه ألف ومائتي فارس وألفين من الرجالة[١] وكما يقول ابن الأثير : «اجتمعت الفرنج فارسها وراجلها»[٢] ثم سار جيش المسلمين (الموصل ودمشق) إلى قلعة عزاز بهدف «مضايقتها بالنقوب والحروب»[٣] وكادوا ينجحون في السيطرة عليها لولا أن الفرنج أسرعوا من كل حدب وصوب لنجدتها[٤] وهناك دارت معركة حامية الوطيس، وصفها المؤرخ الإنجليزي بأنها «من أشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية»[٥] وقال ابن الأثير عما فعله الطرفان: «اقتتلوا قتالاً شديداً صبروا كلهم فيه»[٦] وقال أبو الفداء: «قُتِل من المسلمين خلق كثير»[٧]. «واستشهد جماعة من المسلمين من السُّوقة

= ج٣٥ ص٢٠٥، ابن العبري: ص١٧٦، ابن العديم: ج١ ص٤٢٤، الأصفهاني: البستان ص٣٢٩، ابن تغري: ج٥ ص٢٢٨.

(١) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٧، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، العظيمي: ص٣٧٥، أبو الفداء: ج٢ ص٦١، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤٢٥.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٧.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٤٢.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٣.

(٥) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٧.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٧.

(٧) أبو الفداء: ج٢ ص٦١.

والعامة، ولم يُقتل من الأمراء والمقدمين أحد»[١].

وقد اعتمد المسلمون في المعركة على تفوقهم العددي، بينما كان للفرنج قوتهم الضاربة في السلاح، وهو ما رجَّح كفتهم، وحلّت بالمسلمين هزيمة ساحقة[٢]. ثم تفرَّق جيشهم بعد قتْل من قُتِل وأسْر من أُسِر[٣]. وذكر ابن الأثير أن عدد قتلى المسلمين أكثر من ألف قتيل[٤] وبعد المعركة تم عقد هدنة بين الطرفين، لم تذكر المصادر مدتها، وقد احتفظ المسلمون بمقتضاها بكفر طاب، وأن يتناصف الطرفان جبل السُّماق[٥]. ثم عاد البرسقي إلى الموصل وترك ابنه عز الدين في حلب، وعاد ظهير الدين إلى دمشق[٦].

وفي العام التالي، وتحديداً في ٨ ذي القعدة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، قتلت الباطنية آق سنقر البرسقي، لتفقد الأمة مجاهداً كبيراً قدّم الكثير للجهاد الإسلامي[٧]. «وترتب على وفاته أن سادت الفوضى بين المسلمين، وازدادت الأحوال سوءاً بما حدث من شجار بين ابنه مسعود وطغتكين، ثم وفاة مسعود مسموماً، فتنازع

(١) ابن العديم: ج١ ص٤٢٦.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٧، العظيمي: ص٣٧٥، ابن العديم: ج١ ص٤١٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٤٣، ابن العديم: ج١ ص٤١٣.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٧، ابن الوردي ج٢ ص٤٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٦.

(٥) ابن العديم: ج١ ص٤٢٦، رنسيمان: ج٢ ص٢٧٧.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٦٤٧، العظيمي: ص٣٧٥، ابن العديم ج١ ص٤٢٧.

(٧) ابن القلانسي ذكر تفاصيل كثيرة عن عملية اغتيال البرسقي. ص٣٤٧-٣٤٨، ابن الأثير: ج٨ ص٦٥١، وذكره في الباهر: ص٣١، العظيمي: ص٣٧٦، ابن العديم: ج١ ص٤٢٩، ابن القلانسي: ص٣٤٧، ابن الوردي: ج٢ ص٤٦، الذهبي: تاريخ الإسلام: ج٣٥ ص٢١٠، وذكره في العبر: ج٢ ص٤١٣، ابن العبري: ص١٧٦، ابن أبي الهيجاء: ص١٨٤، الأصفهاني: البستان ص٣٣٣، ابن الجوزي: المنتظم ج١٧ ص٢٣٠، ابن تغري: ج٥ ص٢٣٠.

حكم حلب أمراء كثيرون»[١] وبوفاة صاحب الموصل عز الدين مسعود البرسقي عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م عيّن السلطان السلجوقي، الأتابك عماد الدين زنكي والياً على الموصل، وبذلك ظهرت على الساحة السياسية شخصية جديدة كان لها دور مميز في الجهاد ضد الفرنج.

٣٥- معركة مرج الصفر ٥١٩هـ/ ١١٢٦م[٢]:

قاد ملك بيت المقدس بلدوين الثاني جيشه[٣] إلى حوران، وهي منطقة تتبع دمشق[٤] وعاث فيها فساداً، كما شن الغارات على عدد من المناطق الأخرى القريبة منها، وقَطَع الطريق على القادمين إليها، وعندما عَلِم طغتكين بالأمر، بعد أن تحقق منه[٥] قرر مواجهته، ثم قام بإسال الرسائل إلى أمراء الأتراك ومقدميهم وأعيانهم، وأخبرهم بخطورة الوضع، ودعاهم إلى مساندته للوقوف بوجه بلدوين، وأنه في حال دعمه ووقوفهم إلى جانبه، فإنه «يبذل لهم الإحسان والإنعام»[٦] وكاتب ولاة الأطراف لإمداده بالرجالة، ووصل إليه من التركمان نحو ألفي فارس[٧] «أولي بأس شديد، ورغبة في الجهاد، ومسابقة إلى الكفاح

(١) رنسيمان: ج٢ ص٢٨٠.

(٢) ابن الأثير وابن كثير يذكران هذه المعركة في أحداث ٥٢٠هـ.

(٣) يذكر الشارتري أن الذين شاركوا في جيش الفرنج هم: رجال مملكة بيت المقدس الفرسان والمشاة، وكذلك رجال من يافا والرملة واللد وقد مروا عبر نابلس، ورجال من عكا وصور أخذوا طريق الشمال، وشرح الشارتري خط سير هذا الجيش منذ خروجه مروراً بدمشق حتى وصوله إلى مرج الصفر. ص٢٩٧-٢٩٨.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٤٦.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٤٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٣٤٦.

(٧) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٣٨.

الجلاد»[١] ووصلت إليه معلومات تفيد بأن الفرنج قريبون من طبرية، فنزل مرج الصفر في ٢٧ ذي الحجة ٥١٩هـ/ يناير ١١٢٥م فخرج من دمشق: أحداثها ورجال الغوطة والمرج والأطراف، وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة كما وصفهم ابن القلانسي، وكذلك البسالة من حمص، والعقبة وقصر الحجاج[٢] والشاغور[٣] ورجالة وخيّالة بالسلاح التام، والناهض مع المتطوعة، والمتدينين[٤]. وقد أُعجِب المسلمون بكثرتهم، وشاع الخبر بقوتهم، وشدة شوكتهم، وكثرتهم، وأنهم قادرون على هزيمة الفرنج، ولم يشك أحد بهزيمتهم وهلاكهم في هذا اليوم[٥] «وكونهم طُعمة للمسلمين متسهلة»[٦].

وعرف الفرنج من خلال عيونهم أن صاحب دمشق نزل بمرج الصفر، عند قرية يقال لها شرخوب[٧] فرحلوا إليه، وخيّموا بالقرب منه، والتقى الفريقان في أواخر ذي الحجة، واقتتلوا، واشتد القتال، واندفع الطرفان بقوة مماثلة، وكان من الصعب أول الأمر معرفة المنتصر. وألهب طغتكين رجاله بحماسة، وشجّع روحهم القتالية بأقواله ووعوده، وذكّرهم بأنهم يخوضون حرباً عادلة، دفاعاً عن

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٤٦.

(٢) قصر الحجاج: محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق، منسوبة إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان. الحموي: ج٤ ص٣٥٧.

(٣) الشاغور: محلة بالباب الصغير من دمشق، مشهورة وهي في ظاهر المدينة. المصدر نفسه: ج٣ ص٣١٠.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٤٦، سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٤٣٨.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٤٦-٣٤٧، المصدر نفسه: ج١٣ ص٤٣٨.

(٦) المصدر نفسه: ص٣٤٦.

(٧) يسمي ابن الأثير القرية باسم سقحبا. ج٨ ص٦٥٥، ابن القلانسي: ص٣٤٦، الأصفهاني: البستان ص٣٣٢، العظيمي: ص٣٧٦، ابن أبي الهيجاء: ص١٨١، ويسميها ابن الوردي وأبو الفداء: شقحب. ابن الوردي: ج٢ ص٤٧، أبو الفداء: ج٢ ص٦١، الدواداري: ج٦ ص٤٩٦.

زوجاتهم، وأبنائهم، كما أنهم يناضلون من أجل الحرية، وهي المهمة الأكثر نبلاً، ويدافعون عن أرض الأجداد ضد اللصوص[١] ثم بدأت شرارة المعركة، عندما قامت فرقة من التركمان بمهاجمة أطراف الفرنج «ونالت منهم، واستظهرت عليهم»[٢] عندها أدرك الفرنج أنهم لا طاقة لهم اليوم بالمسلمين «وأيقنوا بالهلكة، ورحلوا بأسرهم من منزلهم الذي كانوا فيه، عائدين إلى أعمالهم على غاية من الخوف والوجل، ونهاية من الذل والوهل»[٣].

وعندما رأى التركمان فلول الفرنج هجموا عليهم، فغنموا من أثقالهم ودوابهم غنيمة وافرة، وظفروا بالكنيسة التي كانت في مخيمهم، وطمع عسكر المسلمون فيهم «وهم مولّون لا تابع، ولا يقفون على مقصر لاحق، وقد شملهم الرعب»[٤]. ويعترف الشارتري بقوله: «والحقيقة أن رجالنا لم يخوضوا معركة بهذا القدر من العنف والرعب. وكان الهرج والمرج والضجة وصدمة المعركة كبيراً جداً. وكانت الطبول من العنف والرعب. وكان الهرج والمرج والضجة وصدمة المعركة كبيراً جداً. وكانت الطبول والأبواق تدوي عالياً»[٥].

ويمكن القول إن المسلمين حققوا النصر في بادئ الأمر في هذه المعركة التي شارك فيها ظهير الدين الذي سقط عن فرسه خلالها، وظن أصحابه أنه قُتِل[٦] لكن الوضع انقلب رأساً على عقب في النهاية، وذلك عندما أدرك الفرنج في

(١) الصوري: ج٢ ص٦٣٥.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٧. الوهل: وهله وهلًا أي ضعف وفزع وجبن. ابن منظور: ج٩ ص٤٢١.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٧.

(٥) الشارتري: ص٢٩٨.

(٦) ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٦.

ظل هذا الحصار الصعب، أنه لا مفر لهم، وبالتالي لم يكن أمامهم سوى الهجوم مهما كلَّفهم الأمر، فعادوا وشنّوا هجوماً مضاداً على المسلمين «وضايقوهم مضايقة ألجأتهم إلى رمي نفوسهم عليهم، إمَّا لهم وإمَّا عليهم، فتجمَّعوا وعادوا على العسكر الإسلامي، وحَمَلوا عليه حملتهم المعروفة فكسروهم، وهزموهم، وقتلوا من أعقابهم من ثبطه الوجل وخانه الأجل»[١] ثم توجَّهوا إلى رجالة المسلمين وهم الأكثر عدداً، فشدّدوا الخناق عليهم، وقتلوا كل من يواجههم حتى الجرحى، ونالوا منهم، وكانت هزيمة نكراء للمسلمين[٢].

وبالطبع لا يصف المؤرخون العرب ما قام به طغتكين ورجاله بالهروب من المعركة وإنما قالوا «ووصل ظهير الدين والعسكر إلى دمشق»[٣] بينما قال الشارتري عن طغتكين هرب هو وابنه[٤].

وعندما عاد ظهير الدين إلى دمشق كان متيقناً أن الفرنج سوف يفرضون الحصار على بلاده، لكنه تفاجأ برحيلهم بعد أن استولوا على الغنائم والأسرى[٥]. ويقول الصوري عما حدث في هذه المعركة المتقلبة: «لا تحتوي سجلاتنا التاريخية، حتى وقتنا الحالي، على وصف مفرط وغامض لمعركة كهذه، فعلى الرغم من أن القتال امتد من الساعة الثالثة إلى الساعة العاشرة من اليوم، فقد كان من المستحيل حتى الساعة الحادية عشرة معرفة أي الفريقين قد انتصر.. لقد

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٧، أبو الفداء: ج٢ ص٦١، ابن الوردي: ج٢ ص٤٧، ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٥-٦٥٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٧، ابن كثير: ج٨ ص٤٠١، ابن أبي الهيجاء: ص١٨١-١٨٢، الأصفهاني: البستان ص٣٣٢، العظيمي: ص٣٧٦، الدواداري: ج٦ ص٤٩٦.

(٣) الشارتري: ص٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٨.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٠٧.

كابدوا مجزرة ستبقى بارزة إلى الأبد»[١]. وقدّر الصوري عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة بألفي قتيل من الفرسان والمشاة، وعدد قتلى الفرنج لا يتجاوز أربعة وعشرين فارساً وثمانين جندياً[٢]. وقد اتفق المؤرخون على أن هذه المعركة كانت متقلبة في الانتصار والخسارة، فكان النصر أول الأمر للمسلمين، ثم تحوّل إلى الفرنج، وقال ابن الأثير عن ذلك: «وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها»[٣].

٣٦- إخماد الثورة ومرضه وسقوط رفنية ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م:

في عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م وقعت ثورة في تدمر وكان الوالي فيها ابن أخي ظهير الدين طغتكين، فخرج صاحب دمشق بنفسه لإخماد هذه الثورة، ونجح في المهمة التي قام بها يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، وأقر فيها حفيده شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، ووضع معه مَنْ يثق بهم ليحفظ حفيده والبلد أيضاً[٤]. ولم يذكر المؤرخون كم كان عمر شهاب الدين عندما أقره في تدمر، أو أي معلومات عن ابن أخيه[٥].

وفي جملة مقتضبة يذكر ابن القلانسي عودة ظهير الدين من حلب، وهو مريض ودخل دمشق في شعبان. ولا نجد أي إضافات أخرى لدى المؤرخين عن نوعية مرضه أو الظروف التي أحاطت به. ولكن يبدو أن هذا المرض لم يتركه،

---

(١) الصوري: ج٢ ص٦٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٦٣٦.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٦.

(٤) ابن القلانسي: ص٣٤٨-٣٤٩، العظيمي: ص٣٧٦، الدواداري: ج٦ ص٤٩٧، ابن أبي الهيجاء: ص١٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

وإنما هدّه، وأنهكه حتى قضى عليه بعد سنتين فقط.

ثم وقع أمر في غاية الأهمية، في السنة نفسها، وهو سقوط حصن رفنية بيد الفرنج، ويبدو أن هذا الأمر الجلل لم يكن بذي أهمية من وجهة نظر ابن القلانسي، الذي اكتفى بذكر سطر واحد عنه فقط، وتبعه في ذلك ابن الأثير[١] بينما كان يفترض أن يسهب ابن القلانسي في الحديث عن هذا السقوط المؤلم، خصوصاً أن الحصن كان يتبع دمشق.

ومن المهم معرفة أن سقوط رفنية حدث بعد ثلاثة أشهر فقط من هزيمة ظهير الدين في مرج الصفر. فقد كانت الهزيمة في شهر ذي الحجة، واستولى الفرنج على الحصن في ربيع الأول من عام ٥٢٠هـ/ ٣١ مارس ١١٢٦م[٢] وهي ضربات كانت بالفعل مؤلمة جداً بالنسبة له، وكانت كفيلة بأن تؤثر في نفسيته.

فقد أراد أمير طرابلس الصليبي بونز الاستيلاء على حصن رفنية القريب من ممتلكاته، وطلب المساعدة من ملك بيت المقدس بلدوين الثاني، وأخذ بونز معه كل ما يحتاج إليه من آلات حربية لمحاصرة المدينة، بما في ذلك المؤن التي تكفيه لأيام عدة[٣] وعندما علم والي المدينة بذلك، طلب المساعدة من صاحب دمشق، ولكن الفرنج وصلوا إلى رفنية قبل طغتكين[٤] وفرضوا الحصار على الحصن ثمانية عشر يوماً[٥]. ويعتبر الاستيلاء على الحصن خسارة كبيرة لدمشق، وانتصاراً كبيراً للفرنج على اعتبار أنه كفل الأمان لطرابلس وأمّن الاتصال بين

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٥٠، ابن الأثير: ج٨ ص٦٥٦، أبو الفداء: ص٦١، العظيمي: ص٣٧٦.

(٢) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٨.

(٣) الصوري: ج٢ ص٦٣٦، الشارتري: ص٣٠٠.

(٤) رنسيمان: ج٢ ص٢٧٩.

(٥) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٧٩، الصوري: ج٢ ص٦٣٧.



مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية[١].

يذكر أن الفرنج كانوا قد استولوا على رفنية عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م «وقووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها»[٢] لكن ظهير الدين تمكن من استردادها في السنة نفسها، عندما قام بمهاجمتها لما كانت خالية من العساكر.

٣٧- استفحال أمر الباطنية ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م:

قام طغتكين بخطوة غير مدروسة، وغير محمودة العواقب، فقد أعطى داعي الباطنية بهرام قلعة بانياس في عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، ولكن قبل ذلك عظم أمر بهرام في الشام، وكان يتخفى ويستتر عن الناس بشكل مذهل، ويقوم بتغيير ملابسه، لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يتعرف عليه خلال تنقله بين البلاد.

ومن أجل اتقاء شره وشر أصحابه اتفق ظهير الدين طغتكين وإيلغازي بالرعاية والعناية به، ويقول ابن القلانسي عن ذلك: «إلى أن حصل في دمشق بتقرير قرره نجم الدين إيلغازي بن أرتق مع الأمير ظهير الدين أتابك وخطاب وكّده بسببه، فأكرم لاتقاء شره وشر جماعته، وحَمَلَت له الرعاية وتأكدت به العناية بعد أن تقلبت به الأحوال، وتنقل من مكان إلى مكان، وتبعه من جهلة الناس وسفهاء العوام وسفساف الفلاحين الطغام من لا عقل له، ولا ديانة فيه، احتماءً به وطلباً للشر بحزبه»[٣].

ثم قرر طغتكين في عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م منحه قلعة بانياس بعد أن التمس له وزير ظهير الدين ذلك لكي يكون له «حصناً يأوي إليه ومعقلاً يحتمي به،

---

(١) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٧٩.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٣.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٤٩.

ويعتمد عليه، فسلَّم له ثغر بانياس في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م»[١].

ثم بدأ «أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليله، فعظمت المصيبة بهم، وجلت المحنة بظهور أمرهم وشينهم، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء، وأهل السنة والمقدمين وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين، وأحجم كل منهم عن الكلام فيهم، والشكوى لواحد منهم، دفعاً لشرهم، وارتقاباً لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال، ولا يرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير، ولا يفل حد شرهم مقدم ولا أمير»[٢]. وكان هذا الدعي من أكثر المصائب التي حلَّت على الأمة حتى تمكن بوري بن طغتكين من القضاء عليه[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٩-٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٦١.

الفصل الثامن: الطريق نحو الأتابكية

حلم الشرعية، حُسّاد طغتكين، ظهير الدين في بغداد، ولادة النظام الأتابكي، ملاحظات على المنشور، وفاة الأتابك طغتكين.

* حلم الشرعية:

مرّ بنا آنفاً وفاة ملك دمشق دقاق بن تتش في ١٢ رمضان من عام ٤٩٧هـ/ ١٨ يونيو ١١٠٤م، أي بعد خمسة أشهر فقط من وقف الحرب بين بركيارق ومحمد، وقد تغيَّر كل شيء بعد ذلك، إذ تمكّن ظهير الدين طغتكين من إزالة كل مَنْ كان يقف في طريق حلمه بتأسيس مملكة خاصة به، كدقاق، وابنه تتش، ثم أرتاش، ثم فرض سيطرته على دمشق، بمساندة زوجته صفوة الملك العاشقة للسلطة، وكذلك الأمراء المساندين له، بعدما أضحوا هم السادة الجدد للمملكة الجديدة، خصوصاً أنهم يرون بأم أعينهم الدولة السلجوقية وهي تتهاوى رويداً رويداً، وأنها لن تعود إلى قوتها وماضيها التليد أبداً.

ولكن لو رجعنا قليلاً لرواية ابن القلانسي الخاصة بوفاة ملك دمشق حيث قال بعد أن تأكد عدم شفائه وأن وفاته مجرد وقت فحسب: «تقدَّمَتْ إليه والدته الخاتون صفوة الملك بأن يوصي بما في نفسه، ولا يترك أمر الدولة وولده سدى، فعند ذلك نصَّ على الأمير ظهير الدين طغتكين في الولاية لدمشق من بعده، والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق بن تاج الدولة إلى حين يكبر، وإحسان تربيته، وألقى إليه ما كان في نفسه، وتوفي إلى جنة الله في اليوم الثاني عشر من

شهر رمضان من السنة»[١].

ويعلق شاكر مصطفى على طريقة عرض ابن القلانسي لهذا الخبر بقوله: «ويلفت النظر في كلمة ابن القلانسي هذه، وهو المؤرخ شبه الرسمي لطغتكين وأسرته، والموظف الكبير لدى ملوك هذه الأسرة، طريقته في إيراد الوصية، أنه لم يقل إن وراثة العرش قد أُعطيت لتتش الطفل، ولكنه قال إن دقاق نص على الأمير ظهير الدين في الولاية من بعده، فأمَّا الطفل فله الحضانة والتربية حتى يكبر.. أما الشاهد الوحيد على الوصية فكانت صفوة الملك والدة دقاق، وزوجة طغتكين»[٢].

فابن القلانسي يؤكد أن وريث العرش هو طغتكين وليس تتش الصغير ابن الملك المتوفي، فكأنما يريد القول، أن العرش وصل بطريقة شرعية لظهير الدين عبر سيد دمشق الراحل، ولم يقم الملك الجديد بأي اغتصاب للسلطة.

والشاهدة الوحيدة لهذه الرواية، هي في الأساس تدور حولها الشبهات، بقتل ابنها، والموصى إليه في دائرة الإتهام، ومُشارِكة في الجريمة، أي جريمة انتقال المُلك بهذه الطريقة، وبعد ذلك كيف يُمكن أن نُصدِّق كل ما حدث!.

لهذا فإن ظهير الدين طغتكين الذي علا صيته، وارتفع مقامه، منذ أيام الملك تتش بن ألب أرسلان، الذي جعله أتابكاً لولده دقاق، والذي تولى زمام المملكة بشكل فعلي في أيام دقاق، بدأ يحكم قبضته عليها في أيام الطفلين أرتاش ثم تتش، وبعد فرار الأول وموت الثاني، أصبح طغتكين السيد الأوحد لدمشق،

(١) ابن القلانسي: الذيل ص٢٤٦-٢٤٧، الصفدي: الوافي ج١١ ص٢١١، الذهبي: السير ج١٤ ص٢٣٦-٢٣٧، سبط ابن الجوزي: المرآة ج١٣ ص٢٩٧.

(٢) مصطفى: طغتكين ص٥١.

رغم عدم اعتراف السلطنة السلجوقية بسيادته.

كان حلم الوصول إلى الإمارة والاعتراف به رسمياً كأمير لدمشق، والذي بدأ بعد وفاة ملك دمشق دقاق بن تتش عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م هو الشغل الشاغل لطغتكين، ومَنْ حوله من قادة الجيش ومن الذين يدورون في فلكه، لا سيما زوجته الباحثة عن المجد، فاستمرار ظهير الدين في الحكم يعني من دون شك الحفاظ على مصالحهم في دمشق.

عشر سنوات تقريباً منذ وفاة تتش بن ألب أرسلان عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وحتى وفاة دقاق ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م كانت كفيلة بأن يصبح ظهير الدين قائداً بارزاً، وسياسياً من طراز فريد، ومحارباً شجاعاً، بعد أن علّمته السنون وصقلته التجارب ليكون حاكماً فعلياً لما بعد مرحلة دقاق. بغض النظر عن الأفعال التي قام بها، والجرائم التي ارتكبها، لكن السؤال الذي كان يطرح نفسه دائماً هو كيف السبيل إلى حكم دمشق باعتراف رسمي من السلطان السلجوقي؟.

وفي حقيقة الأمر كان هذا الأمر صعب المنال، خصوصاً في وضعية طغتكين، ففي بغداد حيث الخليفة العباسي، وفي أصفهان حيث السلطان السلجوقي، وكذلك الأمراء في قصر السلطان، كلهم كانوا ينظرون إليه على أنه مغتصب للسلطة من أبناء الملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، لا سيما بعد موت دقاق، ثم الموت المفاجئ لابن دقاق الصغير، وهروب شقيقه أرتاش من دمشق بعد أن استُدعي إليها. كما كانوا ينظرون إليه بأنه مُتهم بقتل والي الموصل الأمير شرف الدين مودود، ولذلك أرسل السلطان محمد جيشاً بقيادة البرسقي من أجل القبض عليه، لكن خسارة البرسقي المعركة ضد الفرنج، ووقوف طغتكين إلى جانبهم، كل ذلك حال دون القبض عليه أو قتله.

ومع ذلك فإن السلطنة السلجوقية لم تكن متفرغة لِمَا يحدث في دمشق، بسبب انشغالها بمشاكلها الداخلية، وبسبب الحروب الطاحنة بين الأخوة على السلطة التي استمرت خمس سنوات من عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م إلى أن تصالح السلطان بركيارق مع أخيه السلطان محمد في عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، وفي شهر ربيع الثاني من عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م توفي السلطان بركيارق(١) وتمت الخطبة لابنه ملكشاه من الشهر نفسه(٢) وكان يبلغ من العمر عند وفاة أبيه أربع سنوات وثمانية أشهر(٣). ولكن السلطان محمد وصل إلى بغداد يوم الجمعة لثمان بقين من جمادى الأولى عند الجانب الغربي بأعلى بغداد، وخُطِب له في هذا المكان، وخُطِب لملكشاه بالجانب الشرقي(٤) واستطاع السلطان محمد أن يسيطر على الوضع، وتم الاتفاق عليه ليكون السلطان الجديد، وقال للمخالفين له: «أمَّا ملكشاه فإنه ولدي، ولا فرق بيني وبين ابن أخي»(٥).

وهكذا فرض السلطان محمد بن ملكشاه سيطرته على البلاد، ونال الاعتراف الرسمي به من الخليفة، لكنه لم يهنأ كثيراً في هذا الاستقرار، ففي محرم من السنة التالية أي ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م خرج عليه ابن عمه منكبرس بن الملك بوربرس بن ألب أرسلان في نهاوند، وبعد شهرين فقط من خروجه تم القبض عليه وأُرسِل إلى السلطان في أصفهان، وأودعه في السجن(٦). كما لا يمكن أن نتجاهل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٤٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧١.

(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٤.

(٥) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٧٤.

(٦) المصدر نفسه: ج٨ ص٤٨٢-٤٨٣.

الخلافات الدائمة بين الملك رضوان أمير حلب، وطغتكين المتسلط على دمشق بعد وفاة دقاق ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م. إضافة إلى دخول الصليبيين في المنطقة، منذ العام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، ثم توالي سقوط المدن الإسلامية في أيديهم، بداية من الرها إلى طرابلس عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، وخلال هذه الفترة سعت السلطنة السلجوقية إلى إرسال الجيوش لمقاتلة العدو، وسط الفوضى والاضطرابات التي تعيشها المنطقة.

كان ظهير الدين المستولي على دمشق، يقاتل الصليبيين تارة، ويهادنهم تارة أخرى وفق مصالحه ورؤيته الخاصة به، إلى أن تم اغتيال والي الموصل شرف الدين مودود عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، وألقى السلطان والرأي العام باللائمة عليه، ما جعل السلطان يرسل قائده البرسقي لقتاله، وهذا ما دفع الأتابك إلى الوقوف إلى جانب الفرنج ضد المسلمين، فأصبح عدو الأمس صديق اليوم، ثم تغيَّرت الأوضاع فجأة بعد قيام الفرنج بخطوة لم تكن مدروسة، أدت إلى قيام ظهير الدين بمراجعة نفسه، والعودة إلى الطريق الصحيح من جديد. ولكن ما الذي حدث بالفعل؟.

في عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م استولى الفرنج على رفنية بالشام «وقووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها»[(١)] وكانت تابعة لأتابك دمشق، هذا الأمر غيّر تفكيره وجعله يراجع نفسه، ورأى ضرورة العودة إلى الصف الإسلامي، لكن لا بد من استرجاع رفنية أولاً.

وبعد رواية ابن الأثير الذي وصف حال أتابك دمشق بعدما أخذ الفرنج رفنية وتوجهه إليها وهجومه عليها والغنائم التي حققها والخسائر التي تكبدها

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٦٣.

الفرنج[١] ورواية ابن القلانسي عن الحدث نفسه، والذل الذي أصابهم[٢] وصف سبط ابن الجوزي ما فعله طغتكين في رفنية بقوله: «فقتل أهلها وغنم أموالها، وأسَرَ وعاد إلى دمشق، وبعث برؤوسهم وخيلهم وأسلحتهم وهدايا وألطاف إلى الخليفة والسلطان، واعتذر ولم يُقبل عذره»[٣].

فقد أدرك ظهير الدين فداحة خطئه، وفداحة الجرم الذي ارتكبه بحق نفسه أولاً وبحق أمته، وشعر أنه ظلم نفسه بتحالفه مع الفرنج، لا سيما أنه كان أكثر القادة قتالاً لهم فيما مضى، وأكثرهم قدرة على مجابهتهم، أياً كانت الأسباب التي كان يقاتلهم من أجلها، لهذا كله قدّم اعتذاره لكل من الخليفة وسلطان السلاجقة محمد بن ملكشاه، ومع ذلك لم يقبلا اعتذاره أو مسامحته على ما قام به.

* حُسّاد طغتكين:

لكن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا لم يتم قبول عذره، كما ذكر سبط ابن الجوزي؟ هذا السؤال نجد إجابته عند ابن القلانسي حسب وجهة نظره، حيث يشير إلى أن النجاحات التي حققها طغتكين، وشيوع ذكره وشهرته الواسعة، نظراً لقوته ومحاربته الفرنج، والأهم من ذلك انتصاره عليهم، فضلاً عن دفاعه عن أهل الشام، كل ذلك خلق له أعداء لا سيما في قصر السلطان السلجوقي بأصفهان[٤] حيث يقول ابن القلانسي: «ولمَّا شاع ذكر ظهير الدين أتابك في

---

(١) المصدر نفسه: ج٨ ص٥٦٣.

(٢) ابن القلانسي: ص٣١٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٦.

(٤) ابن القلانسي: ص٣١٦-٣١٧.

الأعمال العراقية، والدركاء السلطانية[١] بما أعطاه الله من شدة البأس في محاربة الإفرنج الأرجاس، ومنحه من النصر عليهم، والنكاية فيهم، والذب عن أهل الشام ومراماته دونهم، ومحاماته عنهم، وإحسان السيرة فيهم، بحيث دُعي له في محافل الرعايا والتجار، وشُكْر بين الرفق من سفار الأقطار، فحسده قوم من مقدمي الدركاء السلطانية الغياثية[٢] وراموا القدح فيه، والطعن عليه، طلباً لإفساد حاله، واعتماداً لعكس آماله، وحطّاً لرتبته بالحضرة السلطانية، وتشعيث الآراء الجميلة الغياثية»[٣]. ويؤكد ابن القلانسي بعد كل هذا الأسلوب الجميل «وظهر الأمر بذاك وانتشر، وشاع من كل صوب واشتهر، وكتب إليه بذلك من يُؤثر صلاحه من الأصدقاء، ويُشفق عليه»[٤].

هذا ما يذكره المؤرخ الدمشقي! ولكن لا نعتقد أن مثل هذه الأمور وحدها كافية لوجود حُساد لأتابك دمشق. وسبط ابن الجوزي يؤكد وجود هؤلاء الحساد، وهو بالتأكيد نقل ذلك عن ابن القلانسي، حيث يقول: «وكان بباب السلطان من يحسده، فكثروا عليه»[٥] لكن سبط ابن الجوزي لم يذكر أن أسباب حسدهم له، هي انتصاراته ومحاربته للفرنج، والدفاع عن أهل الشام. إلا أن الحقيقة التي لم يذكرها ابن القلانسي أن أسباب وجود أولئك الحُسّاد تعود إلى حقائق عدة، لا يعترف بها مؤرخ دمشق، وهي كل ما ذكرناه آنفاً، نوردها كما ما يلي:

(١) دركاء السلطانية: باب السلطنة السلجوقية، وكان عليها غلمان قائمون على الخدمة وهم من التركمان، ويسمون غلمان القصر، ومنهم من رُقِّي إلى رتبة أمير الحجّاب أو أمير إمارة أو أمير ولاية. والدركاء: باب القصر وفارسيته «دركاه» ومعناه: الباب والسُّدة. أبو النصر: السلاجقة ص١٥٦ و١٥٧.

(٢) نسبة إلى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه.

(٣) ابن القلانسي: ص٣١٦-٣١٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٣١٧.

(٥) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٦.

- **مقتل صاحب الموصل شرف الدين مودود عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م:** فحتى لو لم تثبت هذه التهمة على أتابك دمشق، فإنها ظلت تطارده، لأنه لم يستطع نفيها، لا سيما أن والي الموصل قُتِل في معقل طغتكين ووسط حراسته المشددة، كما أن السلطان اتهمه بذلك، ولا شك أن هؤلاء الدركاء الذين يُسمّيهم ابن القلانسي بالحُسّاد، هم الذين أوغروا قلب السلطان محمد بن ملكشاه على طغتكين، بعد أن حاصرته كل الدلائل خصوصاً أن السلطان حرك جيشه بقيادة برسق بن برسق لتأديبه مع إيلغازي المنشقين والعاصين بعد مقتل مودود كما مر بنا في فصل سابق.

- **تحالف الأتابك مع الخلافة الفاطمية** وتحديداً في صور التابعة للدولة الفاطمية عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢م: عندما دخل جنوده المدينة للدفاع عنها، وتأكيده للفاطميين باستعداده لإخراج نوابه منها، وتسليمها لمن يرسلونه[(١)] ثم إشادة الوزير الفاطمي الأفضل برأي أتابك دمشق، وشكره على صنيعه[(٢)] وبعد أن قام بإرسال الخلع الفاخرة لطغتكين وابنه بوري ولوالي صور مسعود. كل ذلك ترك حقداً دفيناً لدى أولئك الذين يحيطون بالسلطان السلجوقي لإدراكهم أن الأتابك إنما يفعل كل هذا من أجل تقوية موقفه السياسي، وتقوية سيطرته على دمشق التي بدأت تخرج رويداً عن الدولة السلجوقية لتذهب لمملوك كان وما زال تابعاً لها.

- **تحالفه مع الفرنج عام ٥٠٨هـ/ ١١١٤م:** وقد تناسى ابن القلانسي هذا الأمر عمداً، بل تجاوزه ولم يعتبره تحالفاً ضد الأمة الإسلامية، وإنما رآه

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٤٦.

أمراً حيوياً، حتى أنه أراد أن يصوّر لنا أن هناك فائدة عظيمة من هذا التحالف، حيث قال: «لتعمر الأعمال بعد الإخراب وتأمن السوابل من شر المفسدين والخراب»[(١)] بينما السلطان ومن يدور في فلكه اعتبروه عصياناً واضحاً وقوياً على الدولة السلجوقية.

- **انتصاره مع الفرنج على جيش السلطان** الذي أرسله لتأديبه وتأديب إيلغازي في معركة تل دانيث عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م: وهو ما كان يعني بعد هذه المعركة نهاية أي محاولة للسلاجقة في استعادة الشام إلى الحضن السلجوقي، هذه المعركة التي قصمت ظهر السلاجقة، والتي أدت نتائجها إلى وفاة الأمير برسق بعد شهور قليلة من الهزيمة «بعد أن أصابه الخزي والهوان»[(٢)].

- **الصعود المستمر والقوي لظهير الدين طغتكين**: وربما هذا الأمر الوحيد الذي يمكن القول عنه أن طغتكين لم يكن مذنباً فيه، ولعل السبب في حسدهم عليه يرجع إلى أنه مملوك مثلهم، وهم لا يقلّون عنه في شيء، ومع ذلك فإنه أخذ يفرض سيطرته المطلقة على دمشق منذ مقتل سيده تتش، ثم تحكّمه بدقاق ابن سيده، وبسط نفوذه بشكل كامل على دمشق بعد وفاة دقاق. حتى كاد يكون سيداً جديداً في المنطقة رغم أنه مملوك مثلهم.

ومع كل هذا فإن النص الذي أورده ابن القلانسي، والذي يشير إلى وجود أعداء لطغتكين في قصر السلطان، فإن هذا النص نفسه، يشير أيضاً إلى وجود أصدقاء له، حيث يقول ابن القلانسي: «بحيث دُعي له في محافل الرعايا والتجار،

---

(١) ابن القلانسي: ص٣١٣.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٢١٦.

وشُكْر بين الرفق من سفار الأقطار»[١] وهؤلاء الأصدقاء هم الذين أخبروه بما يحاك ضده في قصر السلطان، إذ قال عنهم مؤرخ دمشق: «وكتب إليه بذلك من يؤثر صلاحه من الأصدقاء، ويشفق عليه»[٢] وهم أنفسهم الذين سيكون لهم دور في تغيير صورته لدى السلطان، ولا شك أن الأتابك كان «يواليهم بالهدايا والهبات، بواسطة التجار والسفار، كما كان يتعمد العناية بهؤلاء، ليكونوا ألسنة حمد له في أصفهان»[٣].

عموماً أياً كانت المبررات التي ساغها وصاغها ابن القلانسي لوجود أولئك الحُسّاد، وأياً كان رد السلطان على اعتذار ظهير الدين، فإن هذا الأخير المعروف بنشاطه الواضح وعدم ركونه إلى الهدوء منذ أن كان يافعاً وحتى بلوغه سناً متقدمة في العمر، لم يقف مكتوف الأيدي، وهو يرى أحلامه تتهاوى، ويرى الخليفة والسلطان يرفضان اعتذاره، فما كان منه سوى المغامرة والتوجّه بنفسه إلى بغداد التي وصلها السلطان محمد في رجب عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م[٤] مخاطراً بذلك بنفسه، وهو يتوجه إلى حُسّاده كما يُسمّيهم ابن القلانسي!.

ولكن من كان صاحب الفكرة؟ في توجّه ظهير الدين إلى بغداد؟ هل هو نفسه؟ أم السلطان السلجوقي؟ إذ أن مؤرخ دمشق ابن القلانسي القريب من الأحداث لم يذكر شيئاً عن وصول رسول السلطان، بينما العظيمي يذكر أن رسولاً من قبل السلطان وصل إلى دمشق[٥] من دون أن يذكر من هو هذا

(١) ابن القلانسي: ص٣١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣١٧.

(٣) مصطفى: طغتكين ص٧١.

(٤) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٤.

(٥) العظيمي: تاريخ حلب ص٣٥٢.

الرسول أو أي تفاصيل أخرى عنه، أما عماد الدين الأصفهاني فيذكر في حوادث ٥٠٨هـ/ ١١١٤م[١] وصول رسول السلطان إلى دمشق ويدعى بكريس (منكوبرس)، ويقول شاكر مصطفى عن ذلك «ولهذا حين وصل السلطان إلى بغداد في رجب سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م أنفذ إليه رسولاً إلى دمشق هو على الأرجح الأمير منكوبرس الذي أصبح فيما بعد شحنة بغداد سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م»[٢]. وإن كان الأصفهاني حدد تاريخ هذه الزيارة في عام ٥٠٨هـ/ ١١١٤م وليس ٥٠٩هـ/ ١١١٥م.

❊ ظهير الدين في بغداد:

ولكن قبل ذلك لننظر إلى الصيغ التي كتب فيها عدد من المؤرخين وصول طغتكين إلى بغداد، فيذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م: «في هذه السنة، في رجب قَدِم السلطان محمد بغداد، ووصل إليه أتابك طغتكين، صاحب دمشق، في ذي القعدة، وسأل الرضا عنه، فرضي عنه»[٣] ويقول الذهبي عن طغتكين: «ثم رأى المصلحة أن يتلافى أمر السلطان، فسار إلى بغداد، بتقادم وتحف للسلطان والخليفة، فرأى من الإكرام والتبجيل ما لا مزيد عليه»[٤] ويقول أبو الفداء: «وفيها قدِم السلطان محمد إلى بغداد، فسار إليه طغتكين من دمشق، ودخل عليه وسأل الرضا عنه فرضي عنه»[٥]. ويقول ابن كثير: «وجاء إليه طغتكين

---

(١) الأصفهاني: البستان ص٣١٩.

(٢) مصطفى: طغتكين ص٧٢.

(٣) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤.

(٥) أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٤٩.

معتذراً إليه»[١].

ونلاحظ من ذلك أن أتابك دمشق هو صاحب المصلحة الأولى من هذه الزيارة، وبالتالي كان يبحث عن «الاعتذار، والرضا، ويتلافى المشاكل مع السلطان» وهي الكلمات التي دارت حولها صيغ المؤرخين، ومن ثَمَّ فهو الساعي إلى هذه الزيارة، لذلك حتى وإن ذكر العظيمي والأصفهاني وصول رسول من السلطان إلى دمشق، فإنه في ضوء الاستفادة نجد أن فائدة طغتكين من هذه الزيارة أكثر من السلطان، صحيح أن الأخير أدرك أن الشام لا يمكن أن ترجع إلى حضن الدولة السلجوقية، بعد المعركة التي خسرها الأمير برسق، أمام تحالف طغتكين وإيلغازي مع الفرنج، وربما أراد السلطان من هذه الزيارة احتواء الأتابك قبل أن يرتمي أكثر من ذلك في حضن الفرنج، وهذا الأمر قد يُرجّح رواية العظيمي والأصفهاني على سواها، لكن يبقى أن مؤرخ دمشق لم يأت بذكر زيارة رسول السلطان لا من قريب ولا من بعيد، لكن كما ذكرنا أن المستفيد الأول من هذه الزيارة هو أتابك دمشق، ومن ثَمَّ فهو الذي قرر التوجه إلى بغداد، خصوصاً بعدما وصلته الأخبار أن هناك من يحيك ضده في الظلام، لهذا فإن رواية ابن القلانسي هي الأقرب إلى الصحة.

عندما قرر طغتكين التوجُّه إلى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه، لإزالة أي لبس تجاهه، كان يدرك المخاطر التي ستواجهه من حُسّاده، ويعلم أيضاً أنهما أي الخليفة والسلطان ربما لن يستقبلاه كما ينبغي، ومع ذلك فقد تأهب للمقابلة تأهباً عظيماً بعد أن وصلته الأخبار أن هناك من يكيد له في قصر السلطان. حيث يقول ابن القلانسي: «وكتب إليه بذلك

---

(١) ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٨٤.

من يُؤثر صلاحه من الأصدقاء، ويُشفق عليه، فأحدث ذلك له استيحاشاً دعاه إلى التأهب والاستعداد لتوجه ركابه إلى الباب الإمامي المستظهري[١] والباب السلطاني الغياثي[٢] بمدينة السلام بغداد، للمثول بهما، والخدمة لهما، والتقرب بالسعي إليهما، وإنهاء حاله إليهما، وإزالة ما وقع في النفوس ظنة بالقدوم إليهما»[٣].

وطغتكين في كل مرة يُثبت أنه سياسي محنك، وقادر على تحريك اللعبة كما يريد، فقد رأيناه عندما وقف في الحرب إلى جانب الفرنج، لكنه لم يكن يريدهم أن يحققوا النصر، لأنه رأى ببصيرته أن ذلك سيعود عليه بالضرر، ولم يكن يريد النصر للمسلمين، لأنه سيكون حينئذ الخاسر الوحيد، واليوم وعندما أدرك أنه يسير في الطريق الخطأ، أراد تصويب خطئه في الوقت المناسب قبل أن يستفحل الأمر، وتضيع منه الفرصة، لذلك قرر الذهاب إلى مكان الحل والعقد في الدولة السلجوقية ومكان القرار، وهو السلطان، وأيضاً الحصول على رضا الخليفة العباسي، لا سيما بعد وصول السلطان إلى بغداد في رجب ٥٠٩هـ/ ١١١٥م وعندما علم بالمكائد التي تحاك ضده في قصر السلطان، لم يكتف بإرسال الرسل أو من ينوب عنه، وإنما رأى أنه لا يمكن لأحد أن يحل مشكلته ويعرضها على السلطان والخليفة مثله، رغم أن عدداً من أمراء دمشق ومِن المحيطين حوله من المنتفعين بوجوده على رأس السلطة في دمشق، نصحوه بعدم الذهاب إلى بغداد، نظراً لخطورة الوقوف أمام السلطان الذي قد يغدر به، خصوصاً أن السلطان لم ينس غدره بمودود، ولا تعاونه مع الفاطميين، ولا قوفه إلى جانب

(١) نسبة إلى الخليفة العباسي المستظهر بأمر الله.

(٢) نسبة إلى السلطان السلجوقي غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه.

(٣) ابن القلانسي: ص٣١٧.

الفرنج، وكما قال ابن القلانسي: «أُشير عليه بترك ذلك واهماله، وحُذّر منه، وبعث على اغفاله»[١] وهؤلاء وهم الأقرب إلى أتابك دمشق، والأكثر استفادة من استمراره على هرم السلطة، لم يقولوا ذلك إلا لأنهم يعلمون أن ما قام به ظهير الدين من مواقف عدة تُحسب ضده، وليس من السهل أن يسامحه السلطان عليها، ومع ذلك فإن أتابك دمشق «لم يُصغ إلى هذا المقال، ولا أعاد على أحد جواب سؤال»[٢] ولكن ما السبب؟.

السبب بالطبع في ذلك واضح وجلي، وهو أنه يريد حل مسألة دمشق، بعد أن فعل كل ما في وسعه للاعتراف به بشكل رسمي لكن دون فائدة. وكما يقول شاكر مصطفى: «إنه طرق كافة الأبواب للوصول إلى «الشرعية» فلم يصل. وإذا كان هذا الباب هو الباب الوحيد لها، فقد بقي الآن الباب الأخير أيضاً، وقد كان طغتكين يستطيع أن يبقى أمير إمارة استيلاء كغيره، ولكنه فيما يبدو قد تعب من المدافعة والمراقبة لجبهتي الفرنج والسلطان، فأراد الإنصراف إلى جبهة واحدة، كما كان يريد توريث الإمارة لابنه بعد أن بلغ الآن الخامسة والستين من العمر، ويريد أن يكفيه سلفاً مشاكل السعي لتثبيت قدمه سواء على النطاق الداخلي تجاه الأمراء الطامعين في دمشق، أو على الجبهة الخارجية السلطانية، ولهذا، كما يقول ابن الفرات حمل نفسه على الأشق، وتأهب إلى المسير على حد قول ابن القلانسي»[٣].

لهذا فإن أتابك دمشق أراد أن يتخلص من لقب مستولٍ على السلطة حيث ينظر له الشعب الشامي كله هذه النظرة، فهو في الأخير أحد مماليك السلاجقة،

---

(١) المصدر نفسه: ص٣١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣١٧.

(٣) مصطفى: طغتكين ص٧٢.

وأتابكاً لأمير سلجوقي مقتول، ولهذا فإن الجميع يعلم أنه ليس له حق في إمارة دمشق، إلا إذا حصل عليها بطريقة شرعية من سلطان السلاجقة.

ومن ثَمَّ لَمْ يكن أمام الأتابك سوى التأهب للسير إلى بغداد، فهو مِن النوع الذي يُقدِّم الهدايا لاسترضاء الآخرين، وشراء ذممهم إن تطلب الأمر، ويبدو أنه قام بجس نبض المتواجدين في قصر السلطان، الذين عرضوا الأمر على السلطان، فأبدى بدوره موافقته، وهذا ما يشير إليه ابن أبي الهيجاء بقوله: «فلمَّا بلغ ظهير الدين أتابك أنه حصل من جهة السلطان، تغيَّر فسار من دمشق إلى بغداد»[(١)]. وأخذ معه «أنواع التحف المستحسنة من أواني البلور والمصاغ، وأجناس الثياب المصرية، والخيول السبق العربية»[(٢)] لتقديمها لذوي المناصب في قصر السلطان من المستشارين وغيرهم، كي يزيل أي تهمة وُجهت إليه، خصوصاً أن السلطان والخليفة يمكن أي يستمعا لهؤلاء. ويعترف ابن القلانسي تصريحاً لا تلميحاً بأن هذه الهدايا «مما يصلح أن يتقرب بمثله إلى تلك المناصب العليا»[(٣)]. وكانت تلك الهدايا التي قدمها ظهير الدين هي المفتاح الحقيقي للدخول على السلطان والخليفة.

وكان سير الأتابك إلى بغداد في أبهى حلة ومعه أقرب الناس له «وخواصه وأهل ثقته من غلمانه، في يوم الأحد لست بقين من ذي القعدة من السنة»[(٤)]أي في

---

(١) ابن أبي الهيجاء: ص١٧٣.

(٢) ابن القلانسي: ص٣١٧، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤.

(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه: ص٣١٧.

(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه: ص٣١٧، ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٤، ابن كثير: ج٨ ص٣٨٤، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤، أبو الفداء: المختصر ج٢ ص٤٩، ابن أبي الهيجاء: ص١٧٣، يرى عماد الدين الأصفهاني أن أتابك طغتكين سار إلى بغداد في العام ٥٠٨هـ. البستان ص٣١٩.

٥٠٩هـ/ ١١١٥م، وقبل وصوله إلى بغداد، أرسل غلمانه إلى الدركاء السلطانية والمسؤولين في قصر الخليفة يبلغونهم عن وصول سيدهم، وتم استقباله استقبالاً عظيماً يليق بالهدايا التي قدَّمها إلى المسؤولين في القصر، ما يعني أن تلك الهدايا كان لها مفعول السحر، فاستُقبِل كما كان يريد ويتمنى، وكما خطط له، حيث يقول ابن القلانسي: «فلمَّا قرب بغداد، وأنهى خبر وصوله، تلقاه من خواص الدار العزيزة النبوية المستظهرية، والدركاء السلطانية الغياثية، ووجوه الدولة وأعيان الرعية، من بالغ في إكرامه وتناهى في احترامه، وقوبل من ذاك ما زاد في مسرة أوليائه، والفتّ في أعضاد حساده، وأعدائه»[1].

وهذا يعني أن هداياه ساهمت في تفوق المؤيدين له على أولئك الذين كانوا يريدون رأسه، الذين أسماهم مؤرخ دمشق ابن القلانسي بالحُسّاد. وهكذا دخل ظهير الدين قصر السلطان، وهي اللحظة التي كان ينتظرها منذ أمد بعيد، كيف لا وهو يُعامل ويُستقبل كالملوك، وهو الذي كاد بفعله الأرعن عندما تحالف مع الفرنج ضد المسلمين، أن يضيع من يديه كل ما بناه وما حققه!.

وفي القصر كانت المخاوف والشكوك تراود قلب أتابك دمشق حول السلطان، من أن ينقلب عليه، ويغدر به، هذه المخاوف ألمح إليها ابن الأثير من دون أن يشير إليها ابن القلانسي، حيث يقول في حوادث سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م: «في هذه السنة، أول المحرم، حضر أتابك طغتكين دار السلطان محمد ببغداد، وحضر جماعة الأمراء، ومعهم أحمديل بن إبراهيم بن وهسوذان الروادي الكردي، صاحب مراغة وغيرها من أذربيجان، وهو جالس إلى جانب طغتكين، فأتاه رجل متظلم، وبيده رقعة، وهو يبكي ويسأله أن يوصلها إلى السلطان،

(١) ابن القلانسي: ص٣١٧.

فأخذها من يده، فضربه الرجل بسكين، فجذبه أحمديل وتركه تحته، فوثب رفيق للباطني وضرب أحمديل سكيناً أخرى، فأخذتهما السيوف، وأقبل رفيق لهما وضرب أحمديل ضربة أخرى، فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه، وظن طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل، وأنه بأمْر السلطان، فلمَّا علموا أنهم باطنية زال هذا الوهم»[١].

وفي الجملة الأخيرة «وظن طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل، وأنه بأمر السلطان» تؤكد ما كان يعتمر في الصدور من مخاوف، سواء لدى أتابك دمشق نفسه، أو عامة الناس الذين كانوا يتابعون الوضع، ويعرفون دقائق الأمور ومجرياتها، وعلاقة الأتابك بالسلطان.

كما شرح ابن القلانسي ما حدث لأتابك دمشق في قصر السلطان بألفاظ عامة فضفاضة، من دون أن يخبرنا ما حدث له بالتفصيل، لكن هذه الألفاظ كانت كفيلة بمعرفتنا بحال طغتكين بأنه كان سعيداً وفرحاً، بما سمعه من السلطان محمد بن ملكشاه، حيث يقول بعد دخوله القصر: «أوضح حاله فيما قصد لأجله، فما سمع إلا ما عاد ببسط عذره، وإحماد فعله، وإطراء أمره، وتطييب نفسه، وإبعاد استيحاشه، وتأكيد أنسه»[٢].

وبالتأكيد فإن ظهير الدين استثمر وجوده لدى السلطان أحسن استثمار، فشرح له الوضع المأساوي الذي كان يعانيه من الفرنج، ومقاومته وجهاده المستمر لهم، وأن ما فعله من تحالفه معهم كان من باب الضرورة، وأنه كان مضطراً إلى ذلك، وبالتالي فإن السلطان قَبِل عذره، وشكره على بطولاته ضد

---

(١) ابن الأثير: ج٨ ص٥٦٦.

(٢) ابن القلانسي: ص٣١٧.

الفرنج، والأهم من ذلك، أبعد المخاوف التي كانت تراوده بنية السلطان بعزله عن إمارة دمشق، وطيّب نفسه. والأهم من كل هذا وذاك أن القدر وقف إلى جانب طغتكين عندما تم قُتِل أحمديل بدار السلطان، (إن صحت هذه الرواية) فمن البديهي أن يشير ظهير الدين إلى هذه الحادثة، ويؤكد أنها شبيهة لحادث اغتيال مودود الذي تم قتله في معقل طغتكين وبين عسكره وأنصاره من قبل الباطنية كما يدعي الذين يُبرئون أتابك دمشق من هذه التهمة. وهو بالتأكيد أكد لهم براءته من قتل مودود، وما حدث لأحمديل هو نفسه ما حدث لمودود، هذا بالطبع ما شرحه لهم.

وطغتكين رجل ذكي جداً، يعرف جيداً ماذا يريد، وكيف يأخذ ما يريده، لهذا عندما غامر بالمجيء إلى بغداد، كان يدرك حجم المخاطر التي تنتظره، وكان أيضاً قد وضع لنفسه طموحاً لا حدود له، فهو لم يكن يريد من هذه الرحلة أن يعفو عنه السلطان، ويُكفّر له عن أخطائه السابقة فحسب، أو أن يؤكد له أن كل ما وصلته من معلومات حوله إنما هي من حُسّاده، وإنما يريد ما هو أبعد من ذلك، يريد الوصول إلى الإمارة، التي حاول طوال كل تلك السنوات الحصول عليها بالقوة وبالحيلة، ثم أراد الحفاظ على إمارته التي استولى عليها من الأمير السلجوقي الصغير، وبقتل كل من يشكل خطراً عليه، حتى لو كان ذلك على حساب أمير الموصل شرف الدين مودود الذي كانت له اليد الطولى في جهاد الفرنج.

وظهير الدين في حقيقة الأمر لم يكن يتوقع أن تتحقق كل أمانيه وأحلامه بكل تلك السهولة، لكنه آمن بنفسه وبقدراته وبقوته فحصل على ما يتمناه، وأكثر من ذلك، وبالفعل استطاع أن يحقق كل ما يريد، فقد خلع عليه السلطان ومنحه

الشرعية التي أفنى حياته من أجلها، منحه منشوراً بولاية الشام[١]. هذه الشرعية التي تحققت بعد اثني عشر عاماً منذ وفاة دقاق عام ٤٩٧هـ واستيلائه على السلطة وتفرده بالأمر، حتى عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م التي اعترف به السلطان أميراً على دمشق.

ولا نعتقد أنه كان يتوقع أن يحقق كل هذا النجاح من هذه الزيارة، فربّما كان يتوقع أن يحقق جزءاً من النجاح، خصوصاً فيما يتعلق بوضعه السياسي، عندما رأى أن وقوفه إلى جانب الفرنج كان خطأً فادحاً، ومن الضروري أن يعود إلى الطريق الصحيح، لكنه لم يتوقع أن يحقق حلمه بالوصول إلى الإمارة بكل هذه السهولة وعبر منشور من السلطان نفسه.

ورغم أن ظهير الدين كان طوال تلك المدة قد فرض أمراً واقعاً على الدولة السلجوقية التي ظلَّت عاجزة عن مواجهته وردعه، ومع ذلك فسوف يتخلّص قريباً عن الصفة التي لازمته طويلاً وهي «أمير استيلاء» والتي تعني أن «يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوّض إليه تدبيرها وسياستها، فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة»[٢].

ومع هذا فقد كان طغتكين طوال فترة سيطرته على دمشق، يدرك أن سلطته كانت غير شرعية، وأن الناس لم يعترفوا به، لذلك وجدناه أول الأمر يحتمي بظل مراهق سلجوقي هو دقاق، ثم بشقيقه أرتاش، ولمَّا فرَّ الأخير عن الشام، احتمى لفترة وجيزة بطفل صغير لم يتجاوز السنة الواحدة فقط، وهو تتش بن دقاق،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤.

(٢) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق القاضي نبيل عبد الرحمن حيّاوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ص٩٥-٩٦.

وبعد ذلك ضاق ذرعاً بتلك الحماية الهشة واستولى على السلطة بالقوة.

وصحيح أن الظروف هي التي أمْلت عليه هذا الوضع الجديد، أي حاجته الماسة إلى الشرعية، لكنه لم يُقدِّم أي تنازلات طوال تلك السنوات من أجل الحصول عليها، ونقصد بتلك الظروف وضع الشام وتحديداً دمشق ومجابهتها لفترات طويلة للصليبيين، لكن مع ذلك لم نجده يسعى بشكل حثيث وجاد وراء الشرعية، ربما لشعوره بصعوبة الحصول عليها، وربما لأن الواقع الذي فرضه أي استيلائه بالفعل على دمشق، جعل السلاجقة وغيرهم يقبلون هذا الوضع الجديد على مضض، نتيجة لظروف المنطقة، ولكن من دون وجود شرعية له طوال تلك السنوات، ومع كل هذا فقد كان ظهير الدين يود الحصول على تلك الشرعية بل كانت أمنية حياته، لأن ذلك يعني توريثه السلطة لعقبه من بعده، وهو ما تحقق بالفعل بعد هذه الزيارة إلى بغداد.

وهكذا تحوَّل طغتكين من خائن مطلوب للقتل إلى أمير معترف به بشكل رسمي من الدولة السلجوقية، وهو أول مملوك لدى السلاجقة يحصل على هذه المكانة الرفيعة. وهو أول مملوك يحول النظام الأتابكي من مجرد نظام اجتماعي شكلي ليس له أي صلاحيات إلى نظام سياسي قائم بذاته، وإذا كان ظهير الدين في السابق مجرد أتابك، مستولٍ على سلطة أمير سلجوقي صغير، ولم يستطع طوال السنوات الماضية أن يُطلق على نفسه صاحب دمشق، فها هو الآن أمير يخرج عن طوق الدولة السلجوقية باعتراف رسمي من قبل السلطان محمد بن ملكشاه، حيث يقول ابن القلاسي: «وحين عزم على الإنكفاء إلى دمشق، وأذِن له في ذلك، شرف بالخلع السنية، والكرامات الهنية، وكتب له المنشور العالي السلطاني الغياثي بولاية الشام حرباً وخراجاً، وإطلاق يده في ارتفاعه على إيثاره،

بإنشاء الطغرائي[١] أبي اسماعيل الأصفهاني»[٢].

❊ ولادة النظام الأتابكي:

والمنشور في الواقع يُسجل ولادة النظام الأتابكي رسمياً كنظام حكم وإدارة وراثية سلجوقية[٣] لكنه في واقع الأمر سلطة منفصلة عن الدولة السلجوقية، سوف تنتشر في السنوات اللاحقة، بحيث يحكم القائد العسكري دولة الأمير السلجوقي الصغير، فيُصبح الأمير من غير حول ولا قوة، إلى أن يُقتل أو يموت، فتؤول الإمارة كلها من نصيب هذا القائد العسكري الذي يورثها بدوره إلى أبنائه، وتكثر هذه الأتابكيات في المنطقة فتساهم في القضاء على ما تبقى من الدولة السلجوقية حتى ظهور صلاح الدين الأيوبي الذي يقضي على معظم الأتابكيات المنتشرة وقتئذ.

ويختصر سبط ابن الجوزي المنشور السلطاني الذي نقله عن ابن القلانسي بقوله: «فكان منه بعد البسملة: هذا منشور أمر بإنشائه السلطان المعظم غياث الدنيا والدين أطال الله بقاءه، وأعز أولياءه، ونصر لواءه، وخذل أعداءه، وحمى حدباءه، الأمير الأجل الأصفهسلار الكبير ظهير الدين أتابك أدام تأييده، لما كان من تمسكه بالطاعة بأحكم علائقها، واعتصامه من الخدمة بأوكد وثائقها، ولما

---

(١) الطغرائي: الطغراء كلمة تركية تعني الخط المقوس الذي يوضع في صدر الأوامر والمنشورات والفرمانات، كما هو معروف لعلامة كل سلطان بالنسبة للفظ «بسم الله» وكان الذي يُعهد إليه برسم هذا الخط المقوس يسمى باللغة العربية: طغرائي وبالفارسية: طغراكش. والطغرائي هو رئيس ديوان الطغراء والرسائل وكان يتعامل مع السلطان والوزير مباشرة؛ لأنه المسؤول عن توصيل الرسائل والفرمانات والمنشورات إلى السلطان، فهو الذي تصدر عنه الأوامر الموقعة بتوقيعه والمخاتمة والمذيلة بشعاره. الوزنة ص٧٠ و٧١.

(٢) ابن القلانسي: ص٣١٧-٣١٨، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٥ ص٢٤.

(٣) مصطفى: ص٧٣.

أجلت التجارب منه عين الناصح الأريب، والمهذب اللبيب، المتدرج في مراقي الترتيب السنية بالمساعي الرضية، والذب عن حوزة الإسلام، ومواقفه المشهودة العظام، ومقارعته الأعداء، والاستقلال بعظم الأعباء، فرأيناه أحق بملابس الإنعام، وبما جبى به من الكرامة وافر الأقسام، ففوضنا إليه أمور الشام»[١].

أما ابن القلانسي فيذكر المنشور كاملاً وهذا نصه[٢]:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا منشور أمر بإنشائه السلطان المعظم غياث الدنيا والدين، أطال الله بقاءه، وأعز أولياءه، ونصر لواءه: للأمير الأصفهسلّار[٣] الأجل، الكبير، ظهير الدين أتابك، أدام الله تأييده، لِمَا بان تمسكه من الطاعة بأحكم علائقها واعتصامه من الخدمة بأوكد وثائقها، وانتهاجه من المشايعة[٤] أقوم مسالكها، واعتماده أفضل طرائقها، وأَجْلت التجارب منه عين الناصح الأريب[٥] والمهذب اللبيب[٦] المتدرج في مراقي الرتب السنية، بالمساعي الرضية، والمحرز أحاظي القرب الخطيرة بالآثار الشهيرة، المشهودة موافقة في قود الجماهير العظام، والذب عن حوزة الإسلام، والتجرد لمظافرة الأولياء، ومقارعة الأعداء والاستقلال بمعضلات الأعباء، الجامع إلى خصائص هذه الأسباب والإلمام بخدمة الأبواب، والتحقق بزمر الحشم والأصحاب، المستقل بنصحه، المنخول بدلائه المقبول،

---

(١) سبط ابن الجوزي: ج١٣ ص٣٥٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٣١٨-٣٢٣.

(٣) الأصفهسلار: وترسم أيضاً اسفهسلار وهي الأكثر شيوعاً.

(٤) المشايعة: المتابعة. ابن منظور: اللسان ج٥ ص٢٥٠.

(٥) الأريب: أي ذو فطنة. المصدر نفسه: ج١ ص١١٧.

(٦) اللبيب: العاقل. المصدر نفسه ج٨ ص١٤.

ووسائله المشفوعة توالدها بالطوارف وشوافعه المنصورة سوالفها بالأوانف أن يزاد في الإنافة بقدره، والإشادة بذكره، ويستخلص تخلية صدره، بتفخيم أمره، وتجدد الصنيعة عنده بما يكون لواجب حقوقه قضاء، ولمصالح مساعيه كفاء، ولمحله المرموق لائقاً، ولموضعه من الدولة مضاهياً مطابقاً، فرأيناه أحق من أُفضيت عليه ملابس الإنعام، وحُبي من الكرامة بأوفر الأقسام، ورُفِع من مراتب الاحتباء والاختصاص إلى الذروة والسنام ورشح لكفاية المهام، وتدبير الأمور الجسام وأُوطئ عقبة الكماة الأنجاد ورُدّ إلى إيالته الأمصار والأجناد رسمنا أن نُجدد له هذا المنشور بإمارة الشام، ونقرر عليه جميع ما دلّت عليه المناشير المنشأة المتضمنة لأسامي البلاد الموجبة له، صارت رسمه مهما يجري معها، ويضاف إليها من النواحي والضياع والحصون والقلاع، حسب ما أورد ذكره مفصلا في هذا المثال، وجعلناها نعمة مصونة من الارتجاع، وطعمة محمية من الانتزاع، قلّدناه في عامة تلك البقاع: أعمال الحرب، والمعاون، والأحداث والأخرجة والأعشار وسائر وجوه الجبايات والعروض والإعطاء والنفقة في الأولياء، والمظالم والأحكام، وسائر المستظهر عليه بنظر الولاة الكفاة والنصحاء الثقاة، رعاية لحقوقه اللازمة، ومحافظة على أذمته المتقادمة وثقة منه باستدامة النعمة، وارتباطها بالتوفر على شرائط الخدمة، واستدعاء مزيد الإحسان، واستيفاء عوائد الاصطناع بدوام النصح، وفضل الاستقلال والاضطلاع والله تعالى يجزينا على أحسن عوائده، بإصابة شاكلة الصواب في اختيار الأولياء، ويُلهمنا الرشد في مرامي الأفكار، ومواقع الآراء، ولا يخْلينا في اصطفاء من نصطفيه واجتباء من نجتبيه من مساوقة التوفيق لما نرتاده ونرتئيه.

أمرناه بتقوى الله وطاعته، واستشعار خيفته ومراقبته والالتجاء منها إلى

الحصن الأمنع، والظل الأمتع والاستظهار منها بالذخر الأتقى، والحرز الأوقى، والاحتراس من هواجس الهوى باعتلاق عروتها الوثقى، وإدراع شعارها الأتقى، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[١] وأمرناه أن يسير فيمن قبله من الأولياء والحشم أجمل سيرة، ويحملهم بحسن السياسة على أفضل وتيرة ويسلكهم مسلكاً وسطا بين اللّين والخشونة، والسهولة والوعورة، ويشعر قلوبهم من الهيبة ما يقبض المتبسط ويردع المتسلط ويرد غرب الجامح ويقيم صعر الجانح، ويخص منهم ذوي الرأي والحنكة والثبات والمسكة بالمشاورة والمباحثة، ويستخلص نخائل صدورهم، عند طروق الحوادث بالمفاوضة والمنافثة[٢] ويستعين بثمار ألبابهم ونتائج أفكارهم على دفاع الملم وكفاية المهم، ويتناول سفهاءهم وذوي العيث والفساد منهم بالتقويم والتهذيب، والتعريك والتأديب، ويُردهم عن غلوائهم بالقول ما كفى، واحراز النصح ما أجدى وأغنى، ومن زاده الأناة والحلم والاحتمال والكظم تمادياً في العدوان، وتتابعاً في الطغيان عركه[٣] عرك الأديم وتجاوز به حد التقويم إلى التحطيم، متيقناً أن إعطاء كل طبقة ممن تشمله رعايته، وتكنفه إيالته حقها من قوانين السياسة إرهاقاً لبصيرة القارح المتماسك وكفا لغرب الحرج المتهالك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٩.

(٢) المنافثة: نفث أوحى وألقى. النهاية لابن الأثير، نقلاً عن ابن القلانسي: حاشية (٢) ص٣٢٠.

(٣) عركه: دلكه. ابن منظور: ج٦ ص٢١٠.

(٤) سورة الأنفال الآية ٥٨.

وأَمَرناه أن يوكل بأمر الثغور المتاخمة لأعماله والمصاقبة[١] لبلاده عيناً كالئة[٢] وأذناً واعية، وهمة للصغير والكبير في مصالحها مراعية، فيشحنها[٣] بذوي البأس والنجدة المذكورين بالبسالة، والشدة المعروفين بالصريمة[٤] والغناء، والصبر عند اللقاء، والبصيرة بمكابدة الأعداء، ويستظهر لهم باستجادة الأسلحة والآلات والاستكثار من المير[٥] والأقوات، ويناوب بينهم في مقارهم، مناوبة تجم المكدود[٦] وتريح المجهود، وتدر عليهم الأرزاق عند الوجوب والاستحقاق، ليقوم أودهم، ويقل لددهم، وتحسن طاعتهم، وتلين مقادتهم، ويكثف عددهم وعدتهم، وتشتد على الأعداء شوكتهم، ويغيظ الكفار زيهم وشارتهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٧].

وأمرناه أن يأخذ نفسه وأصحابه بالثبات والصبر عند قراع السيوف بالسيوف، وذلوف الزحوف بالحروف، ويرخصوا أنفسهم في ابتغاء مرضاة الله والذب عن حوزة الدين، والمحاماة عن بيضة الإسلام والمسلمين، ويحتاط مع ذلك لنفسه وأصحابه، ولا يقدم بهم على غرر، ولا يفسح لهم في ركوب خطر إلا بعد الأخذ بالحزم، واستعمال الرفق في الحذر، ويكون إقدامهم على بصيرة تامة، لا يقتحم

(١) المصاقبة: الصقب أي القرب. المصدر نفسه: ج٥ ص٣٦٢.

(٢) كالئة: كلأك أي حفظك وحرسك، وأيضاً يقال عين كلوء أي إذا كانت ساهرة. ابن منظور: ج٧ ص٧٠٣.

(٣) يشحنها: قال تعالى «في الفلك المشحون» أي المملوء، وشحن البلد بالخيل أي ملأه. المصدر نفسه: ج٥ ص٤٦.

(٤) الصريمة: أي العزيمة. المصدر نفسه: ج٥ ص٣٢٣.

(٥) المير: الميرة الطعام. المصدر نفسه: ج٨ ص٤١٠.

(٦) المكدود: الكد الإتعاب، ويكده كدًّا: أتعبه، ورجل مكدود أي مغلوب. المصدر نفسه: ج٧ ص٦١٠.

(٧) سورة الأنفال الآية ٦٠.

معها غرة، ولا تضاع فرصة، ولا يحجمون إذا احمر الناس، واشتد المراس عن تورد المعركة، ولا يلقون بأنفسهم إذا حمي الوطيس، والتقى الخميس بالخميس إلى التهلكة، قال الله جل وعلا : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[٨].

وأمرناه أن يصل جناح ضمانه بالوفاء، ويشد أركان عهده بالثبات، ويصون ذمته عما يحفزها، ويشفق عليها مما يحيلها ويغيرها، ويذهب مع دواعي الصدق، ويصير على تكاليف الحق، ولا يروع لهم سرباً أمّنه، ولا ينقص شرطا ضمَّنه، ولا ينكث عهداً أبرمه، ولا يخلف وعدا قدّمه، ولا يتجافى عمن يلوذ بعقوته[٩] ولا يأبى قبول السلم ممن اتقى بصفحته[١٠] قال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولًا ﴾[١١] وقال جل من قائل: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾[١٢].

وأمرناه أن يعم رعاياه القارة والمارة بالأمن العائد عليهم بسكون الجأش، وسعة المعاش، ويحوطهم في متوجهاتهم ومتصرفاتهم، حياطة تكنفهم من جميع جهاتهم، ويحمي نفوسهم وذراريهم وأموالهم، ومعائشهم، حماية ترد كيد الظالم، وتقبض يد الغارم[١٣] وتخرج ذوي الريب من مظانهم، وتحول بينهم وبين عدوانهم، وتُجري حكم الله فيهم، وتقيم حدّه على من سفك فيهم دماً، وانتهك محرماً، أو أظهر شقاقاً وعناداً، أو سعى في الأرض فساداً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن

---

(٨) سورة الحج الآية ٧٨.

(٩) قوته: العقوة والعقاة أي الساحة وما حول الدار، وعقوة الدار: ساحتها. يقال نزل بعقوته. والمقصود حوله وقريب منه. ابن منظور: ج٦ ص٣٧٩.

(١٠) صفحته: صفح الإنسان أي جانبه وناحيته. المصدر نفسه: ج٥ ص٣٤٤.

(١١) سورة الإسراء الآية ٣٤.

(١٢) سورة الأنفال الآية ٦١.

(١٣) غارم: الغرم أي الدين، ورجل غارم أي عليه دين. المصدر نفسه: ج٦ ص٦١٢.

يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

وأمرناه أن ينظر في أموال الرعايا أتم نظر وأوفاه، ويسأل عن ظلاماتهم أبلغ سؤال وأحفاه، ويستن بالسنة العادلة فيهم، ويمنع أقوياءهم عن تهضّم مستضعفيهم، ويحمل من تحت يده على التعادل والتناصف، ويصدهم عن التغاضب والتظالم، ويقر الحقوق مقارها، عند وضوح الحجة، وارتفاع الشبهة، ويختار لهم من العمال والولاة أسدهم طرائق، وأقومهم مذاهب، وأحمدهم خلائق، ويأمر كلاً منهم أن لا يغير عليهم رسماً، ولا يتوي[٢] لهم حقاً، ولا يسومهم في معاملاتهم خسفاً، ولا يحدث عليهم من يدع الجور رسماً، ولا يرتكب منهم ظلماً، ولا يأخذ منهم براً بأثيم، ولا بريئاً بسقيم، ويقنع منهم في إخراجاتهم ومقاساتهم وقسوطهم ومقاطعاتهم بالحقوق المستمرة، ويحملهم في العدل على القواعد المستقرة، ويستقرىء آثار الولاة قبله، فما طاب منها، وحسن اقتفاؤه اقتفره[٣] وما ذمّ منها واستنكره أماطه وغيّره.

ويعتقد أنه مسؤول عما اكتسب واجترح ومحاسب على ما أفسد وأصلح، قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴾[٤] فَلِيتلقّى هذه النعمة الكبيرة، والعارفة الخطيرة بإعظام قدرها، والقيام بواجب شكرها، وليتحقق أنها قاطنة بفنائه ما أحسن جوارها بخالصة نصحه وولائه، وباقية عليه وعلى عقبه ما عملوا بأحكام هذا العهد،

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٣.

(٢) لا يتوي: لا يضيع ولا يهلك. ابن القلانسي: حاشية (٢) ص٣٢٢ نقلاًعن النهاية لابن الأثير.

(٣) اقتفره: أي تتبع أثره. المصدر نفسه: حاشية (٣) ص٣٢٢ نقلاً عن النهاية لابن الأثير.

(٤) سورة النجم الآية ٣٩-٤١.

وعنوا بتأكيد أسبابه، وأعلنوا بشعار الدولة، واستمروا على السنة المألوفة في إقامة الخطبة والسكة، وتمسكوا بولاء الدولة العباسية التي هي سنّة متبعة، وما عداها ضلالة مبتدعة، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[١] وأحسَنوا السيرة في عباده وبلاده، والله تعالى يمدنا وإياه في هذا الرأي الذي رأيناه، ويزلف من رضاه ويحمد فاتحته وعقباه، إن شاء الله تعالى.

وكتب في المحرم سنة عشر وخمسمائة.

وبعد استلام هذا المنشور توجَّه طغتكين «منكفئاً إلى دمشق على أجمل صفة، وأحسن قضية في سلامة النفس والجملة، وتزايد العز والحرمة، ودخلها يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من سنة عشر وخمسمائة»[٢].

*** ملاحظات على المنشور:**

وهناك ملاحظات عدة على هذا المنشور، نوردها كما يلي:

- هذا المنشور الذي أسعد ظهير الدين طغتكين كثيراً، لم تكن فيه أي شروط تحول دون حصوله على الأتابكية، والتفرد بالإمارة، وأن يصبح أميراً لا يقل عن أي أمير آخر في المنطقة، لأن المنشور عبارة عن إشادة به، وبشجاعته وبسالته، ثم نصائح له بتقوى الله والخوف منه عز وجل، ودعوة طغتكين للسير في السياسة على أفضل وتيرة، والوقوف إلى جانب المظلوم بوجه الظالم. كما دعاه إلى الاهتمام بالجهاد والثغور المتاخمة لبلاده، وإلى ضرورة الثبات والصبر في الحروب للدفاع عن الدين والبلاد، إضافة إلى الوفاء بالعهود والوعود، وكذلك النظر إلى أحوال الرعية، واختيار العمال المعروفين بالأخلاق الحميدة

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٢٣.

والكفاءة العالية، وغيرها من النصائح والأمور الأخرى.

- امتدح السلطان أتابك دمشق بأمور عدة منها: التمسك بالطاعة والذب عن حوزة الإسلام، «فرأيناه أحق من أفضيت إليه ملابس الإنعام وحبي من الكرامة بأوفر الأقسام، ورفع من مراتب الاحتباء والاختصاص إلى الذروة والسنام، ورشح لكفاية المهام وتدبير الأمور الجسام...».

- المنشور فتح الطريق من أوسع أبوابه لطغتكين وأبنائه لصعود سلم المجد، وتسهيل الطريق لابنه بوري، ومَنْ حوله من الأمراء في البقاء في إمارة دمشق إلى أن يشاء الله، وهو ما تحقق حيث لم تنته دولة آل طغتكين إلا على يد نور الدين زنكي في العام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م.

- المنشور فتح الباب لبقية الأمراء لإنشاء أتابكياتهم الخاصة بهم من خلال عباءة أمير سلجوقي صغير، ومن هذه الأتابكيات: دولة شاهات خوارزم التي أسسها نوشتكين عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، شاهات أرمينية (خلاط) التي أسسها سقمان القطبي عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م وهو يُنسب إلى قطب الدين إسماعيل حاكم مرند في أذربيجان، أتابكة ديار بكر، وأسسها سقمان بن أرتق عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، أتابكة ماردين، ومؤسسها نجم الدين إيلغازي بن أرتق عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، الزنكيون ومؤسس هذه الدولة زنكي بن أق سنقر عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م (وهذه الدولة هي أشهر الأتابكيات، وهي التي قاومت الفرنج وخرج من عباءتها صلاح الدين الأيوبي) أتابكة أذربيجان، ومؤسسها إيلدكز (مملوك السلطان مسعود السلجوقي)، أتابكة فارس، ومؤسسها سنقر السلغري عام ٥٣٤هـ/ ١١٤٨م، وأتابكة لورستان ومؤسسها أبو طاهر بن محمد عام ٥٣٤هـ/ ١١٤٨م، وغيرها

من الأتابكيات الصغيرة في أربيل وسنجار والجزيرة[(١)].

كما ذكر شاكر مصطفى ملاحظات عدة على هذا المنشور نوجزها فيما يلي[(٢)]:

١- أن السلطان لم يعط طغتكين أي لقب آخر سوى لقب أتابك بعد أن أعطاه الألقاب المعتادة لقادة الجيش السلجوقي «أي الأمير الأصفهسلار الأجل الكبير ظهير الدين..».

٢- سجَّل المبررات التي أعطت طغتكين حق الإمارة:

- أنه «بيّن تمسكه من الطاعة بأحكام علائقها» أي بالولاء السلجوقي الكامل و«اعتصامه من الخدمة بأوكد وثائقها» أي الاتفاق على دفع المقرر المالي عليه سنوياً للدركاء السلطانية.

- امتدح تجاربه وتدرجه في المراتب، فقد «... أجلت التجارب منه عين الناصح الأريب والمهذب اللبيب في مراقي الرتب السنية بالمساعي الرضية».

- «مواقفه في قود الجماهير العظام (قيادة الجيوش الكبيرة) والذب عن حوزة الإسلام (أي الجهاد)».

- «الاستغلال بمضلعات الأعباء (المران الإداري) الجامع إلى خصائص هذه الأسباب، والإلمام بخدمة الأبواب والتحقق بزمر الحشم (معرفة مراسم القصور)».

- أن «يزداد في الأنافة بقدره... وتفخيم أمره وتجدد الصنيعة عنده بما يكون لواجب حقوقه قضاء ولمصالح مساعيه كفاء...» أي أن ذلك كان بطلب

(١) مصطفى: طغتكين ص٥٤-٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٣-٧٤.

من طغتكين بسبب افتقاره إلى:

أ- «و... رسمنا أن نجدد له هذا المنشور بإمارة الشام ونقرر عليه جميع ما دلَّت عليه المناشير السابقة المنشأة المتضمنة لأسامي البلاد الموجبة له صارت رسمه مع ما يجري معها ويضاف إليها من النواحي والضياع والحصون والقلاع... وجعلناها نعمة مصونة من الارتجاع».

ب- «قلدناه في عامة تلك البقاع أعمال الحرب والمعاون والأحداث والأخرجة والأعشار وسائر وجوه الجبايات والعروض والإعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم والأحكام وسائر المستظهر عليه بنظر الولاة والكفاة والنصحاء الثقاة».

وإذا كانت هذه الفقرة تحدّد سلطان الأمير في النظام الأتابكي-وهي لا تفترق إلى حد كبير عن سلطة أي أمير في نظم الأمراء المستقلّين- فقد اشترط فيه أن «استدامة النعمة مرتبط بالتوفر على شرائط الخدمة» أي الاستمرار في القيام بالواجبات المالية.

٣- وأمَّا الشروط الأخرى الواردة بعد ذلك من: الحكمة، والحزم في السياسة الداخلية، والعناية بالثغور والجند والجهاد والوفاء بالعهود وبسط الأمن للمستقرين والتجار، والعدل واختيار العمال...إلى آخر ذلك ما ورد في فقرات متتالية تبدأ بكلمة «وأمرناه» فإنها ليست شروطاً بقدر ما هي نصائح للزينة. وليست عهوداً متفقاً عليها، لكنها تبرئة دينية وجماهيرية لوجدان السلطان المسؤول عن رعيته حين يعهد بها إلى راع آخر بهذا الشكل الواسع من السلطات المطلقة.

٤- وأمَّا منْح السلطان الأتابكية الحق الوراثي، فيَرد في الفقرة الأخيرة من المنشور، وهي ليست فقط النقطة المهمة الثانية فيه، ولكنها أيضاً الفقرة

التي تعطي المنشور أهميته الخاصة وتجعله مولد النظام الأتابكي الوراثي تقول «..وليتحقق (طغتكين) أنها (هذه النعمة) قاطنة بفنائه ما أحسن جوارها بخالصة نصحه وولائه. وباقية عليه وعلى عقبه ما عملوا بأحكام هذا العهد وغنوا بتأكيد أسبابه، واستمروا على السنة المألوفة في إقامة الخطبة والسكة، وتمسكوا بولاء الدولة العباسية التي هي سُنة مُتبعة وما عداها ضلالة مبتدعة، وجاهدوا في الله حق جهاده وأحسنوا السيرة في بلاده وعباده».

٥- ولعلنا نسجل هنا ملاحظة عابرة أن تحويل المنصب إلى الشكل الوراثي لم يكن غريباً في ذلك العصر، فإن المناصب الأقل شأناً من الإمارة كانت تتحول على الغالب منذ ذلك العصر، وحتى العهد العثماني إلى الشكل الوراثي: كمنصب القاضي والرئيس والشحنة والحاجب والكاتب وخطيب الجامع والمدرس فيه والإمام، وذلك في مختلف مناطق الشرق الإسلامي.

*** وفاة الأتابك طغتكين:**

وبعد حصوله على الإمارة بشكل رسمي، استمر الأتابك ظهير الدين طغتكين يقاتل الصليبيين بغض النظر عن نواياه، أو الأخطاء التي ارتكبها إلى أن وافته المنية عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م عن عمر يناهز الثمانين عاماً تقريباً، ويصف ابن القلانسي حاله بقوله: «في هذه السنة اشتد المرض بظهير الدين أتابك، وطال به طولاً أنهك قوته، وأنحلَّ جسمه، وأضعف منته وأشفى منه على نزول ما لا يدفع بحيلة، ولا يمنع بقوة»[١].

وقال عما فعله عندما استشعر بدنو أجله: «فأحضر ولده الأمير تاج الملوك وأمراء دولته، وخواصه، وأهل ثقته، وأعيان عسكريته، وأعلمهم بأنه قد أحس

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٥٤.

من نفسه بانقطاع الأجل، وفراغ المهل، وخيبة الرجاء من البقاء والأمل، ولم يبق غير الوصية بما يعمل عليه، ويُدبِّر به الأمر بعدي، وينتهي إليه، وهذا ولدي تاج الملوك بوري هو أكبر ولدي، والمترشح للانتصاب مكاني من بعدي، والمأمول لسد ثلمة فَقْدي، ولا أشك في سداد طريقته، وإيثاره لفعل الخير، ومحبته، وأن يكون مقتفياً لآثاري في حفظ قلوب الأمراء والعسكرية، وعاملاً على مثالي في أنصاف الأعيان، والرعية، فإن قَبِل وصيتي هذه، ونهج السبيل المرضية في بسط المعدلة، والنصفة، في الكافة، وأزال بحسن سياسته عنهم أسباب الوجل والمخافة، فذاك الظن في مثله، والمرجو من سداده، وجميل فعله، وإن عدل عن ذاك إلى غيره، وحاد عن ما يؤثر من السداد في سرّه، وجهره، فها هو مشاهد لهذه الحال، ومتوقع لمثل هذا المآل. فقال (أي بوري): بل أوفى على المراد، ولا أتعدى سبيل السداد والرشاد، فوكد الأمر عليه في ذلك تأكيداً، فَهَمَه منه وقَبله عنه[1].

ويكمل ابن القلانسي: «ثم توفي إلى رحمة الله ضحى نهار يوم السبت لثمانٍ خلون من صفر من السنة، فأبكى العيون، ونكأ القلوب، وفت في الأعضاد، وفتت الأكباد، واشتد الأسف لفقده، والجزع عليه ولم يُسمَع إلا متفجّع له، وذاكر لجميل أفعاله وشاكر لأيامه»[2].

ثم نعاه ابن القلانسي بقوله: «وقام ولده تاج الملوك بوري بالأمر من بعده، وأحسن السيرة في خاصه ورعيته، وجنده، فلو كانت مجاري الأقدار تدفع إليه عن ذوي المناصب والأخطار، لكان هذا الأمير السعيد الفقيد أحق من تخطأته

(١) المصدر نفسه: ص٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٥٤.

المنايا، ولم تلم بساحته الرزايا وأبقته الأيام لها رتبةً تتباهى بها، وحليةً تتنافس بها، إلا أن الله تعالى لا يغالب أمره، ولا يدافع حُكمه، ولا بد من تمام ما سبق به علمه، وحدوث ما تقرر نفاذه في خلقه، لأن الموت غاية الحيَوَان، ونهاية ما يكون من مصير الإنسان. وقد كان هذا الأمير السعيد قد بالغ في استعمال العدل والكفّ عن الظلم وأعاد على جماعة من الرعية أملاكاً في ظاهر البلد جمَّةً دائرةً، أُغتُصِبت منهم في زمن الولاة الظالمة، وقُبِضت عنهم في زمن العتاة الجبابرة، وجرت عليهما أحكام المقاسمة، وعتت الأيدي العادية الغاشمة، فأعادها إلى خراجها القديم المستقر، ورسمها السالف المستمر، ورفع عنها مواد الجور والعدوان، وحسم عن مالكيها أسباب التأول في كل مكان، وأوان، فأحرز بذاك صالح الدعاء وجميل الشكر والثناء[1].

(١) المصدر نفسه: ص٣٥٤-٣٥٥.

النتـائـج

* ظهير الدين طغتكين شخصية متجددة وموجودة في كل عصر من خلال شخوص آخرين، فدائماً ما تكون هناك شخصيات تبحث عن القوة والسطوة من خلال سيطرتها على السلطة، وتسعى إلى القبض عليها والتمسك بها مهما كلف الأمر.

* وصفه الكثير من المؤرخين بالشجاع والقوي وبالهيبة أيضاً، لكن لم يصفه أي مؤرخ بالعدل والزهد والتقوى والورع، وهو ما يؤكد أنه يختلف عن كل القادة الذين جاؤوا بعده بسنوات مثل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهما الذين أعطوا الجهاد معنى مختلفاً عن المعنى السائد قبلهم، فأعادوا للجهاد حقيقته ونصاعته ومعناه الحقيقي، وكان إخلاصهم لهذه القضية هو الذي جعلهم ينجحون في فتح بيد المقدس في زمن صلاح الدين الأيوبي.

* طغتكين صعد من الهاوية إلى المجد، ومن العبودية إلى الملك، بعد أن تطبع بطبع سيده تتش، وقتل الكثير من الأشخاص الذين اعتقد أنهم يقفون في طريقه.

* رغم وجود العديد من الشخصيات التي أخلصت لقضية الجهاد الإسلامي، إلا أن ظهير الدين طغتكين كان في شخصه وتصرفاته معبراً عن زمانه وعصره، ومن ثَمَّ لم يكن هو الوحيد الذي كان يتعاون مع الصليبيين ضد المسلمين، ولم يكن الوحيد الذي قدم مصلحته الشخصية على مصلحة الأمة،

لكنه كان الأكثر قوة من بينهم، وكان يمكنه أن يتميز عنهم، من دون أن ينجرف وراء المصالح الشخصية.

* الأتابك ظهير الدين طغتكين، استطاع أن يفرض نفسه بقوة على الساحة السياسية، كشخصية حازمة وحاسمة في دمشق، وكشخصية كشرت عن أنيابها بذكاء من أجل السيطرة الكاملة على دمشق، وذلك من خلال الأحداث التي تلت موت دقاق، وكذلك بروزه كشخصية عسكرية قادرة على الدفاع عن مصالحه والمكانة التي بلغها في دمشق في ظل التجاذبات والصراعات السياسية، والأطماع الصليبية التي أخذت في ابتلاع الكثير من المدن الإسلامية الكبيرة والصغيرة على حد سواء. وحافظ على دمشق من هذا الانزلاق، كما أصبح الرقم الصعب في مجمل الأحداث، حتى أنه جعل الجميع يحسبون له ألف حساب، لاسيما الفرنج. وكان هذا يعتمد على المواقف التي يتخذها، خصوصاً عندما يقاتل إلى جانب المسلمين ضد الصليبيين.

* السنوات العشر، أي من عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م إلى ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، قاد ظهير الدين دمشق إلى إعادة ترتيب صفوفها وأوضاعها الداخلية باقتدار، في ظل استمرار الصراع بين ابني تتش دقاق ورضوان، وكذلك الصراع بين السلاطين السلاجقة، لا سيما بين بركيارق ومحمد، وهو ما جعل السلطنة السلجوقية غارقة في الفوضى، كما استطاع طغتكين الدفاع عن دمشق من أطماع الصليبيين، تارة بمقاتلتهم، وتارة أخرى بالهدنة معهم، وتارة ثالثة بالوقوف إلى جانبهم. رغم عدم قناعتنا بتعاونه مع الصليبيين ضد المسلمين.

* تغاضى المؤرخون عن الجرائم التي ارتكبها الأتابك، رغم أنهم ذكروا الكثير منها في مجمل رواياتهم للأحداث، من دون أن يشيروا بأصابع الإتهام

إليه، ورغم أن كل الدلائل والمؤشرات كانت تؤكد أنه المتهم الأول فيها، وربما مقاتلته للصليبيين ودفاعه المستميت عن دمشق شفعت لديهم عن كل أخطائه وجرائمه.

* تعاونه مع الصليبيين ضد المسلمين في مرحلة من المراحل، كان سبة في جبينه، وهو ما جعل الذهبي يقول عنه: «خرمة» وهذا التعاون كان يؤكد أنه على استعداد لفعل أي شيء، وكل شيء من أجل المحافظة على المكاسب التي حققها، والأمجاد التي بلغها في دمشق، ومع كل ذلك فإن وجوده كان ضرورياً لاسيما أنه كان نداً قوياً للصليبيين، حتى جعل من دمشق قوة كبيرة يهابها الجميع.

* صفاته ومواهبه الكثيرة التي جعلت سيده تتش بن ألب أرسلان يختاره كقائد على جيشه وهو في ريعان الشباب، إضافة إلى الخبرات التي اكتسبها، هي نفسها التي جعلت منه شخصية بارزة حتى أوصلته إلى سدة الحكم في دمشق، حتى اعترف به السلطان السلجوقي بصفة رسمية ملكاً على دمشق.

* الكثير من المؤرخين القدامى تناسوه وتجاهلوه في مؤلفاتهم، وكما يقول الدكتور شاكر مصطفى أن ابن خلكان على سبيل المثال في كتابه وفيات الأعيان، وابن العديم في بغية الطلب، وغيرهما لم يفردوا له صفحات خاصة له ولأسرته كما فعلوا مع الكثير من الشخصيات الأخرى الأقل شأناً منه، بل وضعوه مع سيده تتش.

* رغم أنه أسس مملكة دمشق، وحكمها بصفته أتابكاً منذ عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ثم تفرد بحكمها بعد موت دقاق بن تتش من عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م إلى وفاته عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م، ومن بعده حكم أولاده وأحفاده حتى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م حين أخذها منهم نور الدين زنكي، أي أن دولته استمرت نحو

٦٠ عاماً تقريباً، رغم كل ذلك لم يطلق أحد على دولته اسم الدولة الطغتكينية أو الظهيرية كعادة ذلك العصر -كما يقول شاكر مصطفى-.

* طغتكين ما زال حتى اليوم لدى الكثير من غير المختصين شخصية مجهولة، رغم قتاله الصليبيين لفترة طويلة، ولكن يبدو، وكما قال النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب: «أنه لم يفتح بلداً» ربما هذا السبب هو الذي جعله مجهولاً لدى الكثيرين.

* نترك للقارئ الحكم على ظهير الدين طغتكين من خلال سرد أحداثه وأحداث عصره، من دون أن نسقطها على أي عصر آخر، فمحاكمته أو محاسبته على مواقفه يجب أن تتم وفق هذا المنطق وهذه الرؤية فقط، ولا يمكن أن تتجاوزها مطلقاً حتى يكون الحكم عادلاً.

المصادر والمراجع

أولا. المصادر.

١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

- الكامل في التاريخ، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة القاهرة.

٣- ابن أبي الهيجاء: الأمير عز الدين محمد بن أبي الهيجاء الأربلي.

- تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم طباعة رياض الصالحين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤- ابن الجوزي: أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية بيروت.

٥- ابن الحنبلي: أبي الفلاح عبد الحي بن العماد.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦- ابن العبري: أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي.

- تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧- ابن العديم: الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق المهدي عيد الرواضية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، لندن، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٨- ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي.

- الذيل المذيل على تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٧م.

٩- ابن الوردي: زين الدين عمر.

- تاريخ ابن الوردي أو تتمة المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحيدرية، النجف الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٠- ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثانية مصورة عن الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١١- ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي.

- صورة الأرض، المكتبة الحيدرية، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

١٢- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد.

- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به. عادل سعد، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

١٣- ابن خلكان: أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف علي طويل، مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. وطبعة دار صادر بيروت ١٩٦٩، ج٢ تحقيق إحسان عباس.

١٤- ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم.

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة في سوريا، دمشق ١٩٩١م.

١٥- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

- تاريخ دمشق، تحقيق مأمون الصاغرجي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢٥، وتحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، دمشق ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١٧.

- تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر غرامة العمروي، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م الجزء الخامس والعشرون.

- مختصر تاريخ دمشق للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، مراجعة روحية النحاس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- تهذيب تاريخ دمشق، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٦- ابن كثير: أبو الحافظ الدمشقي.

- البداية والنهاية، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ.

١٧- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي الأنصاري.

- لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، طبعة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٨- ابن منقذ: أسامة.

- كتاب الاعتبار تحرير فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٩- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم.

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين شيال.

٢٠- أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

- تاريخ أبو الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمود أيوب، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- تقويم البلدان، دار صادر بيروت، مطبعة باريس ١٨٥٠م

٢١- الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي. اوك.

- معجم البلدان، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.

٢٢- الأصفهاني: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب.

- تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات، شارع باب الحلق ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

- البستان الجامع لتواريخ أهل الزمان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٢٣- البكري: عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٤- البيهقي: أبو الفضل محمد حسين.

- تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

٢٥- الحسيني: صدر الدين علي بن أبي الفوارس ناصر.

- أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق محمد إقبال، دار الوراق بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٧م

٢٦- الدواداري: أبو بكر بن عبدالله بن أيبك.

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وهو «الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية» تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢٧- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد عثمان.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

- العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

- سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠٠٨م.

٢٨- الراوندي: محمد، بن علي بن سليمان.

- راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، المجلس الأعلى للثقافة، سلسلة ميراث الترجمة المشروع القومي للترجمة العدد ٩٩٦، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

٢٩- الشيزري: عبد الرحمن بن نصر.

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، إشراف محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٣٠- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك.

- الوافي بالوفيات، تحقيق. أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٠م.

٣١- العظيمي: محمد بن علي الحلبي.

- تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤م.

٣٢- الفارقي: أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق. تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض.

- تاريخ الفارقي..الدولة المروانية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، منشور لأول مرة عن مخطوطات لندن وكمبردج واكسفورد، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

٣٣- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم د. فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر «١٣٠» مطبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة ٢٠٠٤م.

٣٤- الماوردي: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٣٥- المقدسي: شمس الدين محمد بن أحمد بن البناء الشامي.

- كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٠٩م.

٣٦- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه محمد مصطفى زيادة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

٣٧- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٣٨- اليافعي: عبد الله بن أسعد بن علي.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٩- سبط ابن الجوزي: أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله.

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق كامل سلمان الجبوري، قيس كاظم الجنابي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣.

ثانياً: المراجع العربية:

١- أبو النصر: محمد عبدالعظيم.

- السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم ٢٠٠٣،

٢- أبو سعيد: حامد غنيم.

- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٣- السيد: فؤاد صالح.

- معجم الألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

- مؤسسو الدول الإسلامية، مكتبة حسن العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٤- الوزنة: يحيى بن حمزة.

- مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة ٢٠٠٧م.

٥- الشمري: غانم شيحان جويعد الخليل.

- الزنكيون تاريخ دولة وقصة جهاد، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٦- جوني: وفاء.

- دمشق والمملكة اللاتينية منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين، دار الفكر، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٧- حسن: حسن إبراهيم.

- تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي، الكتاب الذهبي مؤسسة روز اليوسف، القاهرة ٢٠٠٣م.

٨- زكار: سهيل.

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، «الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية» الجزء الأول، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٠م (مع مجموعة مؤلفين).

٩- شاكر: محمود.

- التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الجزء السادس الطبعة السادسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٠- طقوش: محمد.

- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١١- عاشور: سعيد عبد الفتاح.

- الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٥م.

١٢- غنام: رياض.

- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى، يناير ٢٠١١م.

١٣- مصطفى: شاكر.

- موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، فبراير ١٩٩٣م.

- طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكي، بحث في مجلة كلية التربية والآداب، جامعة الكويت العدد الثاني، ديسمبر ١٩٧٢م.

ثالثاً: المصادر والمراجعة الأجنبية المترجمة:

١- الشارتري: فوشيه.

- الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢- الصوري: وليم.

- تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، دار الفكر بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣- بارتولد: فاسيلي فلاديميريتش.

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني رقم ٢٣٥، طبعة ١٩٩٦م.

٤- باركر: آرنست.

- الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.

٥- رنسيمان: ستيفن.

- تاريخ الحروب الصليبية، نقلها إلى العربية د. الباز العريني، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٦- زامبارو: إدوارد فون.

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه

زكي حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧- ماير. هانسن إبرهارد.

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

الفهرس

الموضوع	صفحة
كلمة الناشر	٥
الإهداء	٧
قالوا عن طغتكين	٩
المقدمة	١١
الفصل الأول: سيطرة السلاجقة على الشام	١٥
سلجوق بن دقاق، ميكائيل بن سلجوق، طغرل بك بن ميكائيل، عضد الدولة ألب أرسلان، معركة ملاذكرد، جلال الدولة ملكشاه.	
الفصل الثاني: طمع وطموح تتش	٤٧
تتش في دمشق، مسلم بن قريش، ابن مروان وابن قريش، ابن قتلمش وابن قريش، تتش وابن قتلمش، تتش وآق سنقر، وفاة جلال الدولة ملكشاه، بركيارق ينتزع السلطة، بركيارق ينتصر على تتش، محمد وبركيارق.	
الفصل الثالث: ظهور طغتكين	٨٧
النشأة والمولد، طغتكين حامل سلاحاً، البروز أيام تتش، زواجه وأبناؤه، تعليمه وثقافته، اشكالية الأسر.	
الفصل الرابع: الصراع بين دمشق وحلب	١١٩
العودة من الأسر، دقاق ورضوان، أعمال دقاق وطغتكين، تجميل صورة طغتكين، تخويف أرتاش، تأديب كمشتكين، موقف رضوان، سقمان وطغتكين، الملك الأخرس، خطة طغتكين الجديدة.	

الفصل الخامس: الحملة الصليبية الأولى وموقف طغتكين منها ١٧٩

إمارة الرها، إمارة أنطاكية، كربوقا يحاصر أنطاكية، البارة ومعرة النعمان، مملكة بيت المقدس، إمارة طرابلس.

الفصل السادس: الاغتيالات السياسية ٢٠٥

ساوتكين الخادم، الملك دقاق بن تتش، الطفل تتش بن دقاق، الوزير أبو النجم هبة الله، شرف الدين مودود، مسعود بن آق سنقر البرسقي، سقمان بن أرتق.

الفصل السابع: معارك طغتكين وتحركاته ٢٣٩

المعركة التي قتل فيها تتش، مواجهة الفرنج في شيزر، معركة أنطاكية، الهجوم على جيش تانكرد، التوجه إلى ميافارقين، معركة نهر الكلب، الهزيمة في طرطوس، الاستيلاء على الرحبة، الاستيلاء على حمص، القتال في بصرى وعسقلان، هدم حصن العال، طبرية، مقتل ابن أخت بلدوين، هزيمة طغتكين عند عرقة، إلى بغداد وبعلبك، إلى الرقة وقلعة جعبر، إلى حوران، إلى حلب وشيزر، إلى بانياس ثم الساحل عند صور، معركة طبرية أو الصنبرة، التوجه إلى أنطاكية، إلى حمص، التوجه إلى رفنية، إلى البقاع، إلى طبرية ثم عسقلان، إلى ماردين ثم حلب، معركة ساحة الدم، إلى معركة قنسرين، إلى طبرية، إلى الجليل والجولان، إلى حمص، إلى حماة، سقوط صور، إلى حلب، معركة مرج الصفر، اخماد الثورة ومرضه وسقوط رفنية، استفحال أمر الباطنة...إلخ

الفصل الثامن: الطريق نحو الأتابكية ٢٤٧

حلم الشرعية، حُسّاد طغتكين، ظهير الدين في بغداد، ولادة النظام الأتابكي، ملاحظات على المنشور، وفاة الأتابك طغتكين.

النتائج ٣٨١

المصادر والمراجع.. ٣٨٥